د. سهام هنداوي

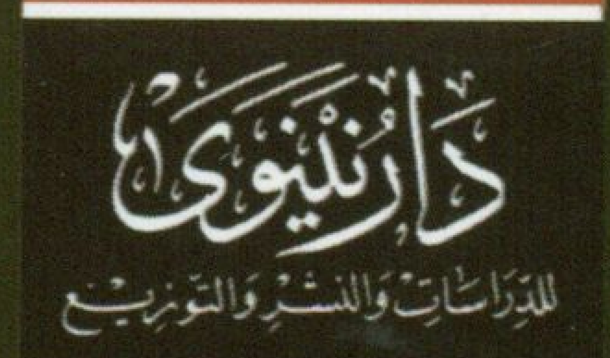
التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية

(١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م - ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م)

وثائق سرية



دراسات تاريخية



التطور التاريخي
للعلاقات الألمانية العثمانية

وثائق سرية

عنوان الكتـــاب: **التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية**
وثائق سرية
ما بين (1293 هـ -1327هـ/1876-1909م)
اســم المؤلـــف: **سهام محمد هنداوي**
عدد الصفحات: 340 ص
القيـــــــــاس: 17.5 ❖ 25 سم
الطبعـــة الأولى: 1000 / 2015 م - 1436 هـ
ISBN: 978-9933-536-01-5



سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية

وثائق سرية

ما بين (1293هـ-1327هـ/1876-1909م)

سهام محمد هنداوي



سبحانك لا علم لنا إِلا ما علَّمتنا إِنك أنت العليم

الحكيم



إهداء

إلى من كان أكبر عون لي بعد الله...

والدي الحبيب

وإلى من باتت تدعو لي وترعاني بحنانها...

أمي الغالية

إلى من هم سندي في هذه الحياة...

أخوتي وأخواتي

إلى من هم أملي ومستقبلي وإلى من أتمنى لهم كل التميز في الحياة....

أبناء أخوتي وأخواتي

سهام

المحتويات

مُقدّمة

تمثل الفترة موضوع البحث (1293/1327 هـ-1870/1909م) فترة هامة جداً على الصعيد التاريخي لتطور علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوروبية على جميع الأصعدة، وخاصّة علاقة الدولة العثمانية بألمانية تلك القوة الاستعمارية الناشئة على الساحة الدولية.

فلقد كانت حينها الدولة العثمانية تعيش مرحلة خطيرة جداً من صراعها مع القوى الاستعمارية العظمى في تلك المرحلة، من حيث الحفاظ على كيانها ووجودها، فقد تسابقت هذه القوى فيما بينها من أجل السيطرة على أكبر قدرٍ ممكن من ممتلكات «الرجل المريض» الدولة العثمانية.

وأمام هذه التحديات وقف أحد أكثر سلاطين بني عثمان إثارة للجدل والخلاف وهو السلطان عبد الحميد الثاني (1293/1327هـ - 1876/1909م) والذي اختلفت الآراء حول حقيقة مواقفه من المشكلات التي واجهت دولته في تلك المرحلة، وكيفية التصدي لها.

وبالمقابل ظهرت ألمانية كقوة سياسية جديدة منافسة على الساحة الدولية بزعامة شخصية عُرفت بالذكاء والحنكة والدهاء السياسي اتفق الجميع على تسميته «الرجل الحديدي» ألا وهو «بسمارك» والذي سعي ليجعل من دولته قوة عظمى في أوروبا والعالم، ثم جاءت شخصية ألمانيّة أكثر طموحاً وتطلعاً للتميز الألماني والتفوق في العالم وهو الإمبراطور «غليوم الثاني». ولقد كان لهذا الإمبراطور آراء سياسية مميزة دفعت بألمانيا إلى أن تتصدر الساحة الدولية في تلك الحقبة، وكانت بالفعل قوة سياسية يحسب لها حساب، والذي انتهى به الأمر إلى دفع ألمانيا إلى تكوين حلف سياسي عالمي أفضى بها إلى خوض حرب عالمية (1914-1918) خرجت منها مهزومة أمام قوى الاستعمار القديم[1].

---

(1) قوى الاستعمار القديم: إذا جاز التعبير عن قوى الاستعمار في تلك المرحلة الممثلة بـ(فرنسا - انكلترا - روسيا).

وانطلاقاً من هذه المعطيات انبثقت أهمية موضوع البحث هذا حول حقيقة وطبيعة العلاقات الألمانية العثمانية في هذه المرحلة التاريخية المذكورة بمختلف جوانبها، لاسيما النقاط التالية :

1- **الأمر الأول:** أهمية الدولة العثمانية وألمانية والعلاقات المتبادلة بينهما، باعتبار أن الدولة العثمانية كانت تمثل أكبر تجمع بشري للمسلمين الذين بلغ عددهم في تلك المرحلة ما يقارب ثلاثمئة مليون مسلم، والتي كانت تمثل كياناً يعتبره البعض استمراراً للخلافة الإسلامية التي بدأت بعد وفاة محمدﷺ.

والأمر الثاني: أنه في تلك المرحلة كانت الدولة العثمانية تمر بأخطر مراحل انحطاطها وتقسيمها والتآمر الدولي من أجل القضاء على أكبر إمبراطورية ودولة عرفها التاريخ، فلقد ازدادت التنافسات بين الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا-انكلترا-روسيا) من أجل إسقاط هذه الدولة واقتسام أملاكها فيما بينها.

أما الأمر الثالث: فهو أهمية ألمانيا تلك الدولة التي نجح زعيمها «بسمارك» في توحيد ولاياتها (36) وتشكيل الإمبراطورية الألمانية وتقديمها للعالم باعتبارها دولة قوية (سياسياً وعسكرياً واقتصادياً) قادرة على استلام زمام المبادرة في تحقيق التوازن الدولي في تلك المرحلة من خلال امتلاك صمام الأمان في القارة الأوربية وتأجيل قيام حروب فيما بينها، ومنع حدوث هذه الحروب بين الدول العظمى (فرنسا- انكلترا- روسيا ....) في كثير من الأحيان في تلك المرحلة (مؤتمر لبرلين وتزعم ألمانيا له 1878م).

2- الأهمية التاريخية للفترة الزمنية موضوع البحث (1876-1909م):

ترتبط أهمية هذه المرحلة بالطبع بأهمية أحداثها على كل المستويات: العثمانية، الأوروبية عامة ، الألمانية خاصة، وحتى العربية منها . فمن أهم هذه الأحداث التي مرت على الدولة العثمانية، الحرب الروسية-العثمانية (1876) والحرب اليونانية-العثمانية (1897) وانعكاس نتائج هذه الحروب على الدولة العثمانية من تدخلات وتداعيات داخلية، وقيام ثورات ضدها الحكم العثماني في كثيرٍ من المناطق الخاضعة للسيطرة

العثمانية، وخاصة مناطق البلقان وما نتج عن هذه التمردات من ردة فعل عثمانية بالقيام بالعديد من المذابح والمجازر خاصة ضد الأرمن.

وكان من ردات الفعل العثمانية أيضاً على هذه الأحداث، قيام الدولة العثمانية بعدة محاولات للإصلاح الدستوري، فقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني تحقيق شيءٍ من الديمقراطية داخل بلاده، وذلك استجابة لضغوط الدول الأوربية التي كانت تنادي بتحقيق العدالة والمساواة بين مختلف الفئات والطوائف الدينية داخل الدولة العثمانية، ولكن كل هذا المحاولات باءت بالفشل (ربما بسبب العقلية العثمانية،....).

ومن هنا كان الباب الأخطر الذي دخلت منه المشكلات الكبرى التي قوضت أركان الدولة العثمانية، وأدت بها إلى السقوط في النهاية، ومن أهم هذه المشكلات موضوع الامتيازات الأجنبية وازديادها في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة التي هي موضوع بحثنا.

أما بالنسبة للأحداث على الصعيد الأوروبي والعالمي، فقد كان أهمها التنافس الاستعماري بين الدول الكبرى، إذ سعت كل دولة إلى تأسيس إمبراطوريتها الاستعمارية ، في مناطق كثيرة من العالم (العالم الجديد-أفريقيا-آسيا) على حساب دماء الشعوب وقوتها وعلى حساب القوى السياسية الصغرى في العالم، فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر إلا وقد أصبحت هذه الدول (فرنسا-انكلترا-روسيا-إيطاليا-ألمانيا) من أكثر دول العالم تقدماً (اقتصادياً وسياسياً) وذلك بسبب سيطرتها على مقدرات الشعوب وخيراتها، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الصراع الاستعماري المحموم هو خوض حرب دموية هي الحرب العالمية الأولى التي أزهقت الكثير من الأرواح والأبرياء في العالم، وأدت إلى نشر ثقافة القوة العسكرية والتنافس من أجل التسابق بين هذه القوى الاستعمارية من أجل امتلاك أكثر أسلحة العالم فتكاً وقتلاً ودماراً، وإلى أن تكون الشعوب هي الضحية الوحيدة لهذا الصراع المحموم الذي مازال مستمراً إلى يومنا هذا. بالرغم من تبدل الأقنعة لوجوه استعمارية قديمة ألفناها وحفظناها كشعوب مقهورة عبر التاريخ.

ومن هذه المعطيات السابقة الذكر وإدراكي للأهمية التاريخية والزمنية لهذه الفترة فضلا عن ذلك الفضول المعرفي والرغبة في تقديم دراسة متواضعة في تحليل الأحداث وفهم الوقائع وحل أهم الإشكاليات المتعلقة بموضوع المبحث.

والغاية الثانية هي التعرف على أهم منعكسات هذه الأحداث على المنطقة العربية، وأخيراً وليس آخراً كان لتشجيع (الأستاذ المشرف الدكتور محمد الأحمد) ولغالبية أساتذة

الاختصاص في قسم التاريخ وخاصة (الأستاذ الدكتور محمود علي عامر) و(الأستاذة الدكتورة نجاح محمد) و(الأستاذة الدكتورة سمر بهلوان) الدور الأهم في المضي قدماً في دراسة هذا الموضوع.

أهداف البحث:

أمَّا عن أهداف البحث فهي بالدرجة الأولى دراسة وفهم طبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية وأسباب توطدها في تلك المرحلة التاريخية باعتبار أن هذه العلاقات لم يتم دراستها والتعمق في تفاصيلها من قبل بشكل تفصيلي أكاديمي آمل أن يكون في بحثي هذا، حيث أن الدراسات السابقة إما أفردت جزءاً صغيراً جداً لذكر هذه العلاقات أو التركيز على دراسة العلاقات للدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الأخرى من مثل العلاقات مع (روسيا-فرنسا-انكلترا) وكان يأتي ذكر العلاقات مع ألمانيا بشكل فقرات صغيرة مرفقة مع هذه الدراسات المذكورة.

هذا هو الهدف العام للبحث أما الأهداف الأخرى فهي:

1- التوصل إلى حقيقة المواقف الألمانية من المشكلات التي تعرضت لها الدولة العثمانية في أواخر أيامها وأسبابها.

2- التركيز على مشروع خط الحديد (*B.B.B.*) (بغداد. بيزنطة. برلين) وحقيقة إنشائه-دوره-خطورته-إيجابياته-سلبياته في المنطقة وتأثيره عليها.

3- دراسة أولى الهجرات اليهودية الألمانية إلى فلسطين وتأسيس المؤسسات والمدارس الدينية والمستعمرات الألمانية في تلك الفترة والدور الذي لعبته ألمانية كدولة في دعم هذه المستعمرات وتشجيع هذه الهجرات.

4- حقيقة الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي قدمته ألمانيا للدولة العثمانية وغاية هذا الدعم.

5- التركيز على زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية وإقامة علاقة الصداقة بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني، والغاية الحقيقية من هذه الزيارات وأهدافها.

وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي بشقيه الوصفي والتحليلي بالاستعانة بالجانب النقدي والتركيز بشكل خاص على الجانب التحليلي للأحداث التاريخية، وبما أن البحث سيعتمد على مجموعة من المصادر المختلفة التي تتضمن معلومات عن العلاقات

بين القوى الكبرى في تلك المرحلة، وأمام ضرورة كشف تطور الأحداث وتغيرها من مرحلة إلى أخرى لأغنى ذلك عن استخدام الطريقة الوصفية في البحث.

وباعتبار أن دراسة العلاقات الدولية بشكل عام مسألة شائكة ومعقدة وبخاصة فيما يتعلق بكشف حقيقة هذه العلاقات وغايتها، كان لابد من القيام بموازنة بين هذه العلاقات بعضها ببعض ومقارنتها وإيصالها بشكل وصفي واضح للقارئ.

وأما عن فصول البحث، فلقد تضمن البحث المعنون بـ(التطور التاريخي للعلاقات الألمانية-العثمانية ما بين (1293هـ /1327-1867/1909م) خمسة فصول:

1- **الفصل الأول:** الأوضاع الداخلية في كل من الدولة العثمانية وألمانية في تلك المرحلة، حيث بدأ الفصل بدراسة تمهيدية للفترة الزمنية السابقة وظهور المسألة الشرقية وأهم أحداثها ثم استعراض أهم أحداث المرحلة الزمنية فترة الدراسة في الدولة العثمانية، وكيف تسلم السلطان عبد الحميد الثاني الحكم وأهم الأعمال التي قام بها والأحداث التي جرت وعصفت بدولته على الصعيدين الداخلي والخارجي، ثم دراسة أهم أوضاع الإمبراطورية الألمانية خلال فترة الدراسة وقيام بسمارك بتوحيد الإمبراطورية الألمانية، وأيضاً سياسته على الصعيدين (الداخلي والخارجي) ثم تسلّم الإمبراطور غليوم الثاني للحكم في ألمانيا.

2- **الفصل الثاني:** العلاقات السياسية والعسكرية ومظاهر التقارب الألماني-العثماني في تلك المرحلة: (أسباب هذا التقارب-مظاهره-المعاهدات والاتفاقيات العسكرية-التبادل العسكري وتوريد السلاح الألماني والخبراء العسكريين الألمان للجيش العثماني-زيارات الإمبراطور غليوم الثاني وتفاصيل هذه الزيارات وحقيقتها والغاية منها).

3- **الفصل الثالث:** العلاقات الاقتصادية الألمانية-العثمانية: من حيث دراسة الفصل المشاريع الاقتصادية بين الدولتين وخاصة مشاريع سكة الحديد (مشروع *B.B.B.*) وتبادل البضائع والتجارة بين الطرفين.

4- **الفصل الرابع:** العلاقات الاجتماعية بين الدولتين (العلاقات الألمانية - الفلسطينية): استعرضت أهم الجاليات الألمانية في الدولة العثمانية، وخاصة اليهودية منها، والتركيز على المؤسسات الدينية التي بناها المهاجرون الألمان اليهود في فلسطين، ودعم الإمبراطورية الألمانية لها، والتركيز على دراسة

مشروع هرتزل الصهيوني الاستيطاني في فلسطين وعلاقة هرتزل بالإمبراطور الألماني غليوم الثاني.

5- أما **الفصل الخامس** والأخير فقد عنون (نتائج الدور الاستعماري الألماني في المنطقة، ومواقف الدول الأوروبية من مسألة التقارب الألماني-العثماني) وقد تضمن مواقف كلٍ من (فرنسا-بريطانيا-إيطاليا-روسيا) من هذه العلاقات، كما تضمن نتائج هذه العلاقات والمكاسب التي حصل عليها كل طرف من الآخر.

وختم البحث بخاتمة تضمنت خلاصة النتائج التي توصل إليها البحث.

دراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث:

1- وثائق الأرشيف العثماني (استنبول):

كانت من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث هي الوثائق العثمانية التي وفقني الله في السفر إلى استنبول والحصول على بعضها من الأرشيف العثماني هناك، عدد الوثائق خمسة وعشرون وثيقة تضمنت مواضيع (سياسية-اقتصادية-فلسطين) خاصة بالبحث، حيث تم تصويرها وترجمتها، فعلى الرغم من تعلمي اللغة التركية لحد ما، فقد واجهت صعوبة شديدة في ترجمتها فاستعنت ببعض الأصدقاء والمترجمين المختصين وترجمة جزء جيد منها استخدمتها في البحث.

2- وثائق الأرشيف العثماني (دمشق):

أما في المرتبة الثانية فكانت بعض الوثائق العثمانية الموجودة في دار الوثائق في دمشق والتي استفدت منها بشكل جيد وخاصة في الفصل الثالث والرابع، وكانت أسهل في استخدامها في البحث بالنسبة لي فقد كانت مترجمة ومحفوظة في سجلات خاصة في دار الوثائق.

3- مذكراتي السياسية-السلطان عبد الحميد الثاني:

طبعة مؤسسة الرسالة بيروت (1977) وكذلك النسخة للمذكرات التي قدمها وترجمها (د.محمد حرب) وهو من الكتب الهامة في البحث حيث اعتمد البحث عليه في كثير من الفقرات من أجل توثيق المعلومة وأخذ الشهادة التاريخية من صاحب العلاقة.

4- مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني:

نقله إلى العربية (أسعد داغر ومحب الدين الخطيب)، المطبعة السلفية، القاهرة، (1341 هـ) تضمنت المذكرات معلومات هامة جداً، وخاصة فيما يتعلق بموقف الإمبراطور من سياسة بسمارك والدولة العثمانية والدول الأخرى وكذلك تفاصيل الرحلة الإمبراطورية إلى الدولة العثمانية.

5- مذكرات تيودور هرتزل:

ترجمه أنيس صايغ، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت 1968، كانت من المصادر الأساسية في الفصل الرابع وخاصة فيما يتعلق بهرتزل ومخططاته الصهيونية.

6- كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية: تأليف محمد فريد بك المحامي:

وهو من المصادر الهامة التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ العثماني أن يستغني عنها، وكذلك كتاب (**تاريخ الدولة العثمانية، للأمير شكيب أرسلان**).

7- كتاب الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية: بقلم إبراهيم الأسود، تقديم خيري الذهبي:

وهو مصدر هام للحديث عن تفاصيل الرحلة الإمبراطورية (زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لدمشق في 14/ تشرين الأول/1898).

8- عصر السلطان عبد الحميد الثاني:

وهي من الدوريات الهامة التي اعتمد البحث عليها حيث بلغ عددها خمسة عشر عدداً وهي دورية أصدرتها مكتبة الهاشمية في دمشق للعام (1358 هـ /1939).

أما المراجع الهامة التي اعتمد عليها البحث

(ما بين عربية وأجنبية) فهي:

1- ألمانية والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين: تأليف عبد الرؤوف سنو، دار الفرات-بيروت، 2007م يعد الكتاب من أهم الكتب التاريخية في الوطن العربي التي درست تاريخ هذه المرحلة وطبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية

وتفاصيلها، ولقد أبدع المؤلف في شرح التفاصيل حيث اعتمد بشكل كبير على الوثائق الألمانية والعثمانية وقد كان الكتاب من أهم المراجع التي اعتمدت عليها في بحثي هذا.

2- **العلاقات الألمانية-الفلسطينية (من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تأليف علي محافظة، بيروت، 1981**، والكتاب ثاني أهم مرجع اعتمد عليه البحث بشكل كبير، حيث أوردت فيه تفاصيل هامة عن طبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية، موضوع البحث.

3- **دراسات في تاريخ أوروبة في العصر الحديث (تأليف راغب العلي، عبد الكافي الصطوف، وطليعة الصياح) منشورات جامعة دمشق**، أفادني الكتاب بشكل كبير في فهمي لتاريخ الدول الأوروبية وخاصة ألمانية في تلك المرحلة بالإضافة إلى كتب أخرى عربية مثل: (**تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، عمر عبد العزيز عمر**)، وكتاب (**أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية) تأليف هربرت فيشر، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى.**

4- **كتاب** (*iki Dost Hükümdar Sultan II AbdülHamid Kaiser II Wilhelm*) (الحكومتان الصديقتان): وهو من أهم المراجع الأجنبية التي استخدمتها في البحث، فقد كتب الكتاب باللغتين الألمانية والتركية وساعدني الأستاذ الدكتور المشرف محمد الأحمد مشكوراً في ترجمة أجزاء من هذا الكتاب واستخدمتها في أقسام كثيرة من البحث والكتاب يتحدث عن علاقة الصداقة التي ربطت السلطان عبد الحميد الثاني بالإمبراطور غليوم الثاني والزيارة الإمبراطورية للدولة العثمانية.

5- **كتاب** (*Türk-Alman ilişkileri, Kazim Karabekir*) **العلاقات الألمانية التركية**، وهو كتاب باللغة التركية ويتحدث عن العلاقات الألمانية العثمانية منذ بداية نشأة الدولة العثمانية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد أفرد المؤلف فصلاً كاملاً من العلاقات الألمانية التركية فترة حكم عبد الحميد الثاني.

6- **كتاب** (*Osmanli imperator luğünda Alman Nüfuzu*) كتاب يتحدث عن النفوذ الألماني في الدولة العثمانية وهو باللغة التركية للمؤلف: ألبير أورتايلي.

7- **كتاب الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)** للمؤلف أكمل الدين أوغلي، كتاب من

مجلدين من الكتب الهامة التي فصلت عن التاريخ العثماني بالجانبين الحضاري والسياسي.

8- **الدولة العثمانية (دولة إسلامية مفترى عليها)** كتاب للدكتور عبد العزيز محمد الشناوي بأربعة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية.

9- **كتاب (تاريخ الألمان)** المؤلف فايت فالنتين، كتاب مترجم للغة العربية، المركز الثقافي الألماني (غوته) دمشق.

وهناك الكثير الكثير من المراجع العربية والتركية والإنكليزية والمقالات والمجلات التي اعتمدها البحث، وأما عن الصعوبات فلقد واجهتني عقبات كثيرة أثناء عملية البحث جعلتني في كثير من الأحيان أظن أنه من الاستحالة إتمام هذه الرسالة وإخراجها على الصورة المقبولة، فهناك المشكلات على الصعيد الشخصي، والمشكلات على الصعيد العام وما تواجه بلدي الحبيبة سوريا من جراح وآلام انعكست آلامها على نفسيتي وكتاباتي ورغبتي في العمل والبحث، ولقد أخذت من صمودها وثباتها مثلاً وعبرة لكي أصمد وأثبت قدر المستطاع وأقدم عملاً عسى أن يكون في يوم من الأيام ذا فائدة، عندما - بعون الله - تتعافى أمي وحبيبتي سوريا ونبدأ - بعون الله - عملية البناء والنهوض من جديد .

وأخيراً وليس آخراً أتوجه بالشكر الكبير والجزيل لله أولاً ولأهلي ثانياً الذين رغم كل الآلام العذابات والهموم كانوا لي أكبر معين بعد الله في الاستمرار وحتى على المتابعة في دراستي وتحصيلي العلمي.

والشكر الكبير المحمل بالعرفان بالجميل إلى دكتوري المشرف

الأستاذ الدكتور محمد الأحمد

الذي صبر علي صبراً لا حدود له والذي كان مشجعاً ورافعاً لمعنوياتي في لحظات الإحباط واليأس.

ولن أنسى الأساتذة الكرام (الدكتور محمود عامر) بشكل خاص، و(الدكتورة نجاح محمد) و(الدكتورة سمر بهلوان) والذين لم يبخلوا علي في أي لحظة بالمشورة والنصيحة.

والشكر الموصول لجميع أساتذتي المحترمين في قسم التاريخ، وكذلك الشكر الجزيل لمكتبة الأسد والعاملين بها وشكر خاص جداً لمجمع اللغة العربية في دمشق والأصدقاء الأساتذة العاملين به لدعمهم الدائم لي وقيامهم بعملية التدقيق اللغوي للرسالة، وتنقيحها وتوجيههم الدائم لي.

كما أتوجه بالشكر إلى العاملين بدار الوثائق في دمشق وكذلك العاملين بالأرشيف

العثماني باستنبول ومكتبة (*Isam*) باستنبول لمساعدتهم الكبيرة لي أثناء وجودي في استنبول وكذلك الشكر والامتنان لأصدقائي الأتراك الذين ما بخلوا علي بالمساعدة أثناء وجودي في تركيا.

وأخيراً أشكر حبيبتي سوريا التي ألهمتني الصمود بصمودها الأسطوري وأقول لها حماك الله.

واعتذر عن التقصير في إعطاء هذا البحث حقه الكامل في الدراسة والتمحيص وهذا جهدي والحمد والمنة لله رب العالمين.

سهام محمد هنداوي

دمشق 2013/11/7

الفَصْلُ الأوَّل

تمهيد



لمحة عن تاريخ المسألة الشرقية

(1287/1188هـ ـ 1870/1774م)

يمكننا أن نُعرِّف المسألة الشرقية بأنها عبارة عن المشكلات والأزمات التي حدثت في الدولة العثمانية نتيجة ضعفها والأطماع الأوروبية بممتلكاتها وتدخل هذه الدول في شؤونها.

ويتطابق هذا المصطلح «المسألة الشرقية» مع جملة من الأحداث التي وقعت بين عامي (1774– معاهدة كوتشوك – قينارجه) (*kainarja*) و1923 (معاهدة لوزان«*Lusan*»)[٢] كنتائج وإجراء عملي تنفيذي لاقتسام مواقع النفوذ. وبرز التنافس واضحاً في هذه المرحلة بين الدول الأوروبية الكبرى على أن تصل كل واحدة منهم إلى غايتها وأهدافها على حساب السلطنة العثمانية: فمثلاً روسيا تدخلت بحجة حمايتها للمسيحيين الأرثوذكس والسلاف وكانت ترمي إلى مد سيطرتها على البلقان والوصول إلى البحر المتوسط والإنكليز يسعون إلى تأمين طريق الهند وبالتالي إلى السيطرة على الممر الذي يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندي، ومن هنا جاء اهتمامها بالبلدان العربية التي تقع ضمن تلك المنطقة.

وأما الفرنسيون فكانوا يريدون الدفاع عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى مسيحيي المشرق وبذلك كانوا يجدون أنفسهم في حالة مواجهة بحسب الظروف مع كل من الروس والإنكليز والنمسا.

أما النمسا فكانت خائفة من توسع النفوذ الروسي في البلقان ويحاولون إقامة سد هناك، وخاصة في البوسنة والهرسك.

(*2*) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، جزآن، ت، بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993، ج2، ص (5).

وأما ألمانيا التي ظهرت في وقت متأخر من هذه المرحلة، فكانت اهتماماتها بالدولة العثمانية منطلقة من سياسة (*Drang Nach Osten*): وتعني (الاندفاع نحو الشرق)[٣].

وفيما يلي نستعرض أهم هذه المشكلات في تلك المرحلة:

أولاً: معاهدة قينارجة[4] (*kainarja*) 1187هـ-1774م:

واستيلاء روسيا على بلاد القرم:

تولى السلطان عبد الحميد الأول[٥] الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث[٦]، وكانت الفوضى تعم البلاد، ثورات في الداخل وحروب في الخارج، فلم يكد السلطان يجلس على عرشه حتى أعلنت روسيا الحرب على السلطنة، وذلك انتقاماً لهزائمها الماضية[٧]، واستطاعت أن تحقق نصراً على العثمانيين في مدينة فارنا (*Varna*)[٨] في شرقي بلغاريا على البحر الأسود، فاضطر السلطان وصدره الأعظم إلى طلب الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا (1187هـ-1774م)[٩]، ووفق هذه المعاهدة - انسلخت بلاد القرم[١٠] وبلاد بوجاق[١١]، وبلاد قوبان عن السلطنة

(*3*) روبير مانتران، المرجع نفسه، ص(5).

(*4*) قينارجة (*Kajnarja*): وتقع إلى الجنوب الشرقي في سيلستريا في بلغاريا. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليَّة العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط9، دار النفائس، بيروت، ص342.

(*5*) عبد الحميد الأول: هو ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة (1137هـ -1724م) وقضى مدة حكم أخيه مصطفى الثالث محجوزاً في سواتيه استلم الحكم ما بين (1187-1203هـ)=(1773-1788م) مدة حكمه 15 سنة وثمانية شهور تولى بعده سليم الثالث(محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، ص341، ص362).

(*6*) السلطان مصطفى الثالث: وهو السلطان رقم (26) ولد سنة 1129 وجلس سنة 1171 الموافقة سنة 1757م بالغاً من العمر 42 سنة ومدة سلطته 16 سنة من معاصريه: ملك ألمانيا وبروسيا، ولويس الخامس عشر ملك فرنسا، وجورج الثاني ملك بريطانيا. إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحلبية)، ط2، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص177، وص184.

(*7*) شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، دمشق، 2001م، ص2550

(*8*) فارنا: مدينة ساحلية في شرقي بلغاريا على البحر الأسود.

(*9*) محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2003م، ص(349).

(*10*) بلاد القرم: شبه جزيرة في البحر الأسود (سواحل أوكرانيا حالياً). ***http//wikipedia.org***.

(*11*) بلاد البوجاق (***Bucak***): بلدة في تركية الآسيوية (الأناضول) في ولاية «قره مان» (لواء تكه). س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، دار ابن حزم، ط1، 1423هـ-2002م، ص171.

العثمانية، واستولت روسيا على كيلبورم، وقلعة ويني، وآزوف[12]، كما حصلت روسيا على حق الملاحة في البحر الأسود كما حصلت على حق حماية المسيحيين الأرثوذكس وكنائسهم في الدولة العثمانية، أما الدولة العثمانية فقد عادت لها الأفلاق والبغدان[13]، ولكن مع الاعتراف لروسيا بحق التدخل في شؤون هذه الإمارات عند الضرورة[14].

وكان يحكم روسيا في حينئذ القيصرة، كاترين الثانية (1762-1796م)، وذلك بعد تخلصها من زوجها بطرس الثالث، وكانت ألمانية الأصل مثقفة. وبالرغم من انتصارها على العثمانيين وفرضها معاهدة قينارجة عليهم لم تستطع أن تحقق حلمها في الاتجاه نحو الجنوب، وتقسيم الدولة العثمانية وذلك بسبب موقف كل من إنكلترا وفرنسا بالحفاظ على تماسك الإمبراطورية العثمانية ولمنع روسيا من الوصول إلى المياه الدافئة[15].

وكان من أخطر نتائج معاهدة (قينارجة) هو استيلاء روسيا على بلاد القرم، فعلى حسب تعبير «هامر» مؤرخ السلطنة العثمانية: «من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية في قبضة روسيا، وقلما وجدت معاهدة على تركيا أشأم منها»[16].

فالقيصرة الروسية كاترين (*Catherin II*) لم تكتف بما حصلت عليه من خلال هذه المعاهدة، بل أخذت تبث رجالها في بلاد القرم، وتعمل على نشر الفتن والدسائس فيها، وكان أن فاجأت العثمانيين بإرسال جيش تعداده (70) ألف جندي ضارية بعرض الحائط ما جاء بمعاهدة (قينارجة) من احترام الطرفين لحدود بعضهما البعض[17].

وباعتبار أن السلطان العثماني ودولته كانوا في مرحلة من الضعف لا تسمح لهم بالمقاومة نجحت فرنسا التي دخلت للتوسط بين الطرفين بإقناع السلطان بالموافقة على ضم القرم إلى روسيا، وتجنيب السلطنة خوض حرب قد تكون عاقبتها وخيمة عليها،

(*12*) آزوف (*Azov*): وتقع في الشمال الشرقي في بحر آزوف ويطلق اسم (بحر آزوف) على الخليج الكبير الواقع شمال البحر الأسود. محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص286.

(*13*) الأفلاق والبغدان: هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي والكائنة بين نهري بروت (***Prut***) وسيرت (***Siret***). محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص173.

(*14*) محمد فريد بك، المصدر نفسه، (انظر مواد المعاهدة كاملة، ص342إلى ص357)، شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص255.

(*15*) عبد الكافي الصطوف، وراغب العلي وطليعة الصياح، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، (1419هـ -1998م)، ص(291).

(*16*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص255.

(*17*) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص352.

وبذلك وافق السلطان سنة 1188 هـ -1774مـم على ضم القرم إلى روسيا، وبالرغم من ذلك استمرت روسيا بمحاولاتها إشعال الحروب والفتن في منطقة البحر الأسود والأفلاق والبغدان وذلك لتهييج المسيحيين فيها على الدولة العثمانية[١٨].

وبنتيجة ذلك في سنة (1199 هـ -1784م) اعترف الباب العالي بسيطرة روسيا على بلاد القرم والقوبان رسمياً[١٩].

وفي سنة 1787م دخلت كاترين بلاد القرم، وأقيمت لها الاحتفالات والزينات، وأقواس النصر التي كتب عليها (الطريق إلى بيزنطة)، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ضد السلطنة العثمانية.

وبالنتيجة أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية بمساعدة روسيا سنة (1203هـ-1788م) وحاول الإمبراطور الروسي جوزيف الثاني (*Jozif II*)[٢٠] الاستيلاء على مدينة بلغراد[٢١] ولكن الجيش العثماني كان له بالمرصاد، وحقق العثمانيون نصراً حاسماً عليه، وبعد ذلك بقليل توفي السلطان عبد الحميد الأول (1203هـ-1789م)[٢٢]، ولكن مآسي الدولة العثمانية لم تنته بوفاته، بل ستتطور من سيء إلى أسوأ كما سنرى لاحقاً.

ثانياً: الحملة الفرنسية على مصر (1213/1216هـ-1798/1801م):

كان سلطان الدولة العثمانية في تلك الفترة (السلطان سليم الثالث)[٢٣]، وكانت

(*18*) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص360- 361.

(*19*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص256.

(*20*) الإمبراطور جوزيف الثاني:هو ابن الإمبراطورة ماريا تريزا من زوجها الأول الدوق دي لورين التي تسمى فيما بعد فرانسوا الأول.ولد سنة1741م وتولى الحكم سنة1765م ولكن لم يمارس صلاحيات ملكه حتى وفاة أبيه سنة1780م، أعماله الداخلية:ألغى استعباد الفلاحين، أبطل التعذيب، أجاز الطلاق والزواج المدنيين، منح الحرية الدينية لجميع رعاياه، توفي سنة1790م.وهو أخو الملكة ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا التي قتلها الفرنسيين سنة 1793م وقتلوا زوجها وأخته ايليزابيث وغيرهم أثناء الثورة الفرنسية.محمد فريد بك، المصدر السابق، ص362.

(*21*) مدينة بلغراد: ومعناها المدينة البيضاء، مدينة حصينة على نهر الطونة بالقرب من مصب نهر (ساف) وهي عاصمة مملكة الصرب الآن، بينها وبين الآستانة طريق حديدي طوله ثمانمئة متر. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص155، 156.

(*22*) محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص361-362.ومحمد الصلابي، المرجع السابق، ص352.

(*23*) السلطان سليم الثالث: هو ابن السلطان مصطفى الثالث المولود سنة/1175هـ - 1762م/ حكم مدة 19عام، عزل عن الحكم سنة/1222هـ - 1807م/، وتوفي سنة/1223هـ - 1808م/وولي بعده مصطفى الرابع.محمد فريد

السلطنة في أسوأ حالاتها ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع وخاصة مع روسيا والنمسا ونجح الروس باحتلال معظم بلاد الأفلاق والبغدان وبسارابيا[٢٤]، والنمساويين نجحوا في دخول مدينة بلغراد وبلاد الصرب.

ولكن أخطر ما واجه هذا السلطان في فترة حكمه هو مجيء الحملة الفرنسية على مصر (1213هـ -1798م).

وقبل الخوض في دراسة تفاصيل هذه الحملة، لا بد من إلقاء نظرة سريعة على أوضاع فرنسا الداخلية قبيل الحملة بقليل.

كانت قد قامت الثورة الفرنسية في 14تموز 1204 هـ -1789مم والتي يعدها الكثير من المؤرخين نقطة تحول هامة في التاريخ الأوروبي بل في تاريخ العالم كله، فلقد بدلت الثورة أحوال فرنسا فقضت على حكم أسرة آل بوربون (***Bourbons***)[٢٥] بإعدام الملك لويس السادس عشر(***Louis XVI***)[٢٦] سنة1208 هـ -1793م.

كما قضت الثورة الفرنسية على النظام الاجتماعي القائم على أساس الامتيازات الأرستقراطية التي تضم النبلاء ورجال الدين ، أما في المناطق الأوروبية فقد لقي شعار الثورة الفرنسية (حرية، إخاء، مساواة) استنكاراً من قبل الأنظمة الملكية الحاكمة في أوروبا ، ونتج عن ذلك سلسلة من الحروب الطويلة بين حكومة الثورة الفرنسية والملكيات الأوروبية استمرت من سنة 1207 هـ -1792م وحتى سقوط نابليون بونابرت (***Napoléon Bonaparte***) في معركة واترلو في حزيران سنة 1231 هـ -1815م[٢٧].

وبالعودة إلى فرنسا وإلى مرحلة قبيل الحملة الفرنسية على مصر، فقد تم إعلان الجمهورية الأولى فيها سنة 1207 هـ -1792م.

وفي سنة 1210 هـ -1795مم انتهى عهد المؤتمر الوطني وبدأ عهد الإدارة الذي

بك،المصدر السابق، ص363حتى 393.

(*24*) محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص363.

(*25*) أسرة آل البوربون: اسم أسرة مالكة فرنسية حكم أفرادها فرنسا وإسبانيا ونابولي، يرجع اسم الأسرة إلى بلدة صغيرة بوسط فرنسا تعرف باسم «بوبون لا رشامبو»، حكم ملوك هذه الأسرة بين عامي (1589 و1792م). الموسوعة العربية، 25 جزء، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1996م. ج5 ص228.

(*26*) لويس السادس عشر: (1754-1793م) هو حفيد لويس الخامس عشر، وقد تولى العرش عام 1774م. الموسوعة العربية، المرجع السابق، ج21، ص233.

(*27*) عبد الكافي الصطوف، تاريخ أوروبا المعاصر، المرجع السابق ص7-8.

استمر حتى سنة1799م، وقد واجهت هذه الإدارة بعض المشكلات الداخلية والخارجية ولكنها نجحت عن طريق تحقيق بعض الانجازات العسكرية والدبلوماسية في أوروبا من أن تغطي على هذه المشكلات، كما نجحت الإدارة في حسم أمورها السياسية والعسكرية مع معظم خصومها (بروسيا-توسكانيا ....) ولم يبق لها سوى دولتين كانتا من أكبر المعادين لروح الثورة الفرنسية وهما بريطانيا البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية[٢٨].

كما نجح نابليون في عقد مجموعة من المعاهدات مع كل من ألمانيا والإمبراطورية النمساوية ومع البابا مزق فيها شمل التحالف الأوروبي وتصفيته وهي (مؤتمر راشتاد) (***Rachtad***) مع ألمانيا، صلح (كامبو فورميو) (***Campo Formao***) مع الإمبراطورية النمساوية ومعاهدة (تولنتينو) (***Tolento***) 1212 هـ -1797مم مع البابا، وهكذا لم يبق أمام إدارة الحكومة ونابليون سوى بريطانيا.

وبعد أن حقق نابليون بونابرت العديد من الانتصارات في إيطاليا ضد النمسا، اكتسب شعبية كبيرة داخل فرنسا وخارجها، وأصبح يشكل خطراً حقيقياً يهدد حكومة الإدارة، لذلك راحت تسعى للتخلص منه، وباعتبار أن بريطانيا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة في حالة صراع وتنافس كبير مع فرنسا فكانت تتحين الفرص للإيقاع بها.

وكانت مصر هي الهدف من قبل حكومة الإدارة من أجل توجيه ضربتها القاسمة لانكلترا وضرب مصالحها على طريق الهند[٢٩]، وبالتالي قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والشرق الأقصى.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إبعاد نابليون الطموح عن مسرح الأحداث في فرنسا[٣٠]، وخاصة أن نابليون وجد في الحملة حلمه الذي يمكن أن يحقق من خلاله مطامعه الشخصية وأحلامه في الوصول إلى القسطنطينية عن طريق احتلال مصر وبلاد الشام.كما فعل الاسكندر الكبير، وإنشاء إمبراطورية فرنسية في المشرق تكون تعويضاً عما خسرته فرنسا في حروبها مع بريطانيا في السنين السابقة[٣١].

(*28*) عبد الكافي الصطوف، المرجع نفسه، ص38-39.

(*29*) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص49.

(*30*) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، ط6، /1420هـ - 1999م/، ص307.

(*31*) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص50. وأحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، ط1418/5هـ - 1997م/، ص29-30. وعبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، المرجع السابق، ص308.

- الفرنسيون في مصر:

في 12نيسان 1798م-1213 هـ صدر أمر حكومة الإدارة لنابليون بتجهيز حملة عسكرية من أجل غزو مصر، أقلعت الحملة من ميناء طولون[٣٢] بسرية كاملة باتجاه مصر في 19أيلول 1798 احتلت في طريقها جزيرة مالطة[٣٣]، في 10حزيران من العام نفسه وصل نابليون الإسكندرية في أول تموز 1798م-1214 هـ ثم تابع زحفه إلى القاهرة حيث خاض ضد المماليك معركة أمبابا في 21تموز 1798م ودخل القاهرة مع جيوشه بعد أن أعلن فيها أنه أتى حليف للباب العالي لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين لأوامره[٣٤].

ولم يكد نابليون يصل القاهرة حتى وصلته أنباء غرق الأسطول الفرنسي على سواحل الإسكندرية، على يد قائد الأسطول الانكليزي نيلسون[٣٥] (*Nelson*) وذلك في موقعة أبي قير البحرية (آب-1798م)[٣٦].

وزاد وضع نابليون في مصر سوءً بعد قيام ثورة القاهرة ضده في 21تشرين الأول 1798م وبالرغم من نجاحه في القضاء عليها بالقوة فقد ازدادت الأخطار المحدقة بالفرنسيين من قبل الانكليز في البحر الذين فرضوا حصاراً على سواحل مصر والمماليك الهاربين في الصعيد وبلاد الشام وخطر الثورات الشعبية داخل مصر، ثم أخيراً الخطر العثماني والذي تبدى في أنباء قدوم جيش عثماني بري عبر بلاد الشام، لذلك كان لابد له من التوجه إلى بلاد الشام من أجل قطع الطريق على الجيش العثماني، وإقامة منطقة عازلة بينه وبين العثمانيين في الأناضول.

(*32*) ميناء طولون: مدينة شهيرة في جنوب فرنسا على البحر المتوسط وهي مرسى هام للسفن الحربية. محمد فريد بك، المصدر السابق، ص238.

(*33*) مالطة: جزيرة صغيرة في البحر المتوسط بالقرب من ساحل إيطاليا وأفريقيا، تنازعت عليها الكثير من القوى عبر التاريخ (فينيقيين ورومانيين) في سنة 1800 احتلها الإنكليز ليسودوا على البحر المتوسط. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص206.

(*34*) محمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، جزآن، ط2 (1413 هـ -1993م)، الهيئة العامة للكتب الإسكندرية، ج1، ص239، 240. ومحمد فريد بك، المصدر نفسه ، ص372-373.

(*35*) نيلسون: ولد سنة 1758م ودخل البحرية، عين وكيل أميرال في سنة 1897؟ وفي سنة 1798 حاول الاستيلاء على جزيرة تنديف إحدى جزر كناريا التابعة لإسبانيا ولم ينجح، وقتل في سنة 1805 في إحدى المعارك مع فرنسا وإسبانيا ودفن في لوندره. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص374.

(*36*) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العماني، المرجع السابق، ص308.

في 22شباط 1799م-1214 هـ احتل الفرنسيون قلعة العريش وسقطت يافا بأيديهم في 7 آذار وقام نابليون بإعدام ألفين من أفراد حامية يافا[٣٧] مبرهناً على وحشيته وهمجيته الاستعمارية، ثم حاصر عكا في آذار من نفس العام والتي كان واليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار، وقد ساعد الجزار بحراً الأميرالان الانكليزيان (سدني سميث) (*Sydney Smith*) و(فيليبو) (*Filippo*) بالدفاع عنها وإيقاف زحف نابليون، ومع تفشي مرض الطاعون بين جنود نابليون، وفقدانه الكثير من جنوده اضطر نابليون إلى الانسحاب والعودة إلى القاهرة، وأثناء عودته خاض معركة أبي قير البرية ضد العثمانيين وانتصر عليهم فيها في25 تموز1799م[٣٨]، ولكن هذا لم يحسن من أحوال الحملة ومع وصول أنباء من أوروبا عن قيام تحالف أوروبي ضد فرنسا أدى ذلك إلى مغادرته مصر سراً وحل مكانه في الحملة القائد كليبر (*Clipper*)، وأمام الظروف السيئة للحملة والحصار الانكليزي والعثماني لها لم يجد هذا القائد سبيلاً للخروج من هذه الأزمة إلا الدخول في مفاوضات للصلح مع الانكليز والعثمانيين، وهكذا اتفق مع الباب العالي والأميرال سدني سميث في 24 أيار سنة 1800م - 1215 هـ على أن تنسحب العساكر الفرنسية بسلاحها على سفن انكليزية[٣٩].

ولكن ما لبث الانكليز أن طلبوا من كليبر أن يسلم جيشه كأسرى حرب فرفض كليبر ذلك، وعاد إلى مصر ليجدها في حالة تمرد، فقام بقصفها بالمدافع، واستمرت أعماله الحربية فيها عشرة أيام، ليكون هذا الفعل الوحشي سبباً في قتله على يد الشاب السوري سليمان الحلبي في 14حزيران 1800، وبذلك حل مكانه القائد الفرنسي مينو[٤٠] (*Mino*) والذي عقد اتفاقاً مع الانكليز والعثمانيين، انسحب بموجبه الفرنسيون من مصر في آب سنة 1801م-1216 هـ، وبذلك نقل أكثر من عشرين ألف فرنسي من القاهرة والإسكندرية إلى فرنسا على متن السفن الانكليزية، وانتهت بذلك هذه الحملة عسكرياً ولكن نتائجها السياسية امتدت لفترات طويلة فيما بعد وكان لها العديد من النتائج، ومنها ظهور شخصية غيرت صورة مصر ألا وهي شخصية محمد علي[٤١].

(*37*) عبد الكريم رافق، المرجع نفسه، ص308. ومحمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، ج1، ص293.

(*38*) محمد قنديل البقلي وقد أورد الجبرتي أن نابليون (في 17 آب 1799 خرج كبير الفرنسيين مسافراً الليل وخفى أمره على الناس)، المرجع السابق، ج1، ص324، 326.

(*39*) وللتوسع في بنود الاتفاق بين الإنكليز والفرنسيين، انظر: محمد قنديل البقلي، المرجع السابق، ج1، من ص333 حتى ص337، ومحمد فريد بك، المصدر السابق، ص377.

(*40*) محمد فريد بك، المصدر نفسه ، ص237.

(*41*) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص51-52.

ثالثاً: دولة محمد علي (مصر):

بعد خروج الفرنسيين من مصر (1801م-1216 هـ) تصارعت قوى متعددة من أجل السيطرة عليها، الدولة العثمانية التي كانت تريد إعادة السيطرة عليها من جديد، والانكليز الذين وجدوا في الفراغ الذي تركه الفرنسيين فرصة سانحة للسيطرة على مصر وتأمين مواصلاتهم على طريق الهند، أما الفئة الثالثة فهم المماليك الذين أظهرت الحملة مدى ضعفهم وعدم قدرتهم على حماية مصر من الأخطار الخارجية الأمر الذي أفقد ثقة الشعب المصري بهم[٤٢]، ووسط هذه الظروف والصراعات التي شهدتها مصر بين هذه القوى وخاصة المماليك والعثمانيين بين عامي (1218/1220 هـ -1803/1805م) ظهرت شخصية محمد علي قائد الفرقة الألبانية التي أتت مع الجيش العثماني الذي أرسل إلى مصر من أجل إخراج الفرنسيين منها، استفاد محمد علي من سوء إدارة المماليك، وكسب تأييد الأهالي في مصر، وتأييد علمائها الذين ألحوا على السلطان من أجل تسليمه مقاليد الحكم في مصر[٤٣]، فرضي السلطان بذلك وقام بإصدار فرمان يقضي بتولية محمد علي على مصر بدءاً من (ربيع الأول سنة1220هـ-18حزيران سنة1805م). استطاع محمد علي أن يوطد لحكمه في الفترة بين (1805 — 1811م) وذلك بالتصدي لأطماع كل من المماليك والانكليز والذين تحالفوا مع بعضهم البعض ضد محمد علي فاحتل القائد الانكليزي فريزر ميناء الإسكندرية في (20-21 آذار 1807م)، ووقف إلى جانبه المماليك بزعامة محمد بك الألفي، وكانت الأسباب الحقيقية للسياسة انكلترا هذا هو إرغام السلطان العثماني التخلي عن محالفة الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت الذي حقق انتصارات كبيرة في أوروبا بين عامي (1805-1806م)، ولقد نجح محمد علي بالتصدي للانكليز وحلفائهم بمساعدة جنوده الألبان والمصريين الذين توافدوا من الجهات القريبة إلى قرية الحماد وانتصروا عليهم[٤٤].

وبذلك نجح محمد علي باشا في اخراج الانكليز من مصر بموجب ميثاق 14أيلول 1807م-1222 هـ[٤٥]، ولقد زاد هذا النصر من شعبية محمد علي في مصر.

وبعد خروج الانكليز حلفاء المماليك في مصر التفت محمد علي إلى المماليك ونجح

---

(42) أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، المرجع السابق، ص47-48.

(43) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص285-286.

(44) أحمد طربين، المرجع السابق، ص51.50.

(45) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص286-287.

في القضاء عليهم في مذبحة القلعة التي جرت أثناء توديع ابنه طوسون من أجل السفر للقضاء على الوهابيين في شبه الجزيرة العربية 1226 هـ -1811م[٤٦].

أما بالنسبة لعلماء مصر في الداخل فقد استطاع محمد علي أن يستميلهم ويكسبهم في صفه، كما كسب رضا السلطان العثماني، فأصبح من أهم ولاة الدولة العثمانية، وغدا من أهم أذرعها وأقواها من أجل إخماد حركات العصيان والتمرد التي تقوم ضدها.

- **الإصلاحات الداخلية:**

كان هدف محمد علي منذ توليه مصر العمل على تحديثها وتطويرها على النمط الأوروبي وذلك كسباً لتشجيع دول أوروبا له وخاصة حليفته فرنسا التي اعتمد بشكل كبير على رجالها من أجل بناء أسس دولته القوية المتقدمة اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً[٤٧].

فبالنسبة للجيش:

زودته فرنسا بالسلاح واستقدم الضباط والخبراء العسكريين لتدريب جيشه، والخبراء والفنيين من اجل إنشاء الصناعات الحربية (معامل الأسلحة والذخيرة)، كما أرسل محمد علي البعثات إلى أوروبا وخاصة فرنسا من أجل إتمام الدراسة العسكرية وأنشأ المدارس العسكرية في مصر وأنشأ نظارة للحربية عرفت باسم «ديوان الجهادية» وفرض الجندية الإلزامية[٤٨]، أما الأسطول فلقد بلغ عدد القطع البحرية لديه حوالي ثلاثين قطعة وشيد داراً لصناعة السفن الحربية في الإسكندرية[٤٩].

أما الناحية العلمية والثقافية في مصر:

فقد أولاها محمد علي أهمية خاصة، فأنشأ المدارس الابتدائية والعليا (الهندسة عام 1232 هـ -1816م، الطب 1243 هـ -1827م) ومدارس للصيدلة واللغات والفنون وكان

---

(46) روبير مانتران، المرجع السابق، ص32.

(47) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، دار الشروق العربي، لبنان بيروت، ط2/ 1429هـ - 2008م/، ص112.

(48) روبير مانتران، المرجع السابق، ص33. وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص290

(49) أحمد طربين، المرجع السابق، ص59.

الطلاب يدرسون على نفقة الحكومة كما استقدم الخبراء وأرسل بعثات طلابية إلى أوروبا وبخاصة فرنسا ابتداءً من عام 1224 هـ -1809م وتم تنظيمها عام 1242 هـ -1826م، وأشهر هذه البعثات تلك التي ترأسها رفاعة رفعت الطهطاوي(٥٠)، أُسست أول مطبعة في عهده (مطبعة بولاق 1237 هـ -1821م-، وصدرت أول صحيفة في عهده الوقائع 1244 هـ -1828م)(٥١).

أما بالنسبة إلى الجانب الاقتصادي:

فقد قام محمد علي بمسح الأراضي وتوزيعها على الفلاحين ليزرعوها لحسابه فهو الذي يحدد نوع الزراعة ويحتكر المحصول، بعد أن يمد الفلاحين بالآلات والمواشي، وكذلك قام ببناء الترع والجسور أشهرها القناطر الخيرية، كما ازدهرت زراعة القطن في عهده، وأسست في عهده مصانع النسيج المختلفة والحبال وسبك الحديد وإنتاج السكر، كما احتكر التجارة ونظم المواصلات بين أوروبا والهند عن طريق السويس وشق ترعة المحمودية بين الإسكندرية وفرع رشيد(٥٢).

- حروب محمد علي:

وبعد تحقيقه للاستقرار والازدهار الداخلي توجه محمد علي من أجل تحقيق حلمه في بناء دولة عربية عصرية قوية، فخاض أربعة حروب كان البعض منها بتكليف من السلطان العثماني، والبعض الآخر بطموح شخصي منه من أجل التوسع وهي كالتالي:

حروبه في شبه الجزيرة العربية (1234/1226هـ-1811-1818م):

في مطلع القرن التاسع عشر ازداد نفوذ الوهابيين في الجزيرة العربية، وسيطروا على المدينة المنورة والأماكن المقدسة وشكل ذلك خطراً كبيراً هدد كيان الدولة العثمانية، وسيادتها

(*50*) رفاعة الطهطاوي: (1216-1290هـ/ 1801-1873م) مفكر مصري من أركان نهضة مصر الفكرية الحديثة، ولد في طهطا في صعيد مصر فقصد القاهرة وتعلم في الأزهر، أرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ (1826-1831م) مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى فرنسا لتلقي العلوم الحديثة، درس رفاعة الفرنسية وقرأ الجغرافيا والتاريخ، أنشأ جريدة «الوقائع» وترجم العديد من الكتب عن الفرنسية أسس مدرسة «الألسن» ويعد الطهطاوي من أركان النهضة العلمية العربية توفي بالقاهرة. (الموسوعة العربية العالمية ج11، ص243).

(*51*) أحمد طربين، المرجع السابق، ص68 إلى 71. وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص290-291.

(*52*) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص112-113.

على العالم الإسلامي، ولذلك رأى السلطان محمود الثاني(٥٣) أنه من الضروري التخلص من هذه الفئة فقام بتكليف واليه محمد علي بمهمة محاربة الوهابيين والقضاء عليهم(٥٤).

وقد كانت هذه الحرب فرصة سانحة لمحمد علي من أجل إثبات جدارته وقدرته العسكرية أمام السلطان وأمام حلفائه الفرنسيين، وأيضا من أجل التخلص من خصومه الألبان الذين زجهم في هذه الحرب والمماليك الذين دبر لهم مذبحة القلعة سابقة الذكر (1811م)، أما هدفه الأخير فكان توسعياً بغية بناء دولة عربية تضم أكبر رقعة جغرافية من البلاد العربية والبداية هي شبه الجزيرة العربية (الحجاز)(٥٥).

فشل طوسون (1811م) في حسم الأمور العسكرية مع الوهابيين لصالحه لذلك توجه محمد علي بنفسه إلى الحجاز وهزم الوهابيين في سنة (1814م) لكنه توقف قبل الوصول إلى عاصمتهم الدرعية(٥٦)، وعاد إلى مصر بسبب المؤامرات التي كانت تحاك ضده من قبل العثمانيين، ووصول أنباء عن عودة نابليون من منفاه في جزيرة ألبا(٥٧)، كان الحسم النهائي لهذه الحرب على يد إبراهيم باشا الذي استأنف القتال مع الوهابيين سنة (1232 هـ -1816م)، فتمكن من احتلال الدرعية والقضاء على نفوذ الوهابين في الحجاز سنة (1818م)، قام السلطان بتعيين إبراهيم باشا والياً على الحجاز والحبشة مكافئة له لقضائه على الوهابين، وبذلك بسط محمد علي نفوذه على الحجاز واليمن حتى سنة (1256 هـ -1840م).

حروبه في السودان (1243/1238هـ-1827/1822م):

توجه محمد علي بجيوشه إلى السودان (1236 هـ -1820م) لأهداف متعددة:

أولاً: للقضاء على بقايا المماليك الذين هربوا إلى الجنوب بعد أحداث (1811م) وأسسوا إمارة لهم في دنقلة(٥٨).

---

(53) السلطان محمود الثاني: السلطان رقم (30) ابن السلطان عبد الحميد الأول، ولد سنة 1199هـ وجلس سنة 1223، الموافق سنة 1808م، بالغاً من العمر 24 سنة، مدة سلطنته اثنان وثلاثون سنة. إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المصدر السابق، ص206.

(54) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص405-406.

(55) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص292.

(56) الدرعية: تقع في منطقة نجد في شبه الجزيرة العربية.

(57) جزيرة آلبا: تقع بالقرب من إيطاليا.

(58) دنقلة: تقع في المديرية الشمالية في السودان، وهي في قلب بلاد النوبة إلى الشمال الغربي في الخرطوم. آمنة

ثانياً: تنشيط التجارة والاقتصاد بين مصر والسودان.
ثالثاً: تجنيد العبيد السودانيين في جيشه الجديد.
رابعاً: الاستيلاء على مناجم الذهب في أفريقيا الوسطى.

تسلم قيادة الحملة إلى السودان (1820م) ابنه إسماعيل الذي أخضع القبائل السودانية في دنقلة لحكم المصريين ثم تابع محمد بك خسرو الدفتردار (1237 هـ - 1821م) الزحف نحو دارفور وضمها لدولة محمد علي وبذلك دخلت المدنية والحضارة إلى السودان بهذا الحكم[٥٩].

حروبه في اليونان (1822 — 1827م):

شارك محمد علي في حرب الدولة العثمانية على اليونان التي أعلنت حرب استقلالها عن الدولة العثمانية سنة (1238 هـ -1822م). بدأ التمرد في جزيرة كريت[٦٠] (1822م) ثم تبعتها شبه جزيرة المورة سنة (1240 هـ -1824م)[٦١]، تدخلت الدول الأوروبية إلى جانب اليونان وطلبت من السلطان العثماني إيقاف هذه الحرب خوفاً من استغلال روسيا لهذا الوضع والاستفادة منه، رفض السلطان المطالب الأوروبية واستمر في حربه ضد اليونان بمساعدة واليه محمد علي الذي وعده بإعطائه حكم جزيرة المورة وكريت كمكافأة له في حال النصر.

وأمام الضغط الروسي اعترف السلطان العثماني باستقلال اليونان (1244 هـ - 1828م) وخاصة بعد معركة نفارينو (1243 هـ -1827م) التي هزم فيها الأسطولين العثماني والمصري أمام الأساطيل الأوروبية[٦٢].

وفي آب (1828م) سحب محمد علي جيوشه من شبه جزيرة المورة ليتفرغ لخوض حربه التوسعية الأهم في بلاد الشام.

أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، ط1، 2003، ص210.

(*59*) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص293.وأحمد طربين، المرجع السابق، ص89

(*60*) جزيرة كريت: تقع في البحر المتوسط ذات موقع حربي هام؛ لأنها تقع عند مدخل أرخبيل اليونان، وتتحكم بمضيق الدردنيل. محمد فريد بك، المصدر السابق، ص234، 235.

(*61*) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص412.

(*62*) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص296-297، للتوسع انظر، محمد فريد بك، المصدر السابق، ص416 إلى 428.

حروبه في بلاد الشام (1247/1257هـ-1831/1841م):

شكلت بلاد الشام أهمية كبيرة بالنسبة لدولة محمد علي المستقبلية في المشرق، فبالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية وحاجة محمد علي لموارد بلاد الشام من أخشاب وحرير وجلود ومعادن، فهناك الأهمية الإستراتيجية. كانت الفرصة مواتية لمحمد علي أثناء انشغال السلطان العثماني بثورة البوسنة، فاتخذ من خلافه مع والي عكا عبد الله باشا حول هرب الفلاحين الذين التجؤوا إليه هرباً من الجندية ودفع الضرائب، ذريعة من أجل شن حربه على بلاد الشام (1831م)[٦٣].

تحركت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا أواخر تشرين الأول سنة (1831م) قاصدةً بلاد الشام عن طريق العريش[٦٤] وعن طريق البر في آن واحد باتجاه عكا[٦٥].

استولى إبراهيم باشا على غزة[٦٦]...... ويافا[٦٧] وسقطت عكا[٦٨] بعد حصار لمدة ستة أشهر أيار (1832م)، ثم دخل دمشق وهزم القوات العثمانية التي كانت بقيادة والي حلب (عثمان باشا) عند حمص واستولى على حماه وحلب ووصل بقواته حتى أضنة[٦٩] وطرسوس[٧٠] ومرعش[٧١] وقيصرية[٧٢] وبعد انتصاره على العثمانيين في قونيه[٧٣] كانون الأول

(*63*) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص296.

(*64*) العريش: تقع مدينة العريش على ساحل البحر المتوسط في أقصى الشمال الشرقي من مصر في شبه جزيرة سيناء، آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، المرجع السابق، ص502.

(*65*) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص449.

(*66*) غزة: تقع على البحر المتوسط في أقصى جنوب الساحل الفلسطيني، بناها الكنعانيون. آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، المرجع السابق، ص395.

(*67*) يافا: مدينة فلسطينية تجارية تقع على المتوسط، بناها الكنعانيون، احتلها نابليون عام 1799، وارتكب فيها مجزرة راح ضحيتها 5000 شهيد، قامت بها ثورة يافا عام 1920 على اليهود، وثورة 1922 وثورة 1933 و1936. آمنة أبو حجر، المرجع نفسه، ص405، 406.

(*68*) عكا: تقع على ساحل البحر المتوسط وهي مدينة فلسطينية، تحطمت على أسوارها القوية حملة نابليون الشهيرة 1798م ووضعت تحت الانتداب البريطاني 1918 واحتلها اليهود 1948. آمنة أبو حجر، المرجع نفسه، ص392-394.

(*69*) أضنه (*Adana*): مدينة تقع في الأناضول مركز ولاية أضنة على نهر سيون على بعد 25كم من البحر المتوسط. س.موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، المصدر السابق، ص37.

(*70*) طرسوس (*Tarsosüss*): تقع في الأناضول مركز لواء طرسوس في ولاية أضنة، مركز تجاري هام فيها آثار تعود للعصور القديمة والوسطى، بناها الملك الآشوري «ساردانابال»، مع نهاية القرن العاشر الميلادي، استولى عليها العرب المسلمون، في طرسوس مسقط رأس للرسول الكبير «بولس القديس». س.موستراس، المصدر نفسه، ص348، 349، 350.

(1832م) أصبح طريق الآستانة مفتوحاً أمام الجيش المصري، وهذا ما أقلق الدول الأوروبية وخاصة روسيا التي سارعت إلى إرسال أسطولها إلى البوسفور بحجة حماية الدولة العثمانية.

أخاف هذا العمل الدول الأوروبية الأخرى (فرنسا وانكلترا) اللتان ضغطتا على محمد علي من أجل عقد صلح مع السلطان العثماني وانتهت المفاوضات بإعلان اتفاقية «كوتاهية»[٧٤] سنة (1249 هـ -1833م)، التي أعطت محمد علي حكم بلاد الشام وإقليم أضنه بالإضافة لحكم مصر والحجاز وجزيرة كريت مقابل انسحاب القوات المصرية من الأناضول. أما روسيا فقد عقدت مع السلطان معاهدة هجومية دفاعية «هنكار أسكله سي» (*Hancar Askalasi*) تعهدت فيها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية في حال تعرضت لأي هجوم أو اعتداء خارجي[٧٥]، أما السلطان فقد تعهد بفتح مضائق البوسفور والدردنيل أمام الأسطول الروسي[٧٦].

ولكن ما لبث أن تجدد القتال بين الطرفين المصري والعثماني سنة (1255 هـ - 1839م) بالقرب من بلدة نصيبين[٧٧] وانتهت المعركة بانتصار المصريين انتصاراً ساحقاً على القوات العثمانية التي هربت مخلفةً ورائها (166مدفعاً وعشرين ألف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن) غنمها المصريون[٧٨]، بعد هذه الأحداث أرسلت الدول الأوروبية مذكرة اشتركت فيها كل من انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا.

تضمنت الطلب من السلطان عدم إبرام أي معاهدة مع محمد علي دون موافقة هذه الدول، كما عقدت هذه الدول فيما بينها ما عدا فرنسا سنة (1256 هـ -1840م) معاهدة لندن وأهم ما جاء فيها إعطاء حكم مصر وراثياً لمحمد علي بالإضافة لولاية عكا

(*71*) مرعش (*Merasch*): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء مرعش، ولاية أضنة. س.موستراس، المصدر نفسه، ص461.

(*72*) قيصرية (*Kaissariye*): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء قيصرية ولاية بوزادوف، الاسم أطلقه عليها القياصرة الأوائل. س.موستراس، المصدر نفسه، ص414.

(*73*) قونيه (*Konia*): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء قونية، في ولاية «جره مان» في عام 1074م أصبحت مقر الإمبراطورية التركية السلجوقية في آسية الصغرى. س.موستراس، مصدر نفسه، ص412.

(*74*) كوتاهية (*Kutahia*): تقع في الأناضول، مركز لواء كوتاهية، وسلطان أونو، في ولاية «جداوندكار» نسبت عند سفح هضبة بين نهري «أطرة نوس جايي» و«بورسك جايي». س.موستراس، مصدر نفسه، ص428، 429.

(*75*) محمد فريد بك، المصدر السابق، من ص449 حتى ص451.

(*76*) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص113.

(*77*) نصيبين (*Nizibin*): تقع في الأناضول، في ولاية كردستان، لواء ماردين، على أحد روافد نهر الفرات. س.موستراس، المصدر السابق،ص479.

(*78*) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص453.

مدى الحياة، وإذا لم يقبل بهذا خلال عشرة أيام تسحب منه عكا وإذا تأخر عشرة أيام أخرى للسلطان العثماني الحق باتخاذ الإجراء المناسب ضده. وبتحريض من فرنسا رفض محمد علي هذه المعاهدة، فأرسلت الدول الأوروبية (انكلترا والنمسا) بالإضافة للدولة العثمانية، أسطولاً إلى سواحل بلاد الشام واحتلت عكا وحرضت الأهالي في الشام ضد الحكم المصري، فما كان من محمد علي إلا الانسحاب من بلاد الشام أمام هذه الضغوطات وانتهت الأزمة بتوقيع معاهدة لندن (1841م) بين الدول الأوروبية والعثمانيين من جهة ومحمد علي من جهة ثانية وأهم ما جاء فيها قبول محمد علي بحكم مصر وراثيا والانسحاب بشكل كامل من بلاد الشام[٧٩].

رابعاً: حوادث لبنان (1262/1277هـ-1845/1860م):

ظهر التنافس جلياً بين القوى المتصارعة على النفوذ في لبنان وملئ الفراغ الذي تركه خروج محمد علي (الحكم المصري) من المنطقة.

فلقد حرصت الدول الأوروبية على أن يكون لها موطئ قدم في هذه البلاد، وكذلك عملت الدولة العثمانية على فرض سيطرتها التامة على جبل لبنان، ولا ننسى طبعاً الأمراء المحليون الذين كانوا دائماً يحاولون استغلال أي ظرف من أجل إبراز نفوذهم، وفرضه في الجبل، ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية[٨٠].

نجحت انكلترا في إيصال حليفها الأمير بشير الشهابي الثالث إلى إمارة الجبل، وذلك خلفاً للأمير بشير الشهابي الثاني.

لم يرض أصحاب الإقطاعيات من مشايخ الدروز على إمارة بشير الشهابي الثاني، وذلك بسبب سوء معاملته لهم، فقرروا خلع الأمير من منصبه، فانتصر له مسيحيو الجبل لأنه منهم، فقامت بين الفريقين عدة وقائع في دير القمر وهي ما عرف بالحركة الأولى (1257هـ - 1841م)[٨١].

وبسبب هذه الاضطرابات قامت السلطات العثمانية بعزل الأمير بشير الشهابي وذلك بهدف إخماد الفتن، وعينت بدلاً عنه والياً عثمانياً[٨٢]، ولكن الدروز والموارنة عارضوه،

(*79*) محمد فريد بك، المصدر نفسه، من ص468 حتى ص476، وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص303.

(*80*) توفيق برو، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة حلب، /1411هـ - 1990م/، ص98.

(*81*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص289.

(*82*) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص478.

فاضطرت الدولة العثمانية إلى عزله، وقررت تقسيم الجبل إلى منطقتين سنة (1258هـ-1842م)، يحكم المنطقة الشمالية قائم مقام ماروني، والمنطقة الجنوبية قائم مقام درزي يفصل بين المنطقتين طريق دمشق – بيروت[٨٣]، وحوت كل منهما على مناطق مختلطة، لكن هذه الحلول فشلت في إخماد نار الفتنة في الجبل بل عملت في كثير من الأحيان إلى زيادة اشتعال هذه النار بين الطائفتين (الدرزية والمارونية)، وإلى حدوث فتن دموية طائفية[٨٤].

ولقد كان للدول الأوروبية كما أسلفنا وتدخلها في شؤون الجبل دوراً كبيراً في تغذية روح الفتنة الطائفية بين فئات الجبل المختلفة، وإثارتها ضد بعضها البعض، ونجحت في زيادة حدة الخلاف بينها، وذلك من خلال دعم كل دولة أجنبية لفئة من هذه الفئات، وتحريضها ضد الأخرى، فأيد الانكليز الدروز والفرنسيون الموارنة، وروسيا أيدت الأرثوذكس، واستغل العثمانيون الوضع لإعادة السيطرة على المنطقة. بدأت المذابح في مناطق لبنان الجنوبي المختلطة بالمارونيين والدروز، وتكررت على فترات متقطعة بين عامي (1845-1860م)[٨٥].

وسرعان ما انتقلت هذه المذابح من لبنان إلى دمشق وكادت أن تصل الأمور إلى مراحل سيئة جداً لولا تدخل وجهاء دمشق وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر الجزائري[٨٦]، الذين نجحوا في إخماد هذه الفتنة وإيقافها عند هذا الحد[٨٧].

---

(83) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص312. (توضيح: جعلت الدولة العثمانية الأمير أحمد عباس الأرسلاني والياً على القسم الجنوبي والأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع والياً على القسم الشمالي وأُلحقت بلاد جبيل بباشوية طرابلس، شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص289).

(84) احمد طربين، المرجع السابق، ص247.

(85) «كان يزيد في أوارها استمرار فرنسا وانكلترا في إثارة الفتن ودعم كل منهما للطائفة الموالية لها ومدها بالسلاح.وقد اتضح من سجلات الجمارك أن (120) ألف بندقية و(20) ألف مسدس قد دخلت لبنان بين عامي (1857-1860) عدا السلاح المستورد عن طريق التهريب». (توفيق برو، المرجع السابق، ص 99-100، وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص313.

(86) الأمير عبد القادر الجزائري: (1222-1300هـ/1807-1883م) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري، أمير مجاهد، ولد في القطبة (من إيالة وهران الجزائرية) تعلم في وهران (1246هـ-1843م) بايعه الجزائريون على محاربة الفرنسيين، قاتل الفرنسيين خمسة عشر عاماً، استسلم عام 1213هـ/1847م فنفوه إلى طولون، استقر في دمشق سنة 1213 وتوفي فيها . خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط14، الجزء الرابع، ص45-46.

(87) توفيق برو، المرجع السابق، ص99-100 . و

Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, 1968, P.27–28–29.

ولقد كان لهذه الأحداث آثار على المنطقة فمنها إرسال نابليون الثالث[^88] إمبراطور فرنسا حملة إلى لبنان بقيت فيه ستة أشهر وذلك لحماية الموارنة في الجبل[^89]، ثم جاءت لجنة دولية إلى الجبل لدراسة وضعه، وانتهت بوضع نظام خاص به، تضمن منحه استقلالاً ذاتياً على أن يحكمه متصرف مسيحي عثماني بموجب نظام إداري خاص، يوضع تحت رقابة دولية، وتشكيل متصرفية جبل لبنان المرتبطة مباشرة بعاصمة الدولة[^90].

وبذلك نستطيع القول بأن الدول الأوروبية ضمنت لنفسها وفق هذا النظام طريقاً وسبيلاً من أجل التدخل في شؤون المنطقة، وفرض سياستها فيها وبالتالي التدخل في شؤون الدولة العثمانية، وبرهنت بذلك على ازدياد التغلغل الأجنبي في المنطقة عن طريق الإرساليات التبشيرية والبعثات والامتيازات والمشاريع التي نجحت الدول الأوروبية في الحصول عليها في المنطقة وخاصة (فرنسا - بريطانيا - روسيا) مع تميز واضح للنفوذ الفرنسي الذي تفوق على غيره في هذه المنطقة.

خامساً: حرب القرم (1270/1273هـ-1853/1856م):

لم تدم فترة الهدوء النسبي بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية أكثر من عشر سنوات حيث كانت آخر صورة للصراع بين الطرفين أزمة محمد علي مع السلطان العثماني[^91]، حيث عاد هذا الصراع من جديد على السلطنة بين الدول الأوروبية العظمى من خلال ما عرف أزمة الأماكن المقدسة وحرب القرم التي نتجت عن هذه المسألة.

حاولت روسيا التدخل في شؤون الدولة العثمانية مرات عديدة فمنها تدخلها أثناء الأزمة بين محمد علي والسلطان العثماني كما حاولت التدخل بحجة حماية المسيحيين الموجودين داخل الدولة العثمانية، وانتهى الأمر أن تقترح على انكلترا عام (1853م) فكرة تقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينهم دون إشراك فرنسا بهذا الأمر، وذلك بسبب

---

(88) نابليون الثالث: (1808-1873) إمبراطور فرنسا في الفترة عام 1852-1870م، ولد في باريس وهو ابن لويس، وأخوه نابليون الأول، انتخب بعد ثورة 1848، وفي عام 1852 أعلن نفسه إمبراطوراً بعد هزيمته أمام الألمان في معركة «سيدان» 1870، أسقط الثوريون حكمة الإمبراطور. الموسوعة العربية العالمية ج25، 11-12.

(89) توفيق برو، المرجع السابق، ص100.

(90) أحمد طربين، المرجع السابق، ص248.

(91) أسلفنا الحديث سابقا عن هذه المشكلة.

العداء بين القيصر الروسي نقولا الأول[٩٢] والإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث في ذلك الوقت وأيضاً بسبب محاولة فرنسا زيادة امتيازاتها في الأراضي المقدسة بدعوى حماية المسيحيين الكاثوليك فيها[٩٣].

رفضت انكلترا الطلب الروسي بحجة أن الوقت غير مناسب لبحث هذا الأمر، ولعل انكلترا، رأت أنه من مصلحتها الإبقاء على الدولة العثمانية كما هي، وذلك أفضل من إمكانية سيطرة روسيا على البوسفور والدردنيل في حال سقوط السلطنة[٩٤].

ثم ما لبث أن اشتد التنافس بين الدولتين روسيا وفرنسا وذلك بسبب مطالبة كل طرف منهما بحق الإشراف وحماية المسيحيين والأماكن المقدسة في بيت المقدس (بيت لحم وكنيسة المهد)[٩٥]، فادعى الإمبراطور الروسي نقولا (*Nikolas*) حق حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ونابليون الثالث طالب بمزيد من الحقوق والمزايا للمسيحيين الكاثوليك[٩٦] في السلطنة. واشتد التنافس بين الطرفين لدى الباب العالي ووصل الأمر بروسيا أن هددت بقطع علاقاتها الدبلوماسية بالدولة العثمانية، وصاغت تهديدها على شكل إنذار وجهته للدولة العثمانية، فانتهى الأمر بين الطرفين بسلسلة من المباحثات مع السلطان عبد المجيد (1255/1278 هـ -1839/1861م)[٩٧] والتي كان مصيرها الفشل بسبب قيام روسيا باحتلال ولايتي الدانوب[٩٨] (في 3 تموز 1853م) وذلك

(*92*) نقولا الأول: (1796-1855م) كان قيصراً لروسيا من عام 1825 حتى وفاته، عُرف بحكمه القاسي كان ابناً للقيصر «بول»، كان ضابطاً بالجيش، لذلك قاد البلاد وكأنها وحدة عسكرية، حارب العثمانيين في حرب القرم 1853، وكانت النتيجة هزيمة روسيا وما نقولا خلال هذه الحرب. الموسوعة العربية العالمية، ج25، ص395.

(*93*) برون، جفري، الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر (1815-1914م)، ت، عبلة حجاب، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك (1963م)، ص95-96. ومحمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة النهضة الجديدة، د.م، د.ت، ص100.

(*94*) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، من ص99 حتى ص101.

(*95*) الأماكن المقدسة في بيت المقدس: هي المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كنيسة القيامة حائط البراق (المبكى). الموسوعة العربية العالمية، ج18، ص82.

(*96*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص199.

(*97*) السلطان عبد المجيد: (1839-1861) وهو ابن السلطان محمود الثاني، عقدت في عهده معاهدة لندن (1) مع محمد علي 1840، ومعاهدة لندن (2) 1841، كما جرت في عهده حوادث الستين في بلاد الشام 1860، توفي 1277هـ 25 تموز 1861م، تولى بعده الحكم السلطان عبد العزيز. شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص288، وص297.

(*98*) ولايتا الدانوب (الأفلاق والبغدان): أي مقاطعتي مولداڤيا والولايتان اللتين تعرفان الآن برومانيا، وكان

لإجبار السلطان على قبول طلباتها . وفي الحقيقة لم تكن الناحية الدينية هي السبب الحقيقي وراء حرب القرم، ولكن كانت ستاراً اتخذته كل من فرنسا وروسيا من أجل التدخل في شؤون الدولة العثمانية والاستيلاء على أملاكها(٩٩).

- **أحداث الحرب ونتائجها:**

بعد حادثة احتلال روسيا للأفلاق والبغدان (رومانيا) (1270 هـ -1853م) تقدمت الأساطيل الانكليزية والفرنسية إلى مياه الدردنيل للضغط على روسيا من أجل الانسحاب من هاتين الولايتين، وكادت الأزمة أن تحل سلمياً بدون حرب كبرى بين الطرفين لولا قيام الأسطول الروسي بالقضاء على أسطول عثماني في البحر الأسود أواخر (تشرين الثاني 1853م)، فلم يجد الانكليز والفرنسيون بداً من تسيير أسطولهما إلى البحر الأسود لمنع الأسطول الروسي من الخروج من موانئه وإيقافه عند حده .رفضت روسيا أية مفاوضات لإحلال السلام، فوجه الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث والملكة فيكتوريا إنذاراً نهائياً لروسيا بضرورة سحب قواتها من الأفلاق والبغدان، واحترام سيادة واستقلال السلطان العثماني(١٠٠).

رفض القيصر الروسي هذا الإنذار، وأعلن الحرب على فرنسا وانكلترا، فعقدت هاتان الدولتان حلفاً هجومياً دفاعياً مع السلطان عبد المجيد في (12آذار 1854-1270هـ)(١٠١) وبدأ الحلفاء (انكلترا وفرنسا) في الاشتراك مع القوات العثمانية في طرد الجيوش الروسية من الأفلاق والبغدان وإجلائهم عنها(١٠٢).

تدخلت النمسا صديقة روسيا في الحرب بصفتها وسيط سلام، وأجبرت روسيا على سحب قواتها من ولايتي الدانوب، وحلت القوات النمساوية مكان القوات الروسية، وذلك كحل مؤقت حتى تنتهي الحرب، وبدأت النمسا وساطتها مرة أخرى لحل الأزمة(١٠٣).

يحكم كلاً منهما حاكم منتخب من الأهالي في ظل السيطرة التركية يلقب بالأمير أو الهوسبودار وقد احتلتهما روسيا عسكرياً أكثر من مرة منذ بداية القرن التاسع عشر (أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرون 1789م-1950) تأليف: أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، ت، بهاء فهمي، د.أحمد عزت عبد الكريم.مؤسسة سجل العرب، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، ط6، د.ت، ص425.

(*99*) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص102 .

(*100*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص199 .

(*101*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص295.

(*102*) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص104 .

(*103*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص200. وانظر:

هاجم الحلفاء (فرنسا، انكلترا، العثمانيون) شبه جزيرة القرم وانتصروا على الروس في وقائع[١٠٤] آلمة (*Alma*) وبالاكلافة (*Balclavh*) وسيباستبول (*Sebastibol*) وهي الأشهر في هذه الحرب (28 كانون الأول 1855م-1272 هـ).

لم تستمر الحرب طويلا بعد هزيمة الروس في موقعة سيباستبول (*Sebastibol*) وقبلت روسيا أخيراً التفاهم والتفاوض مع الحلفاء وانتهت جلسات التفاوض إلى توقيع اتفاقية باريس (30 آذار 1856م-1271 هـ)[١٠٥]، ولقد ساعد على نجاح عقد الصلح بين الحلفاء وروسيا وفاة القيصر الروسي نقولا الأول المتحمس للحرب، وتسلم قيصر روسي آخر أقل حماساً لهذه الحرب واستمرارها وهو القيصر الروسي إسكندر الثاني، هذا بالإضافة إلى تهديد النمسا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء في حال عدم قبول روسيا توقيع هذا الصلح[١٠٦].

وأما أهم ما جاء في هذه الاتفاقية فهو:

1- اعتراف جميع الأطراف بما فيهم روسيا بالاستقلال التام للدولة العثمانية، واحترام سيادتها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، وكما جاء فيها عدم السماح للسفن الحربية بعبور مضائق البوسفور والدردنيل، وأيضاً تقرر حرية التجارة والملاحة في مياه البحر الأسود، وجاء أيضاً تخلي روسيا عن الأفلاق والبغدان وإعادتهما للسيادة العثمانية[١٠٧].

2- أما نتائج هذه الحرب على السلطنة العثمانية فهو قيام السلطان عبد المجيد بإصدار «خط شريف همايوني» (18شباط 1856م-1273 هـ)، تضمن «حق الطوائف المسيحية المختلفة في إقامة الشعائر الدينية في أراضي الدولة العثمانية، وفتح الوظائف المدنية أمام المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية، وكذلك فرض الخدمة العسكرية عليهم وقبل ذلك كانوا لا يقبلون

Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, London 1968, P.50–51.

(*104*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص296. ومحمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص105

(*105*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص200.

(*106*) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص107.

(*107*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص296، (للتوسع انظر: محمد فريد بك، المصدر السابق، ص523-530)

في الجيش العثماني، ولكنهم منحوا حق البدل العسكري للإعفاء من أدائها »[١٠٨].

3- ولقد عبر هذا الفرمان عن أهم المحاولات الإصلاحية التي قامت بها الدولة العثمانية في تاريخها الحديث في تلك المرحلة.

إن كل حدث من هذه الأحداث السابقة والمكائد التي كانت تحاك من أجل تفكيك كيان الدولة العثمانية كانت كفيلة بإنهاء هذه الدولة والقضاء عليها، ولكن لعبت أدت المنافسات الاستعمارية بين الدول الأوربية دوراً في تأخير هذا السقوط. وإن مسلسل التآمر والتدخل في شؤون الدولة العثمانية لم يتوقف إلا عندما انتهى الأمر بسقوط الخلافة العثمانية 1343 هـ -1924م وسقوط هذا الكيان الذي استمر لقرون عديدة فارضاً قوته وهيبته بين الدول الكبرى والعظمى في العالم.

وبالمجمل فإن غاية هذا التمهيد والحديث عن "المسألة الشرقية" وأهم نقاط تطور أحداثها في المنطقة هو رسم صورة مسبقة لطبيعة الصراع الدولي على الدولة العثمانية، ولتبيان مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية في المرحلة التي سبقت فترة دراسة البحث، فعندما وصل السلطان عبد الحميد الثاني إلى حكم الدولة العثمانية (فترة البحث المطروحة) كانت البلاد تعاني من مشاكل كبيرة جداً، ومن ضعف شديد وقوى عظمى خارجية تزداد قوة وتزداد رغبتها في القضاء على الدولة العثمانية، وتقسيم ممتلكاتها فيما بينها بحجج وأسباب كثيرة.

وهكذا فقد كان من الضروري التمهيد لفكرة المسألة الشرقية والأطراف المتصارعة فيها قبل الخوض في الحديث عن السلطان عبد الحميد الثاني، وعلاقاته الهامة التي ربطته بالدولة الألمانية وإمبراطورها غليوم الثاني. والذي سيكون لهذه العلاقات تأثيرات كثيرة على الطرفين كما سنوضح لاحقاً.

❖ ❖ ❖

(*108*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص201.

الأوضاع الداخلية
في كلٍّ من الدولة العثمانية وألمانيا
في تلك المرحلة

ـ أولاً الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية:

أ- تسلم عبد الحميد الثاني الحكم:

بعد خلع السلطان عبد العزيز تمت مبايعة السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد، ولكنه لم يعمر كثيراً في السلطنة وذلك بسبب إصابته باختلال عقلي فقرر رجال الدولة إقالته عن الحكم وتسليم أخيه السلطان عبد الحميد مكانه وذلك سنة(1294هـ - 1876م)[١٠٩].

والسلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية تولى عرش الدولة في الرابعة والثلاثين من عمره[١١٠]، حكم مدة ثلاثة وثلاثين سنة، وهي أطول فترة حكم سلطان عثماني بعد حكم كل من السلطان سليمان الأول «القانوني»، والسلطان محمد الرابع، ولقد شغلت فترة حكمه العالم بأكمله[١١١]، وما تزال شخصيته موضع جدل وخلاف بين الباحثين والمؤرخين حتى الآن.

نشأته:

ولد السلطان عبد الحميد في [16/شعبان/سنة 1258هـ = 22/أيلول/1842م) ، ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه؛ والتي لم يكن لها أولاد، فأحسنت تربيته ورعايته وأثرت بشخصيته[١١٢]. «تلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً، وتعلم

(*109*) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص299-300. و *Kemal-öke, II Abdülhamid-Siyonistler-ve-filistin. Meselesi, Istanbul, 1981, P.60.*

(*110*) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص441.

(*111*) محمد علي عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق دار الرحاب، دمشق، ط1، ص209.

(*112*) محمد علي أورخان، السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، دار النيل، مصر، ط1، 1429 هـ - 2008م، ص61.

مـن اللغـات العربيـة والفارسـية، ودروس التـاريخ، وأحـب الأدب، وتعمـق في علـم التـصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة العثمانية، كما تدرب على استخدام معظم أنواع الأسلحة، وكان مهتماً بالسياسة العالمية، وتأثيرها على الإمبراطورية»[١١٣].

كـان عبـد الحميـد في التاسـعة عشر مـن عمـره عنـدما تـوفي والـده الـسلطان عبـد المجيد وتسلم العرش من بعده عمه عبد العزيز سنة (1278 هـ -1861م) ووضـع مـراد وليـاً للعهد[١١٤]. رافق عبد الحميد عمه السلطان عبد العزيز في زيارته إلى أوروبا التي استمرت مـن21حزيـران إلى 7 آب، التقـى عبـد الحميـد خلالهـا بنـابليون الثالـث في فرنـسا والملكـة فكتوريـا (*Victoria*) في انكلـترا وليوبلـد الثـاني (*Leopold*) في بلجيكـا وغليـوم الأول (*William I*) في ألمانيـا، وفرنـسوا جوزيـف (*François Josef*) في النمـسا، كمـا أنـه قبـل زيارته أوروبا زار مصر برفقة عمه عبد العزيز وذلك في عهد الخديوي إسماعيل، وبذلك سـنحت الفرصـة لعبـد الحميـد أن يطلـع ويتعـرف في وقـت مبكـر مـن سـلطنته علـى أهـم الشخـصيات الـسياسية الـتي سـيقابلها أثنـاء حكمـه في مرحلـة لاحقـة، وكـان عمـر عبـد الحميد في تلك المرحلة 25سنة[١١٥].

وقد كان لهذه الزيارة تأثير كبير في سياسة عبد الحميد المستقبلية، حيث ظهـر إعجابـه بألمانيا، وتقدمها منذ تلك الزيارة، فقد قال عنها: «أنها دولـة نظـام وعسكرية وإدارة»، وهـذا مـا دفعه فيما بعد بالاستعانة بالألمان لتدريب جيشه، وإنشاء صداقة مع ألمانيـا في فترة حكمـه[١١٦] أثرت على خط سير السياسة العثمانية والألمانية على حد سواء مستقبلاً.

وبعد خلع السلطان عبد العزيز في 1876/5/30، ثم تولية الـسلطان مـراد الخـامس؛ والذي لم يستمر حكمه أكثر من ثلاثة أشهر بسبب إصابته بخلل في عقله.

وهكذا تم اتخاذ قرار بتنحية مراد الخامس وتولية السلطان عبـد الحميـد الثـاني علـى العرش، وتمت المبايعة له في يوم الخميس (11/شعبان/1293هـ =1876/8/31م) في قـصر[١١٧]

(*113*) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص441.

(*114*) محمد هاشم، الكتبي، عـصر الـسلطان عبـد الحميـد وأثـره في الأقطار العربيـة /1876-1909/، 15 جـزء، ط2، المكتبة الهاشمية، دمشق، 1939م، ج1، ص72.

(*115*) محمد الصلابي، المرجع السابق، من ص443 إلى ص444.

(*116*) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص443.

(*117*) *Orhan Koloğlu: Avrupa Kıskacıda Abdülhamit, istanbul, 1998, P.10*. وعمـر فـاروق يلمـاز، الـسلطان عبـد الحميـد خـان الثـاني (مـن خـلال الوثـائق)، ترجمـة طـارق عبـد الجليـل، دار نـشر عثمـانلي، استانبول، ومكتبة النيل، مصر، 2000، ص 30 .

«طوب قابي» (*Topkapi*) لتبدأ بعد ذلك فترة حكمه التي استمرت حوالي ثلاثة وثلاثون عاماً، والتي كانت مليئة بالتحديات والمشاكل الخارجية والداخلية كما سيتضح لاحقاً.

ب- سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية: (أهم مميزات سياسته الداخلية):

اتسمت سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية بعدة بسمات ومميزات عدة وطغت عليها محاولات الإصلاح في الدولة وإتمام أو ترميم النقص الذي كان في الدولة في العهود السابقة لحكمه ومن أهم ماقام به :

أ- إعلان الدستور /1293هـ-1876م/:

شهد التاريخ العثماني الحديث العديد من المحاولات الإصلاحية على فترات أهمها خط شريف كلخانة (غرفة الورد) سنة (1255 هـ -1839م)، وخط شريف همايوني (6) سنة (1273 هـ - 1856م) اللذان أصدرهما السلطان عبد المجيد، ولكن أبرز هذه الإصلاحات هو إعلان الدستور العثماني سنة (1876م) من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وكان الهدف من هذه الإصلاحات بشكل عام هو دعم سلطة الطبقة الحاكمة وامتصاص النقمة المحلية من جهة وإرضاء الدول الأوروبية وذلك بمنح الامتيازات للسكان غير مسلمين من جهة ثانية[١١٨].

وبالعودة إلى إعلان الدستور سنة (1876م)، فلقد استلم السلطان عبد الحميد السلطنة الشرعية في البلاد وأظهر لوزرائه منذ البدء رغبته في الإصلاح[١١٩]، «فوعد في الخطاب الذي ثبت فيه الصدر الأعظم محمد رشدي باشا في منصبه والمؤرخ في (10/أيلول/1876م —21/شعبان /1293هـ) بتأسيس مجلس عمومي «تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقاً لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلنا كافلاً بتأمين إجراء القوانين حرفاً حرفاً سواء كانت القوانين الموجودة أو التي تأسست من الآن

---

(6) خط شريف همايوني :وهي الأوامر الصادرة من السلاطين، وبكتابة أيديهم، أو ماحرره الكتاب وأفضاه السلطان، سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض 1421ه-2000م، ص 101.

(*118*) عبد الكريم رافق، العرب والترك، المرجع السابق، ص380.

(*119*) أحمد سعيد البرجاوي، الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر، بيروت/1993م/، د.ط، ص255.

فصاعداً»، وبذلك وعد السلطان عبد الحميد بإعلان القانون الأساسي الذي كان مدحت باشا قد حضره في عهد السلطان عبد العزيز[١٢٠].

في (4/ذي الحجة/1293هـ-16/كانون الأول/1876م) عزل السلطان عبد الحميد رشدي باشا عن منصب الصدارة وعين مكانه مدحت باشا فأوكل إليه مهمة صياغة الدستور، فشكل مدحت باشا لجنة مؤلفة من ستة عشر عضواً من البيروقراطيين وعشرة من العلماء وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور[١٢١] الذي استوحي من الدستور البلجيكي والفرنسي والانكليزي والأمريكي، وفي (7/ذي الحجة/1293هـ = 19/كانون الأول/1876م) تم إعلان القانون الأساسي (الدستور) وذلك في مراسم خاصة أقيمت في الباب العالي[١٢٢].

«وضع الدستور في/119/مادة تضمنت حقوق السلطان في الحكم، فاعتبره القانون مقدساً وغير مسؤول عن تصرفاته أمام أحد، ومنحه حق عزل الوكلاء وتنصيبهم، وتوجيه المناصب والرتب وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وعقد المعاهدات وإعلان الحرب والعفو وتخفيف العقوبات وعقد المجلس العمومي وفضه، وباختصار فإن السلطان يتمتع بالحقوق الدستورية كأي ملك دستوري، كما تضمن القانون النص على حرية العثمانيين ومساواتهم، ونص على مسؤولية الموظفين ضمن نطاق وظائفهم»[١٢٣]، كما نص الدستور على إقامة مجلسين هما مجلس المبعوثان (النواب) والشيوخ (الأعيان) يتمتع أعضاؤهما بالحصانة فلا يخضعون لقوانين الدولة بموجب هذه الحصانة، وتتألف السلطة التشريعية من المجلسين، كما نص على تشكيل محكمة عليا وإتباع مبدأ اللامركزية في حكم البلاد[١٢٤].

---

(120) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية/1864-1914م/، دار المعارف بمصر، القاهرة، /1969/، د.ط، ص40.

(121) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 3 أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2005، ص57-58.

(122) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، /199/، ص250. وعبد العزيز محمد عوض، المرجع السابق، ص41.

(123) عبد العزيز، محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، أربعة أجزاء، 1986، ج4، من ص58 إلى ص66.

(124) D.Mehmet Ali Beyhani: II Abdülhamid Dönemi (Turkler.12) Ankara 2002, P.990-991-992.

ب- إعلان تأسيس المجلس العمومي:

من أهم ما نتج عن إعلان الدستور العثماني الجديد هو تأسيس المجلس العمومي «والذي كان يتألف من هيئتين: الأولى هيئة (مجلس الشيوخ) الأعيان، والأخرى هيئة النواب (مجلس المبعوثان)» «وتجتمع كلتاهما في أول تشرين الثاني من كل عام، ويكون افتتاح وفض دورتيهما العاديتين – وتستغرقان أربعة أشهر – بإرادة سنية، وللسلطان حق دعوة المجلس العمومي وافتتاحه قبل الموعد المحدد وله حق إطالة مدة انعقاده، ويرأسه السلطان أو الصدر الأعظم نائباً عنه في المجلس العمومي، ويلقي فيه خطاباً يتضمن ما يلزم اتخاذه في المستقبل من الوسائل والتدابير فيما يتعلق بأحوال الدولة الداخلية والخارجية، ونص القانون الأساسي على أن يتمتع أعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي والحصانة ضد التهم الموجهة إليهم بسبب آرائهم، ولا يجوز الجمع بين عضوية الأعيان والمبعوثان»[١٢٥].

تألفت الهيئة الأولى (الأعيان) من الأشخاص الذين لهم خدمات حسنة مشهورة في الدولة مثل الوزراء والولاة والمشيرين وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة السابقين، وهؤلاء يتم تعينهم من قبل السلطان مباشرة. ولا يتجاوز عدد أعضاء هذه الهيئة ثلث أعضاء هيئة المبعوثان». وعضويتهم مدى الحياة، .وأهم اختصاصاتهم تدقيق القوانين واللوائح الصادرة عن هيئة المبعوثان ولها حق الرفض القطعي أو ردها لهيئة المبعوثان للتعديل.

أما هيئة المبعوثان: فيتم انتخاب أعضاءها بنسبة عضو واحد لكل خمسين ألف نفس من ذكور الدولة، وذلك بشكل سري ولا يجوز لعضو هيئة المبعوثان الجمع بين عضوية المجلس ووظيفة حكومية أخرى – باستثناء الوزارة – وأن يتمتع بالمتابعة العثمانية ومعرفة اللغة التركية. وينتخب رئيس هيئة المبعوثان من الهيئة نفسها ويصادق السلطان على انتخاب الرئيس ووكيله[١٢٦].

ولقد جرت انتخابات مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية لأول مرة في (10/شوال /سنة 1293هـ = 28/تشرين الثاني/1876م) وذلك بموجب التعليمات الانتخابية المؤقتة اجتمع مجلس المبعوثان العثماني والبرلمان العثماني وافتتح أول جلسة له في سراي بشكطاش وذلك في (4/ربيع الأول/1294هـ = 19/آذار/1877م)[١٢٧]، وحضر الافتتاح

(*125*) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص41-42.

(*126*) عبد العزيز، الشناوي، المرجع السابق، ج4، ص61.

(*127*) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع نفسه، ص43، للتوضيح من نفس مرجع:نصت المادة (119) من القانون

السلطان عبد الحميد الثاني، وتليت خطة العرش عن لسانه ثم أخذ بعد ذلك بعقد عدة جلسات مناقشة مع النواب[١٢٨]، وترأس مجلس النواب في دورته الأولى أحمد وفيق أفندي نائب الآستانة، حيث تم المصادقة على ميزانية الدولة، ثم اجتمع حسن فهمي أفندي نائب الآستانة أيضاً، وأقر فيه قانون البلديات بعد التعديل، وكما صادق على ميزانية الدولة[١٢٩]، وبسبب احتدام المناقشات بين النواب في هذه الجلسة الأخيرة حول صلاحيات مجلس المبعوثان، وتطبيق الحكم الدستوري الفعلي في البلاد، والحد من سلطة الحكم السلطاني المطلق، وأيضاً بسبب الضغوطات الخارجية، وقرب توقع حدوث حرب في البلاد مع روسيا، كل هذا أدى إلى الاستياء الشديد لدى السلطان عبد الحميد الثاني الذي أصدر أمراً سلطانياً بتعطيل أعمال المجلس النيابي، وحل البرلمان إلى أجل غير مسمى وذلك في اليوم الذي انعقد فيه المجلس.

كما قام بتعليق أعمال الدستور، وعزل مدحت باشا عن منصبه ونفاه خارج البلاد، وعادت البلاد من جديد إلى نظام «الحكم المطلق»[١٣٠] ولكن وأمام الضغط الشعبي وبضغط من حزب الاتحاد والترقي،اضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى إعلان الدستور في البلاد مرة ثانية وذلك في (حزيران/1908م-1324هـ) حيث أعلنت فيه الحريات والعفو العام[١٣١]، لتشهد البلاد بعد ذلك حقبة انقلابية جديدة في تاريخها.

ج- إصلاحات داخلية أخرى في الدولة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني:

سنّت الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني عدداً من الأنظمة بغية إكمال النقص في التنظيمات السابقة كما أسلفنا.

وشمل الإصلاح والتطوير فترة حكم عبد الحميد جميع نواحي الحياة تقريباً في الدولة، ففي **الجانب العسكري**، حدث تقدم كبير في قوات الدولة العثمانية البرية والبحرية، حيث زود السلطان الجيش العثماني بالخبراء والمدربين العسكريين الألمان، وبعث

الأساسي/1876م/ على ما يلي: «إن التعليمات المؤقتة التي ترتيب بشأن المجلس العمومي في /10/ شوال سنة/1293هـ/تبقى أحكامها جارية إلى نهاية اجتماع المجلس المذكور الأول، وبعد ذلك يصبح حكمها باطلاً».

(*128*) عبد العزيز، العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط2، /2002م/، ص341.

(*129*) إسماعيل، سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ت:حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، د.ط، /1988م/، ص358-359.

(*130*) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص45.أحمد سعيد، برجاوي، المرجع السابق، ص255-256.

(*131*) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994، ص253.

عدداً من الضباط الأتراك إلى ألمانيا للدراسة في كلياتها الحربية[١٣٢]، وسيفصل ذلك لاحقاً، كما أجرى إصلاحات في المدارس العسكرية في العاصمة والولايات، كما ترجم بعض الضباط العثمانيين الكتب العسكرية من اللغات الأوروبية المختلفة إلى اللغة التركية، وتحسنت الخدمات الصحية للجيش.

أما في الجانب العلمي والتعليمي فقد حصل توسع في إنشاء المدارس العسكرية، وزاد عدد المدارس الرشيدية[١٣٣]، وهذه المدارس كانت تحضر للقبول في المدارس العسكرية العالية[١٣٤] والكليات، بلغ عدد المدارس الرشيدية سنة (1883م)، (460)مدرسة.

وعدد طلابها (30،000) طالب وذلك في شتى أنحاء الأراضي العثمانية.

وفي سنة (1891م) أقامت الدولة شعبة (عالية) في دار المعلمين لتزويد المدارس بمدرسي الإعدادية والسلطانية[١٣٥] في الوقت نفسه، وأنشأت الدولة فروعاً لدور المعلمين في جميع عواصم الولايات العثمانية[١٣٦].

كما ازداد عدد المدارس الإعدادية في الدولة اعتباراً من بداية عام (1876م)، وفي سنة (1895م) قررت الدولة أن يكون تعليم الطلاب الفقراء في المدارس الإعدادية داخلياً ومجاناً، بلغ عدد هذه المدارس خلال العام الدراسي (1311-1312هـ/ 1893-1894م) (57) مدرسة وأربع وخمسون في الولايات، وثلاثة في اسطنبول، وعدد الطلاب (6984) طالباً، بالإضافة إلى ثماني عشر مدرسة إعدادية أخرى في اسطنبول، تسعة فيها لغير المسلمين والتسع الأخرى لدول أجنبية، كما شهد التعليم العالي تطوراً ملحوظاً، وخرّجت دار الفنون السلطانية مجموعة كبيرة من الطلاب بمختلف الاختصاصات العلمية بين عامي (1878-1881م) وفي سنة (1900) تأسست «دار الفنون الشاهينية» والتي تتكون من خمس كليات من بينها مدرسة الحقوق ومدرسة الطب وكانت على النمط الأوروبي للجامعات.

كما أرسلت البعثات العلمية المختلفة إلى الدول الأوروبية للتزود بالعلوم الجديدة، ولم تنسى الدولة أيضاً العناية بالمدارس المهنية فهناك مدارس البيطرة العسكرية ومدارس

(*132*) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص39.

(*133*) المدارس الرشيدية وهي مدارس من النوع المتوسط من بعد عام 1869 كانت تأتي من حيث الدرجة فوق المدارس الأولية وتحت المدارس الإعدادية التي هي في مستوى المدارس الثانوية. (أكرم الدين أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة) ت:صالح سعداوي صالح، اسطنبول، /1991م/، مجلدان، د.ط، المجلد الثاني، ص535.

(*134*) أكمل الدين، أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)، المرجع السابق، ص537-538.

(*135*) المدارس السلطانية هي مدارس الثانوية.

(*136*) أكمل الدين أوغلي، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص541، 542.

البيطـرة المدنيـة ومـدارس الزراعـة والـتي افتتحـت سـنة (1878-1879م). علـى يـد أحمـد جودت باشا الذي تسلّم نظارة التجارة والزراعة في تلك السنة، وكذلك كان هنـاك مـدارس للصنايع، ومدارس الغابات والمعادن، ومدرسة الحقـوق، ومدرسـة الـضياع، ومـدارس الإدارة المدنية، ووظف خريجو هذه المدارس كقائم مقاميات في الأقضية ورؤسـاء دوائـر الحكومـة ومناصب «الملازم» في مجلس شورى الدولة، وسـكرتاريات الـسفارات والقنـصليات، وكـذلك عيّن البعض منهم كسفراء ومستشارين ورؤساء وأعضاء في مجلس شـورى الدولـة، وديـوان المحاسبات وأعضاؤه في مجلس الأعيان[١٣٧].

ج- سياسة عبد الحميد الخارجية:

لم تكن المصاعب والمشاكل التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني علـى الـصعيد الداخلي أكثر صعوبة وتحدي من الـصعوبات والمـشكلات الـتي واجهتـه خـارجياً، فلقـد قُـدر لهـذا الـسلطان أن يتسلم مقاليـد الحكـم في الـبلاد في فـترة عـصيبة ومـضطربة في تـاريخ الدولة العثمانية.

فالأوضاع كانـت تغلـي في البلقـان، والثـورات مـشتعلة في البوسـنة والهرسـك والجبـل الأسود، وفي بلغاريا. والدول الأوروبية، وروسيا تؤجج هذه الثورات وغيرهـا، وتمـدها بالمـال والسلاح والمتطوعين، وذلك من أجل الـضغط علـى الدولـة العثمانيـة الـتي بقيـت وحيـدة في مواجهة هذه الدول جميعاً[١٣٨].

وكـان لخـروج فرنـسا خاسـرة مـن حربهـا مـع ألمانيـا سـنة 1287 هــ -1870م وكـان لانـشغال إنكلـترا في الاهتمـام بالمـشكلات الداخليـة لمـستعمراتها، دوراً كـبيراً في ازديـاد قـوة ونفـوذ كـلٍ مـن وروسـيا وألمانيـا والنمـسا في القـارة الأوروبيـة، وخاصـة بعـد قيـام بـسمارك بتـأليف جبهـة مـن هـذه الإمبراطوريـات الـثلاث، وذلـك بغيـة عـزل فرنـسا لمنعهـا مـن الانتقام[١٣٩]. وفيمـايلي عـرض لاهـم الاحـداث الـتي واجهـت الـسلطان عبـد الحميـد الثـاني علـى الـصعيد الخـارجي :

(*137*) اكمل الدين، آوغلي، المرجع السابق، المجلد الثاني، من ص55 حتى ص578. وعبد العزيز، الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص25، 26.

(*138*) محمد علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني (حياته وأحداث حياته)، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط1، (1429هـ-2008م)، ص72.

(139) Caesar E.farah: abdullhamid II and the Muslim world, ISAR Foudation, Istanbul, 2008, P10.

1- تمردات وثورات البلقان

مع بداية سنة 1292 هـ -1875م بدأت القلاقل في قرية من قرى الهرسك تدعى «ستولاتس» (*Sutlats*)، ثم ما لبثت أن انتشرت إلى جميع أنحاء الهرسك ومنها إلى البوسنة[١٤٠].

ويدا الأمر وكأنه تمرد ضد ملتزمي الضرائب العثمانيين، ولكن غاية المتمردين الحقيقية هي الحصول على الاستقلال الذاتي لهذه البلاد أسوة بما حصلت عليه كلٌ من جارتيهما، إمارة الجبل الأسود وإمارة الصرب[١٤١]، وطبعاً كان الأمر كله نتيجة لتحريض هاتين الإمارتين لأهل البوسنة من أجل الثورة، وربما كان للنمسا يد في هذه الفتنة إذ كانت تطمع في الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك معاً بسبب مجاورتهما لها.

وكان من الطبيعي أن تُرسل الدولة العثمانية جيوشها لقمع هذه الثورات، ومع إحراز الجيش العثماني التقدم على الثوار، واقترابها من السيطرة على الوضع هناك، شعرت النمسا أن الثورة ستنطفأ فسارعت إلى التصرف، وقامت بتحريض كلٌ من ألمانيا وروسيا وذلك من خلال تكليف وزيرها الأول الكونت (أندراسي)، بحض هاتين الدولتين من أجل إصدار مذكرة أرسلتها الدولتان (ألمانيا وروسيا) إلى الباب العالي[١٤٢]، وأهم ما جاء فيها:

1- إلغاء إلتزام الضرائب في الولايات التي حصل فيها التمرد.
2- منح الحرية التامة للعبادة وإنشاء مجالس إدارية مختلطة.
3- أن يملك المزارعون الأراضي التي يعملون بها[١٤٣].

قبلت الدولة العثمانية المذكرة وذلك منعاً للتدخل الأجنبي في شؤون البلاد بشكل أكبر. وليس هذا فحسب بل قام السلطان بإصدار عفو عام عن جميع المتهمين والمشتركين في هذه الثورة، ولكن كل ذلك لم يرض أهالي البوسنة والهرسك، واستمروا في ثورتهم[١٤٤]، ومما زاد الأمر سوءاً في البلاد، قيام ثورة أخرى في بلغاريا بتحريض من الدول الأوروبية،

(*140*) محمد علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع السابق، ص73.

(*141*) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص601، ومحمد، الصلابي، المرجع السابق، ص451.

(*142*) *Casesar E.Farah, OP-cit, P.18-19*.

(*143*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص144، وفريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص603، ومحمد، أورخان، المرجع السابق، ص73.

(*144*) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص603، وروبير مانتران، مرجع نفسه، ص145.

وخاصة روسيا والنمسا، وكذلك قامت إمارة الجبل الأسود بمساعدة الثورة هناك، فانتشر الدمار في كل مكان، وهاجم المسلمون والمسيحيون بعضهم البعض[١٤٥].

قامت الدولة العثمانية على الفور بإرسال جيش قوامه (18) ألف جندي إلى مناطق العصيان، بقيادة عثمان باشا (الملقب قاهر الصرب) واستطاع هذا القائد هزيمة الصرب وحلفائهم، وطبعاً حينها تدخلت الدول الأوروبية وروسيا لإنقاذ حلفائها الصرب، فسارعت إلى طلب وقف القتال فوراً بين الطرفين وإلا فالحرب ستكون شاملة وواسعة (حيث أن هذه الدول قد هددت بالتدخل الفوري بقواتها في حال عدم وقف القتال بين الصرب والدولة العثمانية).

وأمام هذا التهديد اضطر الباب العالي إلى إعلانه قبول وقف القتال والموافقة على عقد مؤتمر بمشاركة الدول الأوربية العظمى وروسيا، وبطبيعة الحال فلقد كان هذا المؤتمر نتيجة لدعوة وجهتها هذه الدول لعقد هذا المؤتمر الطارئ لحل القضية في مناطق البلقان[١٤٦].

اجتمع المؤتمرون في اسطنبول في 23 كانون الأول سنة 1876-1293 هـ في سراي البحرية برئاسة صفوت باشا ناظر خارجية الدولة، بصفته رئيس المؤتمر، وعضوية كلٌ من أدهم باشا سفير الدولة العثمانية ببرلين، والكونت (فرانسوا دي بورجوان) (*Francis de Bourgoin*) والكونت (دي شو وردي) (*de Shawwrde*) عن فرنسا، والبارون (وزر) (*Wzir*) ممثلاً لألمانيا، وعن إيطاليا الكونت (كورتي) (*Corti*)، والكونت (زيكي) (*Zeke*) من أشراف المجر، والبارون (كاليس) (*Callis*) النمساوي عن النمسا، والجنرال (آغنا-تيف) (*Aghna tif*) عن الدولة الروسية، واللورد (سالسبوري) (*Salisbury*) والسير (هنرن ليون) (*Henry lyons*) عن إنكلترا[١٤٧]. وخرج المؤتمرون بعدة مقترحات أهمها:

تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين، ويكون ولاتها مسيحيين، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ هذه القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات أيضاً لكلٍ من إمارتي البوسنة والهرسك، لكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب، سحبت بنتيجته جيوشها من منطقة التمردات مقابل اعتراف الصرب ببقاء ارتباطهم بالدولة العثمانية[١٤٨].

(*145*) فريد بك، المحامي، المصدر نفسه، ص606.

(*146*) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص79.

(*147*) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص616، 617.

(*148*) محمد، الصلابي، المرجع السابق، ص453.

2- الحرب الروسية العثمانية.

لطالما رغبت روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة والاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على طريق الهند، وذلك لعدة أسباب وعوامل (دينية واقتصادية وجغرافية).

وللوصول لهذه الغاية أطلقت ما عُرف بشعار توحيد الشعوب السلافية في جميع أنحاء أوربا تحت الزعامة الروسية، فكانت دائماً تثير الفتن هنا وهناك، وخاصة في مناطق البلقان الخاضعة للسيادة العثمانية، فلقد كانت وراء معظم الفتن والثورات التي قامت في هذه المناطق ضد الحكم العثماني(١٤٩).

وقد أسلفنا سابقاً كيف أنها دعمت تمردات كلٌ من إمارة الصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وبلغاريا، أو ليست هي المرجع الأساسي للأمم السلافية وخاصة الأرثوذكسية منها(١٥٠).

ولقد كانت الفرصة سانحة في هذه الأثناء من أجل تحقيق الأحلام الروسية، وخاصة بعد رفض الدولة العثمانية لمقررات مؤتمر اسطنبول، ورفضها أيضاً لمقررات بروتوكول لندن الذي وقعت عليه في (31 آذار 1877) كلٌ من إنكلترا وألمانيا، روسيا، فرنسا، النمسا، المجر، وإيطاليا، عرضت فيه هذه الدول شروطاً أخف على الدولة العثمانية، وتنحصر في إجراء بعض الإصلاحات في دول البلقان بالنسبة للرعايا المسيحيين، وإعطاء منطقة صغيرة للجبل الأسود، وتخفيض عدد الجنود العثمانيين على طول نهر الدانوب(١٥١).

وأمام هذا الرفض العثماني سارعت روسيا إلى إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وذلك في (19 نيسان 1877م-1294 هـ)، (١٥٢).

(*149*) سهام، هنداوي، تاريخ دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ط1، دار رسلان، دمشق، 2009، ص37.

(*150*) شكيب، أرسلان، المصدر السابق، ص300.

(*151*) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص91.

(*152*) ولكن قبل ذلك كانت قد وقعت مع رومانيا (الأفلاق والبغدان) معاهدة سرية في (16 نيسان 1877م) وضعت رومانيا بموجبها جميع اسلحتها ومؤنها تحت تصرف الروس والسماح لها باستخدام اراضيها.

كما وقعت مع النمسا اتفاقية «بودابست» في (15 نيسان 1877) ونصت الاتفاقية على الحياد في حال فشل مؤتمر اسطنبول في حل الأزمة مقابل حصولها على البوسنة والهرسك.

(أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص18. وعلي، حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص231، محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص93).

ولقد وقفت الدول الأوروبية موقف المتفرج تجاه هذه الحرب حتى إنكلترا التي اعتبرها العثمانيون حليفاً لهم، وقفت موقفاً سلبياً وانتظرت – مع غيرها – النتائجَ التي ستسفر عنها هذه الحرب(١٥٣).

بدأت مجريات الحرب بعبور القوات الروسية نهر الدانوب من خلال الأراضي الرومانية باتجاه الأراضي العثمانية، ورداً على تقدم الروس عبر نهر الدانوب، أمر الباب العالي بإرسال بعض السفن الحربية إلى هناك لمعاقبة رومانيا على خيانتها ووقوفها إلى جانب الروس، وهذا الأمر دفع رومانيا إلى إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية في (14 أيار 1877م) والدخول رسمياً في الحرب مع روسيا ضد الدولة العثمانية.

كان الهجوم الروسي عبر جبهتين: الجبهة الشرقية والجبهة الغربية، أما الجبهة الغربية فكانت المهمة تقضي باجتياز البلقان والوصول إلى اسطنبول والمضائق بأسرع وقت. وأما على الجبهة الشرقية فكانت غاية الروس الاستيلاء على الأناضول الشرقية(١٥٤).

نجحت القوات الروسية في الجبهة الغربية فاستولت على كلٍّ من (ترنوه ونيكوبلي) في بلغاريا، وعلى بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية إلى البلقان.

فلقد تحصن العثمانيون في قلعتها، وقاتلوا بضراوة ضد الروس، بقيادة القائد العثماني المشهور «عثمان باشا» الملقب «قاهر الصرب» واستمر الحصار والقتال شرساً حول هذه المدينة قرابة خمسة أشهر(١٥٥).

ولكن مع ازدياد الأوضاع سوءاً اضطر عثمان باشا إلى الاستسلام، وقبل ذلك بشهر كان قد استسلم زميله أحمد مختار باشا على الجبهة الشرقية (جبهة الأناضول)، واضطر لتسليم (قارص) للروس، كما اضطر سليمان باشا لوقف القتال في بلغاريا(١٥٦).

وقد شجعت الانتصارات الروسية كلٍّ من الصرب والجبل الأسود من أجل الانخراط في الحرب ضد العثمانيين، مما زاد الوضع سوءاً بالنسبة للعثمانيين، تابع الروس زحفهم باتجاه اسطنبول، واحتلوا آدرنة، ووصلوا إلى سان ستفانو، على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة العثمانية(١٥٧).

(*153*) آ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي، المرجع السابق، ص18.

(*154*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 153.

(*155*) شكيب، أرسلان، المصدر السابق، ص301.

(*156*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 154.

(*157*) للتوسع انظر فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص625 إلى ص652.

وبدأ الروس التهديد باحتلال اسطنبول، أثارت هذه التهديدات مخاوف كبيرة لدى الدول الأوروبية، وخاصة إنكلترا التي قامت بإرسال قسم من أسطولها الحربي إلى اسطنبول مهددة بالتدخل بالحرب ضد الروس إذا حاولوا الدخول إلى اسطنبول[١٥٨].

وفي نهاية الأمر فقد أجبرت الأحداث السابقة الطرفين المتحاربين روسيا والدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو في (3 آذار 1878م-1296 هـ)[١٥٩]. والتي نصت على البنود التالية:

1- استقلال إمارة الصرب مع إضافة أراضي جديدة لها.

2- منح الاستقلال الذاتي لبلغاريا مع توسيع حدودها حتى بحر إيجه.

3- الاعتراف باستقلال رومانيا.

4- حصول روسيا على كلٍّ من «قارص»[١٦٠] و«باطوم»[١٦١] و«أردهان»[١٦٢].

5- يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والمسيحيين والأكراد والشركس في جزيرة كريت.

6- تتعهد الدولة العثمانية بفتح مضائق البوسفور والدردنيل، أمام السفن الروسية[١٦٣].

لقد خرجت روسيا من هذه المعاهدة بحصة الأسد، واتضح أنها المهيمنة على مناطق البلقان وبلغاريا والمضائق، مما أثار مخاوف لدى الدول الأوربية التي اعتبرت أن روسيا قد تمادت وتعاظم نفوذها بشكل يهدد مصالحها ويخل بالتوازن الدولي. فبدأت

(*158*) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص 105.

(*159*) وقع المعاهدة من الجانب التركي وزير الخارجية صفوت باشا، وسفير تركيا في برلين سعد الله بك، أما من الجانب الروسي فكان يتألف من الجنرال أغناتيف «سفير روسيا السابق في اسطنبول» ونيلدوف «من حاشية القصر»، وقع صفوت باشا هذه المعاهدة التي تعد من أسوأ المعاهدات في التاريخ العثماني حتى ذلك الحين، وقعها وهو يبكي. انظر محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص105.

(*160*) قارص (*Kars*): مدينة محصنة في الأناضول تقع على نهر قارص في ولاية أرضروم. س.موستراس، المصدر السابق، ص380.

(*161*) باطوم (*Batum*): مدينة وميناء في الأناضول مركز لواء «لازيستان» في ولاية طرابزون على البحر الأسود. س.موستراس، مصدر نفسه، ص140.

(*162*) أرداهان (*Ardahan*): مدينة تركية في الأناضول في ولاية أرضروم، لواء «چلدر» على نهر ايكور (*Kour*). س.موستراس، مصدر نفسه، ص41.

(*163*) محمد، الصلابي، المرجع السابق، ص457. للتوسع في بنود المعاهدة يمكن الرجوع لكتاب: محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، من ص652 إلى ص664.

بالضغط على روسيا من أجل إبطال هذه المعاهدة، وعقد مؤتمر دولي لبحث المسألة الشرقية، ولقد كان لإنكلترا الدور الأهم في إبطال هذه المعاهدة، حيث أنها حصلت على جزيرة قبرص مقابل هذا الدور، بموجب المعاهدة التي وقعت بين إنكلترا والدولة العثمانية في (جمادى الآخرة 1295هـ = 1878/6/4م)، حيث تنازلت الدولة العثمانية عن قبرص لإنكلترا مع بقاء تبعيتها للدولة العثمانية[١٦٤].

3- مؤتمر برلين (1305هـ-1878م).

ازداد السخط الأوروبي حدة على ما جاء في معاهدة سان ستفانو، وخاصة من قبل النمسا التي طالبت بتعديل فوري للمعاهدة، وهددت بإعلان الحرب على روسيا إذا لم يتم التعديل[١٦٥].

وأمام هذه الضغوطات الدولية على روسيا رضخ الإمبراطور الروسي ألكسندر الثاني (*Alexander II*) للاقتراح الذي تقدم به المستشار الألماني بسمارك بعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في معاهدة سان ستفانو والتباحث في مجمل قضايا المسألة الشرقية.

انعقد المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك في (1878/6/13م)، اشتركت فيه بالإضافة إلى الدولة العثمانية وروسيا بريطانيا وألمانيا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا كما سُمح لليونان بحضور المؤتمر، أما بلغاريا فلم يُسمح لها بالحضور، فقد أعلنت روسيا أنها ستتكلم باسمها[١٦٦].

وبالرغم من أن المؤتمر كان برئاسة بسمارك إلا أن الموجه الحقيقي له كان المندوب البريطاني بنيامين دزراتيلي[١٦٧].

استمر المؤتمر 31 يوماً عُقد خلالها عشرين جلسة أُقرت فيها (64) مادة وقع عليها مندوبو الدول المجتمعة، وذلك في (1878/7/13م) أهم هذه المواد:

1- أعيدت مقدونيا إلى الدولة العثمانية بعد أن كانت قد ضُمت إلى بلغاريا في معاهدة سان ستفانو.

(*164*) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص672، ص673.

(*165*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 156.

(*166*) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص107.

(*167*) بنيامين دزرائيلي (*Benjamin Disraeli*): (1804-1881) تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا مرتين (1868) و(من 1874 إلى 1880). *www.ar.wikipedia.org*.

2- استقلال بلغاريا وتقسيمها إلى قسمين:

- القسم الشمالي: «بلغاريا الأصلية» وجعلها إمارة ذات استقلال ذاتي على أن تدفع ضريبة سنوية للباب العالي.

- أما القسم الجنوبي: فقد تشكل منه إمارة مستقلة تحت اسم «روملي الشرقية» تحت سيادة الباب العالي على أن يكون حاكمها مسيحياً وأن توضع أسس إدارتها من قبل لجنة دولية، مع بقاء قوة روسية في بلغاريا والروملي الشرقي، وتحدد بخمسين ألف جندي.

3- أعطيت البوسنة والهرسك و(نيي بازار) (*Nii Bazar*) للنمسا.

4- منح رومانيا والصرب والجبل الأسود الاستقلال.

5- إعطاء ساربيا (*Sarbaa*) في البلقان و(قارص) (*Kars*) و(أردهان) (*Ardahan*) في الأناضول لروسيا، وأجبرت على إعادة سنجق بايزيد (*Bayezid Sancak*) إلى تركيا، كما جعل ميناء باطوم (*Batum*) ميناءً حراً.

6- أعطي قضاء «كوتور» (*Coutur*) العثماني الموجود في شرق مدينة «وان» (*Van*) لإيران.

7- تتعهد الدولة العثمانية بإجراء الإصلاحات في المنطقة الشرقية من الأناضول التي كانت تسكنها أقلية أرمينية، وكذلك في الولايات المقدونية.

8- تخفيض تعويضات الحرب المفروضة على الدولة العثمانية إلى 802،500،000 فرنك ذهبي، وتقوم الدولة العثمانية بدفعها بشكل أقساط كل قسط بمقدار 350،000 فرنك، وقد استمر دفع هذه الأقساط طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

9- أعطيت تساليا لليونان، علماً بأن اليونان كانت تطالب إضافة إلى تساليا بجزيرة كريت (*Girit*) و(إيبروس) (*Eybros*)[١٦٨].

ومن الملاحظات على قرارات هذا المؤتمر أن الدولة العثمانية كانت هي الخاسر الأكبر فيه، وقد كانت هذه الاتفاقية: «أشد وطأة وأكثر إجحافاً بحق العثمانيين من معاهدة ستفانو»، فلقد قُدر ما خسرته الدولة العثمانية من مساحتها في القسم الأوروبي

(*168*) محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، من ص678 حتى ص697. ومحمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص108.

ما يقارب 166 ألف كيلومتر مربع كان يعيش فيها ما يقارب المليون نسمة[١٦٩]، ولا ننسى خسارتها لقبرص التي تنازلت عنها لإنكلترا.

لقد خرجت الدولة العثمانية من هذه المرحلة أضعف بكثير مما كانت عليه من قبل وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الانهيار التي ستؤدي بالنهاية إلى السقوط.

وعلى الفور عملت الدول الأوروبية المتكالبة على أملاك الدولة العثمانية إلى استغلال هذه الظروف من أجل الحصول على مكاسب ومطامع ومستعمرات لها داخل الدولة العثمانية، فكان الاحتلال الفرنسي لتونس 1299 هـ -1881م ومن ثم الاحتلال الإنكليزي لمصر 1300 هـ -1882م بحجة الإصلاح الداخلي في الديار المصرية[١٧٠].

ولكن من أخطر نتائج مؤتمر برلين على الإطلاق هو إجازة تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية الداخلية بحجة الإشراف على سياسة الإصلاحات التي اشترط المؤتمر تطبيقها على مختلف الطوائف من رعايا السلطنة العثمانية[١٧١].

وبالنتيجة كان هذا المؤتمر تتويجاً لأخطر المشكلات السياسية الخارجية التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني في بداية استلام حكمه للبلاد، والذي سيكون له منعكسات كبيرة فيما بعد على سياسة عبد الحميد الخارجية، فهو سيحاول دائماً أن ينهج سياسة تقوم على التخفيف من مخاطر إعادة خوض حرب جديدة ضد الروس، أو ضد أي طرف أوروبي آخر، وذلك بسبب إدراكه لمطامع الدول الأوروبية الكبرى بدولته وأراضيها وإدراكه أن هذه الدول تتربص به وبدولته من أجل القضاء عليها وتقسيمها فيما بينها.

وأمام هذه الظروف تبرز الأسباب التي دفعت هذا السلطان من أجل تحقيق تقارب مع طرفٍ اعتبره لفترة قريبة صديقاً وحليفاً مقرباً إليه ألا وهو الإمبراطورية الألمانية التي ستكون حليفته المستقبلية ضد هذه الدول حتى قيام أحداث الحرب العالمية الأولى 1233 هـ -1914م.

ولكن كيف كانت الأوضاع الداخلية في ألمانيا قبل إقامة العلاقات وفيمايلي توضيح ذلك ولكن قبل إنهاء حديثنا عن أوضاع الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني أحببت أن أورد شهادتين مختلفتين بحق السلطان عبد الحميد الثاني وللقارئ الحكم عليهما:

(*169*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص161.

(*170*) محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص 6. وروبير مانتران، المرجع السابق، ص 162.

(*171*) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 162.

الشهادة الأولى هي من قبل «الآغا خان»[١٧٢] والذي قام بزيارة خاصة للدولة العثمانية كان الهدف منها تفقد أحوال أتباع طائفته الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد في تلك الفترة فلقد ذكر «الآغا خان» أن الكثير من أتباع الطائفة الإسماعيلية قد تعرضوا للملاحقة والسجن وإهمال شؤونهم من قبل الدولة العثمانية، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى تخوف الدولة العثمانية من دور هذه الأقليات في إثارة المشاكل وإحداث الثورات المتوقعة ضد الدولة العثمانية في تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثماني، فلذلك يبدو أن الآغا خان أراد من هذه الزيارة محاولة التخفيف من مخاوف السلطان من أفعال طائفته وأتباعه. وأيضاً التخفيف من المعاملة السيئة التي يتعرض لها أبناء طائفته من قبل العثمانيين.

أما عما ذكره «الآغا خان» عن شهادته ورأيه بالسلطان عبد الحميد الثاني فهو كما يلي:

«كان السلطان هو الخليفة أيضاً، وبالتالي رأس الطائفة السنية في العالم الإسلامي بأجمعه وكنت أنا رأس الطائفة الإسماعيلية من الشيعة». و«كان عبد الحميد يعيش وقتئذ في خوف عصبي من الاغتيال، كان مدمناً على التدخين. وكنت أنا طيلة حياتي شديد الحساسية للسجائر، وكان السلطان مرتدياً ثوباً فضفاضاً وببطء أدركت أنه كان يخفي تحت أثوابه سلاحاً ما، وأن ثيابه كانت من النوع الذي لا يخترقه الرصاص إلى الدرجة التي كانت ممكنة تلك الأيام، وهكذا تساءلت إذا كان قد ظن أنني إنما أتيته لأقتله» ويكمل قائلاً: «وبهرني منظر آخر، ذلك أن عبد الحميد كان يتصنع في منظره إلى حد كبير، كانت لحيته تصبغ بالصباغ الأسود، وكانت شفتاه تلونان باللون القرمزي، وخداه باللون الأحمر، وحاجباه يعدلان إلى درجة مضحكة. كان يمكن أن يكون مضحكاً في سيرك، ولكن عينيه كانتا تقدحان الشرر ومع ذلك فإن هذا المكياج لم يكن تعبيراً عن تخنث، ذلك أنه كان كامل الرجولة إلى الحد الأقصى، وكان والداً لأطفال عديدين وزوجاً وحامياً محبًّا لعدد كبير من النساء».

وقال أيضاً: «ولقد قيل عن خوفه من الاغتيال حدا به إلى أن يأمر بأن يتذوق كل

(*172*) آغا خان: هو لقب استعمل في العصور المتأخرة للتعبير عن أئمة الشيعة الإسماعيلية النزارية وتلقب به أربعة من الأئمة وهم: آغا خان الأول وآغا خان الثاني، وآغا خان الثالث، وآغا خان الرابع. وأما الشهادة فهي للآغا خان الثالث: السلطان محمد شاه، درس في جامعة كامبردج طاف أصقاع العالم لتفقد أحوال أبناء طائفته فكانت زيارته إلى السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1900 (*www.wikipedia.org*).

ذرة من الطعام عدد من الناس وهي في طريقها إليه، بما فيهم الطاهي، وإذا لم أتناول الطعام معه فإني لا استطيع أن أشهد بصحته هذه القصة»[١٧٣].

أما الشهادة الثانية بحق السلطان عبد الحميد الثاني فهي من قبل الأستاذ اللغوي فيميري الرحالة المجري؛ الذي كان يعمل أستاذاً للغة الفرنسية لأبناء السلطان عبد المجيد وبالتالي أستاذاً للسلطان عبد الحميد الثاني عندما كان في (16) من عمره حيث قال عنه: «أخص ما حول انتباهي إليه إشراقة الذكاء من عينيه ووجهه الشرقي الصورة والملامح فذلك من تأدبه واحتشامه أبقى له رسماً لا يمحى عن لوح ذكري». ثم يقول أنه عاد وقابله مرة ثانية بعد أن أصبح السلطان عبد الحميد خليفة للمسلمين، وكيف أنه عندما قابله لم ينساه وتذكره باللقب الذي كانوا ينعتونه به من باب الظرافة «الطبل خوجه» أي الأستاذ الأعرج. وقال: «وبلغ السلطان عبد الحميد خان السنة الثامنة والأربعين من عمره وجمع في أخلاقه أشهر أخلاق أبيه وجده فورث عن جده السلطان محمود الغيرة والسعي والهمة، وعن أبيه السلطان عبد المجيد دماثة الأخلاق ورقة القلب ولا أبالغ إذا قلت لم يقم في تاريه المشرق سلطان شرقي امتاز بحب الشغل والهمة التي لا تكل ولا تمل كالسلطان عبد الحميد، فإنه يقضي يومه من الصبح باكراً إلى أن يتناهى المساء مهتماً بقضاء أشغال الدولة ومهام السلطنة ناظراً في كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يضني صحته» وقال عنه أيضاً: «إن العلم الذي تعلمه السلطان عبد الحميد كان يسيراً وقاصراً جداً كما هو علم سائر ملوك المشرق ولكنه عوض عما ينقصه من ذلك بإرادته التي تلين الحديد وسمو الإدارك وقوة الحكم فيه وشدة الذكاء والنجابة التي تندر مثالها في غيره، فأصبح خبيراً عارفاً بأحوال سلطنته وعلاقاتها ودخائلها ومشاكلها مطلعاً حق الإطلاع على السياسة الأوربية ولا أبالغ إذا قلت أن اعتداله وحكمه على نفسه وأمياله هما اللذان حفظا أوربا من الحرب العامة وبلاياها الطامة. يشهد بذلك أنه لما تكدر صفاء البلغار طلبت إليه روسيا ودول أواسط أوربا أن يؤيد حقوقه في الروملي الشرقية قوة واقتداراً فأجابهم أن السلم خير القضاة وأولى بالإتباع واختار الصبر على الاعتداء على أن يسفك دماء العباد ويجر الهلاك على البلاد». ومن أقواله عن عبد الحميد: «وأما ما يتهم به السلطان عبد الحميد من الاستبداد فلا أرى عليه جواباً أفضل من كلامه حيث قال لي

---

(173) فاروق عثمان أباظة، آغا خان ومهمته في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى (دراسة وثائقية)، دار المعارف، د.ت، ص53، 54، 55...

يوماً: «إن أوربا قد عزقت أرضها ومهدت تربتها أعواماً وعصوراً حتى جاءت ما نراه فيها وأغراسها في أراضي آسيا الوعرة البائرة القاحلة، دعوني أتعهد هذه الأراضي قبلاً بما يحسنها فاقتلع أشواكها، وأرفع أحجارها، وأفلح تربتها، وأخذ الأخاديد وأحفر الأقنية لإيوائها لأن أمطار آسيا قليلة نادرة ثم انقل تلك الفسيلة إليها وأكون أول من يطيب أرضها ويقر عينها بنمائها ونضارتها وغضاضتها»[١٧٤]. انتهى.

ـ ثانياً الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية الألمانية:

إن من أعظم الأحداث التي شهدتها ألمانيا في تاريخها الحديث على الإطلاق هو وحدتها، ففي سنة 1789 لم تكن تسمية ألمانيا تعني وحدة سياسية معينة، بل كانت مقسمة إلى أكثر من 360 ولاية[١٧٥]جعلها نابليون 36، وهذه الولايات التي ستتوحد فيما بعد بما عُرفت بالإمبراطورية الألمانية سيكون لها بعد وحدتها دوراً كبيراً في تحريك أحداث التاريخ الحديث.

وكان من الطبيعي أن تزداد قوة هذه الدولة بعد وحدتها من جميع النواحي (الاقتصاديةو السياسيةو الاجتماعية،....) وخاصة بعد تحقيق الانتصار الفاصل على فرنسا في حرب السبعين، حيث تزايد عدد سكانها إلى (6،7) مليون نسمة ونمت صناعتها بشكل كبير بعد الاستفادة من الفحم الحجري القادم من الألزاس واللورين، كما ازداد نشاطها التجاري وخاصة البحري منها فزاد عدد الموانئ والسفن التجارية، وطبعاً تبع هذا التطور التجاري انتشاراً للبضائع والمنتجات الألمانية في الأسواق الأوربية حيث وصلت حصة ألمانيا من التجارة العالمية مع نهاية القرن التاسع بين 9 إلى 12٪[١٧٦].

ومع الوقت أصبحت ألمانيا في مصاف الدول الأوروبية العظمى، وظهر التنافس جلياً فيما بعد بينها وبين باقي الدول الأوروبية الأخرى وخاصة في السياسة الاستعمارية التوسعية لهذه الدول والتي كان من ورائها رغبة من قبل هذه الدول السيطرة على مقدرات العالم الاقتصادية بكل أنواعها ومجالاتها.

(*174*) جريدة المقتطف، الجزء الحادي والعشرون السنة الرابعة عشر /آب/أغسطس سنة 1890، الموافق 15 ذي الحجة 1307 هـ ، القاهرة، مقال الأستاذ اللغوي فيمري الرحالة المجري.

(*175*) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص136.

(*176*) محمد، أحمد، الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة، منشورات جامعة دمشق، (1428، 1429، 2007، 2009م)، ص233.

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطوراً سياسياً ملحوظاً، وخاصة بما يخص علاقات ألمانيا مع الدول الأوربية بشكل عام، ومع الدولة العثمانية بشكل خاص.

فلقد شهدت هذه المرحلة تقارباً قوياً بين الدولة العثمانية وألمانيا في جميع المجالات، ولكن لابد لنا قبل الدخول بتفصيل هذه العلاقات من أن نفرد قسماً من بحثنا للحديث عن شخصية سياسية قوية هي التي كانت وراء وحدة ألمانيا وقوتها وظهورها على الساحة الدولية ألا وهو بسمارك (*Bismark*)، فمن هو بسمارك؟ وما هي أهم أعماله وإصلاحاته؟ وما أهم مميزات سياسته الداخلية والخارجية؟

1- من هو بسمارك؟ وكيف وصل إلى المستشارية في ألمانيا؟

ولد بسمارك في بلدة شونهاوزت (*Schönhausen*) في قلب مملكة بروسيا الحديثة سنة 1231 هـ -1815م[١٧٧]، من عائلة من الأشراف، حيث كان والده ضابطاً بالجيش ووالدته تعمل موظفة بالدولة.

تلقى تعليمه الثانوي في برلين، في سنة (1252 هـ -1836م) تخرج من كلية الحقوق محامياً من جامعة غوتنغن (*Gottingen*)، ثم أصبح نائباً في المجلس التشريعي البروسي لعام (1266 هـ -1849م)[١٧٨].

اختاره الملك فردريك وليم الرابع ليكون مندوباً عن بروسيا في البرلمان الاتحادي في فرانكفورت (أو مجلس البوندسرات) ، كما شغل منصب سفير لبلاده في عدة دول في فينيا وبطرسبرغ وباريس بين عامي (1271/1279 هـ -1854/1862م)[١٧٩]، وكان من المؤيدين لبقاء سلطة الملك وهذا ما أكسبه رضاء الملك في ذلك الوقت.

ومن خلال ممارسته لمناصبه سابقة الذكر وتنقله بين عدة بلدان خارج ألمانيا، أدرك أن المشكلة الألمانية (أي مشكلة الوحدة) لن تحل إلا بالقوة، وأن أمر الاتفاق مع النمسا أمر مستحيل[١٨٠]، ومن هنا بدأ التخطيط من أجل تحقيق الوحدة الألمانية.

---

(177) Theodore S.Hamerow: OT Tovan Bismarcka Historical Assessments. O.C.Heathand Company, Boston, 1962, P.2, 3

(*178*) فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، ترجمة: د.أحمد حيدر، الأبجدية للنشر والتوزيع، دمشق، والمركز الثقافي الألماني، معهد غوته، دمشق، ط1، 1994، ص314.

(*179*) عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث (1815-1919)، دار المعرفة، مصر، 2000، ص178، و راغب، العلي، وعبد الكافي، الصطوف، وطليعة، الصياح، مرجع نفسه، ص139، 140.

(*180*) عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث، المرجع السابق، ص178.

2- الطريق إلى الوحدة الألمانية

إن حلم الوحدة الألمانية لم يكن خاصاً ببسمارك وحده، ولم ينتظر قدومه ليخلق، بل كان لقدوم بسمارك دور كبير في تجسيد هذا الحلم على أرض الواقع. فالحلم كان بدأ بالتطور والظهور لدى الشعب الألماني من بعد مؤتمر فيينا 1231 هـ -1815م، وبموجب تسويات هذا المؤتمر أعطيت زعامة الولايات الألمانية لبروسيا، وبذلك أصبح لها الحق بالدفاع عن الولايات الألمانية، وبخاصة تلك التي تقع على نهر الراين، كما أبعدت هذه التسوية النمسا شيئاً فشيئاً عن سيطرتها على هذه الولايات، فكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو طريق الوحدة[١٨١].

أما الخطوة الثانية فكانت بإقامة وحدة اقتصادية بين الولايات الألمانية والبروسية، وذلك مع نهاية سنة 1261 هـ -1844م، طبعاً ما عدا الولايات الألمانية النمساوية فلم تكن ضمن هذه الوحدة[١٨٢].

أما الخطوة اللاحقة للوحدة فكانت من خلال تشكيل مجلس وطني عقد مؤتمره لأول مرة في مدينة فرانكفورت سنة 1265 هـ -1848م، حيث خرج بمقررات منها: تشكيل حكومة ألمانية لجميع الولايات استلم رئاستها الأرشيدوق يوحنا النمساوي نائب الإمبراطور، وكذلك تشكيل جيش وقوة بحرية ألمانية، وفي (27 آذار 1849م-1266 هـ)، أعلن تشكيل الدولة الألمانية بدون النمسا، وانتخب الإمبراطور فردريك وليم الرابع إمبراطوراً للاتحاد. والذي رفض القبول بهذا العرض، وذلك خوفاً من النمسا، وقناعته بعدم شرعية هذا المجلس[١٨٣].

ولكن الأمور لم تنته عند هذا الحد، فمع قيام الوحدة الإيطالية (1278/1276 هـ -1861/1859م) عادت الأصوات لترتفع منادية بقوة من أجل تحقيق الوحدة الألمانية، واتجهت الأنظار نحو الملك البروسي غليوم الأول الذي تقدم بطلب إلى المجلس الألماني من أجل تطوير الجيش باعتبارها الخطوة الأساسية لتحقيق الوحدة، وأمام رفض المجلس

(*181*) عبد العزيز، رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثلاثة أجزاء، 1997، ج2، (من ص116 إلى ص122)، وزينب، عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، جزآن، القاهرة، د.ت، ج1، ص366، 367.

(*182*) عبد الفتاح، ابو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط3، 1413هـ، 1993م، من ص229 إلى ص320.

(*183*) عبد الفتاح، أبو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، المرجع السابق، من ص323 إلى ص325.

لهذا الطلب، وحدوث أزمة سياسية بين المجلس والوزارة حول الأمر، لم يكن أمام الملك إلا أن يستدعي السفير البروسي في باريس بسمارك ليتولى الوزارة في تشرين الثاني 1862م(١٨٤).

وفور تسلم بسمارك لمهامه باشر في تنفيذ سياسته من أجل تحقيق الوحدة الألمانية، وأطلق شعار: «أن القضية الألمانية لا تحل بالخطب وقرارات الأكثرية بل بالدم والحديد»، واضعاً نصب عينيه الصدام المسلح بين النمسا وبروسيا كأسلوب وحيد لحل المشكلة الألمانية(١٨٥).

أ- الحرب مع النمسا (1283هـ-1866م):

كان بسمارك حاسماً أمام المعارضة التي وقفت في وجه الملك البروسي ومشروعه لإصلاح الجيش، فقد ترك للمجلس إدارة كل الأمور في البلاد كما يشاء، ما عدا ثلاثة أمور وهي: الجيش والسياسة الخارجية وتشكيل وإقالة الوزارات، كما قصد عند اختياره لأعضاء وزارته أن يكونوا من طبقة المحافظين الذين يؤمنون باتجاهاته السياسية، ويدعمونه في سياسته الخارجية والداخلية والوقوف أمام معارضيه، وعلى الفور باشرت وزارته في جمع الضرائب من أجل إنفاقها على تحسين وإصلاح الجيش(١٨٦)، باعتباره ركيزة أساسية لتحقيق الوحدة. ووصف سياسته الخارجية لتحقيق هذا الهدف بعدم الثبات، وبالمرونة حيث ركز على تمزيق كل تكتل ممكن أن تقيمه الدول المجاورة مع الاحتفاظ لنفسه بحق عقد أي تحالف محتمل يراه(١٨٧).

ولقد خاض بسمارك ثلاثة حروب في الثمان سنوات الأولى من بداية حكمه (1862-1870م)، لقناعته أن الوحدة لن تتم بدون قيام هذه الحروب.

فكانت حربه الأولى مع النمسا. واستطاع قبل خوض هذه المعركة بذكائه السياسي أن يعزل النمسا عن الدول الأوروبية فمن خلال دعمه لروسيا ضد الثورة البولندية كسب وقوف روسيا على الحياد في حال قيام حرب بين بروسيا والنمسا.

كما أنه وقع معاهدة دفاعية هجومية مع إيطاليا في (8 نيسان 1866م) تضمنت

(*184*) عبد العزيز، رمضان، المرجع السابق، ج2، من ص133 إلى ص135.

(*185*) فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، المرجع السابق، ص 329.

(*186*) زينب، عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 385، 386.

(*187*) فايت، فالنتين، المرجع السابق، ص 329، 330.

وقوف إيطاليا إلى جانب بروسيا في حال نشوب حرب بينها وبين النمسا مقابل حصولها على البندقية، أما فرنسا فقد ضمن وقوفها على الحياد في حال حدوث الحرب مقابل وعود لها في مقاطعة الراين، وكذلك كان الموقف البريطاني مضمون لصالح بروسيا، وذلك بسبب أن الرأي العام البريطاني كان مؤيداً لبروسيا[١٨٨].

وبذلك يكون بسمارك قد ضمن عزلة النمسا، وأصبحت الظروف مهيئة من أجل إعلان حربه على النمسا ولكن لابد من إيجاد سبب لهذه الحرب، يظهر النمسا بموقف المعتدي على بروسيا، وتوافرت الفرصة لدى بروسيا عن طريق قضية الدوقتين (ستليزفيغ (*Stelizfag*)، وهولشتاين (*Holstein*))[١٨٩]، فموجب معاهدة غاشتاين (*Gastein*) والتي وقعت في (614ب/ 1865م–1283 هـ) أصبحت ولاية (هلشتين) للنمسا، و(شليزفيغ) لبروسيا[١٩٠].

وفي سنة 1284 هـ –1866م عرضت النمسا قضية الدوقتين على الدايت الألماني، فاعترض بسمارك واعتبر الأمر انتهاكاً لاتفاقية الغاشتاين، وقام بإرسال قواته إلى ولاية هولشتاين واحتلتها، وإثر ذلك انقطعت العلاقات بين النمسا وبروسيا. وبدأت الحرب خاطفة وسريعة بين الطرفين، فمنذ البداية استطاع البروسين تحقيق انتصار ساحق على الجيش النمساوي، واستولى على (سكسونيا (*Sachsen*) وهانوفر (*Hannover*))، وهزم الجيش النمساوي هزيمة نكراء في بوهيميا في معركة سادوا (*Sadowa*) وبذلك أصبحت الطريق نحو فيينا مفتوحاً أمام الجيش البروسي[١٩١]، ولكن غاية بسمارك الحقيقية لم تكن إذلال النمسا، وذلك من أجل الاستفادة من حيادها في الظروف المقبلة حسب خططه المستقبلية، بل كانت الحصول على إقرار النمسا بسيادة بروسيا على الدوقتين وعدم رفضها لقيام اتحاد ألماني شمالي تحت زعامة بروسيا[١٩٢].

كما ظهرت حنكته وسياسته العسكرية من خلال موقفه من الحكومات الألمانية الجنوبية التي وقفت مع النمسا ضد بروسيا في هذه الحرب (وهي حكومات بافاريا، وفيرتمبرغ وبادن). فلم يعرض عليها الانضمام إلى الاتحاد الألماني الشمالي، ولم يسلبها أي

(*188*) عبد الفتاح، أبو عليه، وأحمد، ياغي، المرجع السابق، من ص329 إلى ص332).

(*189*) عبد الفتاح، أبو عليه، وأحمد، ياغي، مرجع نفسه، ص336، 337.

(190) Theodore S.Hamerow: The Ageof Bismark, Newyork, 1973, P.61, 62

(*191*) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج2، ص 395.

(*192*) زينب، عصمت راشد، المرجع نفسه، ج2، ص392، 395، 396.

أراضيه فكان جزاءه على ذلك أنه لم ينته شهر آب من سنة 1866م إلا وكانت هذه الولايات قد عقدت اتفاقية حربية مع حكومة بروسيا[١٩٣].

ب- الحرب مع فرنسا (1287هـ-1870م):

أما حربه الثانية فكانت مع فرنسا، فما كادت تنتهي الحرب مع النمسا حتى ولى وجهته فرنسا، وبدأ التحضير لمواجهة عسكرية مع فرنسا.

ولكن ما الحجة هذه المرة من أجل إعلانه الحرب على فرنسا، وبخاصة أن الأخيرة كانت من أهم حلفاء بروسيا في حربها مع النمسا، فجاءت مشكلة العرش الإسباني هي السبب المباشر لهذه الحرب[١٩٤].

فقد قامت الثورة في إسبانيا ضد الملكة إيزابيلا (*Isabella*) في عام 1868م، ووقف الجيش ضد الملكة التي لاذت بالفرار في (30 أيلول 1868م)، وأعلن الثوار نهاية حكمها في أسبانيا وترشيح الأمير ليوبولد أوف هوهنزولرن (***Leopold of Hohenzollern Sigmaringen***)، ***prince*** قريب الملك البروسي (غليوم)، وشقيق ملك رومانيا، وقد أيد بسمارك هذا الترشيح بالرغم من رفض الإمبراطور البروسي، وقد نجح بسمارك بإقناع سيده بقبول هذا الترشيح سنة (1870م) مع وجود معارضة شديدة من قبل فرنسا ورفضها قبول ليبولد ملكاً على إسبانيا، كما أنها أعلنت ذلك رسمياً من خلال تصريح وزير خارجيتها (*DeGramont*): «بأن إصرار بروسيا على الترشيح سوف يعني الحرب ضد فرنسا»[١٩٥].

ونجح نابليون الثالث في إفشال عملية الترشيح بمساعدة كلٍّ من إنكلترا وروسيا، وأمام تمادي الفرنسيين في توجيه التهديدات والمطالب التي لم يستطع كلٌّ من بسمارك والملك العجوز غليوم تقبلها، فلقد طلبت فرنسا من الإمبراطور البروسي بأن يرسل كتاباً خطياً إلى الإمبراطور الفرنسي يتعهد فيه بعدم التدخل بالقضية الأسبانية والاعتذار لفرنسا عن موقفها السابق[١٩٦]، وعند هذا الحد استطاع بسمارك بذكائه السياسي أن يستغل رفض الإمبراطور البروسي للطلب الفرنسي، وأن يُظهر هذا الرفض بمثابة إهانة

(*193*) عبد العظيم، رمضان، المرجع السابق، ج2، ص146، 147.

(*194*) عبد العظيم، رمضان، المرجع نفسه، ج2، ص147.

(*195*) عمر، عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص185، 186، 187.

(*196*) فايت، فالنتين، المرجع السابق، ص 340.

لفرنسا من خلال نشر نص برقية غليوم في الصحف، وهنا كان الرد الفرنسي الذي انتظره بسمارك ألا وهو إعلان فرنسا الحرب على بروسيا في (17 تموز1870م)[١٩٧].

استطاع الجيش البروسي أن يهزم الجيش الفرنسي ويقضي عليه في شهر واحد، والسبب الرئيس وراء ذلك هو استعداد البروسيين لهذه الحرب من قبل ثلاث سنوات، أما الجيش الفرنسي فكان بأسوء حالته من الضعف وسوء الاستعداد، وزاد من سوء الأمر، مرض الإمبراطور الفرنسي وعدم كفاءة وزراء حربيته المتعاقبين (لوبوف، ***LeBoeuf***)، و(بازين، ***Bazine***)، فانهزم الجيش الفرنسي بقيادة (مكماهون، ***Macmahon***) في (فورث، ***Worth***) في الإلزاس، وأيضاً في (شبيشرن، ***Spichern***) باللورين أمام القوات البروسية.

ووقع الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث أسيراً في أيدي القوات البروسية (2 أيلول 1870). وبعدها بيومين يعلن قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة بزعامة (جول فافر، ***Jules favru***) ليقضي نهائياً على حكم أسرة بونابرت[١٩٨].

وانتهت الحرب بين الطرفين بتوقيع الهدنة في (28 كانون الثاني 1871م-1288 هـ) في فرساي، وانتخب حكومة مؤقتة في (بوردو) من أجل قبول شروط الصلح أو رفضها مع بروسيا[١٩٩].

وبعد مفاوضات طويلة بين الطرفين وقع الطرفان ما عُرف بصلح (فرانكفورت) وأهم ما جاء فيه:

1- تحصل بروسيا على ولايتي الألزاس (***Alazas***)، واللورين (***Lorraine***).
2- تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي خلال خمس سنوات. (ولقد استطاع الفرنسيون دفعها في ثلاث سنوات).
3- تحتل القوات الألمانية بعض أراضي فرنسا الشمالية حتى يتم دفع هذه الغرامة.

ج- قيام الإمبراطورية الألمانية (1288هـ-1871م).

كانت نهاية الحرب البروسية الفرنسية نهاية الطريق الطويل الذي بدأه بسمارك من أجل إنشاء الإمبراطورية الألمانية الموحدة، فمع نهاية هذه الحرب ثم إكمال بناء الاتحاد

(*197*) عبد العظيم، رمضان، المرجع السابق، ج2، ص 148، 149، وفايت، فالنتين، المرجع السابق، ص 340.

(*198*) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج2، من ص407 إلى ص409.

(*199*) عمر، عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 188. و ***Theodores S.Hamerow: The Ageof Bismark, OP.cit. P66.***

الألماني ففي (18 كانون الثاني 1871م) أعلن قيام الإمبراطورية الألمانية في بهو المرايا بقصر فرساي (أي قبل استسلام باريس بعشرة أيام) وتوج غليوم الأول إمبراطوراً على ألمانيا[200].

وانضمت الولايات الجنوبية إلى اتحاد الولايات الشمالية، واتفق حكام هذه الولايات مع بسمارك على إقامة اتحاد ألماني تكون فيه الشؤون العسكرية والخارجية موحدة، ويرأسه القيصر الألماني مع احتفاظ كل ولاية بسيادتها الكاملة في الأمور الداخلية ضمن إطار الاتحاد الألماني.

وفي (16 نيسان 1871م) أعلن دستور الإمبراطورية الجديدة الذي تضمن بأن يرأس السلطة التنفيذية في الاتحاد كلٌ من الإمبراطور والمستشار، وأما الهيئة التشريعية فتتكون من مجلسين هما مجلس حكومات الولايات (بندسرات) (***Badsrat***) ومجلس آخر يمثل الشعب يسمى (الرايخستاغ) (***Reichstag***)[201].

وهكذا نجح بسمارك بتحقيق حلمه الكبير بتوحيد ألمانيا وجعلها دولة ذات قوة وسيادة في القارة العجوز، ولقد حافظ بسمارك على وحدة هذه الدولة وقوتها وعمل على حمايتها من مؤامرات الدول الأوروبية الكبرى في المنطقة خاصة فرنسا واتبع سياسة قامت على عزل فرنسا منعاً من قيامها بالانتقام من ألمانيا وقد نجح لحد كبير في ذلك، وأبعد شبح الحروب عن ألمانيا لفترة طويلة نسبياً من الزمن، استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى 1233 هـ -1914م.

(***200***) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج2، ص410.

(***201***) راغب، العلي، وعبد الكافي، الصطوف، وطليعة، الصياح، المرجع السابق، ص 151، ص152.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية والعسكرية
(الألمانية - العثمانية)
ومظاهر التقارب الألماني العثماني

العلاقات السياسية العسكرية
بين الدولتين

أولاً- أسباب التقارب الألماني العثماني:

مع بدايات القرن التاسع عشر بلغت الثورة الصناعية في أوربا والتنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية أقصى درجاته، حيث بدأت تتشكل تكتلات سياسية جديدة على الساحة الأوروبية غايتها تحقيق أعلى نسبة ممكنة من مصالحه الشخصية وخاصة (الاستعمارية) منها دون الدخول في صراعات ومنازعات تؤدي إلى حروب فيما بين الدول الأوروبية العظمى.

ولحدٍ ما استطاعت هذه السياسة الصمود وإبعاد شبح المواجهة العسكرية بين الدول العظمى حتى انفجار الأحداث في الحرب العالمية الأولى 1333 هـ -1914م.

وبنظرة سريعة للخارطة السياسية الاستعمارية وتوجهاتها في تلك المرحلة نرى أن كلٌ من فرنسا وإنكلترا ركزت جهودها الاستعمارية خارج القارة الأوروبية منعاً للمواجهة مع روسيا التي كانت أطماعها في القارة الأوروبية وخاصة البلقان ومن هنا كانت روسيا من أكبر الأخطار المهددة لكيان الدولة العثمانية التي كانت في تلك المرحلة تفقد أجزاء من جسد الأمبراطورية الذي بدأ بالانهيار وتكاثرت عليه الدول الاستعمارية لاقتسامها فيما بينها(٢٠٢).

وأمام هذه الصورة ظهرت ألمانيا على الساحة الاستعمارية ولكن بحذر شديد محاولة الاستفادة من الظروف السياسية الدولية وخاصة بالنسبة للدولة العثمانية من أجل النفوذ إليها مع اختيارها أسلوباً هادئاً ودبلوماسياً لتحقيق ذلك على عكس النهج العسكري الذي اتبعته الدول الاستعمارية الأخرى، ولقد نجح هذا الأمر في تقبل الدولة العثمانية لألمانيا باعتبارها الأقل خطورة على الدولة العثمانية حسب ظن القائمين على أمرها.

(*202*) أ. جرانت، تاريخ أوربا في القرنين (19-20)، المرجع السابق، ص(3).

فكانت الطريق شبه ممهدة بين الطرفين العثماني والألماني في تلك المرحلة من أجل إقامة علاقات أخذت طابع الود والصداقة بين الطرفين، والدعم كلٍ منهما للآخر في أزماته مع تحقيق الفائدة الاقتصادية والسياسية لكلا الطرفين، والتي بقيت قائمة ومستمرة حتى سنة 1914 وما بعد.

وفيما يلي توضيح للأسباب التي دفعت هذين البلدين للتقارب وتوثيق العلاقات بينهما بمختلف أنواعها.

أ- أسباب متعلقة بالأوضاع الألمانية؟

عندما تسلم بسمارك (**Bismarck**) المستشارية في ألمانية لم يكن يدور في خلده إلا فكرة واحدة ألا وهي تحقيق الوحدة الألمانية وقد تم له ذلك سنة 1287 هـ –1870م كما أسلفنا سابقاً. وكما أن جهوده انحصرت في السنوات الثمان التالية للوحدة الألمانية من أجل العمل على إذلال إنكلترا وسحق النمسا وفرنسا وعزلهما دولياً وخلق ألمانية، وكان مدركاً أن أي طموح للتوسع خارج ألمانية كان يحتاج إلى أرضية قوية من الاقتصاد والقوة السياسية والعسكرية ولذلك كانت خطواته بطيئة نحو هذا التوسع وركز جهوده كل هذه السنوات على الشأن الألماني الداخلي مع العمل على إبراز ألمانية على الساحة الدولية كقوة سياسية معتبرة وفاعلة[٢٠٣] ونجح في ذلك من خلال ترأسه لمؤتمر برلين 1296 هـ – 1878م والمشاركة في التحالفات الدولية التي تضمن قوة بلاده. ولكن هل نجح بسمارك في الاستمرار بإبعاد ألمانية عن ساحة التنافس الاستعماري؟ بالتأكيد لا وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولاً: التطور الهائل في الصناعة والتجارة الألمانية وخاصة بعد الوحدة الألمانية 1870 وتحول ألمانية إلى دولة صناعية وتجارية عظمى[٢٠٤]، حيث بدأت طبقة البرجوازيين الألمان بالضغط على حكومة بسمارك من أجل العمل نحو إيجاد مستعمرات لألمانيا في العالم وذلك بهدف الحصول على المواد الأولية للصناعة الألمانية وكذلك أسواق تصريف لبضائعها[٢٠٥].

(*203*) أ. جرانت، المرجع السابق، ص(4).

(204) Kazim Karabekir, Tarih boyunca (Türk-Alman ilişkileri), Emre Yayinlari-cumhuriyet Tarihi serisi, (36), Cemberlitaş-Istanbul. 1911.

(*205*) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية (1841-1945)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1981، ص12.

ثانياً: ومن الناحية السياسية فقد عمل بسمارك على عدم الوقوف في وجه طموحات روسيا في المسألة الشرقية (الدولة العثمانية)، فلقد أيد سياسة روسيا الهادفة إلى الاستيلاء على البوسفور والدردنيل في حرب (1877-1878) وذلك بهدف كسب روسيا وإبعادها عن التقارب مع فرنسا ولكن ذلك لم ينفعه لأن روسيا ما لبثت أن تحالفت مع فرنسا عام (1301 هـ -1883م) وذلك رداً على الموقف الألماني المؤيد للسياسة البريطانية- النمساوية، الداعمة للدولة العثمانية والرافضة تقسيمها.

وأمام ذلك قام بسمارك بالتقرب من الدولة العثمانية والعمل على تقويتها ودعمها سياسياً وعسكرياً، والوقوف إلى جانبها ضد الأطماع الروسية دون الدخول في تحالفات رسمية كما سنرى لاحقاً[٢٠٦].

وأخيراً يمكن القول أنه بسبب تحول ألمانيا أثناء رئاسة بسمارك للوزارة إلى دولة صناعية كبرى أدى إلى نشوء أزمة اقتصادية في البلاد تمثلت بزيادة الإنتاج بما لا يتناسب مع الاستهلاك المحلي والتصدير للبلاد، وكذلك زيادة عدد السكان من (41 مليون نسمة سنة 1288 هـ -1871م إلى 65 مليون سنة 1332 هـ -1913م)، وازدياد عدد المهاجرين إلى العالم الجديد بين سنتي (1861-1913)، ووصوله إلى 3،5 مليون مهاجر كل هذه الأسباب أدت إلى رفع الأصوات المنادية بإيجاد مستعمرات ألمانية في الدولة العثمانية باعتبارها الأهم استراتيجياً واقتصادياً[٢٠٧].

ولم تأت بداية الثمانيات من القرن التاسع عشر إلا وقد بدأت العلاقات الألمانية- العثمانية بالتطور في مختلف المجالات، وقد وصفها السياسيون الألمان بأنها من أهم عناصر تحقيق القوة السياسية والاقتصادية للدولة الألمانية الحديثة[٢٠٨]، ومن أجل تحقيق التوازن الدولي في القارة الأوربية والعالم.

ب- أسباب متعلقة بالداخل العثماني؟

(ترحيب عبد الحميد بالتقارب مع ألمانيا):

عبر تاريخ العلاقات العثمانية الأوربية كانت روسيا هي العدو التقليدي للعثمانيين

---

(206) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام في القرن التاسع عشر والعشرين، دار الفرات، ط1، 2007، ص29.

(207) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص41.

(208) Ilber ortayli: iki dost hükümdar (Sultan II Abdülhamid-Kaiser II Wilhelm, Llisaraylar, Iastanbul: 2010, Avrupa kültür baskenti, P.11.

فلم يكن حلم الوصول إلى المياه الدافئة والسيطرة على القسطنطينية يغيب عن خاطر الروس لحظة واحدة، واتبع الروس كل أنواع الحيل السياسية وفي كثير من الأحيان الحروب وإشعال الفتن داخل الدولة العثمانية في سبيل الحصول على هذه الغاية(٢٠٩)، ولقد عملت فرنسا على كبح طموح الروس عن طريق وقوفها في وجه أطماعهم في الدولة العثمانية، ولذلك كانت فرنسا الدولة الأكثر تميزاً في الأراضي العثمانية حتى عصر نابليون بونابرت(٢١٠)، ثم حلت بريطانيا مكان الفرنسيين في دعم العثمانيين ولكن سرعان ما فقدت هذه المكانة وذلك بسبب احتلالها لقبرص العثمانية (1297 هـ -1878م) واحتلال مصر (1300 هـ -1882م) وبذلك فقدت بريطانية مصداقيتها في عيون العثمانيين وشكل ذلك فراغ في الإمبراطورية العثمانية مما مهد الطريق للألمان بالظهور على الساحة وملئ هذا الفراغ(٢١١).

ولقد ذكرنا سابقاً كيف كانت الأوضاع في الدولة العثمانية لدى تسلم السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة وخاصة الأوضاع الخارجية، فلدى تسلم عبد الحميد السلطة واجهته روسيا بحربها عليه وانتزعت من الدولة العثمانية مناطق الصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الأسود، وفرضت وصايتها عليها وبحجة الإصلاحات تدخلت كلٍ من فرنسا وإنكلترا في شؤون الدولة العثمانية عن طريق ما عُرف بالامتيازات، وعن طريق هذه الامتيازات حاول عبد الحميد بدهائه المعروف أن يخلق المنافسة والتزاحم بين الدول المتكالبة على بلاده ولقد نجح لحد ما في إدخال الدول الأوروبية في منافسات فيما بينها حول الامتيازات في الدولة العثمانية وأبعد بذلك ولو لفترةٍ خطر انهيار الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها بشكل نهائي بين الدول الأوروبية العظمى المتنافسة عليها(٢١٢).

ويمكن القول أن سياسته الخارجية هذه كانت كردة فعل على نتائج مؤتمر برلين الذي ظهر واضحاً من خلاله نوايا الدول الأوروبية في اقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينها وقد شاهد السلطان عبد الحميد كيف أن كلٍ من بريطانيا وفرنسا قد ضربت

---

(209) Kazim Karabekir, Tarih boyuncac Türk-Alman ilişkileri), Istanbul, 2001, P48, 99.

(210) Kazim Karabekir, op-cit, P.52, 95.

(211) H.Bayram Soy, Wilheim II, Weltpolitik and Abdülhamid II, Hacettepe university, institute of social sciences, Turkey, 2009, P3.

(212) محمد هاشم الكتبي، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية، المصدر السابق، الجزء (14) ص437. و *Caesar E farah, Abdullhamid II and the Muslim world, Istanbul, Op-cit, P12*.

بعرض الحائط العهود والمواثيق مع الدولة العثمانية من أجل الحصول على أكبر نسبة من أملاك الإمبراطورية العثمانية وكذلك فعلت روسيا(٢١٣).

وأمام هذا المشهد المفضوح للدول الاستعمارية ومواقفها إزاء الدولة العثمانية وسلطانها، ظهرت ألمانية على الساحة من أجل أن تُظهر مد يد العون للدولة العثمانية ومحاولة مساعدتها في الوقوف في وجه هذه القوى الكبرى ووضع حد لأطماعها(٢١٤)، وخاصة أن بسمارك هو من ترأس مؤتمر برلين (1296 هـ -1878م)، فوضع حداً للتغلغل الروسي في داخل الدولة العثمانية(٢١٥). ومع أن ألمانيا أصبحت بمنظور روسيا من الأعداء، إلا أن عبد الحميد وجد في ألمانيا الصديق والحليف المنقذ لها في خضم هذا التدهور والضعف الكبير، وخاصة أن ألمانية حسب رأيه لم تشترك مع الدول الأوروبية في تكالبها المسعور على اقتسام أملاك العثمانيين(٢١٦)، وإنما هدفها الوقوف إلى جانب الضحية ضد جلادها، ولكن إلى أي حد كان هذا الاعتقاد لدى السلطان واقعياً هذا ما ستظهره الأوراق التالية من هذا البحث.

ثانياً ـ مظاهر التقارب الألماني العثماني:

لقد أصبحت ألمانيا الصديق المقرب والحليف المخلص للعثمانيين من حالة الانهيار التي كانت تعيشها البلاد وخاصة مع ازدياد تفكك الدولة واقتسامها بين الدول الأوروبية الكبرى. ففي هذه المرحلة تكاد تكون أملاك الدولة العثمانية تنحصرإلى حد ما في منطقة بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق ووسط شبه الجزيرة العربية .

ومع ذلك فيلاحظ أن السلطان عبد الحميد لم يرد أن يربط مصير دولته بطرف واحد بعينه، فلقد كانت علاقاته بغض النظر عن نوعها قائمة مع كلٍ من فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا، وكما ذكرنا سابقاً فلقد حاول هذا السلطان اللعب بورقة الامتيازات من أجل محاولة الحفاظ على هذه العلاقات وعلى حدٍ معين من نفوذ هذه الدول في بلاده دون الاستئثار بطرف دون الآخر، وأيضاً العمل على إثارة المنافسات السياسية وإثارة الشهوة الاستعمارية لديها.

---

(213) محمد هاشم الكتبي، المصدر السابق، ص437، ص438.

(214) محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، دار النيريين، دمشق، الطبعة الأولى (1426هـ، 2005م). ص328.

(215) شبكة ومنتديات التاريخ العام، الصدام بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ص4.

(216) محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، المرجع السابق، ص328.

ولكن مع تطور الأحداث ونتائج مؤتمر برلين الكارثية على بلاده ووضوح موقف الألمان إزاء الدولة العثمانية، كان رأي عبد الحميد أن يذهب بطريق تقوية العلاقات بكافة أنواعها مع ألمانيا والتركيز على ذلك اعتقاداً منه بنزاهة موقف الألمان لحدٍ ما، ولكن هناك من يقول أن أكثر أخطاء عبد الحميد هو الاعتماد على طرفٍ واحد في سياسته الخارجية دون الآخر، وهذا ما أدى بالبلاد إلى الاندفاع نحو الانهيار المحتوم.

وطرفٌ آخر وجد أن السلطان عبد الحميد كان من الدهاء والذكاء السياسي بحيث أنه لم يرتمِ بشكل كبير في الأحضان الألمانية وحاول أن يقف في وجه مخططاتها الاستعمارية المبيتة في كثير من الأحيان، وإنما كان هدفه الحقيقي من هذه العلاقات استخدامها كقوة ضغط في وجه الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى باعتبار ألمانية قوة سياسية واقتصادية ناشئة وهي آخر من وصل إلى الساحة الاستعمارية في العالم، ويمكن القول أن هذا التحليل هو الأصح في تفسير العلاقات بين ألمانية والعثمانيين في فترة عبد الحميد الثاني وغليوم الثاني(٢١٧).

ولقد تميزت العلاقات الألمانية-العثمانية مظاهرعدة عبرت عن طبيعة هذه العلاقات ولعل من أبرزها زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية. وكذلك البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني والكثير من المعاهدات والامتيازات والمشاريع الاقتصادية في الدولة العثمانية، وفيما يلي توضيح مفصل لأهم هذه المظاهر:

أ- زيارة الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية:

(الزيارة الثانية 1316هـ-1898م):

لقد بلغ عدد زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية ثلاث زيارات الزيارة الأولى كانت فور ارتقائه عرش الإمبراطورية في سنة 1306 هـ -1888م(٢١٨)، حيث وصل الإمبراطور إلى استانبول في 2/11/1889-1307 هـ ، بعد أن كان قد بدأ جولة في أنحاء أوروبا للاتصال بملوكها والتعرف إليهم(٢١٩)، وكان عندما أبدى رغبته في زيارة استانبول

---

(217) محمد وحيد، المرجع السابق، ص328، 329. ومحمد هاشم الكتبي، مصدر سابق، ص328، 329. وفاروق يلماز، (السلطان عبد الحميد خان المفترى عليه)، دراسة وثائقية، ترجمة طارق عبد الجليل، دار عثمانلي، استانبول، دار النيل، ط1، 2000، ص126.

(218) Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit, P.154-155.

(219) *Ilber ortayli: opcit, P12* . في (14 آب 1888 تولى غليوم الثاني عرش ألمانيا وبهذه المناسبة) أرسل السلطان عبد الحميد الثاني هدايا ورسالة لتهنئة وتأكيد الصداقة والتعاون بين الدولتين.

لقي معارضة من مستشاره (بسمارك)، ولكنه كان مصراً على موقفه ورغبته! في إقامة علاقات مع الدولة العثمانية وذلك بحسب رؤية أبده فيها السفير الألماني في استانبول (هانز فيلد) والتي يرى فيها أن المستقبل لألمانيا في إنشاء علاقات مع الدولة العثمانية تفتح لها أبواب الشرق على مصراعيه[٢٢٠].

وكانت هذه المرة الأولى التي تطأ فيها قدم إمبراطور ألماني أرض استانبول بعد أكثر من سبعمئة عام، حيث كان آخرهم الإمبراطور (فريدريك بربا روسا) (*Friedrich Barbarossa*) والذي كان قد جاءها غازياً في الحروب الصليبية، على عكس الإمبراطور غليوم الثاني الذي جاءها مبشراً بإقامة علاقات ود وصداقة مع السلطان العثماني[٢٢١]، وطامعاً بالحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية تُمكن للألمان وجودهم على ساحة التنافس الاستعماري في المنطقة، وطبعاً مستغلاً سوء وتدهور العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الأخرى (فرنسا - إنكلترا - ...) والتي بلغت أسوأ حالتها في تلك المرحلة.

أُسْتُقبِلَ الإمبراطور في السلطنة بحفاوة شديدة وأحاطت الأبهة والعظمة موكب الاستقبال لهذه الضيف المميز ويبدو أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني حرص حرصاً شديداً على أن يبهر ضيفه بالمواكب الفخمة أثناء استقباله والحفاوة والأبهة في مراسم الاستقبال بكل مراحله[٢٢٢].

ويبدو أن الزيارة الأولى هذه كانت عبارة عن خطوة تعارف بين الزعيمين، لتتبعها بعدها زيارة أخرى جاءت أكثر أهمية من حيث التجهيز وخط سيرها والمناطق التي قصدها الإمبراطور الألماني والهدف من هذه الزيارة :

1- أصداء الرحلة الإمبراطورية الثانية وأهدافها:

حظيت الزيارة الثانية للإمبراطور الألماني عناية واهتمام كبير من قبل الصحف العثمانية والعربية والعالمية، وكان لها صدى كبير في إصداراتها في تلك الفترة وخاصة فيما يتعلق بأهداف هذه الزيارة والغاية منها في هذا التوقيت.

---

(220) محمد هاشم الكتبي، عصر السلطان عبد الحميد، المصدر السابق، ج15، ص455.

(221) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، المرجع السابق، ص427.

(222) للتوسع حول الزيارة انظر كتاب (الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية)، للمؤلف إبراهيم الأسود، صاحب جريدة لبنان، تقديم: خيري الذهبي، وزارة الثقافة، دمشق.

وسنحاول أن نجمل بعض أهم هذه الآراء والتحليلات لبعض الصحف العربية والأجنبية:

- فمنها من اعتبر أن هذه الزيارة أتت تعبيراً عن عمق العلاقات السياسية والصداقة التي تجمع بين الدولتين الألمانية والعثمانية، وبعضها اعتبر أن هدف الزيارة هو الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وتدشين كنيسة المخلص الإنجيلية الألمانية في القدس، (صحيفة لسان الحال).

وكما أن صحيفة «المؤيد» المصرية، رأت في هذه الزيارة صورة عن قيام حلف وصداقة بين الإمبراطور الألماني غليوم الثاني عظيم الغرب وعميد أوروبا، وبين السلطان عبد الحميد الثاني بوصفه «أمير المؤمنين كافة وعميد الإسلام كله»[٢٢٣]. وفي تحليل ملفت لأسباب الزيارة رأى أحد الكتاب العثمانيين في مقال له نشر في جريدة «المؤيد»: «إن ما يجعل الدولة العثمانية تتوجه نحو ألمانية هو تقدمها العسكري والصناعي وأطماع دول أوروبا المستعمرة في ممتلكاتها، وفي المقابل، رأى أن على ألمانية أن تسعى بدورها لكسب صداقة السلطنة لأجل ترويج تجارتها، واستخدامها كحليف في أي صراع أوروبي مقبل، واعتبر أن مصالح الدولتين تحتم عليهما دعم بعضهما البعض»[٢٢٤].

وأما جريدتي «الأهرام» و«المقطم» فلقد كانتا أكثر بعداً عن المجاملة والتطبيل والتزمير لهذه الزيارة، وحاولتا أن تريا حقيقة هذه الزيارة على حقيقتها، فلقد رأتا أن هدف الألمان من إقامة هذه العلاقات مع الدولة العثمانية وبالتالي الأهداف من هذه الزيارة ما هو إلا الاستحواذ على ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا وساحل سورية والسعي من أجل توطين الفلاحين الألمان فيها، وكذلك الهيمنة على التجارة العثمانية والحصول على أكبر عدد ممكن من الامتيازات داخل السلطنة ونهب ثرواتها، كما أكدت «الأهرام»: «إن الهدف الحقيقي من هذه الزيارة الملكية هو سياسي واقتصادي بامتياز، وإن الكلام عن صداقة أو تحالف بين الدولتين هو مجرد كلام واهم لأن غاية ألمانية تحقيق مصالحها»[٢٢٥].

وأما الصحف العثمانية من مثل صحيفتي «الصباح» و«الإقدام» فلقد تابعت تفاصيل هذه الزيارة باهتمام كبير وقامت بنشر أخبارها وأخبار التحضيرات لها إن كان من الطرف الألماني أو تحضيرات الاستقبال من الطرف العثماني.

---

(223) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص350، 351.

(224) سنو، المرجع نفسه، ص351، 352.

(225) سنو، المرجع نفسه، ص352.

ولقد اعتبرت هذه الصحف أن هذه الزيارة جاءت لتعبر عن الود والمحبة بين الشعبين الألماني والعثماني، وكذلك عن علاقة الصداقة التي تجمع بين السلطان العثماني والإمبراطور غليوم الثاني(٢٢٦).

وكما نشرت صحيفة «الحقيقة» على صفحتها الرئيسية باللغتين العثمانية والألمانية ترحيباً بهذه الزيارة المباركة للإمبراطور الألماني، وكذلك رحبت صحيفة «فرُوتْ» في عددها (64) 1307/6/8هـ الموافق 2/تشرين الثاني/1898م، بهذه الزيارة للأصدقاء الألمان وتمنت لهم طيب الإقامة في السلطنة العثمانية، وتحدثت عن برنامج الزيارة حتى نهايتها في 6/نوفمبر/1898م(٢٢٧).

ولقد عكست هذه الصحف مدى الاهتمام الكبير والترحيب من قبل الدولة العثمانية ورعاياها للضيف الألماني الزائر وربما عقدت عليه الكثير من الآمال بعد الصدمات والضربات المتلاحقة من قبل الدول الأوروبية الأخرى.

ويمكن القول أنه مهما اختلفت التحليلات حول أهداف هذه الزيارة إلا أنه من المؤكد أن هذه الزيارة كان لها أهداف متبادلة من قبل الطرفين العثماني والألماني؛ فالإمبراطور الألماني كان يؤمن بضرورة تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والعمرانية وحتى العلمية مع الدولة العثمانية(٢٢٨)، وكذلك كان السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يؤمن بضرورة إقامة علاقات مماثلة مع الإمبراطورية الألمانية واتخاذها حليف جديد ضد أعدائه من الدول الأوروبية الأخرى التي لم تترك سبيلاً للود بينها وبين السلطان العثماني.

وبالعودة إلى الإمبراطور الألماني وأهدافه الحقيقية من الزيارة فلم تكن غايته هي الحج إلى الأراضي المقدسة أو تدشين مؤسسات ألمانية فحسب، وإنما جاءت تعبيراً عن سياسة ألمانية جديدة كما أسلفنا وجهت أنظارها نحو الشرق ومد نفوذها في المنطقة وبالتالي البحث لها لمكان تحت الشمس(٢٢٩). وجاء الإمبراطور طامعاً بالحصول على عدة امتيازات ومكاسب من خلال هذه الزيارة وأهمها:

1- الحصول على موافقة الدولة العثمانية على مشروع خط الحديد (B.B.B) (بيزنطة-برلين-بغداد)(٢٣٠).

---

(226) Ilber ortayli: op.cit, P199-200
(227) Ilber ortayli: op.cit, P201-202

(228) الشناوي، المرجع السابق، ج1، ص172.

(229) سنو، المرجع السابق، ص349.

(230) حسان، حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1999،

2- بناء الكنيسة الإنجيلية في القدس (*Kurtarici, Kilisesi/Hz.Isakilisesi*)

وهـذه الكنيـسة مخصـصة للمـسيحيين الألمـان أصـحاب المـذهب البروتستانتي في القدس ومن أجل حمايتهم.

3- بناء مشفى لأتباع يوحنا، يسمى «مُرستان» في شرقي القدس(٢٣١).

4- الحـصول علـى امتيـاز إنشاء مرفـأ حيـدر باشـا إلى شـركة الخطـوط الحديدية الأناضولية الألمانية(٢٣٢).

وفي النهاية يمكننا القول أن هذه الزيارة جاءت بمجملها من أجل تحقيـق الكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية لألمانية على حساب الدولة العثمانية، مع تحقيق بعض الدفع المعنوي للسلطان العثماني في هذه المرحلة التي تعتبر من الأوقات الصعبة التي مرت على السلطنة العثمانية كما قيل: «ولهذا يقوم غليوم الثاني بزيارة صديقه السلطان في أشد الأوقات حرجاً، والحصول على الثقة المتبادلة بين الطرفين»(٢٣٣).

و كان لهذه الزيارة من أهمية كبيرة بالنسبة للدولتين فلقد أُعدت لها تحضيرات كثيرة وأحيطت بالعناية والترتيبات على أعلى المستويات من قبل الطرفين فماذا عن أهم هذه التحضيرات.

2- التحضيرات للرحلة الإمبراطورية:

استمرت الاتصالات بين الدولة العثمانية والدولة الألمانية من أجل التجهيز لهذه الرحلة حوالي الأربع سنوات ولقد اعتبرت حدثاً مميزاً في الدولة العثمانية(٢٣٤)، ولذلك تعاونت كل الجهات الرسمية في السلطنة من أجل القيام بالتجهيزات اللازمة قبل أو أثناء الرحلة للعمل على إنجاحها وإعطائها الأهمية القصوى والعمل على تأمين خط سير الرحلة طول فترة إقامة الإمبراطور الألماني وشملت هذه التجهيزات مراسم الاستقبال

ص152. وجورج أنطونيوس، اليقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1987، ص146.

«إن الهدف من هذا المشروع هو تدعيم النفوذ الاقتصادي لألمانيا في الدولة العثمانية وأيضاً تحويل تجارة ألمانية من وإلى الشرق بواسطة هذا الخط بدآ من الاعتماد على قناة السويس لضرب المصالح البريطانية في المنطقة العربية».

(231) Ilber ortayli: ikidost Hükümdar, op.cit, P191,192,193

(232) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، المرجع السابق، ص427.

(233) Ilber ortayli: Ikidost Hükümdar, op.cit, P142

(234) حسان حلاق، المرجع السابق، ص152.

والتوديع والزينات وتجهيز مكان إقامة الإمبراطور ومرافقيه وتحديد أماكن الزيارات وأوقاتها أثناء الرحلة(٢٣٥).

غادر الإمبراطور غليوم الثاني (*Wilhelm II*) والإمبراطورة أوغستافكتوريا (*Augusta Victoria*) برلين متوجهين إلى البندقية، وفي الساعة الثانية عشرة من يوم الخميس الواقع في 13 تشرين الأول سنة 1898-1316 هـ وصل القطار الملكي إلى البندقية، واستقبل الإمبراطور وزوجته من قبل ملك إيطاليا وملكتها وبعد أن حصلا على بعض الاستراحة وحضرا مأدبة أقيمت لهما غادرا البندقية في الساعة الرابعة على متن اليخت الملكي (هوهنزولرن) (*Hohezulron*) قاصدين استانبول برفقة الدرعتين الألمانيتين «هرتا» (*Hertha*) و«هبلا» (*Hbla*) ووصل الوفد الملكي استانبول في يوم الثلاثاء 18 تشرين الأول 1898م-1316 هـ(٢٣٦).

ولقد أولى الإمبراطور الألماني لشركة كوك (*Cook company*) مهمة الإشراف على مستلزمات الرحلة على الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني كان قد عرض عليه أن يقوم بكل مستلزمات الرحلة ولكن الإمبراطور رفض. وعلى الفور قامت الشركة بشراء كل مستلزمات الرحلة من سجاد وخيام وأوانٍ وأمنت الدواب والطهاة والخدم والمترجمين، كما رصدت الأموال اللازمة ونقلت الدواب الخاصة من برلين إلى كلٍ من فلسطين والشام لكي يركبها الإمبراطور أثناء زيارته لتلك المناطق(٢٣٧).

وبالرغم من ذلك فلقد عمل السلطان عبد الحميد على تجهيز أفضل ما يمكن من أجل استقبال ضيفه المميز، فأعد قصراً لضيفه في حديقة قصر يلدز على مقربة من القصر الذي نزل فيه الإمبراطور في زيارته الأولى إلى استانبول 1307 هـ -1889م، غير أن الإمبراطور أقام في القصر القديم وذلك بسبب رطوبة القصر الجديد لحداثته، كما كلف السلطان منير باشا رئيس التشريفات بمهمة إعداد ترتيبات الزيارة وثم تشكيل وفد عثماني رفيع المستوى من أجل استقبال الإمبراطور عند دخوله إلى الدردنيل، تألف من رئيس مجلس الشورى ووزراء الخارجية والعدل والزراعة ورئيس الأركان «شاكر باشا» وعدد من كبار المدنيين والعسكريين(٢٣٨).

(235) سنو، المرجع السابق، ص353.

(236) الكتبي، المصدر السابق، ج(15)، ص458، 459.

(237) سنو، المرجع السابق، ص353.

(238) سنو، المرجع السابق، ص353، والكتبي، المصدر السابق، ج15، ص459.

أما بالنسبة لترتيبات زيارة الإمبراطور وتجواله في بلاد الشام، فلقد أمر السلطان بتشكيل وفد آخر لمرافقة الإمبراطور برئاسة المشير شاكر باشا والفريق عبد الله باشا، كما أمر والي «كريت» جودت باشا بأن يكون من بين المستقبلين للإمبراطور في فلسطين وسوريا، ولتغطية الجانب الإعلامي للرحلة أمر السلطان «أحمد رستم بك» وهو محرر في جريدتي «معلومات» و«ثروت» أن يقوم بالتحقيقات اللازمة عن الرحلة ومجرياتها، هذا بالإضافة إلى خمسة عشر مراسلاً أجنبياً وعربياً وصلوا إلى بلاد الشام للقيام بتغطية تحركات الإمبراطور أثناء رحلته إلى الدولة العثمانية[٢٣٩].

كما تم تشكيل ثلاثة لجان للإعداد لترتيبات رحلة الإمبراطور في كل من ولايتي سوريا وبيروت ومتصرفية جبل لبنان، وحددت هذه اللجان وفود الاستقبال من الرسميين والعسكريين وأعيان البلاد.

وقد بلغ عدد الجنود المستقبلين لموكب الإمبراطور ما بين (15000إلى 30000) جندي، والذين حصلوا لأول مرة على ألبسة عسكرية جديدة وليس هؤلاء الجند فقط هم الذين اكتسوا بحلة جديدة بسبب الزيارة المباركة لعظيم الإمبراطورية الألمانية، كذلك كان خط مدن بلاد الشام، التي أصلحت فيها الطرقات ورصفت من جديد وطليت الجدران العامة والخاصة والحوانيت.

ففي دمشق مثلاً تم إصلاح طريق المرجة–البرامكة، كما تم إصلاح (10 إلى 12 ميل، من طرقات دمشق الداخلية والخارجية، وبلغ عدد الحوانيت التي طليت بالألوان (5000) والجدران حوالي 2000 متراً مربعاً، وكما أصلحت الطرقات في المرفأ من محطة سكة الحديد حتى محلة النهر وفرشت بالرمال في مدينة بيروت، وفي فلسطين تم رصف طريق «يافا–القدس» كما فتحت طريق جديدة من القدس إلى جبل الزيتون من أجل مرور عربة الإمبراطور، ولتسهيل مرور موكب الإمبراطور وسعت الطرقات القديمة في كلٍ من بيروت والقدس وبعلبك، وهدمت العديد من المنازل القديمة فيها لهذا السبب، كما أُعد رصيف خاص طوله «70» متراً لرسو اليخت الإمبراطوري في ميناء حيفا، وحتى تم إعداد الاصطبلات من أجل الخيول في تلك المناطق[٢٤٠]، ويمكن القول ان المدن في بلاد الشام قد لبست حلة جديدة بسبب الزيارة الإمبراطورية المباركة إليها، كما أقيمت الزينات في كل أنحاء البلاد ابتداءً باستانبول انتهاءً

(239) سنو، المرجع نفسه، ص354.

(240) سنو، المرجع نفسه، ص356، والأسود، إبراهيم، الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، المصدر السابق، ص56، 57.

بفلسطين، وعلقت الأعلام الألمانية-العثمانية في أنحاء السلطنة، ونصبت أقواس النصر في كل مكان، وأُمر أن تضاء الأنوار في أنحاء البلاد أثناء مرور الإمبراطور في كل بقعة يمر فيه موكبه، وكذلك أُمر بإطلاق الألعاب النارية احتفاءً بالضيف المميز، ومن أجل سلامة الإمبراطور فقد اتخذت إجراءات مشددة خاصة، بعد حادثة اغتيال إمبراطور النمسا وانتشار إشاعات حول احتمال اغتيال الإمبراطور الألماني في مصر أو فلسطين، فهذه من الأسباب التي أدت إلى إلغاء زيارة الإمبراطور إلى مصر أثناء هذه الزيارة[٢٤١].

ثم تعين حرس خاص لحراسة الإمبراطور مكون من «500» من خيالة أرطغرل بقيادة الفريق «عبد الله باشا»، ووضع حوالي أربعة آلاف جندي للحراسة على الطريق من بيروت إلى دمشق، وأما في القدس فلقد وضعت 25 نقطة حراسة حول المخيم الذي نزل فيه الإمبراطور، ووزع الكثير من أفراد البوليس السري العثماني والشرطة لحماية الإمبراطور في المدن السورية ومرافئها، بالإضافة إلى «12» من رجال البوليس السري الألماني الذين وصلوا إلى يافا والقدس، ومُنع التجار الإيطاليون واليونان من النزول في المرافئ السورية واعتقل مجموعة من الأجانب المشتبه بهم في كلٍ من استانبول وبلاد الشام وخاصة الإيطاليين وبعض أفراد جماعة «تركيا الفتاة»[٢٤٢].

3- محطات الرحلة الإمبراطورية:

استغرقت زيارة الإمبراطور الألماني للسلطنة العثمانية ما يقارب الشهر من 16 تشرين الأول حتى 12 تشرين الثاني 1898م زار خلالها الإمبراطور العديد من الأماكن في الدولة العثمانية، بدأها بزيارة استانبول ثم انتقل إلى فلسطين وزار أهم المدن فيها وخاصة القدس وبيت لحم، ومنها انتقل إلى بيروت ثم بعدها أكمل الطريق براً عبر القطار إلى دمشق فبعلبك، ثم عاد إلى بلاده عبر ميناء بيروت.

- الإمبراطور في استانبول 17 تشرين الأول 1898-1316هـ حتى 22 تشرين الأول:

تأخرت السفينة الإمبراطورية في الرسو في ميناء استانبول بسبب هبوب عاصفة

(*241*) سنو، المرجع السابق، ص354، وحول إلغاء زيارة الإمبراطور إلى مصر، سنو، المرجع نفسه، ص370.

(*242*) سنو، المرجع نفسه، ص354، 355، وللتوسع أكثر من تفاصيل التجهيزات الأخرى للاستقبال الإمبراطوري، انظر سنو، المرجع نفسه، ص353، 354، 355، 356، والكتبي، المصدر السابق، الجزء الخامس عشر بالكامل حول تفاصيل التجهيزات وخطوات الاستقبال كاملة.

مفاجئة فوصلت في يوم الثلاثاء 18تشرين الأول، على الرغم من دخولها ميناء الدردنيل بحراسة البارجتين الألمانيتين «هيرتا» و«هيلا» في يوم الاثنين 9/17 فاستقبله الوفد العثماني على متن اليخت السلطاني عز الدين، وسط إطلاق السفن والقلاع العثمانية نيران مدفعيتها ترحيباً بالضيف الكريم(٢٤٣).

كان السلطان عبد الحميد الثاني في مقدمة مستقبلي ضيفه مع كبار رجالات الدولة عند دولمة بغجه (*Dolma bahcesarray*)، ثم سار الموكب وسط شوارع استانبول التي امتلأت بالمستقبلين والمرحبين بالإمبراطور الألماني متجهاً إلى حديقة قصر يلدز (*Yildiz saray*) حيث قصر الإمبراطور الضيف(٢٤٤) (قصر مراسم) وأول عمل قام به الإمبراطور وزوجته بعد وصولهما هو رد الزيارة للسلطان عبد الحميد الثاني في قصره(٢٤٥)، وقد قابل الإمبراطور الألماني السلطان العثماني ثلاث مرات خلال زيارته لاستانبول.

وكما قام الإمبراطور بجولة على أهم معالم استانبول (القرن الذهبي، أسوار المدينة، السوق الكبير، مسجد الأياصوفيا، والسلطان أحمد طبوقبو) وزار أيضاً معمل «هيريكيه» لصناعة السجاد، والمؤسسات الألمانية (السفارة الألمانية، والنادي، والمدرسة، والمستشفى).

وكانت أهم لحظات الزيارة هي حضور الإمبراطور لموكب خروج السلطان عبد الحميد الثاني لتأدية صلاة الجمعة في جامع الحميدية حيث شاهد هذا الموكب من شرفة قصره وألقى السلطان عبد الحميد التحية عليه أثناء الذهاب والعودة من الصلاة، ثم تبع ذلك عرض عسكري كبير، أراد السلطان عبد الحميد من خلاله أن يظهر تنظيم الجيش العثماني ومدى انضباطه، ولقد أبدى الإمبراطور إعجابه بهذا العرض(٢٤٦).

ختم الإمبراطور زيارته إلى استانبول في يوم السبت 22/9/1898-1316 هـ ، مودعاً بالحفاوة والتكريم الذي استقبل به هو وزوجته ومرافقيه وجاء السلطان بنفسه مودعاً

(*243*) الكتبي، المصدر نفسه ج15، ص464، 465، والأسود، المصدر السابق، ص228.

(*244*) سنو، المرجع السابق، ص327.

(*245*) الكتبي، المصدر السابق، ج15، ص469، 470 كما ذكرت الأميرة عائشة في مذكراتها «والدي السلطان عبد الحميد الثاني» «وكيف أنه عندما زار الإمبراطور هو وزوجته السلطان في قصره، أن أختها الصغيرة (الأميرة رفيقة) قدمت باقة الزهور، وأقيم الاستقبال رسمي ضخم للضيفين وكيف أن الأميرة الوالدة والأميرات الأخريات قاموا باستقبال الإمبراطورة، وكيف أعجبت الإمبراطورة بملابس الأميرة الوالدة وملابس الخزينة دار أسطى والكاتبات، وكذلك بالأواني التي قُدمت فيها القهوة». ص113-115.

(*246*) سنو، المرجع السابق، ص327، والأسود، المصدر السابق، ص42، 43، 44.

ضيفه العزيز، ولقد وصفت الصحف العثمانية لحظة الوداع بشكل مؤثر[٢٤٧]، ثم ركب الإمبراطور يخته (هوهنزولرون) مبحراً إلى فلسطين لتبدأ محطة جديدة من هذه الرحلة الهامة.

- **الإمبراطور في فلسطين 25 تشرين الأول إلى 4 تشرين الثاني 1898م-1316هـ:**

الثلاثاء 9/25 وصل الإمبراطور الألماني ميناء حيفا وكان في استقباله كلٍ من والي الشام وبيروت ومتصرف عكا وكبار رجالات الدولة والمدنيين والعسكريين وحوالي عشرين ألفاً من المواطنين، واستغرقت مدة الزيارة في فلسطين عشرة أيام جال خلالها على كلٍ من حيفا ويافا والقدس وبيت لحم وبعض المناطق الأثرية الأخرى، وصعد جبل الكرمل في حيفا، وزار القنصلية الألمانية في المدينة وديري الراهبات الكاثوليكيات والبروتستانتيات، كما التقى ألمان من «جماعة الهيكل» وتفقد مؤسساتهم كما استقبل الأب «بنغير» مدير المستعمرة الكاثوليكية الألمانية في الطبغة، وعلى صهوة جواده وصل الإمبراطور إلى يافا بكلٍ من عتليت وقيسرية في 26 تشرين الأول، ووصل اللطرون في يوم الجمعة وبات ليلة فيها، ثم وصل القدس في اليوم التالي في موكب عظيم ومهيب، وذكرت جريدة «عشرات الفنون» أن حوالي 200 ألف شخص كانوا في استقبال الإمبراطور في القدس[٢٤٨]، ولكن هذه الزيارة تركت أثرها على أسوار المدينة، حيث أن الإمبراطور رفض الدخول من أحد الأبواب المعروفة، ولذلك تم نقب السور وفتح باب خاص له، أصبح يعرف بالباب الجديد[٢٤٩]، استغرقت زيارة الإمبراطور إلى القدس يومي السبت والأحد، جال فيهما في كافة المناطق الهامة الدينية والتاريخية في القدس وشهد العديد من النشاطات احتفالاً بقدومه وخاصة من قبل مسيحي هذه المدينة من جميع الطوائف، فلقد استقبله

(*247*) سنو، المرجع نفسه، ص327، والأسود المصدر نفسه، ص46، 47، الكتبي، المصدر السابق، ج15، ص474-475. ذكر إبراهيم الأسود في كتابه «الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية» كيف أن السلطان عبد الحميد أصدر إرادة سنية أن يصدر عملة عثمانية بقيمة خمس ليرات ذهبية نُقش عليها الشعار العثماني وعبارات عن ملاقاة السلطان لضيفه الألماني وعلى الوجه الآخر الشعار الألماني بنفس العبارات بالخط الألماني، وكذلك صنعت ميداليات معدنية لإعانة الشهداء في الحرب وجرحاهم بحجم ربع ريال مجيدي وكذلك تشيد حوض للماء في الآستانة بناءً على رغبة الإمبراطور تذكاراً لزيارته حسب الرسم الذي وضعه جلالته (الأسود، المصدر السابق، ص47-48).

(*248*) سنو، المرجع السابق، ص358.

(*249*) نافذ أبو حسنة، زيارة الإمبراطور غليوم الثاني، مقال منشور في موقع المركز الفلسطيني للأعلام، (الحلقة 57).

بخطاباتهم كلٍ من بطاركة الطوائف الثلاث: اللاتين والأرمن والأرثوذكس. كما زار الإمبراطور كنيسة المهد في بيت لحم وصلى فيها كما حضر تدشين(٢٥٠) الكنيسة الإنجيلية الألمانية في تلك المدينة في يوم الاثنين / 31 تشرين الأول/ كما صعد جبل الزيتون وزار كنيسة القديس «جاورجيوس الإنكليزية»، ثم فيما بعد تسلم الإمبراطور قطعة أرض الدوروميثون في النبي داود(٢٥١)، بلغت مساحتها دونمين بنى عليها لاحقاً كنيسة «قيامة العذراء»، وهذه كانت هدية من السلطان عبد الحميد الثاني لصديقه الإمبراطور بمناسبة الزيارة، ولم تكن هذه المرة الأولى التي تهدى فيها جزء من أراضي القدس لإمبراطور ألماني، فلقد سبقه عمه السلطان عبد العزيز فقد قام بإهداء الإمبراطور «فريدريك ولهم» (*Friedrich Wilhelm*) ولي عهد بروسيا جزء من بيمارستان صلاح الدين والذي أنشأ عليه فيما بعد «كنيسة المخلص»(٢٥٢)، والتي قام الإمبراطور الألماني غليوم الثاني بتدشينها أثناء زيارته إلى القدس.وهكذا أسهم هؤلاء السلاطين بشكل أو بآخر في زرع كيانات استعمارية مصغرة في أرضنا العربية، من خلال الأستخفاف بقداسة هذه البقاع على أمتنا العربية والأسلامية وعدم الأدراك الصحيح لخطورة كيان استعماري صهيوني مسقبلا في المنطقة .

ومن المناطق التي قام الإمبراطور بزيارتها أيضاً في القدس دير الأرمني وبطريركية الروم الأرثوذكس، والحرم الشريف وجامع سيدنا عمر، والمسجد الأقصى، وبرك سليمان والمستشفى الألماني، ودار الأيتام السورية، وقبور السلاطين(٢٥٣).

ولقد أزعج الإمبراطور خلال زيارته ما شاهده من خلافات حادة بين المسيحيين البروتستانت والكاثوليك في القدس، ولقد عبر عن ذلك في رسالته إلى القيصر الروسي «نيكولاي الثاني» بقوله: «إن هذا الدين يستخدمه رجال الكهنوت كأداة سياسية وهذا يضر القضية المسيحية»(٢٥٤).

وعلى الرغم من إعلان الإمبراطور سابقاً أن الهدف من زيارة القدس وبيت لحم هو

---

(250) Ilber ortali: ikidost Hükümdar, op.cit, P192

(*251*) سنو، المرجع السابق، ص358، 359، والأسود، المصدر السابق، من ص60 إلى ص63.

(*252*) نافذ أبو حسنة، زيارة الإمبراطور غليوم الثاني، المرجع السابق، (ح57).

(*253*) الأسود، المصدر السابق، من ص68 حتى ص78، وسنو، المرجع السابق، ص359.

(254) Ilber ortayli: ikidost. opcit, P197,199.

وسيتم الذكر لاحقاً لتفاصيل لقاء «هرتزل» مع الإمبراطور الألماني أثناء زيارته إلى استانبول والقدس، وذلك في الفصل الرابع من الرسالة.

الحج إلى الأماكن المقدسة، ولكن في الحقيقة لم تكن فكرة الاطمئنان على المستعمرات الألمانية في فلسطين بعيدة عن خاطر الإمبراطور الذي حاولت حكومته تبديد مخاوف العثمانيين حول هذا الموضوع، ولقد دل على حقيقة هذا الأمر عدة أمور منها:

1- إظهار الإمبراطور سعادته برؤيته مستعمرة ألمانية في قلب الأرض المقدسة.

2- وعلى أثر هذه الزيارة وبتأثيرها الإعلامي في الأوساط الألمانية وخاصة اليهودية منها تأسست في مدينة «شتوتغارت» سنة 1317 هـ -1899م، جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين تحت رعاية البارون «فون ايلويكس هاوزرن» (*Von Aliuyks Huzrn*) ونتج عن الأمر جميع تبرعات بقيمة ثلاثة آلاف مارك حُولت إلى «جمعية الهيكل»، والتي اشترت قطعة أرض بالقرب من مدينة «اللد» مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة أنشأ عليها مستعمرة ألمانية عُرفت باسم «فيلهلما» غير بعيدة عن سكة حديد يافا/القدس. وسميت تيمناً باسم الإمبراطور ومن أجل الحصول على تبرعات مالية منه لدعمها ولكنه لم يهتم كثيراً بالأمر وهذا دفع بالجمعية «جمعية الهيكل» بطلب قرض من الحكومة الألمانية بقيمة مئة ألف مارك وقد رفض الطلب.

3- إنشاء مؤسسة الملكة «أوغستافكتوريا» (*Augusta Victoria*) في القدس، بدعم من الحكومة الألمانية وأنشأت هذه المؤسسة لتخليد ذكرى زيارة زوجة الإمبراطور إلى الأرض المقدسة وبنيت على الأرض التي أهداها السلطان للإمبراطور في القدس.

4- ويمكن القول بالنتيجة أن هذه الزيارة قد أثارت حمى الاستيطان في ألمانية وأصبحت هناك فئات تعمل من أجل التخطيط لوضع فلسطين من الحدود المصرية إلى رأس الناقورة شمالاً حتى سفوح جبل الشيخ شرقاً تحت حكم أمير أوربي مع عدم التعارض مع المصالح البريطانية والروسية في المنطقة، من دون ذكر لمصالح العرب أهل البلاد ولا حتى العثمانيين الذين تشكل فلسطين جزءاً من مملكتهم(٢٥٥).

وبذلك يمكن القول لم تكن هذه الزيارة شريفة النوايا بالنسبة للإمبراطور كما حاول أن يظهر في ذلك الوقت.

---

(255) أبو حسنة، المرجع السابق، ح75.

- الإمبراطور في بيروت 5 تشرين الثاني إلى 7 تشرين الثاني 1898م-1316 هـ:

أنهى الإمبراطور زيارته إلى فلسطين في 4 تشرين الثاني وغادرها بالقطار من يافا متجهاً إلى بيروت التي وصلها يوم السبت في الخامس من تشرين الثاني حيث استقبله حوالي 50 ألف من سكان المدينة. وكان على رأس المستقبلين والي بيروت والقنصل الألماني والمترجم، وكالعادة صحب الاستقبال إطلاق نيران المدافع احتفاءً بالضيف وتعليق الزينات وعزف الموسيقا الخاصة(٢٥٦)، وفي يوم الأحد صعد الوفد العثماني برئاسة شاكر باشا ورشيد بك يرافقهما عبد القادر قباني رئيس بلدية بيروت إلى اليخت الإمبراطوري وقدموا للإمبراطور هدية قيمة باسم مدينة بيروت وهي عبارة عن مصنوعات شرقية كُتب على غلافها العبارة العربية التالية: «تقدمة لحضرة حشمتلو إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا العظيمين من بلدية بيروت تذكاراً لتشريفهما في سنة 1316هـ/1898م».

وبعد الغداء قام الإمبراطور وزوجته بجولة في المدينة، فزار المستشفى البروسي والثكنة العسكرية وشاهد هناك عرضاً عسكرياً خاصاً، كما زارت الإمبراطورة المدرسة الألمانية لشماسات القيصر زفر (المدرسة البروسية)(٢٥٧).

أنهى الإمبراطور زيارته إلى بيروت في السابع من تشرين الثاني وركب بالقطار مع زوجته متوجهاً إلى دمشق، وقد استراح في محطة «عالية» حيث استقبله وفد رسمي برئاسة المتصرف «نعوم باشا» وبعد أن قُدمت له واجبات الضيافة والترحيب وحضوره عرضاً للفروسية والسيف، أكمل سفره باتجاه دمشق، وكان له استراحة أخرى في «معلقة زحلة»، حيث استقبله أكثر من 60 ألف شخص حسب ما أوردت جريدة «البشير» حيث تناول غداءه هناك ثم أكمل الطريق بالقطار إلى دمشق(٢٥٨).

- الإمبراطور في دمشق 7 تشرين الثاني حتى 10 تشرين الثاني 1898م-1316هـ:

ما إن وصل قطار الرحلة بالإمبراطور الضيف، محطة البرامكة، حتى بدأت المدافع تطلق نيرانها احتفاءً بالضيف الكريم وكان ذلك في يوم الاثنين 1898/11/7م، وعندما نزل من القطار كان في استقباله وفد رسمي على رأسه والي دمشق «ناظم باشا» و«شاكر باشا» و«فون لوتيكه» (*Von Lütike*) قنصل ألمانيا في دمشق، وعدد كبير من الوزراء

(*256*) الأسود، المصدر السابق، من ص78 إلى 80.

(*257*) سنو، المرجع السابق، ص359، والأسود، المصدر نفسه، ص79 حتى 86.

(*258*) الأسود، المصدر السابق، من ص87 حتى 98. وسنو، المرجع السابق ص359، 360.

والأمراء، والزعماء الروحيين وبلباسهم الرسمي وتلامذة المدارس ومئات الألوف من الناس، الذين احتشدت بهم شوارع دمشق من أجل الترحيب بالضيف، وسار الإمبراطور وسط هذه الجموع راكباً صهوة جواده والتحيات والهتافات تصدح من حوله(٢٥٩)، واجتاز شوارع دمشق حتى وصل الثكنة العسكرية التي نزل فيها طوال إقامته في دمشق، وذكرت «المقطم»: «كيف أن استقبال العاهل الألماني في دمشق كان حافلاً جداً، وأن أهالي المدينة أظهروا الابتهاج والسرور بقدومه، وهذا ما لا يشاهد عادة في الشرق، وأن المدينة زينت بأبهى زينة»(٢٦٠)، كما أن الإمبراطور نفسه كتب في برقية أرسلها إلى الدوق (دي باد) (**Die Bad**) فور وصوله إلى دمشق، قائلاً: «إن استقبالي في دمشق كان باهراً مدهشاً وتمنيت لو آخذ عن دمشق كيف نستقبل الملوك»(٢٦١).

وكما المعتاد قام الإمبراطور بجولة لأهم معالم مدينة دمشق، ففي الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء 11/8، زار الإمبراطور الجامع الأموي ثم توجه بعد ذلك إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، وكانت هذه أول زيارة لعاهل أوروبي لقبر صلاح الدين دلت على تقديره لهذا القائد البطل في التاريخ الإسلامي، وقدم له أكليل من البرونز (والذي استولى عليه لاحقاً لورنس العرب عندما دخلت القوات الإنكليزية دمشق 1327 هـ -1918م بعد خروج الأمير فيصل منها، حيث اعتبره غنيمة حرب وأرسله إلى المتحف الحربي البريطاني ولازال موجوداً هناك حتى الآن)(٢٦٢)، كما قدم له قبراً من المرمر كان المفترض أن يتم نقل رفاة صلاح الدين إليه ولكن لم يتم ذلك ومازال قائماً هناك بجانب القبر الأصلي، وساهم الإمبراطور في ترميم قبر صلاح الدين وتجديده(٢٦٣)، وأثناء الزيارة وضع الإمبراطورة باقة من الزهور على القبر كتب عليها بالألمانية: «ويلهلم الثاني قيصر ألمانيا، وملك بروسيا تذكاراً للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي»(٢٦٤).

(*259*) الأسود، المصدر السابق، ص98، ص100.

(*260*) سنو، المرجع السابق، ص360.

(*261*) الأسود، المصدر السابق، ص103.

(*262*) ولقد تقدمت سوريا بطلب لاسترجاع هذا الأكليل الذي هو رمز الاحترام من قبل عاهل أوربي للبطل صلاح الدين الأيوبي.

(263) http;//www.discover-syria.com/newa/735.

رحلة غليوم الثاني إلى الشرق عام 1898 في معرض بحلب وفي كتاب جديد للباحثين أوليفيه سالمون وحسين عصمت المدرس. / 11 كانون الأول/2008م.

(*264*) الأسود، المصدر السابق، ص104، 105. و ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit. P156***

كما زار الإمبراطور بيت أسعد باشا العظم وأعجب بجماله وجمال محتوياته وبعريته تجول الإمبراطور في المرجة بعد ظهر يوم الثلاثاء، كما حضر عرضاً عسكرياً مهيباً، وأعجب بما رآه من إتقان وترتيب وضبط وإحكام في الحركات، ثم عاد بعدها إلى سراي العسكرية، وفي الساعة الثالثة والنصف من نفس اليوم زار الإمبراطور بيت الوالي «ناظم باشا»، حيث أكرمه ناظم باشا بالطعام والهدايا الثمينة والمصنوعات الدمشقية الفاخرة، ثم في الساعة السابعة من ذلك اليوم حضر الإمبراطور مأدبة عشاء فاخرة أعدت خصيصاً لاستقباله في مبنى بلدية دمشق، حضرها كبار رجالات الولاية والأعيان والوفد المرافق للإمبراطور الضيف، وألقى الإمبراطور خطابه الأول في هذه المأدبة و«معبراً عن شكره لأهالي دمشق والاستقبال الباهر الذي قُوبل به، كما ولم ينسَ أن يوجه شكره وامتنانه للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني الراعي الأساسي لهذا التكريم وعبر عن محبته الخالصة للسلطان ولرعاياه من المسلمين المرتبطين بمقامه على حد تعبيره، وأكد أنه سيبقى محباً ومخلصاً للسلطان وداعماً له، ولشعبه ورعاياه الثلاثمئة مليون من المسلمين»[٢٦٥].

وفي يوم الأربعاء التاسع من تشرين الثاني، زار الإمبراطور الصالحية حيث أُعدت له هناك في منطقة عالية على سفح جبل قاسيون دكة أو مصطبة (والتي كانت هذه نواة لحي المهاجرين الدمشقي المعروف)، حيث وضع على هذه الدكة مضارب فخمة، قضى فيها الإمبراطور أكثر من ساعتين، حيث رأى دمشق بالكامل من هذا المكان العالي وأعجب بمناظر الغوطة، وبدت له الحارات والبيوت والقصور الدمشقية بأبهى مناظرها وخاصة مع مغيب الشمس وحضوره لهذا المنظر المهيب من قاسيون[٢٦٦].

أنهى الإمبراطور زيارته إلى دمشق يوم الخميس العاشر من تشرين الثاني، حيث

---

(265) لقد حاول الإمبراطور من هذا الخطاب أن يوضح موقفه من السلطان عبد الحميد الثاني ومن السلطنة العثمانية وحاول أن يكسب ود ومحبة المسلمين في العالم الإسلامي بذلك الوقت وهنالك من شبه هذا الخطاب بمنشورات نابليون بونابرت التي وزعها فور دخوله مصر في الحملة الفرنسية قبل 100 عام من تاريخ زيارة الإمبراطور الألماني للدولة العثمانية.

(266) عزيز العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط2، 2002، ص361.

وأثناء هذه الزيارة إلى حي الصالحية الدمشقي أبدى الإمبراطور إعجابه بجسر كان مقاماً على أحد فروع نهر بردى أسفل الصالحية (وهو ما يسمى بالجسر الأبيض التي ما زالت المنطقة مسماة باسمه حتى يومنا هذا) فما كان من الوالي ناظم باشا إلا أن قام بالأمر بتفكيك هذا الجسر حجراً حجراً وإرسالها في صناديق تعبيراً عن ترحيبهم وحفاوتهم بالإمبراطور الضيف.

غادرها بالقطار من محطة البرامكة، وحضر الوداع الوفود الرسمية والشعبية وأكثر من ألف من الفرسان العربية لحماية موكب الإمبراطور، ثم توجه بعدها إلى بعلبك(٢٦٧).

- الإمبراطور في بعلبك في 10 تشرين الثاني، والعودة إلى ألمانيا في 12 تشرين الثاني 1898م - 1316 هـ:

لقد تم توقيت وصول الإمبراطور إلى بعلبك مع المغيب، حيث أُعدت له المضارب للمبيت داخل القلعة عند «هيكل الشمس»، وكان المقصود أن يصل الإمبراطور بعلبك عند اكتمال القمر لكي تنير المكان وسط الهيكل ويظهر الإمبراطور فيه. ولقد أدهش هذا المنظر الإمبراطور وتعبير عن محبة السلطان عبد الحميد وصداقته للإمبراطور أمر بها بإقامة نصب تذكاري من المرمر وضع وسط أعمدة الهيكل، كُتب عليها: «من السلطان عبد الحميد الثاني، إمبراطور العثمانيين، إلى صديقه المعظم غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا وإلى الإمبراطورة أوغوسطا فكتوريا ذكرى صداقة متبادلة لا يغيرها الدهر، وذكرى في زيارتهما لبعلبك تشرين الثاني 1898»، ثم أقام الإمبراطور بتفقد القلعة، كما تفقد «هيكل الزهرة» و«الحائط الفينيقي» وبعد أن تناول الإمبراطور وزوجته طعام الغداء في المضارب ركبا القطار قاصدين بيروت عن طريق المُعَلَّقة وصلا بيروت في يوم السبت 12 تشرين الثاني وطبعاً استقبلا بالحفاوة والترحيب الكبيرين من قبل وفود رسمية وشعبية، وعند رصيف ميناء بيروت اصطفت العساكر المشاة والوزراء العثمانيين في القبة على الرصيف ومعهم القنصل الألماني وحشد من الناس وذلك من أجل وداع الإمبراطور وزوجته، وكما في الاستقبال أطلقت المدافع نيرانها معبرةً عن لحظات الوداع وكذلك عُزفت الموسيقا، ولوح الإمبراطور بيديه مودعاً وغادر البلاد العثمانية بمثل ما استقبل فيه من الحفاوة والتكريم.

وصل الإمبراطور برلين في 26 تشرين الثاني من سنة 1898، وقد كتبت جريدة «الأهرام» تقول: «وهكذا، انتهت هذه الرحلة العظيمة التي سيكون لها في التاريخ ذكرٌ خالد وأثر عظيم»(٢٦٨).

وكلمة أخيرة حول هذه الزيارة يمكننا القول أنها جاءت تعبيراً عن سياسة ألمانية الجديدة في عهد غليوم الثاني تجاه الدولة العثمانية، فلقد كانت تعبيراً عن تأييد

(267) الأسود، المصدر السابق، ص116 إلى ص119، وسنو، المرجع السابق، ص360.

(268) الأسود، المصدر السابق، من ص124 إلى ص126، وسنو، المرجع السابق، ص361.

الإمبراطور للدولة العثمانية وتأكيد سيادة السلطنة واستقلالها في وجه الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكاتها، على الرغم من سعيها للحصول على مستعمرات في الدولة العثمانية في وقت متأخر، وبذلك يمكن اعتبار وقوفها في وجه أطماع الدول الأوروبية ومساندة الدولة العثمانية هو من باب التنافس الاستعماري على المنطقة كما أسلفنا سابقاً في أكثر من باب، ومن ناحية أخرى كانت غاية الزيارة الحصول على امتيازات اقتصادية هامة في الدولة العثمانية وخاصة خط الحديد (*B.B.B*) الذي اعتبره الكثير من الساسة الألمان طريقاً للسياسة الألمانية في المنطقة مستقبلاً ونافذة لوضع قدم الألمان فيها، وأخيراً إن الإمبراطور الألماني استطاع بذكائه أن يستغل ميل السلطان عبد الحميد الثاني نحو الألمان وابتعاده عن الدول الغربية الأخرى بسبب أطماعها بدولته، بشكل جيد وفعال وأصبح الإمبراطور الألماني ودولته من أهم وأقرب الأصدقاء للسلطان والدولة العثمانية وللشعوب الإسلامية.

ب- البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني:

للحديث عن البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، لابد لنا في البداية من تقديم تمهيد تفصيلي نوضح فيه تطور الجيش العثماني منذ نشأته حتى فترة الدراسة، مستعرضين أهم نقاط التطوير والتحديث التي حدثت في تكوين هذا الجيش عبر المراحل الزمنية السابقة لفترة الدراسة (فترة السلطان عبد الحميد الثاني).

1- لمحة عن نشأة الجيش العثماني وتطوره حتى فترة الدراسة:

بدأ تكوين الجيش العثماني مع بداية تكون الدولة العثمانية في عهد السلطان عثمان الأول (1288-1326م) حيث تكون من مجموعة من الفرق العسكرية أهمها:

1- آقنجي (القوات الخفيفة من الخيالة)[٢٦٩].

2- البيادة: (وهي فرقة المشاة)[٢٧٠].

(*269*) آقنجي (*Akincilar*): اسم أطلق على القوات الخفيفة من الخيالة العثمانية وكانوا يتمركزون على المناطق الحدودية للقيام بأعمال الهجوم والحصول على الأسرى والأموال والمعلومات لإرسالها إلى مركز الدولة (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1421 هـ /2000م، ص22).

3- الفرسان: (وهي أهم الفرق في الجيش العثماني في ذلك الوقت وتكونت من قسمين: الفرسان المختارين والسباهية[٢٧١]، وكانت المعتمد عليها في الحروب)[٢٧٢].

استمر تكون الجيش العثماني هكذا حتى جاء أورخان بن عثمان (762/725 هـ - 1360/1324م) حيث قام بتأسيس فرقة الانكشارية[٢٧٣] (الجيش الجديد)، والذي تكون من الأسرى الذين تتراوح أعمارهم بين (15 إلى 25 سنة)، وكانوا يرسلون إلى الأسر الفلاحية التركية لتعلم اللغة التركية والدين والعادات والتقاليد والأعراف، ثم يرسلون إلى «مؤسسة العجم» أو «أوجاق العجم»[٢٧٤] وفي هذه المؤسسة العسكرية يخضع هؤلاء الفتيان إلى التدريبات العسكرية اللازمة[٢٧٥] وتنشئهم التنشئة الخاصة التي تجعلهم مؤهلين للعمل في المؤسسات العسكرية للجيش وحتى مؤسسات الدولة العليا، فلقد كان في كثير من الأحيان كبار رجالات الدولة من قادة الجيش الإنكشاري[٢٧٦] حتى قيل أن الحكومة العثمانية والجيش العثماني وجهان لعملة واحدة[٢٧٧]. ولقد اندرجت كل أقسام وأنواع

---

(270) البيادة (*Ayade*): المشاة من أفراد الكتائب العسكرية (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، المرجع السابق، ص68).

(271) السباهية (*Sipahi*): الخيالة والفرسان في الجيش العثماني، واصطلح على استخدامه للدلالة على الخيالة صاحب الأرض الميري، الذي يشترك في الحرب مع أفراد من الذين كلفوا بإحضارهم للحرب (صابان، المرجع السابق، ص134).

(272) عبد الرزاق، أحمد بهاء، نشأة وتطور الجيش العثماني (الانكشاري)، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، **.http//atldc.kuiraq.com**

(273) الإنكشارية (يني جري: *Yeniceri*): بمعنى القوات الجديدة، مصدرها الدرويش حاج بكتاش لي، ويقال أن أروخان بن عثمان (727-761هـ) قد اصطحب الفرقة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن هذا الشيخ ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم اسماً، وهي فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم ما بين السادسة والخامسة عشرة من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوربا في وقت معين من السنة، وقد قدمت الإنكشارية خدمات كبيرة للدولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم فسدت وتمردت على الدولة فقضى عليها السلطان محمود الثاني 1826م (صابان، المرجع السابق، ص41).

(274) أوجاق: كلمة تركية لها عدة معان: منها أنه أطلق على الصنف من الجند كالسباهية وهم فرق من العساكر في الجيش العثماني. (صابان، المرجع السابق، ص42).

(275) محمود عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، المرجع السابق، ص39-40.

(276) مصطفى عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص41.

(277) راغب السرجاوي، الخلافة العثمانية، موقع ملتقى بني الحارث. **http://www.hathi.org/articles**
..محمد الصلابي، الدولة العثمانية، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2003، ص35.

الجيش العثماني تحت اسم الإنكشارية وسمي الجيش العثماني بـ«الأوردي الهمايوني» وسميت الاختصاصات بـ«أوجاق» وقُسمت الأوجاقات إلى سبعة أقسام هي:

1- يكجريلير: (يني تشاري لر) الجند الجديد.

2- عجمي أوغلانر (أولاد الأعاجم) = Acenioglanlar(٢٧٨).

3- جبه جيلر «المدرع»(٢٧٩).

4- طوبجي لر «المدفعية»(٢٨٠).

5- طوب أرابه جيليري «عربات المدفعية».

6- خمبره جيلير «سلاح الذخيرة»(٢٨١).

7- سقالر «السقاؤون».

وكل هذه الأوجاقات تشكلت بالأساس من «الدفشرمة»(٢٨٢)، ولقد تأثرت التشكيلات الإنكشارية والمؤسسة العسكرية العثمانية ككل بالبكتاشية(٢٨٣).

---

(278) عجمي أوغلانر: الأولاد المجلوبون من النصارى عن طريق الدفشرمة بغية استخدامهم في الجيش العثماني (صابان، المرجع السابق، ص151).

(279) جبه جي (**Cebeci**): صانع الأسلحة ومصلحها، ويطلق على نوع من العساكر من أفراد قابي قولو، وظيفتهم توصيل الأسلحة إلى العساكر حتى الصفوف الأمامية أثناء الحروب، وسمي قائدهم جبه جبي باشي (**Cebeci basi**) وعلى تنظيمهم (**Cebeiocagi**). (صابان، المرجع السابق، ص82).

(280) طوب (**Top**): الاسم العام للأسلحة النارية. وعلى كل سلاح يطلق قذائف حديدية أو حجرية استخدام المدفع الأول مرة عند العثمانيين قبل معركة كوسافا الأولى 1389م وتطور في عهد محمد الفاتح وبلغ أوجه في عهد سليمان القانوني وكانت له أنواع كثيرة زربان - شقلوز... وغيرها. (صابان، المرجع نفسه، ص148-149).

(281) خمبرة (**Humbara**): اداة لقذف القذائف، وخمبر جي: قاذف القنابل، وخمبره كلمة فارسية معناها مدفع صغير. (صابان، المرجع نفسه، ص104).

(282) الدفشرمة (**Devsirme**): مصطلح أطلق على أولاد النصارى الذين تم جلبهم للالتحاق بالسلك العسكري بشكل خاص وتتراوح اعمارهم بين (8-15 سنة) وأحدث في عهد بلدرم بايزيد بعد الهزيمة في معركة أنقرة وكانوا بالبداية يجلبون من رعايا الدولة [illegible] البانيا واليونان وبلغاريا وصربيا والبوسنة والهرسك والمجر، ثم في نهاية القرن الخامس عشر بدئ بجلبهم من [illegible] ارى الأناضول ثم عمم الأمر على كافة رعايا الدولة من النصارى في القرن السابع عشر (صابان، المرجع نفسه، ص115).

(283) محمود عامر، المرجع السابق، ص40-44.

البكتاشية: طريقة صوفية أسسها الشيخ «محمد بن إبراهيم أتا» الشهير بالحاج بكتاش المتوفى سنة 1336م، وقد كثر أتباع البكتاشية في تركيا، اتصلت البكتاشية بفرقة الإنكشارية التركية. وقد سار السلطان التركي أورجان مع فرقة الإنكشارية إلى الحاج بكتاشي، وطلب منه أن يباركها فوضع الشيخ يده على رأس أحد جنودها ودعا لهم، ومن هنا سمي الإنكشارية أنفسهم بالبكتاشية. وتوثقت العرى بين الطريقة البكتاشية وأقوى فرقة جيش في الدولة العثمانية حينها، وكان لكل تكنة عسكرية إنكشارية مرشد بكتاشي، كما أقيمت تكية بكتاشية قرب كل معسكر للإنكشارية،

إن تطور الجيش العثماني لم يكن بالقدر الكافي لمواكبة التطورات في الغرب ومجاراة القوى العظمى في قواها العسكرية وتطورها المتسارع ويمكننا القول أن الجيش العثماني تمتع بسمعة عسكرية قوية بين خصومه الأوروبيين حتى منتصف القرن السادس عشر ويعود ذلك إلى المنظومة العسكرية المحكمة الترابط[٢٨٤] التي أسلفنا التفصيل عنها وهي بمجملها ما يعرف بالجيش الإنكشاري الذي أرهب أعداء الدولة الأوروبيين، وكذلك إلى قوة السلطان باعتباره رأس الهرم في التنظيم العسكري والإداري وكذلك قوة الدولة المركزية[٢٨٥]، وبقي الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر حيث بدأ الضعف يدب في أركان هذه المؤسسة القوية وتحولت هذه القوات التي كانت ترهب أعداء الدولة العثمانية إلى مصدر رعب وقلق لسلاطينها[٢٨٦].

ولقد ازدادت قوة الإنكشارية وازداد شغبهم وإزعاجاتهم بعد وفاة السلطان سليمان القانوني، وتوقف الفتوحات والتوسعات في الدولة فاقتصر دورهم على التمردات والعصيان والاعتداء على الأموال والأرواح حتى أنهم أصبحوا يتدخلون في سياسة الدولة وشؤون الحكم، وجرت عدة محاولات للوقوف في وجههم والقضاء على قوتهم والعمل من أجل القيام بإصلاحات داخل المؤسسة العسكرية للدولة العثمانية، فمنهم من دفع حياته ثمناً لذلك مثل السلطان عثمان الثاني (1032/1028 هـ - 1622/1618م) ومنهم من اكتفى بتغييرات وإصلاحات بسيطة مثل السلطان مراد الرابع (1050/1033 هـ -1640/1623م) وقام بتخفيض عدد جنوده إلى النصف الذين كان يبلغ عددهم 70 ألفاً[٢٨٧]، وألزم جنود الإنكشارية بالالتزام بالطاعة ومنعها من التجاوزات[٢٨٨].

وبذلك تسلطت البكتاشية على الإنكشارية تسلطاً تاماً إلى أن قضى السلطان محمود الثاني على نفوذ أتباع هذه الطريقة ومشايخها على الإنكشارية والدولة سنة 1826م. (ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 2004، ص183، 184).

(*284*) ثريا الفاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، مراجعة عامر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2008، ص170.

(*285*) نزار قازان، سلاطين بني عثمان (بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م، ص10.

(*286*) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، المرجع السابق، ص29.

(*287*) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، المجلد 1، ص406.

(*288*) محمود عامر، مرجع سابق، ص162.

2- أولى المحاولات الجادة لتطوير وإصلاح الجيش العثماني:

لقد كانت أولى المحاولات الجدية لتطوير وإصلاح الجيش العثماني (الإنكشاري) في القرن الثامن عشر حيث اعترفت الدولة العثمانية بالتفوق العسكري للدول الأوروبية وذلك من خلال قيامها بمحاولات إصلاحات عسكرية حقيقية في الجيش عن طريق الاستعانة بخبراء أوروبيين للاستفادة منهم في تطوير الجيش وإصلاحه.

وكانت أولى هذه المحاولات في عهد السلطان محمود الأول (1116/1142 هـ - 1704/1730م) حيث تم استدعاء الخبير الفرنسي الكونت «دي بونيفال» (***De Boinfal***) ودخل في خدمة الدولة العثمانية واعتنق الإسلام وتسمى باسم «أحمد»، ثم منحته الدولة رتبة الوزارة فأصبح يُعرف باسم «أحمد باشا»، وأصبح رئيساً لجماعة الخمبرجيه[٢٨٩]، فأعاد تنظيم أوجاق الخمبرجيه، وقسمه إلى بلوكات وطوابير وآلايات[٢٩٠] وأحدث مدرسة عسكرية في منطقة الأسكودار (***askudar***) لتخريج الضباط وهي نواة المدرسة التي شُكلت أيام السلطان سليم الثالث (1204/1222 هـ -1789/1807م) والتي عُرفت بـ«دار الهندسة البرية الهمايونية». وكانت المرة الثانية في أيام السلطان مصطفى الثالث (1171/1188 هـ - 1757/1774م-1774م)، حيث استدعت الدولة العثمانية البارون «دي توت» (***De Tout***) من فرنسا وكلفته بإصلاح أوجاق المدفعية، وقام هذا الخبير بإصلاح تشكيلات فرق الاستحكام وبناة الجسور، كما قام بتشكيل صف عسكري جديد عُرف باسم المدفعية السريعة (سرعت طوبيليري)، كما أصلح الطوبخانه[٢٩١]، وأعاد ترتيبها ودرب جنودها واعتبر إنشاء «دار الهندسة البحرية الهمايونية» في عهد مصطفى الثالث من أهم التحديثات للجيش في عهده سنة 1187 هـ -1773م، وأُعيد تنظيم جماعة المدفعية

(*289*) الخمبرجيه: خمبرجي (***Humbaraci***): هو قاذف القنابل، وهي فئة من الإنكشارية، وكانت عبارة عن ثلاثة أقسام تابعة لكبير الخمبرجيه. (سهيل صابان، المرجع السابق، ص104).

(*290*) بلوك (***Bölük***): هي وحدة عسكرية مازالت تستخدم بتركيا تعني الفوج.

وطابور (***Tabur***): الوحدة العسكرية من المشاة في الجيش العثماني وكانت تضم أربع فرق. =

= وآلاي (***Alay***): المفرزة العسكرية وهي تعني الوحدات العسكرية ما بين الكتيبة واللواء، وقد عُد الآلاي الواحد ثلاثة كتائب من المشاة وكل كتيبة يتكون من ثمانية أفواج، وعُد خمسة أفواج من الخيالة آلايا، أما المدفعية فقد عُد ست بطاريات منها آلايا. (صابان، المرجع السابق، ص65، 147، 22، 23).

(*291*) الطوبخانه: الطوبجي، مدفعجي أو مطلق المدفعي، وطوبجيلق، سلاح المدفعية، مؤسسة المدفعية والطوبخانه، صب المدفعية، مسبك المدافع، معمل المدافع (محمود عامر، قاموس اللغة العثمانية (عثمان-عربي)، دار الصفدي، دمشق، ط1، 2000، ص287).

السريعة (سرعت طوبجيليري) وأنشئت مدرسة (سلاح المهندسين 1199 هـ -1784م) في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1204/1188 هـ - 1789/1774م)[٢٩٢].

ولكن أهم محاولات الإصلاح كانت في عهد السلطان سليم الثالث (1222/1204 هـ - 1807/1789م) حيث قام بتشكيل جيش جديد على نمط الجيوش الأوروبية الحديثة، وكان مرادفاً للجيش الإنكشاري كانت غايته إضعاف الجيش الإنكشاري والقضاء عليه، كما أمر ببناء القلاع والحصون وتجديد السفن الحربية وتقوية الترسانة الحربية لجيشه بالمعدات اللازمة، وافتتح عدة مدارس عسكرية واستقدم المهندسين السويديين والفرنسيين وأمر بنصب مدافع جديدة بالاستعانة بخبراء فرنسيين، ولكن بالرغم من كل ذلك استطاعت القوى المتنفذة في الدولة من رجالات الإنكشارية «التي لم يرق لها هذه التغيرات» من أن تحبط هذه المحاولة وتفشلها وأن يتم إلغاء النظام الجديد للجيش 1223 هـ -1808م[٢٩٣]. وأمام هذه القوة المتزايدة للإنكشارية في الدولة العثمانية وعجز كثير من السلاطين من إضعافها أو القضاء عليها باعتبارها سبباً واقعياً في عدم تطوير الجيش العثماني بشكل فعلي وهذا أدى بالنتيجة إلى إضعاف الدولة العثمانية ككل فكان لابد من عملية إصلاح حقيقية وجذرية تقوم بالقضاء على هذه القوة التي أصبحت عبئاً على الدولة العثمانية بعد أن كانت مصدر قوتها وسيادتها، فجاء السلطان محمود الثاني (1255/1223 هـ -1808 /1839م) لينجح في القضاء على الإنكشارية وإلغائها (1243 هـ -1826م)، وأحدث مكانة تشكيل عسكري جديد سمي (عساكر منصوره محمديه)[٢٩٤]. وبذلك طويت مرحلة طويلة من تاريخ الجيش العثماني كان العنصر الوحيد المسيطر فيها هو الإنكشارية لتبدأ مرحلة جديدة لتشكيل الجيش العثماني الحديث على نمط الجيوش الأوربية المعاصرة لتلك المرحلة.

---

(292) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، المجلد الأول، ص406، 407.

(293) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع نفسه، ص407، 408، وانظر أيضاً: محمود عامر، المرجع السابق، 186.

(294) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، ص409.

❖ العساكر المنصورة المحمدية (*Asakir-Imansure-Mahammedye*): الاسم الذي أطلق على تشكيلات العساكر المنظمة بعد إلغاء الإنكشارية على يد السلطان محمود الثاني 1826، وكانت تتكون من ثمانية أقسام أو قطع، أطلق على الواحدة ترتيب، يرأس كل واحد منه مقدم، ويرأسه جميعاً أميراً مراء وكان كل ترتيب يتكون من ستة عشر صفاً، يقع كل صف تحت إمرة نقيب في خدمته ملازمان اثنان ويتوافر في كل ترتيب مدفعية. (صابان، المرجع السابق، ص154، 155).

3- تطور الجيش العثماني بعد إعلان التنظيمات (1255 هـ -1839م):

إن من أهم التطورات في الجيش العثماني بعد إعلان قانون التنظيمات[٢٩٥]، هو إقرار الخدمة العسكرية باعتبارها واجباً وطنياً، ووضع قانون القرعة للدخول في الجندية، كما خفضت مدة الخدمة إلى خمس سنوات بموجب قانون صدر 1259 هـ - 1843م، وأضيف إلى القوات البرية التي كانت مكونة من خمس فيالق، فيلقين آخرين هما فيلق العراق والحجاز سنة 1264 هـ -1848م، واستعانت بالنظم الفرنسية لتطوير وحدات المشاة والخيالة، ولتطوير المدفعية استعانت بالنظم البروسية، وفي سنة 1263 هـ -1847م فُرضت الجندية على غير المسلمين الذين كانوا سابقاً يدفعون الجزية بدلاً من الخدمة في الجيش العثماني، ولكن في سنة 1273 هـ -1856م أعفي غير المسلمين من الخدمة العسكرية مقابل دفع ضريبة عُرفت بـ«البدل العسكري»

واستمر الاهتمام بالجيش والشؤون العسكرية في عهد السلطان عبد العزيز (1292/1278 هـ -1861/1875م) حيث ألبس الجيش العثماني زياً عسكرياً جديداً وجُهز بالأسلحة الحديثة وأُصلحت الطوبخانه والمدارس العسكرية، وفي سنة 1286 هـ -1869م قسم الجيش العثماني إلى ثلاثة أقسام وهي: النظامية والرديف والمستحفظة، وقسمت القوات البرية العثمانية كما أسلفنا إلى سبع فيالق (جيوش) وهي:

جيش الخاصة[٢٩٦] في «استانبول»،

وجيش الطونة ومركزه في «شمني»،

والثالث هو «جيش الروملي» ومركزه «مناسة»،

والرابع «جيش الأناضول» مركزه «أرضروم»[٢٩٧]،

والخامس «جيش الشام» ومركزه «دمشق»،

---

(295) خط شريف كلخانه (*Gülhanehatt-Hümayünu*) نسبة إلى قصر كلخانه (قصر الزهور) الذي قرأ فيه مصطفى رشيد باشا فرمان السلطان عبد المجيد (1833-1861م) المشهور الذي أعلن فيه رسمياً البدء بإجراء تغيرات جذرية في جميع مؤسسات الدولة، وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق، دون النظر الى أديانهم ومذاهبهم أو انتمائهم القومي، وكان هذا أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوربية. (صابان، المرجع نفسه، ص101، 102).

(296) جيش الخاصة (*Hassa ordusu*): الاسم الذي أطلق على الجيش الأول الذي كان يعسكر في استانبول قبل حركة الدستور العثماني (1908) وكان مكلفاً أيضاً بحماية القصر. (سهيل صابان، المرجع السابق، ص89).

(297) أرضروم (أرض الروم): مدينة تقع شمال شرق تركية 48٪ من سكانها أكراد والبقية شركس وأرمن حالياً. ويكيبديا ***www//arb.wikipidia***.

والسادس «جيش عربستان» ومركزه «بغداد»،
والسابع «جيش اليمن ومركزه في «اليمن».

واعتمد الجيش العثماني في تعليمه في ذلك الوقت على المناهج البروسية، واستعانوا بالضباط الأجانب، وتأسست في عهد السلطان عبد العزيز نظارة الحربية «حربية نظارتي»، وشُيد بناء جديد للكلية الحربية «حربية مكتبي»[298]. واستمرت أعمال التجديد والتحديث في الجيش العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1326/1293 هـ - 1908/1876م) والتي سيكون لها شرح مفصل لاحقاً.

وحيث سيتم التركيز على التعاون الألماني-العثماني في عهد عبد الحميد الثاني من أجل تطوير الجيش العثماني وتحديثه والمحاولة لجعله مجارياً لجيوش عصره من الجيوش الأوروبية الحديثة والمتطورة جداً في ذلك الوقت والتي حققت الغلبة والتفوق عليه في كثير من الميادين وساحات القتال في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ الدولة العثمانية.

4- الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني قبيل فترة عبدالحميد الثاني:

بعد وفاة السلطان سليمان القانوني وانتهاء عصر القوة للدولة العثمانية وبداية مرحلة الضعف التي كان من أهم أسبابها ضعف بنية الجيش العثماني الذي كان العماد الأساسي لقوة الدولة ومن أجل ذلك رأينا سابقاً كيف حاول العديد من السلاطين العثمانيين اللاحقين القيام بعدة محاولات من أجل إصلاح هذا الجيش وإعادته إلى عهد قوته القديمة ولكن هذه المحاولات بمجملها لم تصل بالدولة إلى الدرجة التي تعيدها إلى مصافي الدول القوية بين أقرانها في ذلك الوقت، ولقد نجح لحد ما كلٍ من السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني بأن يعيدا لجيش الدولة العثمانية بعضاً من قوته عن طريق القيام بعض التحديثات والتطويرات في بنية وتكوين هذه المؤسسة مستعينين بالخبرات الأوروبية التي كانت قد سبقت العثمانيين بزمن بقوتها العسكرية وأمام ازدياد هزائم القوات العثمانية أمام أعدائها وخاصة بعد هزيمتها أمام قوات محمد علي والي مصر في أيام السلطان محمود الثاني كان من رأي الأخير أن يقوم بتغيرات جذرية في بنية جيشه وخاصة بعد أن لحقت بها هزيمة أخرى أمام القوات اليونانية في معركة نافارين المدعومة بالقوات الأوروبية من ورائها، فاتجهت أنظاره إلى أوروبا من أجل الاستعانة بخبراء منها من أجل

---

(298) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، المجلد الأول، ص410، 411، 412.

تطوير جيشه[299]، وكان له ما أراد كما أسلفنا سابقاً حيث قام بالقضاء على الجيش الإنكشاري ليحدث مكانه جيشاً حديثاً على النمط الأوروبي (جيش العساكر المنصورة المحمدية).

أما بالنسبة لبدايات التعاون العسكري بين الدولة العثمانية وألمانية فيبدو أن بداية العلاقات السياسية التي مهدت لعلاقات عسكرية فيما بعد بدأت في مرحلة «حرب السنوات السبع»[300] (1756-1763م)، وذلك عندما حاولت بروسيا جر الدولة العثمانية إلى عقد تحالف معها موجهاً ضد روسيا والنمسا، ولكن هذه المحاولة لم تنجح بسبب ضعف الدبلوماسية البروسية في الآستانة من جهة وبسبب عدم رغبة الباب العالي في التورط «بالمسألة الأوروبية». من جهة أخرى، ولكن بالرغم من فشل بروسيا في جذب العثمانيين إلى طرفهم في ذلك الوقت، إلا أنها ولأسباب تتعلق بالتوازن الأوروبي عملت جاهدة على دعم الدولة العثمانية ومساعدتها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وذلك في تصديها للخطر الروسي[301].

أما عن أولى المساعدات العسكرية للدولة العثمانية من قبل الألمان فكان في عهد السلطان «سليم الثالث» (1789-1807)، الذي استعان بخبراء بروسيين من أجل تطوير منظومة المدفعية وتدريب ضباط هذا الاختصاص وتطويره[302].

أما المرة الثانية فكانت في عهد السلطان محمود الثاني، فقد شهدت هذه المرحلة نقطة تحول مهمة في السياسة الألمانية تجاه المسألة الشرقية والدولة العثمانية، ولعبت الدبلوماسية البروسية دور الوساطة في مفاوضات السلام التي جرت بين الدولة العثمانية وروسيا عام 1245 هـ -1829م وذلك أثناء عقد صلح أدرنة في نفس العام. حيث أوفدت الجنرال موفلينغ (*Müffling*) للقيام بهذا الدور[303]. كما حصلت الدولة العثمانية على

---

(299) Ilber ortayli: Osmanli Imparator Luğu'nada Alman Nüfuzu, istanbol, 1981, Osmani, Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op-cit. P.105

(*300*) حرب السنوات السبع (1756-1763): حرب جرت بين كل من بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا النمسا روسيا السويد سكسونيا، ودخلت أسبانيا والبرتغال متأخرة هذه الحرب. وكانت من أسبابها المنافسة الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا في أمريكا، والسبب الثاني الصراع حول السيطرة والنفوذ في ألمانيا قبل توحدها. انتهت هذه الحرب بعد معاهدة باريس 1763 وثبتت بروسيا الجديدة كدولة عظمى. (**www.ar.wikipedai.org**).

(*301*) سنو، عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص33، 34.

(302) Ilber ortayli: Osmani, Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu.op.cit. P.169

(*303*) علي محافظة، المرجع السابق، ص34.

مساعدات عسكرية من الدولة البروسية (الألمانية) في الفترة ما بين (1250/1255 هـ - 1834-1839م) حيث وافق الإمبراطور الألماني فريدريك وليم الثالث (***Friedrich Wilhelm III***) على إرسال بعثة عسكرية ألمانية برئاسة الكابتن في الحرس الملكي البروسي هلموت فون مولتكه (***Helmuth von moltke***)، إلى الدولة العثمانية وذلك من أجل تدريب الجيش الجديد الذي أنشأه السلطان محمود الثاني (جيش العساكر المنصورة المحمدية) والذي استوحي نظامه من الجيش البروسي[٣٠٤].

وصلت البعثة الآستانة في سنة 1251 هـ -1835م في زيارة خاصة كانت محددة بستة أشهر فامتدت لتصل إلى أربع سنوات عمل فيه «مولتكه» مستشاراً عسكرياً في الدولة العثمانية وكانت مهمته تقوم على إعادة تنظيم الجيش العثماني والعمل على تدريب القوات الجديدة حسب الأساليب الدفاعية الأوروبية الحديثة، ولقد كان للقائد «مولتكه» دوراً هاماً في تنظيم دفاعات الجيش العثماني في شمال بلاد الشام والأناضول، وذلك قبيل معركة نصيبين سنة 1255 هـ -1839م بين الجيش العثماني وجيش محمد علي باشا والي مصر[٣٠٥].

وهكذا نرى أنه اعتباراً من هذه المرحلة بدأت الدولة العثمانية بتوجيه أنظارها إلى الاستعانة بالخبرات العسكرية نحو بروسيا وذلك بسبب عدة عوامل، منها : محاولة محمود الثاني القيام بتطوير جيشه وتغيره على النمط الأوروبي وإعجابه بمستوى الجيش البروسي في ذلك الوقت، وأيضاً سبب آخر أكثر أهمية ألا وهو قيام روسيا بعرقلة استعانة الدولة العثمانية بمستشارين عسكريين بريطانيين، وأيضاً إحراز الجيش البروسي التقدم العسكري وضخامة جيشه ابتداءً من تلك المرحلة، كل هذه العوامل عملت على زيادة تورط بروسيا (ألمانيا) في المسألة الشرقية وبتوطيد علاقاتها أكثر مع الدولة العثمانية[٣٠٦] التي ستطور أكثر مع الوقت كما سنرى فقامت بإرسال العديد من الضباط الألمان فيما بعد للدولة العثمانية سنة 1253 هـ -1837م ومنهم القادة (فيشر (***Fischer***) ومولباخ (***Molbach***) وفون فنكه(***Von Winte***)) وكان هؤلاء يرسلون للعمل في الدولة العثمانية مع الحفاظ على رتبهم وأحوالهم في الجيش الألماني[٣٠٧].

---

(304) Ilber ortayli, ikipost Hükümdar, op.cit, P.59

عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص34.

(*305*) سنو، المرجع نفسه، ص34.

(*306*) المرجع نفسه، ص34.

(307) Ilber ortayli, Osmani Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op.cit, P.105

ثم بعد مرحلة محمود الثاني جاءت مرحلة التنظيمات وقد فصلنا سابقاً كيف انعكست هذه المرحلة بشكل كبير على الجيش العثماني وعلى العمل على تطويره وبالتالي ازداد التعاون العسكري ما بين الدولة العثمانية وبروسيا، حتى بدا الجيش العثماني مقلداً للجيش البروسي في معظم شؤونه من مسائل تدريبية وتجهيزات عسكرية وحتى اللباس.

فالمدارس العسكرية الحديثة التي أنشأت في تلك المرحلة جيء بالخبراء الفرنسيين والبروسيين من أجل الإشراف على هذه المدارس والكليات، وأعطي الجيش العثماني لباساً عسكرياً موحداً مستوحى من لباس الجيش البروسي، وصدر قانون الخدمة الإلزامية المستوحى من القانون البروسي لسنة (1230 هـ -1814) والذي حُددت فيه سنوات الخدمة الإلزامية العسكرية التي كانت تجرى بالقرعة حيث يخدم المجند خمس سنوات، والاحتياطي مدته (7 سنوات) ويُسرح العسكري في سن (32)، وفي سنة (1286 هـ-1869م) تكون الجيش العثماني من ثلاثة فئات بالنسبة للخدمة العسكرية وهي:

خدمة عاملة (نظامية لمدة أربع سنوات)، الاحتياطي (7 سنوات)، والحرس (مستحفظ) ويبقى لمدة (8 سنوات)، وهذا التقسيم يجاري نظام الجيش الألماني (البروسي) وبالمجمل يمكن القول أنه حتى ثمانينات القرن التاسع عشر كان الجيش العثماني يأخذ عتاده وأساليبه العسكرية والخبراء من بلدان أوروبية مختلفة (بريطانيا - فرنسا - بروسيا)[٣٠٨].

5- الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في عهد عبدالحميد الثاني (البعثات العسكرية):

ابتداءً من سنة 1277 هـ -1860م بدأ الجيش الألماني يحرز تقدماً ملحوظاً نتيجة لتقدم الدولة الألمانية ونهضتها في مختلف المجالات الاقتصادية والعلمية وبالتالي العسكرية، فسجل الجيش الألماني قفزة نوعية على الصعيدين الأوروبي والعالمي، وبدأ يحرز تقدماً ونقلة نوعية في خبرة قواته البرية والبحرية، على الرغم من المنافسة الكبيرة من قبل البحرية البريطانية وقواتها العسكرية على الساحة الأوروبية وكذلك القوات الفرنسية والروسية ومع تطبيق الدولة الألمانية لمبدأ الخدمة الإلزامية في الجيش، جعل نسبة الاحتياطي من جيشها كبيراً جداً فقد بلغ في سنة (1283 هـ -1866م) حوالي (300) ألف جندي، وقبيل الحرب المشهورة بين ألمانيا وفرنسا في سنة (1287 هـ -1870م) أصبح

(308) مانتران، روبير، المرجع السابق، ج2، ص96، 97، 98، وص223.

أعداد أفراد الجيش الألماني ما يقارب مليون ومئتا ألف جندي، وبعد الانتصار الكبير الذي أحرزته القوات الألمانية على القوات الفرنسية في هذه الحرب وتوحد ألمانية في نفس السنة على يد مستشارها الحديدي «بسمارك»، أصبح الجيش الألماني من الجيوش التي يحسب لها حساب على جميع الأصعدة في الساحة الأوروبية والعالمية[٣٠٩]، وهذه من الأسباب والعوامل التي جعلت السلطان عبد الحميد الثاني الذي تسلم الخلافة في سنة (1293 هـ -1876م) من المعجبين بهذه القوة العسكرية الأوروبية الجديدة وخاصة بعد إدراكه لمدى ضعف قواته العسكرية بعد أحداث تمردات وثورات البلقان والمواجهة مع روسيا (1293 هـ -1876م) وأيضاً محاصرة الدول الأوروبية الكبرى للدولة العثمانية ومحاولة تقسيمها والقضاء عليها كل ذلك جعل ألمانيا هي المرغوبة لدى السلطان عبد الحميد في الاستعانة بها من أجل تحسين وضع قواته وجيشه وتسليحه وإعادة بناءه.

أ- التعاون العسكري الألماني - العثماني في فترة بسمارك:

لقد أسلفنا سابقاً كيف أن المستشار الألماني بسمارك بعد تسلمه للمستشارية الألمانية وقيام الوحدة الألمانية 1288 هـ - 1871م، انتهج سياسة خارجية قائمة على تحقيق التوازن بين القوى الأوروبية الكبرى وذلك من أجل الحفاظ على السلام في وسط القارة، وأيضاً من أجل الحفاظ على الدولة الألمانية الحديثة التي خرجت قوية بعد حرب السبعين مع فرنسا.

ومن أجل تحقيق ذلك دخل في العديد من التحالفات الدولية من أجل ضمان مصالح ألمانية ونفوذها في ساحة الصراعات الدولية في العالم ومن هذه التحالفات اتحاد القياصرة الثلاثة (*Dreikaisersbund*) 1299 هـ -1881م ومع النمسا والمجر 1297 هـ - 1879م، ومع النمسا والمجر وإيطاليا (*Triple Alliance*) 1300 هـ -1882م، واتفاقاً سرياً مع روسيا سنة 1305 هـ -1887م (*Reinsuran cetreaty*) وكل هذه الأحلاف والاتفاقيات غايتها عزل فرنسا دولياً[٣١٠]. كما عمل من ناحية أخرى على عدم قيام تحالفات بين الدول الأوروبية الكبرى ضد ألمانيا، فاستغل الخلافات بين هذه الدول حول المسألة الشرقية وراح يقوم بدور الإصلاح وتحقيق التوافق بين هذه الدول حول هذه المسألة. فيما

---

(309) Ilber ortayli, Osmani Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op.cit, P.106, 109

(*310*) عمر، عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، المرجع السابق، ج2، من ص212، إلى ص225. للتوسع حول سياسة التعويض الألمانية.

أن ألمانيا ليست لها أطماع في الدولة العثمانية كما هي الحال لدى روسيا والنمسا وإنكلترا أو فرنسا وقد اشتهر عن بسمارك قوله: «إن الدولة العثمانية لا تساوي عندي دم جندي بروسي واحد».

فلذلك وجد بسمارك في ممتلكات الدولة العثمانية وسيلة لتحقيق سياسة التعويض (*Compensation*)[٣١١] وعمل على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول الكبرى بغية الحفاظ على وضع التفوق لألمانيا في أوروبا وشجع هذه الدول على الاستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية وتوجيه أنظارها بعيداً عن دولته أو التحالف ضدها ولعب دائماً دور المنزه عن كل هذه الصراعات بل وكان في كثير من الأحيان المصلح بينها[٣١٢].

أما عن فكرة تسليح الجيش العثماني والمساعدات العسكرية للدولة العثمانية فقد رأينا أنها بدأت في فترة سابقة، وكان هناك علاقات عسكرية بين الدولتين الألمانية والعثمانية، واستمرت كذلك في عهد بسمارك.

فعلى الرغم من أنه عُرف عن بسمارك من خلال مذكراته عدم رغبته في إقامة علاقات أو عن وجود مطامع له في الدولة العثمانية ولكن الوثائق والحقائق تثبت عكس ذلك فلقد شهدت مرحلة بسمارك تطوراً ملحوظاً في العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية من كل النواحي وخاصة من الناحية العسكرية وظهر ذلك جلياً بعد الحرب العثمانية - الروسية (1295/1294 هـ -1878/1877م)، حيث كشفت هذه الحرب مدى الضعف الشديد في إمكانيات وتجهيزات الجيش العثماني وأمام هذه المشكلة عمل السلطان عبد الحميد الثاني من أجل البحث عن حل لها والعمل على تقوية الجيش العثماني وتطويره بعيداً عن الاعتماد الكامل على بريطانيا وفرنسا في هذا المجال، فوجه أنظاره نحو ألمانيا تلك الدولة الأوروبية القوية الحديثة والتي بدت له غير طامعة بممتلكات إمبراطوريته، وخاصة بعد ظهورها كدولة قوياً عسكرياً بعد حرب1287 هـ -1870م مع فرنسا[٣١٣]. ولقد سنحت لبسمارك فرصة التقارب مع الدولة العثمانية والظهور بمظهر الصديق بعد مؤتمر برلين 1295 هـ -1878م، وترأس بسمارك هذا المؤتمر، حيث أخذ بسمارك يعمل على كسب صداقة الدولة العثمانية، منطلقاً من عدة محاور ارتكزت عليها سياسة التقارب هذه.

(*311*) عمر، عمر عبد العزيز عمر، المرجع نفسه ج2، ص199، 200.

(*312*) سنو، المرجع السابق، ص36، 37.

(*313*) محافظة، المرجع السابق، ص13.

المحور الأول: ارتكز حول إصلاح الإدارة العثمانية متمثلاً ببعثة فيتندروف 1298 هـ -1880م (*Wittendorf*)، أما المحور الثاني: فكان إعادة تنظيم الجيش العثماني وتمثلت بإرسال البعثات العسكرية والضباط الألمان من أجل تدريب الجيش العثماني، فأرسلت بعثتان في عهد بسمارك وهي بعثة أوتوكولير (*Otto Köhler*) وبعثة فون درغولش 1301 هـ -1883م (*Von der Goltz*). أما المحور الثالث والأخير: فهو تطوير تسليح الجيش العثماني من خلال تزويده بالأسلحة الألمانية وتمت أولى هذه الصفقات سنة 1883م(٣١٤). مع محاولة الابتعاد عن التورط في تحالفات مع الدولة العثمانية، حتى لا يثير حفيظة الدول الأوروبية الكبرى وخاصة روسيا وفرنسا وإنكلترا.

كما تم خلال هذه الفترة رفع المستوى الدبلوماسي بين البلدين وذلك اعتباراً من سنة 1293 هـ -1876م من مفوضية إلى سفارة وبذلك نرى أن الاهتمام بشؤون الدولة العثمانية ومستقبلها من قبل ألمانية قد ازداد بشكل ملحوظ في فترة بسمارك(٣١٥)، وبالعودة إلى البعثات العسكرية والتعاون العسكري في فترة بسمارك، فأشهرها البعثة التي وصلت إلى الدولة العثمانية في نيسان سنة 1300 هـ -1882م بعد ما يقارب العامين من المفاوضات بين الدولتين الألمانية والعثمانية حول مهام هذه البعثة وأعضائها ورواتب ومستحقات الضباط الذين كلفوا بالعمل لدى الدولة العثمانية في تدريب الجيش العثماني(٣١٦).

فلقد تقدمت الدولة العثمانية بطلب لدى السفير الألماني في استانبول البارون فون هاتسفيلد (*Von Hatzfeld*) في 1880/5/14م، من أجل إرسال بعثة عسكرية ألمانية للإشراف على تنظيم وتدريب القوات العثمانية، فنقل السفير هذا الطلب إلى المستشار الألماني بسمارك الذي أوصى القيصر الألماني بالموافقة على الطلب كما أنه علق على هامش المذكرة المقدمة للقيصر بالعبارة التالية: «إن وجود الضباط الألمان في الأراضي العثمانية سوف يهيئ لهم الفرصة لتحسين تدريبهم العسكري وإثراء خبرتهم، كما أن الحكومة الألمانية قد تحصل على مزيد من وسائل النفوذ في الدولة العثمانية»، ولم يكتف بذلك فقط بل وأشرف بشكل شخصي على المفاوضات بين الدولتين حول هذا الشأن، ولقد اعتبر بسمارك العروض التي قدمتها الدولة العثمانية حول رواتب ورتب الضباط

(*314*) سنو، المرجع السابق، ص37، 38. و ***Kazim Karbekir, op-cit. P.139***.

(*315*) محافظة، المرجع السابق، ص15.

(*316*) محافظة، المرجع نفسه، ص14.

الألمان في البعثة أمراً مغرياً، وأضاف معلقاً على التقرير الذي قُدم للقيصر: «بأن البعثة قد تكون مفيدة جداً لأعضائها من حيث الناحية التدريبية كما أنها سوف تزودنا بنفوذ ومخبرين». ولقد أراد بسمارك أن يكون تعين الضباط الألمان في الجيش العثماني بصفتهم ضباطاً متقاعدين لا بصفتهم ضباطاً معارين، وذلك حتى لا يثير حفيظة الدول الأوروبية الكبرى. ولكن رئيس هيئة الأركان في القوات الألمانية المارشال هلموت فون مولتكه (*Helmuth Von Moltke*) رفض ذلك وأراد أن يكون وضع هذه البعثة مشابهاً لوضع البعثة التي أرسلت بقيادته إلى الدولة العثمانية سنة 1255 هـ -1839م. وفي نيسان من سنة 1300 هـ -1882م وصلت هذه البعثة العسكرية إلى استانبول برئاسة الجنرال أوتو كولير (*Otto Köhler*)، ولكنه توفي في سنة 1303 هـ -1885م فخلفه في رئاسة البعثة الكولونيل فون ديرغولتس (*Freiherr Von der Goltz*) ولقد عين مفتشاً عاماً للمدارس العسكرية ومستشاراً في القيادة العامة للقوات العثمانية وبقي في منصبه حتى نهاية عام 1313 هـ - 1895م[٣١٧].

لقد ضمت البعثة الكثير من الضباط الهامين مثل لويس كامبهوفن (*Louis Kamphovener*) حيث بلغ رتبة المارشال في الدولة العثمانية وتولى منصبه المفتش العام لقوات المشاة، وهانس فون هوبي (*Hans Von Hobe*) وكان قائداً في سلاح الفرسان الألماني وعمل بالبعثة بين سنتي 1300/1312 هـ -1882/1894م، ثم عين مكانه كمفتش عام لسلاح الفرسان في الجيش العثماني القائد فون بروكدورف (*Freiherr Von Brockdorff*) والمفتش العام لسلاح المدفعية الضابط الألماني الميجور رستوف (*Ristow*) وشغل هذا المنصب بين سنتي 1300 هـ / 132، وكذلك الميجور كارل أولر (*Carl Auler*) وكان مفتشاً لسلاح الهندسة بين عامي 1319/1326 هـ -1901/1908م[٣١٨].

ولقد قال بسمارك في إحدى تصريحاته حول الهدف من التعاون العسكري مع الدولة العثمانية ليس هدفاً سياسياً وإنما للحصول على مزيد من النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، واستخدام الجيش العثماني، المزود بالسلاح الألماني وتحت الإشراف الألماني ضد روسيا في حال أصبحت هذه الدولة، عدوة السلطنة فستكون بالتالي عدوة لألمانيا[٣١٩].

(*317*) محافظة، المرجع السابق، ص14، سنو، المرجع السابق، ص37.

(*318*) محافظة، المرجع نفسه، ص14.

(*319*) سنو، المرجع السابق، ص38.

وقد اختار بسمارك مجموعة من أفضل الدبلوماسيين الألمان للعمل من أجل تنفيذ هذه السياسة، من مثل الغراف فون هاتسفلدت - فيلدبنورغ (*Von Hatzfeldt-Wildenburg*) وكان سفيراً لألمانيا في الدولة العثمانية بين عامي 1295/1299 هـ - 1878/1881م، وكذلك فون رادوفيتس (*Von Radowitz*) وكان أيضاً سفيراً لألمانيا في الدولة العثمانية واعتبر من أهم ممثلي سياسة بسمارك تجاه الدولة العثمانية في تلك المرحلة، واعتبر المعين الحقيقي لبسمارك في تطبيق سياسته تجاه الدولة العثمانية وبقي يشغل منصب السفير الألماني في استانبول لمدة عشر سنوات 1300/1310 هـ - 1882/1892م.

كما تم في عهده تسليح الجيش العثماني وتسليمه كمية من الأسلحة الألمانية عام 1305 هـ -1887م، بعد أن حصلت شركة لوفي وموزر (*Löwe und Mouser*) على صفقة مع الدولة العثمانية لتزويد الجيش العثماني بالأسلحة اللازمة. وبالرغم من كل هذا التطور والدعم من قبل بسمارك للدولة العثمانية إلا أنه لم يحاول الخروج عن سياسة التوازن الأوروبي الذي اتبعها منذ تسلمه الحكم(٣٢٠). ولكن بعد عهد بسمارك سنرى كيف أنه سيحدث تحول نوعي في الدعم الألماني للدولة العثماني وتطوير العلاقات بين البلدين فور تسلم الإمبراطور غليوم الثاني للحكم في ألمانيا وإبعاد بسمارك عن سدة القيادة في البلاد.

ب- التعاون العسكري الألماني-العثماني في فترة الإمبراطور غليوم الثاني:

في 27 كانون الثاني من سنة 1276 هـ -1859م ولد الأمير فريدريك غليوم فكتور ألبرت هوهنزولزن، والده الأمير فريدريك الثالث ووالدته الابنة البكر لملكة إنكلترا فكتوريا وفي 27 شباط لسنة 1299 هـ -1881م م تزوج الأميرة أوغستافكتوريا، حيث أنجبت له سبعة أبناء.

وفي 15 تموز من سنة 1306 هـ -1888م تسلم الأمير فريدريك مقاليد حكم الإمبراطورية الألمانية بعد وفاة والده الإمبراطور(٣٢١) غليوم الأول، ثم ما لبث أن توفي القيصر فريدريك الثالث، لينادى بغليوم الثاني قيصراً على ألمانيا.

(*320*) سنو، المرجع نفسه، ص38.

(*321*) الكتبي، المصدر السابق، ج15، ص450، 452، والأسود، المصدر السابق ص21، 22، وفالنتين فايت، تاريخ ألمانيا، المرجع السابق، ص362.

وقد قيل عن غليوم الثاني أنه كان رجلاً ألمانياً[٣٢٢] عالي المواهب، وتفوق على أقرانه بسرعة الفهم وموهبة التحدث، وكان محبوباً بين أقرانه وأوساط المجتمع السياسي وحتى الديني في القصر وخارجه، وكان محباً للفكاهة والدعابة وكان ميالاً إلى كل ما هو جديد وفيه روح المغامرة والتغير ولذلك عُرف عنه ميله إلى الرغبة في التغيير والإصلاح في كل شيء وهذا سبب له الكثير من التصادمات مع رجالات السياسة الألمانية القدماء، وخاصة مع بسمارك، بعد تسلمه لمقاليد الحكم في الإمبراطورية الألمانية[٣٢٣]، ويمكننا القول أن عصر الإمبراطور غليوم الثاني أحدث نوعاً من الثورة على السياسة الداخلية والخارجية للإمبراطورية الألمانية، وخاصة على سياسة المستشار المخضرم بسمارك وسيؤدي هذا إلى حدوث تصادم بين الطرفين والذي انتهى بإعفاء بسمارك من مهامه في رئاسة الحكومة الألمانية من قبل الإمبراطور غليوم الثاني بعد فترة من صعود الأخير إلى سدة الحكم[٣٢٤]، ولعل أبرز هذه التطورات والتحولات كانت حول السياسة الألمانية تجاه العلاقات الألمانية - العثمانية والتي شهدت تطوراً ملحوظاً في جميع النواحي فترة حكم الإمبراطور غليوم الثاني وخاصة بعد علاقة الصداقة التي ربطت بين السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني.

ولقد رأينا سابقاً أنه كيف كان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول جاهداً تطوير هذه العلاقات وتقويتها، وذلك بسبب سوء العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوربية الأخرى، التي بدأت تظهر أطماعها بأملاك الدولة العثمانية وراحت تقتطع منها أجزاء بحجة الحماية وغيرها، ورأينا كيف أن عبد الحميد الثاني رأى بالدولة الألمانية صديقاً وحليفاً قوياً ظن أنه يمكن الاستعانة والاعتماد عليه من أجل الوقوف في وجه الدول الطامعة بأملاك دولته.

كان الإمبراطور غليوم الثاني من الطرف الآخر يرى في هذه العلاقة سبيلاً للحاق

(322) الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، محمد الأحمد، دمشق، 2006، ط1، المجلد 14، ص14.

(323) فالنتين، فايت، المرجع السابق، ص362، 363.

(324) لقد كان الإمبراطور غليوم الثاني شاباً طموحاً متطلعاً إلى التغيير والمغامرة في كثير من الأحيان، بينما كان بسمارك رجلاً عجوزاً له أفكاره الثابتة والراسخة في السياسة الخارجية والداخلية، ورؤية اعتبرت في كثير من الأحيان تقليدية وجامدة بالنسبة للإمبراطور الشاب على الرغم من تقدير الإمبراطور لخدمات بسمارك واحترامه الشديد لشخصيته واعتباره في كثير من الأحيان مثلاً يحتذى في الحياة، وبالرغم من كل ذلك كانت نهاية العلاقة بين بسمارك والإمبراطور غليوم الثاني هي إعفاء بسمارك من مهامه في الحكم بسبب التصادم الكبير بين عقلية غليوم الثاني الشابة وعقلية بسمارك الهرمة العجوزة.

بركب الدول الاستعمارية الأخرى، والحصول على بعض المكاسب والمكانة الدولية بين الدول العظمى عن طريق الحصول على الامتيازات العسكرية والاقتصادية في الدولة العثمانية، متخذاً من الصداقة والعلاقات الودية سبيلاً للوصول إلى ذلك عكس ما قامت به الدول الأوروبية الأخرى التي اتخذت من الوسائل العسكرية سبيلاً للسيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية وأراضيها.

ولكن طريق الإمبراطور غليوم الثاني لم تكن مفروشة بالورود من أجل الوصول إلى أهدافه هذه، فلقد كانت أمامه الكثير من العقبات الداخلية والخارجية التي عمل جاهداً من أجل تخطيها حتى يصل إلى غايته المنشودة.

ولقد كانت من أهم المشكلات التي واجهته بعد استلامه سدة الحكم في البلاد، هي الخلافات الكبيرة التي حدثت بينه وبين بسمارك حول السياسة الخارجية والداخلية للإمبراطورية الألمانية[٣٢٥]. فقد أعلن الإمبراطور أن «ليس هناك غير سيد واحد في هذه المملكة هو أنا»[٣٢٦].

وأمام ذلك قدم بسمارك استقالته في آذار/ 1308 هـ -1890م[٣٢٧] وعين مكانه جورج فون كابريفي (*Gorge Von Caprivi*) 1308/1312 هـ -1890/1894م، وقد تولى هذا المنصب ستة مستشارين كان آخرهم ماكس فون بادن (*Von Max Baden*)، ولم يكن لهؤلاء المستشارين أي دور أو كلمة أمام الإمبراطور الذي أصبح هو اليد العليا في البلاد[٣٢٨].

ولقد عاصر الإمبراطور غليوم الثاني حدوث نهضة اقتصادية في ألمانيا نتيجة للمشاريع الاقتصادية الضخمة التي حصلت عليها الإمبراطورية، وخاصة مشروع «سكة حديد بغداد»، وكذلك مشاريع الري في العراق وإنشاء سكة الحديد الكاب - القاهرة[٣٢٩].

وسنرى في الفصول اللاحقة كيف نجح الإمبراطور غليوم بأن يكسب صداقة السلطان عبد الحميد الثاني وما تلا ذلك من حصول ألمانيا على العديد من الامتيازات والمشاريع الاقتصادية في الدولة العثمانية.

(*325*) الموسوعة العربية، محمد الأحمد، المرجع السابق، ج14، ص14.

(*326*) هـ.ا.ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق ص398.

(*327*) «ويرجع بعض أسباب هذه الاستقالة على الأقل إلى استياء الإمبراطور وليم الثاني من سياسة بسمارك تجاه روسيا وإلى رغبته في توثيق العلاقات مع النمسا وإنكلترا». وليام، لانجرت، ترجمة محمد مصطفى زيادة، موسوعة تاريخ العالم، مكتبة النهضة العربية، 1980، ج6، ص1934.

(*328*) عبد العزيز، محمد الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج3، ص171.

(*329*) محمد الأحمد، الموسوعة العربية، المرجع السابق، ج14، ص14-15.

وقد وصف مؤلف كتاب «تاريخ أوربا في العصر الحديث» «فشر (***Fischer***)» التفوق الكبير لألمانيا في جميع المجالات وخاصة الحربية منها في بداية القرن العشرين قائلاً:

«كانت ألمانيا في مطلع القرن العشرين واسطة العقد في المشهد السياسي الأوربي نتيجة لثبات أهدافها، وتركيز وسائلها، ونظام أهلها، وصولة جيشها، وكانت النمسا وإيطاليا تابعيتها، وكانت السويد صديقة شديدة الإعجاب بها.

وقدمت تركيا من بلادها مركزاً لنفوذها السياسي والاقتصادي المتزايد، ونظمت ألمانيا تجارتها العالمية النطاق التي نمت نمواً سريعاً في الكمية والأهمية بمعونة الحكومة، كأنها عملية من عمليات الحرب الهجومية، وصار العلم الألماني يشاهد في كل ميناء».

ولقد علل المؤلف أسباب ذلك إلى قوة الاقتصاد الألماني وتحكم ألمانية بشبكة السكك الحديدية العالمية وكذلك إلى حنكة وذكاء الإمبراطور الألماني وقدرته على تحقيق التوازن بين الدول الأوروبية حتى ذهب إلى القول أن «أمور الحرب والسلم كانت بيد برلين وأن الإمبراطور الألماني يستطيع أن يقلب في صباح واحد توازن أوروبا الدقيق»[٣٣٠].

إذاً استطاع هذا الإمبراطور الشاب، أن يحقق لألمانيا التميز والتفوق الذي كان قد حلم به وأن يجعل بلاده في مقدمة الدول العظمى في العالم في ذلك الوقت.

استمر الإمبراطور في الحكم حتى قيام الحرب العالمية الأولى، وقد تخلى الإمبراطور عن العرش في تشرين الثاني 1327 هـ -1918م، على أثر قيام ثورة في ألمانيا في ذلك العام. وهرب إلى هولندا وبقي فيها حتى وفاته في حزيران سنة 1360 هـ -1941م[٣٣١].

1- سياسة غليوم العسكرية تجاه الدولة العثمانية:

إن من أهم التغيرات السياسية التي شهدتها الساحة الدولية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هو التحول الكبير والظاهر في العلاقات الألمانية-العثمانية، والصداقة القوية التي ربطت بين الإمبراطور الألماني غليوم الثاني والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وبغض النظر عن الملابسات والتفسيرات السياسية التي أحاطت بطبيعة هذه العلاقة وأسباب وأهداف قيامها، فإنه من الواضح أن كلا الطرفين الألماني والعثماني حاول أن يستفيد من هذه العلاقة لصالحه الشخصي وتحدى بها القوى الأوروبية العظمى في ذلك الوقت كوسيلة لإعلان وتثبيت وجوده في الساحة الدولية والصراعات القائمة بينها.

(*330*) هـ.ا.ل. فشر، المرجع السابق ص471.

(*331*) محمد الأحمد، المرجع السابق، ج14، ص15.

ومن هذا الباب رأينا كيف توجه غليوم الثاني نحو إقامة علاقات صداقة وود مع الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني، لم يكن الهدف الحقيقي منها إلا فرض ألمانيا في الساحة الدولية كمنافس قوي يمكن أن يشكل مصدر قلق حقيقي للدول الاستعمارية الأخرى وهذا ما كان فعلياً. ومن هنا كانت من أساسيات الخلافات بين غليوم الثاني وبسمارك إظهار روح التنافس الاستعماري للدولة الألمانية على الساحة الدولية وهذا ما كان بسمارك يحاول أن يخفيه على مدى سنوات من أجل منع ظهور أي شكوك لدى الدول الاستعمارية الكبرى حول ألمانيا وأنه ليس لديها أي رغبة في التوسع الاستعماري في العالم وأن همّ الألمان الوحيد هو التركيز على التطوير الداخلي لبلادهم، لكن هذه السياسة لم تعجب الإمبراطور الشاب غليوم الثاني وكذلك التجار وأصحاب رؤوس الأموال الألمان، فلقد كان رأي هذا الإمبراطور مختلفاً تماماً وكان يرى أنه أمام التطور الاقتصادي الهائل الذي حققته ألمانيا وأمام تزايد رؤوس الأموال فيها وكذلك تزايد عدد سكانها المطرد لابد لألمانية أن تبحث لها عن مستعمرات في العالم تكون لها مصدراً لمواردها وكذلك سوقاً لتصريف بضائعها، وبالتالي مكاناً لنقل مستوطنين ألمان إليها، ولم يرَ أصحاب هذه النظرة وعلى رأسهم غليوم الثاني مكاناً أفضل من الدولة العثمانية تلك الدولة المتآكلة المنهارة، وبدأ السعي نحو تحقيق ذلك ولكن ببطء منذ فترة بسمارك وازدادت وتيرة ذلك بشكل واضح بعد تسلم غليوم الثاني لعرش الإمبراطورية الألمانية[٣٣٢].

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت جميع القوى السياسية الكبرى ترى أن سقوط الدولة العثمانية بات وشيكاً، لذلك راحت تعمل على تقسيم تركة هذه الدولة فيما بينها وكانت بريطانيا وفرنسا وروسيا من أكثر الدولة الساعية إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من أراضي هذه الدولة ولكن ألمانية كانت متحفظة حول هذا الأمر بل بكثير من الأحيان كانت تقف موقف المعارض لهذا الأمر «وحتى أن الإمبراطور غليوم الثاني كان يرى أنه يجب أن يتم تقوية الدولة العثمانية عن طريق إجراء إصلاحات مناسبة لا عن طريق تقسيم أراضيها»[٣٣٣].

(*332*) «طلب المستشار الرايخ الألماني كبريفي (***Caprivi***) 1890-1894م الذي خلف بسمارك في منصبه، من وزارة الخارجية الألمانية إعداد تقريرين في نهاية عام 1891 عن إمكانية توطين الألمان في الدولة العثماني، ووضع التقرير الأول كيدرلين (***Kiderlen***)، أما التقرير الثاني فقد كتبه كايزر (***Kayser***) مدير قسم المستعمرات في وزارة الخارجية». هانس روبرت رويمير، ألمانيا والعالم العربي، ت: دكتور مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، د.ت، ص394.

(*333*) هانس روبرت رويمر، ألمانيا والعالم العربي، المرجع نفسه، ص393.

ومن هذا المنطلق كانت سياسة الإمبراطور غليوم تجاه الدولة العثمانية، وقد رأينا سابقاً كيف أنه اهتم بإرسال البعثات الدبلوماسية والعسكرية من أجل مساعدة الدولة العثمانية في إصلاح أمورها الداخلية والإدارية، وتقوية جيشها وتدريبه على أحدث الوسائل باعتبار الجيش هو أهم ركن في الدولة لإبقائها قوية أمام أعدائها.

وطبعاً لم يكن هذا سببه عطفه وحبه الشديد للدولة العثمانية بل كانت لعبة مصالح سياسية واقتصادية وعسكرية كان يسعى الإمبراطور للحصول عليها وأن يكون له موطأ قدم في هذه الدولة ومستعمراتها التي لم يتبقَ منها إلا القليل.

وانسجاماً مع هذه الرؤية السياسية للإمبراطور غليوم الثاني بدأ توجهه نحو زيادة دعم الدولة العثمانية من الناحية العسكرية، فقام بإرسال البعثات العسكرية وتزويد الجيش العثماني بالأسلحة كما استقبلت ألمانيا في معاهدها العسكرية الكثير من الضباط العثمانيين وفي نفس الوقت استمر تدفق رؤوس الأموال الألمانية إلى الدولة العثمانية من خلال إقامة العديد من المشاريع الاقتصادية[٣٣٤] وتقديم القروض المالية الكبيرة للدولة العثمانية عبر أهم البنوك الألمانية في ذلك الوقت[٣٣٥].

ويمكننا القول أن تحولاً جذرياً طرأ على العلاقات الألمانية - العثمانية في عهد الإمبراطور غليوم الثاني وخاصة العسكرية منها كما أسلفنا سابقاً ولقد جاءت هذه التطورات والتحولات استجابة لطموحات وتطلعات الإمبراطور غليوم الثاني الرامية إلى جعل ألمانيا في مقدمة الدول العظمى في العالم في ذلك الوقت.

ولقد تباينت ردود فعل الضباط العثمانيون تجاه تعامل دولتهم مع الضباط الألمان فهناك فريق كان يشعر بالغصة والغيرة من تقدير دولتهم الزائد لهؤلاء الأجانب، ومنحها الرتب العالية لهم فهم ليسوا أقل إخلاصاً ووطنيةً وفداءً تجاه بلدهم من هؤلاء الغرباء، وخاصة أن بعض الرتب العسكرية كانت تمنح للضباط الألمان لمجرد أنهم ألمان، وكانت هذه الرتب بنفس الوقت لا تمنح للضباط العثمانيون إلا إذا قاموا بأعمال جليلة وانتصارات

---

(334) «لقد نمت الالتزامات المالية الإلمانية بشكل كبير جداً من 1٪ إلى 27٪ فيما بين سنة 1888 وسنة 1914م، بينما تراجعت حصة بريطانيا في الاستثمارات وكذلك مصالحها التجارية في الدولة العثمانية بشكل حاد من 56٪ إلى 15٪ فيما بين ثمانينات القرن التاسع عشر وسنة 1914م، وفي هذا التاريخ الأخير تجاوزت الاستثمارات الألمانية المباشرة، استثمارات بريطانيا العظمى». خليل، أنيالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (1605، 1914) ت: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007، مجلدان، ج2ص508.

(335) للتوسع حول الأموال والقروض التي أخذتها الدولة العثمانية من البنوك الألمانية لإقامة مشاريع اقتصادية ودعم الجيش واستيراد الأسلحة من ألمانية. انظر علي، محافظة، المرجع السابق، ص15-16 إلى ص21.

كبيرة للدولة العثمانية. بينما كان فريق آخر من الضباط العثمانين يتفهمون طبيعة معاملة الدولة العثمانية لهؤلاء الضباط الألمان ومقدرين أن هذه المعاملة سببها طبيعة العلاقات الودية بين الدولة العثمانية وألمانيا، باعتبارها صديقه للدولة العليا وبسبب تقديمها الدعم العسكري للدولة العثمانية وأن طبيعة هذه العلاقات ليست للمرحلة الآنية إنما هي مستقبلية وأعدة الغاية منها استقواء الدولة العثمانية بحليفها الجديد ألمانيا، ضد أعدائها القدماء في المنطقة(٣٣٦).

ولقد أشرف الضباط الألمان على تدريب الجيش العثماني بكل الاختصاصات وحاول هؤلاء جعل الجيش العثماني صورة مصغرة عن الجيش الألماني بتشكيلاته وقطعه العسكرية وحتى باللباس كما أسلفنا الذكر. ولم يكن هؤلاء مخلصين بشكل كبير في تدريبهم للجيش العثماني وتقويته؛ بل كانت الغاية من هذا التدريب جعل الجيش العثماني رديفاً للجيش الألماني عند الحاجة(٣٣٧).

وهذا ما عبر عنه رئيس أركان الجيش الألماني في ذلك الوقت حيث قال: «الجندي العثماني مخلص وودود ومقاوم، ويمكن أن يستغل بسهولة ويجر إلى ساحة المعركة» وطبعاً هذا ما بدا فعلياً بالحرب العالمية الأولى فلقد بدا واضحاً كيف نجح الألمان بجر الدولة العثمانية إلى الحرب وتسخير جيشها في هذه الحرب وتوريطها فيها(٣٣٨)، ليحصد الطرفان الهزيمة والخذلان.

وقبل أن ننهي دراسة هذا الفصل لابد لنا من ذكر تفاصيل هامة عن وضع الضباط الألمان في الدولة العثمانية وكذلك وضع الضباط العثمانين في ألمانيا مع شرح مبسط حول التسليح الألماني للجيش العثماني في تلك المرحلة.

2- الألمان في الدولة العثمانية:

لقد أسلفنا سابقاً أنه اعتباراً من بداية سنة 1298 هـ -1880م بدأت تتوافد إلى الدولة العثمانية البعثات العسكرية الألمانية وقد ترأسها مجموعة من كبار الضباط الألمان، وذلك من أجل تدريب الجيش العثماني وتطويره وتحديثه، ثم رأينا كيف أن هذه البعثات ازدادت وتطورت في عهد الإمبراطور غليوم الثاني، وكانت هذه البعثات في هذه المرحلة ركناً أساسياً في طبيعة العلاقات الألمانية - العثمانية.

---

*(336) **Ilber, ortayli ikidost, op.cit, P112.***
*(337) **Ilber ortayli:, op.cit, P106.***
*(338) **Ilber ortayli: ikidost, op.cit, P106.***

ولقد تمتّع الضباط الألمان بمكانة عالية في الدولة العثمانية وعوملوا معاملة خاصة، فلقد أعطيت لهم الرواتب الشهرية العالية مقارنة بالضباط العثمانيين، ومنحوا المكافآت والهبات المالية بسخاء لقاء خدماتهم وتدريبهم للجيش العثماني، كما أنهم منحوا الرتب العسكرية الهامة في الدولة العثمانية، وتم تعيين الكثير من الضباط الألمان برتبة باشا وقائد في الجيش العثماني في مختلف الاختصاصات ففي الـ6 من تشرين الأول 1310 هـ -1892مم صدر فرمان من قبل قصر يلدز يتضمن تعين خمسة من الضباط الألمان في إدارة الجيش العثماني بمختلف الاختصاصات كدفعة أولى، ليتم تعين الدفعة الثانية في الـ1 تشرين الثاني 1311 هـ -1893م، كضباط وخبراء وفي الجيش العثماني(٣٣٩).

ولقد أوردت مذكرة أرسلتها السفارة العثمانية في برلين إلى المستشار الحربي للسلطان العثماني توضح فيها أنه قد تمت الموافقة على إرسال نخبة من الضباط الألمان باختصاص مدفعية إلى الدولة العثمانية بناءً على طلب الأخيرة، وذلك من أجل تدريب أفراد الجيش العثماني وفق الأسلوب الألماني المتبع في الكليات العسكرية والحربية في ألمانيا وقد حررت المذكرة باسم سفير الدولة العليّة في برلين أحمد توفيق(٣٤٠).

وفيما يلي وثيقة من الأرشيف العثماني توضح تعيين مجموعة من الضباط الألمان في مختلف الاختصاصات وتوضح رواتبهم وتفاصيل كثيرة حول تعيينهم وتعويضاتهم وإقامتهم في الدولة العثمانية وهذا ما جاء في الوثيقة باختصار:

المادة الأولى: أن يعطى الضباط الألمان راتب مقداره 25000 ألف فرنك سنوياً وسيدفع المبلغ من البنك العثماني ذهباً بدلاً من الفرنكات وتتكفل الدولة العثمانية بدفع نفقات سفر هؤلاء الضباط وإقامتهم وفترة إقامتهم في الدولة العثمانية.

المادة الثانية: تحديد مدة إقامة هؤلاء الضباط ثلاث سنوات في الدولة العليّة.

المادة الثالثة: يمكن تجديد العقد بعد مضي الثلاث سنوات حسب الحالة.

المادة الرابعة: إذا تعرض هؤلاء الضباط لحادث أعاقهم فترة خدمتهم في الدولة العثمانية يحالون على التقاعد وتصرف لهم رواتب تقاعد مناسبة وفي حال موتهم تدفع هذه الرواتب إلى زوجات هؤلاء الضباط وأولادهم.

---

(339) Ilber, ortayli: ikidost, op.cit, P117.

مثال على أحد هؤلاء الضباط: الضابط الألماني فون هوبي باشا (***Von Hobe Paşa***).

(*340*) الأرشيف العثماني، سجل رقم 765، وثيقة رقم 62358، تاريخ 1295هـ.

المادة الخامسة: في حال انتهاء خدمة الضابط في الدولة العثمانية يصرف له راتب شهر مضاعف كنهاية خدمة.

المادة السادسة: بالنسبة للضباط المعينين خصيصاً للترجمة الألمانية في الدولة العليّة وضباط البحرية وضباط الشرطة وضباط ناظر الحربية كل هؤلاء سيعملون تحت أمرة الدولة العليّة.

المادة السابعة: راتب موظف المالية سنوياً 40 ألف فرنك والمحامي في مركز مستشارية الخارجية وموظف ومعاون الجمارك براتب مقداره 25 ألف فرنك.

المادة الثامنة: يحق للدولة العليا أن تفسخ العقد مع أي من هؤلاء الضباط المعينين في حال إساءة خدمتهم للدولة العلية أو ثبت أنهم غير صالحين للخدمة.

المادة التاسعة: سيطبق على موظفي المستشارية الألمانية في الدولة العلية نظام الامتياز الأجنبي، وفي حال قيامهم بأي جرم يعاقبون عليه وفق لهذا القانون.

الاختصاصات المعينة هي:

ضابط واحد مشاة، ضابط واحد مدفعية، ضابط واحد اختصاص صيانة، ضابط واحد تموين، ضابط واحد شرطة، ضابط واحد بحرية، ضابط واحد لغة ألمانية، ضابط واحد مكتب العسكرية العمومية، واحد موظف مالي، محامي واحد في مستشارية الخارجية، ويعين في بناء الحكومة المركزية، موظف جمارك واحد[٣٤١].

3- الضباط العثمانيون في ألمانيا:

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ازدادت الحاجة إلى إرسال المزيد من الضباط العثمانيين إلى ألمانيا وذلك من أجل اكتساب المزيد من الخبرات العسكرية ولم يلبث هؤلاء أن عادوا إلى الدولة العثمانية بالزي الرسمي للجيش العثماني، ثم ما لبث هذا الزي أن أصبح زياً رسمياً للجيش العثماني، وطبعاً كان هذا نتيجة تقوية العلاقات والدعم العسكري الألماني للجيش العثماني الذي أصبح فيما بعد على نمط الجيش الألماني ليس بالزي فقط بل حتى في التشكيلات العسكرية، وكانت ترسل البعثات من الضباط العثمانيين إلى ألمانيا للدراسة في

(*341*) الأرشيف العثماني، سجل رقم (55)، وثيقة رقم (29)، تاريخ 1295.

كلياتها العسكرية على شكل دفعات متلاحقة فمثلاً في الـ6 من كانون الأول 1313 هـ – 1895مم أرسلت الدولة 19 ضابطاً من أجل الدراسة في ألمانيا ومن ثم أرسل خمسة آخرون في وقت لاحق لإكمال دراستهم العسكرية في كل الاختصاصات(٣٤٢).

ولقد كان ينتقى هؤلاء الضباط من خريجي الكلية الهندسية، وكلية المدفعية العمومية وكذلك الكلية الحربية، وكانت تعد القوائم بأسماء هؤلاء واختصاصاتهم بدقة شديدة حيث ترسل تقارير مفصلة حول هذا الأمر إلى الباب العالي ليتم الموافقة عليها وتخصيص الأموال الخاصة لذلك، ثم ترسل هذه القوائم إلى برلين ليتم الموافقة عليها ويبدأ استقبال الطلاب في الكليات العسكرية الألمانية بشكل منظم ودقيق(٣٤٣).

ويرأي البعض أن كثيراً من الضباط العثمانيين قد أساؤوا استغلال إقامتهم في ألمانيا أثناء البعث العسكرية، فبدلاً من تعلم التقنيات العسكرية من الجيش الألماني والحصول على أفضل التدريبات تعلموا السفاهات والرذائل المنتشرة في المجتمع الألماني ويرى هؤلاء أن سبب ذلك ليس سببه فقط سوء تصرف الضباط العثمانيين وإنما أيضاً بسبب قيام الألمان بتوجيه الضباط العثمانيين نحو الانغماس في هذه الأمور وصرفهم عن غايتهم الحقيقية(٣٤٤).

4- السلاح الألماني في الدولة العثمانية:

بقيت كل من فرنسا وإنكلترا المورد الأساسي للأسلحة في الدولة العثمانية حتى بداية ثمانينات القرن التاسع عشر، وبعد ذلك مع وصول غليوم الثاني إلى الإمبراطورية الألمانية وتطور العلاقة بين الدولتين العثمانية والألمانية، وتوطيد الصداقة بين العاهلين الألماني والعثماني. حصلت ألمانيا على نوع من الاحتكار في تجارة الأسلحة للدولة العثمانية(٣٤٥)، ونجحت ألمانيا لحد ما بإبعاد كلٍ من فرنسا وبريطانيا عن سوق المنافسة في

---

(342) Ilber, ortayli, op.cit, P117.

(*343*) الأرشيف العثماني، سجل رقم 784، وثيقة رقم 63762، تاريخ 1296/12/17هـ.

ولقد حددت الوثيقة راتب شهري للضابط المذكور في الوثيقة باسم العقيد صاحب العزة السيد ثابت بقيمة 50 ليرة عثمانية ذهب، وذلك بسبب تعينه ضابطاً مسؤولاً عن بعثة المدفعية إلى ألمانيا.

(344) Ilber ortayli: op.cit, P119.

مثال على الضباط العثمانيين الذين تخرجوا من ألمانيا «علي ناظم باشا» و«شكري باشا» وهما ضابطان في المدفعية وكذلك «يوسف العظمة» وزير الحربية في الحكومة السورية 1918-1920م.

(*345*) مانتران، المرجع السابق، ج2ص223.

توريد السلاح للعثمانيين، وأصبحت صفقات الأسلحة وتجارتها مع الدولة العثمانية على قائمة التجارة والعلاقات بين الألمان والعثمانيين، فلقد أصبحت الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى أهم زبائن ألمانيا في مجال شراء الأسلحة بكافة أنواعها[٣٤٦]، وازدادت وتيرة إنتاج معامل الأسلحة في ألمانيا وشركاتها مع ازدياد تمتين العلاقات الألمانية - العثمانية.

ولقد احتلت نسبة مبيعات الأسلحة وصادراتها منها للدولة العثمانية بشكل كبير، فقد بلغت 25٪ من نسبة الصادرات الألمانية للعثمانيين وذلك ما بين عامي (1315/1306هـ -188/1897م)، وبلغت قيمة الأسلحة المباعة للدولة العثمانية حوالي 85،6 مليون مارك من أصل 325،5 مليون مارك. قيمة مجمل الصادرات الألمانية للعثمانيين[٣٤٧].

وقد احتلت مجموعة من الشركات ومعامل الأسلحة الألمانية الأولية في تصدير السلاح بكافة أنواعه للدولة العثمانية، وهي: شركة كروب اسن (*Krupessen*) مشاركة مع شركة ارمسترونغ (*Armstrong*) أرمسترونج الإنكليزية، التي كانت تزود الجيش العثماني بمدافع والهاونات الثقيلة، وشركة ماوزر (*Mauser*) ولوفيه (*Ludwin Löwe*) واختصت ببيع الأسلحة الصغيرة والبنادق للجيش العثماني، وأما شركة كروب جرمانيا (**Krupp Germania**) فهي شركة مختصة ببناء السفن، وكانت تزود الجيش العثماني بحاجته من سفن الطوربيد والأسلحة الكبيرة[٣٤٨].

في سنة 1303 هـ -1885م استوردت الدولة العثمانية من شركة كروب (*Krupp*) الألمانية 500 مدفع ثقيل وفي الشهر التالي تم شراء حوالي 426 مدفع كبير و60 مدفع هاون، وفي سنة 1307 هـ -1889م تم شراء أكثر من نصف مليون بندقية من معامل ماوزر (*Mauser*) ولوفيه (*Löewe*) وبعد زيارة غليوم الثاني للدولة العثمانية 1889م قُدرت قيمة مبيعات الألمان من الأسلحة للعثمانيين بحوالي 5،9 مليون مارك في تلك السنة وبلغت 13،1 مليون مارك و6 مليون مارك في سنة 1312 هـ -1894م. و12،2 مليون مارك في سنة 1313 هـ -1895م، وكانت طلبيات الأسلحة ترد إلى الدولة العثمانية بشكل سنوي حيث يتم دفع قيمتها بشكل منتظم[٣٤٩]. وكان يشرف على دفع هذه الأموال من خزينة الدولة

---

(346) ***Ilber ortayli: op.cit, P108.*** والأرشيف العثماني سجل رقم (1) وثيقة رقم (15) تاريخ 1294 هـ.

(347) سنو، المرجع السابق، ص54.

(348) الشناوي، المرجع السابق، ج3 ص137. سنو، المرجع السابق، ص54.

(349) Ilber ortayli: op,cit, P119.

والبنوك العثمانية بل في بعض الأحيان كانت الدولة العثمانية تقوم بالاقتراض من البنوك الألمانية من أجل تسديد هذه المبالغ، ولقد جرت محاولات من قبل السلطان العثماني بتطوير معامل الدفاع وصناعة الأسلحة في الدولة العثمانية وأحضر الفنيين والخبراء الألمان من أجل الإشراف على ذلك، ولكن هذه المصانع لم تصل بجودة صناعتها للأسلحة بمستوى الأسلحة الألمانية الصنع، لذلك بقيت مسألة استيراد الأسلحة من ألمانيا لها الأولوية والصدارة، ولم يخلُ الأمر من تخوف بعض المسؤولين العثمانيين من الاعتماد الكامل في استيراد الأسلحة من ألمانيا واحتكار الأخيرة لسوق تجارة السلاح مع الدولة العثمانية وإقصاء كلٍ من فرنسا وإنكلترا والدول الأخرى عنها، ومع ذلك استمرت ألمانيا بتزويد الجيش العثماني بكافة أسلحته حتى نهاية الحرب الأولى 1914-1918م، فلقد خاض الجيش العثماني حربه بالأسلحة الألمانية بكافة أنواعها(٣٥٠).

وحتى بعد سقوط حكم السلطان عبد الحميد الثاني 1327 هـ -1909م استمرت العلاقات العسكرية الألمانية-العثمانية بشكل مضطرد ومتزايد وتابعوا تحديث الجيش العثماني فيما بين 1328/1327 هـ -1910/1909م بإشراف ضباط وخبراء ألمان(٣٥١)، كما أن ألمانيا أيدت حزب الاتحاد والترقي الذي سيطر على الحكم في الدولة العثمانية بعد نهاية حكم عبد الحميد الثاني. وقد بدا ذلك من خلال الدعاية الواضحة والتشجيع لهذا الحزب وسياسته في الإعلام الألماني(٣٥٢).

ومع تطور الأحداث في الدولة العثمانية وازدياد تفككها ومشاكلها ما بين عامي 1333/1327 هـ -1914/1909م وقفت الدولة الألمانية موقف المعارض لسياسة الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا-إنكلترا-روسيا) الرامية إلى اقتسام تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) وإنهاء وجودها، وبهذا بقيت ألمانيا الحليف والصديق الذي لا يستغنى عنه من قبل الدولة العثمانية مهما حدث(٣٥٣).

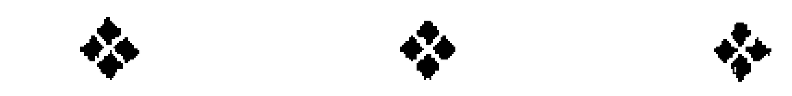
ومع نهاية هذا الفصل يمكننا القول أن العلاقات العسكرية هي أهم ما ميز العلاقات الألمانية - العثمانية وزاد من قوتها ومتانتها بالإضافة إلى العلاقات السياسية الرامية إلى تشكيل حلف قوي في المنطقة في ذلك الوقت وتجسد هذا الأمر في خوض الطرفان الحرب العالمية الأولى جنباً إلى جنب ضد دول الحلفاء.

---

(350) Ilber ortayli: op,cit, P121.
(351) Ilber ortayli: op,cit, P200.
(352) Ilber ortayli: op,cit, P198.
(353) Ilber ortayli: op,cit, P199.

وكنظرة لما سبق نرى أن الدولة العثمانية كانت المستفيد الأكبر من هذا الدعم العسكري، حيث أن الدولة كانت في مرحلة انهيار وضعف شديد وترهل في كل جوانب حياتها وخاصةً في جيشها وأنظمتها وأسلحتها، فكان الألمان بمثابة الأطباء المعالجون الذين قاموا بمحاولة معالجة معظم أماكن النقص والضعف والوهن في الجيش العثماني، ولكن لم يكن هذا الأمر بمحبة وإخلاص شديدين من الألمان للعثمانيين، وإنما تجسيداً لسياسة عليا رسمها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، كانت تهدف إلى جعل ألمانيا من أكبر الدول وأعظمها في القارة الأوروبية في ذلك الوقت كما أن الفائدة الاقتصادية من ناحية تجارة الأسلحة وبيعها للدولة العثمانية كانت كبيرة جداً، ورأينا كيف أن نسبة الصادرات وإنتاج معامل الأسلحة ارتفعت بشكل كبير بعد توطيد علاقات الصداقة بين السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني.

ولقد نجح الألمان لحد كبير في جعل الجيش العثماني قوة ثانية رديفة لقواته العسكرية في المنطقة بكل تكويناته ونظامه وأسلحته وحتى وهيئته (لباسه) يحركه كيفما يشاء عند الضرورة وهذا ما تجسد فعلياً في الحرب العالمية الأولى.



الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية الألمانية-العثمانية

العلاقات الاقتصادية الألمانية ـ العثمانية

أولاً ـ الاتفاقيات والامتيازات التجارية

1- لمحة عن العملات العثمانية

نظراً لاضطرارنا مراراً إلى ذكر القروض وكلفة المشاريع الاقتصادية ولاسيما الخطوط الحديدية، فسوف نعرض لمحة سريعة عن أسعار العملات العثمانية مقارنة بأسعار العملات الأوروبية والأمريكية:

1- كانت الليرة العثمانية المجيدية[354] الذي هي وحدة النقد الأولى في الدولة العثمانية وظل الناس يتعاملون بها في الشام نحواً من ربع قرن بعد انسحاب الدولة العثمانية من البلاد العربية.

- وهذه الليرة عيار 22 قيراط ووزنها 7.216 غراماً[355] ذهب.

2- تليها في الأهمية: الغرش وكان كل 100-105 غرش تساوي ليرة واحدة.

3- المصرية، أو البارة: كل 40 مصرية تساوي غرشاً واحداً.

4- المجيدي: وهو غير الليرة المجيدية، فهذا من الفضة وقيمته 20 غرشاً فضة.

5- الزولته: تساوي 3 مصاري.

6- المتليك: يساوي 5 مصاري[356].

---

(354) المجيدية، نوع من النقود الفضية في عهد السلطان عبد المجيد، كان يساوي خمس الذهب العثماني وعشرين قرشاً، ضرب عام 1260 هـ (1844م)، وصكت فئة العشرة قروش وسمي نصف مجيدي، وصكت فئة خمسة قروش وسمي ربع مجيدي. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، المرجع السابق، ص202).

(355) خليل أينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المرجع السابق، ج2، ص775.

(356) مركز الوثائق التاريخية بدمشق السجل 629 دمشق وثيقة 282-سالنامة ولاية سورية 1298-1880م-ص258

7- الفلس: كل 3 فلوس تساوي مصرية، أي أن الغرش الواحد يساوي 120 فلساً. والليرة الذهبية تساوي 12.000 فلساً.

وفي سنة 1879، أصدرت الدولة العثمانيّة عملةً ورقية لسدّ العجز في الميزانية، وكانت الورقة ذات الـ100 غرش تصرف كالليرة الذهب بـ100-105 غرش، وبعد سنتين صارت تصرف بـ450 غرشاً فاضطرت الدولة إلى سحبها من التداول[٣٥٧].

وفي وثيقة نادرة من مركز الوثائق بتاريخ المحرم سنة 1289هـ-1872 نقرأ مايلي:

«أمرٌ من مجلس تمييز حقوق ولاية سورية الجليلة، إلى قضاة دمشق بشأن الالتزام في أحكامهم ومعاملات الناس بالأسعار التالية للعملات[٣٥٨]:

- الليرة العثمانية	=	105	غرش فضة
- الليرة الفرنسية الذهبية	=	91	غرش فضة
- الليرة الإنكليزية ذهب	=	138	غرش فضة
- المخمّسة العثمانية ذهب	=	1900	غرش فضة
- الليرة الروسية ذهب	=	65	غرشاً
- المارك الألماني	=	7	غروش و30 مصرية
- الليرة العثمانية ذهب	=	4.6	دولار أمريكي
- الجنيه الاسترليني	=	4.87	دولار أمريكي
- كل خمسة فرنكات فرنسية	=	1	دولار أمريكي واحد
- كل 3 مارك ألماني	=	1	دولار أمريكي واحد
- الفرنك الفرنسي	=	5	غروش فضة
- الدولار الأمريكي	=		مجيدي عثماني فضة
- الروبل الروسي	=	2.7	فرنك فرنسي[٣٥٩]

(357) شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، بيروت 2005م، ص380

(358) مركز الوثائق التاريخية بدمشق-سجل تجاري رقم 18، سنة 1889م، وثيقة 118، والسجل 629، محاكم شرعية، الوثيقة 282، وسجل 19 وثيقة 17.

(359) شوكت باموك، المرجع السابق، ص380. علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية - بيروت 1981م ص19. ماري سركو، تطور دمشق في عهد السلطان عبد الحميد، رسالة دكتوراه-جامعة دمشق 2006، ص17.

2- التقدم الاقتصادي الألماني في الرايخ الثاني

أ- قيام الرايخ الألماني الثاني1288 هـ - 1871م:

- الرايخ[٣٦٠] *Reich*: كلمة ألمانية تعني إمبراطورية أو مملكة، ثم أصبحت فيما بعد تسمية للدولة الألمانية في ثلاثة عهود:

- الرايخ الأول: وهي الإمبراطورية الجرمانية المقدسة للأمَّة الألمانية التي تأسست سنة 962م وانحلَّت سنة 1221 هـ -1806م على يد نابليون.

- والرايخ الثاني: وهي الإمبراطورية الألمانية التي قامت سنة 1288 هـ -1871م واستمرت حتى سنة 1327 هـ -1918م.

- وأما الرايخ الثالث والأخير: فهو الذي أقامه هتلر بين 1352 هـ -1933م و1365 هـ -1945م[٣٦١].

ب- نمو الاقتصاد الألماني:

بدأت ألمانيا تشهد نهضة صناعية وتجارية ضخمة بدءًا من سنة 1265 هـ -1848م. فقد تضاعف إنتاجها من الفحم بين1265 هـ - 1848 و1281 هـ -1864م-. وكما تضاعف إنتاجها من الحديد ثلاث مرَّات خلال عشر سنين فقط من سنة 1277 هـ -1860م حتى سنة 1287 هـ -1870م.

وفي غضون ثلاث سنين 1297 هـ -1879م حتى 1300 هـ -1882م حققت الصناعية الألمانية الثقيلة تقدماً مذهلاً وصل إلى الضعف. كما تضاعفت قيمة التجارة الألمانية بين 1292م 1875م و1318 هـ -1900م. واستمرّ هذا التقدم الصناعي الكبير حتى سنة 1313 هـ -1895م.

وتضاعفت شبكة الخطوط الحديدية ثلاث مرات بين 1267 هـ -1850م و1287 هـ -1870م، ووصل طولها إلى 19،500كم[٣٦٢]، ولم يكن قطاع المصارف بعيداً عن هذه النهضة الجبَّارة، فقد أخذت المصارف الكبيرة تحل تدريجياً محل المصارف الصغرى الفردية الخاصة، وصارت هذه المصارف تسعى لإقامة استثمارات لها في الخارج حتى بلغت الأموال الألمانية المصدَّرة إلى الخارج بين 1312 هـ -1894م و1318 هـ -1900م أكثر

---

(360) الرايش (*Reich*)، في الألمانية رايش، أما كلمة رايخ فهي ترجمة للكلمة الإنكليزية باللفظ الخطأ للكلمة.

(361) ڤايت ڤالنتين، تاريخُ الألمان، المرجع السابق، ص9.

(362) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص39.

من 600 مليون مارك، وقد كان إنتاج الفحم في ألمانيا 1870 يساوي 34 مليون طن فأصبح سنة 1233 هـ -1913م، 277 مليون طن، والحديد في الفترة نفسها قفز من 1،5 مليون طن إلى 16 مليون طن، والتجارة الخارجية كانت سنة 1306 هـ -1888م بمبلغ 5726 مليار مارك ووصلت سنة 1913 إلى 20867 مليار مارك[٣٦٣]، وعدد السكان سنة 1870 كان 40 مليون نسمة، فوصل سنة 1913 إلى 66 مليون نسمة، وهكذا زاد الإنتاج الصناعي عن القدرة الاستهلاكية الداخلية وعن قدرة التصدير الخارجي أيضاً، فكان على ألمانيا:

1- تصريف الفائض من صناعاتها، وهو شيء كثير[٣٦٤].
2- تأمين الموارد الكافية لإعالة جميع السكان أو تهجير عدد منهم إلى الخارج بصورة مؤقتة أو دائمة. وبالرغم من هجرة أكثر من 3،5 مليون ألماني إلى العالم الجديد، فإن المشكلة السكانية الألمانية كانت بحاجة إلى حل.

3- طبيعة التوجه الألماني نحو الدولة العثمانية:

كان علماءُ الاقتصاد والاجتماع الألمان في أواسط القرن التاسع عشر، ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها مستعمرة مقبلة لهم.

وكتب العالم الاقتصادي الألماني «رودبرتس» (*Rodberts*) يقول: «أتمنى أن أعيش حتى أرى ذلك اليوم الذي ينتقل فيه الإرث التركي إلى ألمانيا، وترابط أفواج الجنود الألمان على ضفاف البوسفور».

وعند إعلان الوحدة الألمانية تطلّع الاقتصاديون الألمان إلى جعل العراق سلّة تورّدُ لألمانيا الحبوب والقطن، ولذلك كانت ألمانيا ترفض دائماً أي خطة لتقسيم الدولة العثمانية[٣٦٥].

وكان الكونت «ڤون مولتكه» (*Von Moltke*) وهو من أعظم الخبراء العسكريين الألمان، أوّل من لاحظ أهمية الدولة العثمانية لألمانيا.

---

(363) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص41.

(364) كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، د.ت، ص99.

(365) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربيّة ص386، و **Kazim Karabekir: Tarih Boyunca – Türk-Alman itiskileri Op-cit, P.151.**

وتعود بدايات التعاون العثمان - الألماني إلى سنة 1175 هـ -1761م، عندما وقعت معاهدة بين الدولة العثمانية وبروسيا عرفت بمعاهدة الصداقة والتبادل التجاري والتي جرى تمديدها سنة 1308 هـ -1890م.

وكما أسلفنا ففي عهد السلطان محمود الثاني تأسست فرقة عثمانية عسكرية تحت اسم «عسكر المنصور محمد» على غرار الفرق البروسيّة ، وقام «ڤون مولتكه» بتقديم مساعدات عسكرية كبيرة للجيش العثماني، بعد القضاء على الجيش الإنكشاري[٣٦٦].

وفي سنة 1307 هـ -1889م، وبعد زفاف أخت الإمبراطور غليوم الثاني (*Wilhelm II*) في أثينا قام بأول زيارة له إلى الدولة العثمانية وكان لها صدى عالمي واسع، ونشرت صورة الإمبراطور وصورة زوجته أوغستاا ڤيكتوريا (*Augusta Victoria*) في جريدة الصباح العثمانية سنة 1307 هـ -1889م.

وفي تلك الزيارة افتتح الإمبراطور فروعاً في استانبول للمعارف الألمانية[٣٦٧].

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها السلطان العثماني في استانبول إمبراطور عظيم مثل الإمبراطور غليوم الثاني، الذي تعامل مع السلطان بمنتهى الود والاحترام، في الوقت الذي كان فيه السفير البريطاني في استانبول يرفض مساواته بالسلطان العثماني بل كان يتقدم عليه.

وكان المستشار الألماني الشهير فون بسمارك (*Von Bismarck*) ينأى ببلاده عن الدخول في «المسألة الشرقية»[٣٦٨].

وكما أسلفنا سابقاً فقد ظهرت في ألمانيا تيّارات قوية تمثل «البرجوازية الألمانية الجديدة» طالبت قيادتها بالدخول في المسألة الشرقية أسوة بالآخرين، فكانت استجابة بسمارك لها في أضيق الحدود، وكان يصرّح دوماً بأنه لا يريد توريط بلاده في متاهات المسألة الشرقية، ولم تكن الدولة العثمانية على امتدادها تعني عنده شيئاً يستحق الاهتمام والتفكير.

وعندما طلب هرمان لوينز (*Herman Löhnis*) رئيس جمعية التجارة الألمانية في برلين، بعد رحلته إلى الشرق في كانون الأول سنة 1886م-1304 هـ دعْم الخارجية الألمانية له في مسعاه للحصول على امتياز مد خط حديدي بين حماة وطرابلس الشام كان رد

---

(366) Ilber ortayli, ikidost Hükümdar. Op-cit, P:59

(367) ***Ikidost Hükümdar. P:11***، ولمعرفة تفاصيل هذه الزيارة يرجى العودة إلى الفصل الثاني من البحث.

(368) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص44.

بسمارك: «إن هذا المشروع صفقة جريئة وعليكم العمل على مسؤوليتكم الخاصة، وأنا أحذركم من ذلك[٣٦٩]».

وعندما حصلت شركة «موزر: (*Mauser*)» على صفقة لبيع الأسلحة إلى السّلطنة العثمانيّة رأى بسمارك أنّ هذه صفقة تجارية بحتة، وليست تغييراً في السياسة الألمانية.

وعندما بعث جورج سيمنس (*Georg Siemens*) مدير المصرف الألماني ورئيس المجموعة الألمانية الساعية إلى الحصول على امتياز خط حديد الأناضول، إلى الخارجية الألمانية طالباً دعمها للمجموعة الألمانية عن طريق سفارة ألمانيا في الآستانة، رد بسمارك:

«إن مخاطرة أصحاب المشروع تقع على عاتقهم وليس على الرايخ».

ووعد بتقديم الدعم عند توقيع العقد وليس بعد الحصول عليه، ثم قال:

ليس لدينا مصالح سياسية في الشرق، ولا يمكننا لأسباب مالية التخلّي عن سياسة عدم التدخل في المسألة الشرقية[٣٧٠].

ولكن ذلك كله اختلف تماماً عندما ظهر الإمبراطور غليوم الثاني[٣٧١] الثاني الذي أخذ على عاتقه قيادة السفينة بنفسه، مما اضطر بسمارك إلى الرحيل، وبدأ بذلك عصر «الانفتاح» (*Deutsch Arader offenheit*) الألماني على المسألة الشرقية والسلطنة العثمانية والسلطان العثماني والمسلمين في العالم...

اتصفت علاقة ألمانيا بالدولة العثمانية في عهد بسمارك بالحساسية الشديدة والخصوصيّة المتميّزة.

فقد حاول من جهة أن يكسب الدولة العثمانية صديقاً لألمانيا، من خلال إصلاح الإدارة العثمانية، وأوفد لهذا الغرض سنة 1880 هـ -298ام بعثة «فتندورف (*Wittendorf*)».

ثم رحّب بإعادة تنظيم الجيش العثماني على أيدي الخبراء الألمان بين سنة 1882 و1883 وزوّده بالأسلحة الحديثة، من دون أن يدخل في أي تحالف من أي نوع مع الدولة العثمانية.

وكان هدف بسمارك الحصول على مزيد من النفوذ في الدولة العثمانية، وتقوية

---

(369) المرجع نفسه ص41 و42.

(370) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص43.

(371) وليم بالإنكليزية، وغليوم بالفرنسية وفلهلم بالألمانية..

الجيش العثماني ليستطيع الصمود أمام الجيش الروسي فيما إذا حاولت روسيا التعرض للدولة العثمانية.

ولذلك اختار واحداً من أكفأ رجاله ليكون سفيراً لبلاده في الآستانة وهو (فون رادوفيتز) (*Von.Radowitz*) الذي أقام في استانبول زهاء عشر سنين 1300/1310م-1882/1892م[٣٧٢].

قال المستشرق الألماني سبيتر تغر(*spetrtgr*) سنة 1304 هـ -1886م: «في كل أراضي الكون لا توجد إلا سوريَّة وبلاد آشور تدعوانك للاحتلال والسيطرة والاستفادة منهما حيث لا توجد صعوبات طبيعية.

وبعد فترة من الزمن قدَّر المستشرق الألماني الدكتور كيغر في كتابه «آسيا الصغرى أرض الاحتلال الألماني» الأفكار نفسها، ونصح باحتلال المنطقة عن طريق شركات تقوم عبر السكك الحديدية[٣٧٣].

وكانت ألمانيا في عهد الإمبراطور غليوم الثاني قد أعدت دراسات مستفيضة ومفصَّلة عما تسميه: تركيا الآسيوية، ووضعت برنامجاً متكاملاً يحقق الخير لها وللدولة العثمانية في آن واحد. وأهم ملامح هذه التوجُّهات:

- استغلال الثروات الباطنية في تركيا بواسطة الرأسمال الألماني.
- إحياء أراضي الأناضول المهملة والخصبة عن طريق مدّ خط حديدي يخترق آسيا الصغرى، ويصل المدن بالأقاليم الزراعية.
- نقل عدد من الألمان المزارعين الفقراء، إلى الأناضول وإسكانهم فيها بصورة مؤقتة أو دائمة ولاسيما أن الكثافة السكانية فيها قليلة.
- فتح طريق بري مباشر بين أوروبا والهند عن طريق البلقان، لمنافسة قناة السويس وخفض أسعار التوابل وحاصلات الهند[٣٧٤].

ولتحقيق ذلك أشار القنصل الألماني في الآستانة في تقريره بتاريخ 25 آذار 1899 - 1317 هـ إلى ما يلي:

1- وضع الرأسمال الألماني والصادرات الألمانية تحت تصرُّف الشركات الكبرى.

(*372*) سنو، المرجع السابق ص37.

(*373*) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية في بلاد الشام، دمشق 2010م، ص198.

(*374*) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص44.

2- إنشاء «وكالة فوسيون» (***Fussion***) الألمانية ومهمتها الاتصال بالبيوتات التجارية العثمانية.
3- إقامة حملات ملاحية منظمة نحو الشرق الأدنى.
4- دراسة واقع السوق في الدولة العثمانية وتأمين لوازمه.
5- تعيين ملحق تجاري ألماني في الآستانة[٣٧٥].

4- موقف السلطان (عبد الحميد الثاني) من ألمانيا:

رأي السلطان (عبد الحميد الثاني) في خط بغداد والألمان

حينما منح السلطان (عبد الحميد الثاني) امتياز خط بغداد إلى ألمانيا كان حريصاً على مصالح السلطنة أكثر من حرصه على مصالح ألمانيا، وكان يتابع عن كثب كل تصريح أو تلميح يصدر عن الإمبراطور الألماني أو من هم دونه فيغض الطرف عن المنافع العائدة لألمانيا، فيما لا يشكل خطراً على الدولة، ويقف بكل قوة إذا تجاوزت التلميحات أو الاقتراحات الألمانية الخطوط الحمراء العثمانية والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- عدم السماح بإقامة مستعمرات ألمانية في الأناضول على جانبي الخط الحديدي مهما كانت الفوائد.
- عدم السماح بإقامة كيان صهيوني في فلسطين، مع إمكانية إسكان أعداد من اليهود في أراضي الدولة الأخرى شرط التبعية المطلقة للباب العالي والسلطان.
- عدم التورط بتحالف مع ألمانيا، يقضي على استقلال السلطنة ويجعلها تابعة لألمانيا العظمى. وكان يقول: «إننا عازمون على إيقاف الألمان عند حدّهم، ولقد نبهنا السفير الألماني في الآستانة، فون بيبرستين (***Von Bebarstin***) الى عدم اطمئناننا إلى السياسة التي تتبعها، وان الاستفادة

---

(375) عبد العزيز الشاوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترًى عليها، القاهرة 1986، 3 مجلدات، ج3، ص1353.

كانت الصحف وحتى الباحثون الاجتماعيون الألمان يدعون إلى تشجيع الاستيطان وهجرة الألمان إلى مناطق الأناضول في الدولة العثمانية والاستفادة من العلاقات الودية بين العثمانيين والألمان من أجل تحقيق هذه الغاية. واعتبر كثير منهم أن المشاريع الاقتصادية الألمانية في الدولة العثمانية باباً ومنفذ من أجل تحقيق هذه الغاية وخاصة مشاريع سكة الحديد (مشروع سكة حديد بغداد)، ولقد كان هؤلاء يفضلون هجرة الألمان إلى بلاد الأناضول على هجرتهم إلى أمريكا (العالم الجديد) أو غيرها من الأماكن. ***Kazim Karabeker, p.cit, P.143***.

من الألمان في تسوية أوضاعنا الاقتصادية فكرة صائبة، لكنني لن أقبل أبداً بما تتمنّاهُ الصحافة الألمانية من إنشاء مستعمرات ألمانية على طول خط حديد بغداد... فالأناضول بلادنا وستبقى ملاذاً آمنا لكل مسلم يضطر إلى مغادرة وطنه...»(٣٧٦). كما يقول السلطان عبد الحميد الثاني: «سوف نكبح جماح التحرك الألماني نحونا ونوقفه في مكانه المناسب... ولقد علمت من سفيرنا في برلين أن القيصر الألماني كان يريد من الألمان الإقامة في الأناضول، لكنني لا أقرّ ذلك بالمرة ولن نترك أرضنا للألمان، فهي أرض الآباء والأجداد(٣٧٧).

ويقول: «كانت الفرحةُ على منظر الدول الأوروبيّة عشية منح امتياز الخط تدعو للسرور، فقد شرعت الصحف الروسية والفرنسية والإنكليزية في بث بذور الخلاف بيننا وبين الألمان، وصاروا يرشون كبار الموظفين عندنا من أجل الفوز بهذا الامتياز».

وقد اختار السلطان ألمانيا لأنه لم يكن للإنكليز أدنى تأثير في الدبلوماسية الألمانيّة(٣٧٨).

ويقول في مذكراته: «يُقال إني عندما أعطيتُ إنشاء خط الأناضول للمصرف الألماني، كانت الشروط غير ملائمة لنا، طمعاً في كسب صداقة الإمبراطور الألماني. وأنا أرى أن خط الأناضول مهم لنا، كما هو مهمٌ للمصرف الألماني، فمن الطبيعي أن يكون لهم نصيب من الأرباح، وتبقى لنا الحصة الكبيرة، لقد انتعشت البلاد التي مرّت بها الخطوط الحديدية وبذلك وجدنا الأراضي لتوطين مئات الآلاف المهاجرين من أوروبا...»(٣٧٩).

عرض السلطان عبد الحميد الثاني على الولايات المتحدة الأمريكية أن تقوم بتنفيذ خط بغداد الحديدي لخبرتها العالية في مجال السكك الحديدية، واختار شركة «ستانفورد» (*Stanford*) المشهورة بقدرتها العالية لتكون صاحبة هذا المشروع.

وكانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت دولة محايدة لا مطامع لها في الدولة

(*376*) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية (1891-1908)، الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسسة الرسالة 1986م، ص131.

(*377*) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة، عبد الله إبراهيم، القاهرة 2008، ص432.

(*378*) سليمان قوجه باشي، ، المرجع السابق، ص433.

(*379*) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص83.

العثمانية، لكنها اعتذرت عن تنفيذ المشروع، ربما بسبب الأحوال الاقتصادية المتردّية للدولة العثمانية وضخامة المشروع[٣٨٠].

ولذلك يمّم وجهه نحو ألمانيا، وقال مبرراً ذلك:

«إن وجود الألمان في الأناضول وبلاد الرافدين أقل خطراً من وجود الإنكليز؛ لأن الألمان ينظرون إلى مصالحهم الاقتصادية والمالية، أمّا الإنكليز فسيستخدمون هذه الخُطوط لوضع أيديهم على بلادنا ومقدراتنا[٣٨١].

وكانت إنكلترا تفكر جدياً في مدّ خط حديدي عملاق من الإسكندرونة إلى الهند عندما كانت فرنسا تسيطر على قناة السويس، لكن الأمر تغيّر سنة 1292 هـ -1875م عندما صارت إنكلترا هي المتحكمة في شركة قناة السويس، ولذلك صرفت النظر عن المشروع، لكنها ظلّت تتابع أخباره باهتمام شديد[٣٨٢].

ثانياً ـ المشروعات الاقتصادية الألمانية في الدولة العثمانية

أ- خطوط الملاحة:

أرادت ألمانيا تسيير خطوط ملاحية بينها وبين شرقي المتوسط، والخليج العربي. وكانت أولى المحاولات سنة 1299 هـ -1881م، عندما قامت شركة غلافكه (**Frima Glafcke**) وشركة هينفس (***Hennings***) في هامبورغ بتنظيم أول عمليّة شحن من هامبورغ إلى الشرق من خلال شركة «خُطوط الشرق» (***Orientinie***) عبر عدد من السفن التجارية[٣٨٣].

- وبعد عام قامت شركة الملاحة «أي سي دو فرايتاس: ***A.C. de Freitas and Co***» باتصال بحري مباشر بين موانئ ألمانيا والشرق. وفي أيلول 1307 هـ -1889م

---

(380) قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، المرجع السابق، ص433.

(381) قوجه باشي، المرجع نفسه، ص430.

(382) ***Orhan Koloğlu, Avrupa Kiskacinda Abdülhamit, istanbol, 1998, P.54, 55***، وقوجه باشي، المرجع السابق، ص429.

ولقد كانت بريطانيا تخطط من أجل السيطرة على الخليج العربي والعراق ومصر وبذلك تؤسس منطقة نفوذ إنكليزية تمتد من القاهرة إلى كالكوتا (***Kalküta***) إلى جبال الألب وتقوم بإنشاء خط حديدي يوصل هذه المناطق ببعضها البعض. (***Kazim Karabekir, p.cit, P.141***).

(383) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سورية ولبنان، بيروت، 1987، ص254.

تأسست في هامبورغ «شركة خطوط الملاحة الألمانية – الشرقية (***Deutsche Levante linie***)» شركة مساهمة وبدأت عملها بعد عام واحد بأربع سفن تجارية، وصلت بعد عشر سنين إلى إحدى وعشرين سفينة[٣٨٤]. وفي سنة 1317 هـ -1899م افتتحت الشركة خطاً بحرياً مع الساحل السوري – الفلسطيني[٣٨٥]. وفي بدايات القرن العشرين كان ثمة خطان مباشران إلى الساحل السوري نحو اسكندرونة وبيروت وطرابلس ويافا. كما عمد الألمان إلى تسيير خط ملاحي آخر إلى البيرة وإزمير وسلانيك واستانبول وسورية والبصرة. وكانوا ينافسون الفرنسيين ليجعلوا لأنفسهم موطأ قدم في النقل البحري.

ودخلوا في منافسات حامية مع الإنكليز في الخليج وصاروا يتقاضون 15 فرنكاً عن كل طن من البضائع، مقابل: 50 فرنكاً كانت تتقاضاها السفن الإنكليزية من مرسيليا إلى مسقط وكان تركيز الألمان على مسقط كبيراً[٣٨٦]. ويذكر جون لوريمر أنه في سنة 1324 هـ -1906م ظهرت بواخر خط «هامبورغ – أمريكا» في الخليج العربي لأول مرة[٣٨٧].

2- البيوتات التجارية الألمانية في الدولة:

تأسست أولى البيوت التجارية الألمانية في سورية وفلسطين في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر. وتذكر التقارير وجود شركات «فوسيون (***Fussion***)» ألمانية في دمشق، وبيوت تجارية في بيروت وفلسطين. وفي فلسطين أخذ جماعة الهيكل الألمانية يقومون بتصدير منتجاتهم الزراعية بأنفسهم، وبلغ عدد شركاتهم التجارية في حيفا سنة 1305 هـ -1887م ثلاث شركات. وفي الثمانينات تأسست في بيروت وكالات تمثيلية من قبل شركة التأمين العامة، وشركة التأمين على النقل لحماية النقل البحري. وفي أواخر القرن العشرين كان يوجد في القسم الآسيوي من الدولة العثمانية زهاء ثلاثين بيتاً تجارياً ألمانياً رأسمالها 7 مليون مارك[٣٨٨].

(*384*) سنّو، المرجع السابق ص255.

(*385*) سنّو، المرجع نفسه، ص257.

(386) Ilber ortayli: Osmanli Imperator luğu'nda Alman Nüfuzu Boğoziçi Universites ikütüphanesi, Istanbul, 2003, P.161-162.

(*387*) جون لور يمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، قطر 1970م، ج1، ص551.

(*388*) سنو، المصالح الألمانية، المرجع السابق، ص257.

3- المنشآت العمرانية والمؤسسات:

قامت ألمانيا بإنجاز عدد من المشاريع الاقتصادية والعمرانية في الدولة العثمانية، من أهمها:

- إنشاء تراموای الآستانة 1305 هـ -1887م.
- تمديد كابل: كونستنز[٣٨٩] إستانبول 1317 هـ -1899م.
- تجهيز ميناء حيدر باشا.
- تطوير ميناء البصرة واسكندرونة.
- إنشاء مصرف فلسطين الألماني سنة 1317 هـ -1899م.
- إنارة سمرنا[٣٩٠] - سالونيك[٣٩١] سنة 1317 هـ -1899م.
- زراعة القطن واستخراج زيوته سنة 1323 هـ -1905م.
- تأسيس بنك الشرق سنة 1324 هـ -1906م.
- تجديد جسر استانبول ونقل ملكيته للألمان.
- تأسس مصنع (*Hereke*) للسجاد في أزميت (*Izmit*) سنة 1311هـ-1893م.

وعلاوة على ذلك تأسست في ألمانيا مجموعة من الشركات المعنية بالاقتصاد الشرقي، منها:

- رابطة تصنيع الآلات والتعدين الألمانية.
- جمعية التصدير الألمانية الشرقية.
- رابطة المشرق الألمانية.
- بيت الصداقة الألمانية - التركية.
- جمعية الحضور الألماني في الخارج[٣٩٢].

4- التجارة والمصارف

لم يكن للألمان نصيب في التجارة العثمانية حتى1298 هـ -1880م. فبعد ذلك العام

(*389*) كونستنز (*Konstanz*): مدينة تقع في أقصى جنوب ألمانيا على الحدود مع سويسرا. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*390*) سمرنا: تقع على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*391*) سالونيك: مدينة يونانية وهي عاصمة إقليم مقدونيا. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*392*) سنُو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص51. و ***Yasar Yilmaz: ikidost hükümdar, p.cit, P151***.

بدأت البضائع الألمانية تجد طريقها للوصول للأسواق العثمانية، أما النقلة النوعية للتجارة الألمانية هي الدولة العثمانية فكانت بعد توقيع اتفاقية تجارية بين الدولة العثمانية والدولة الألمانية في (1890/8/26م-1308 هـ) والتي نصت على حرية التجارة بين البلدين، ولقد نصت هذه الاتفاقية على تخفيض نسبة الجمارك عن 720 نوع من البضائع الألمانية الداخلة للدولة العثمانية سيما لم يتم تخفيض الجمارك على البضائع العثمانية الداخلة إلى ألمانيا(٣٩٣).

وعلى أثر ذلك بدأ الألمان بالقدوم إلى الدولة، حاملين معهم بضائعهم، أو نماذج عنها، وكانوا شديدي المهارة والذكاء في عرضها على الأسواق العثمانية، ذلك أنهم بدؤوا بدراسة أحوال هذه الأسواق، وأسعار البضائع فيها، وما تحتاج إليه هذه الأسواق من البضائع وهذا حقق لهم نجاحاً وتميزاً لدى زبائنهم العثمانيين.

ومن أمثلة ذلك أن التجار الإنكليز كانوا يبيعون لفّات القماش في بالات، وكان طول اللفة خمسين متراً، وكانت تشكل عبئاً على البائع والمشتري، فعرض الألمان أقمشتهم في لفّات صغيرة طولها 16 متراً فقط، فأقبل الناس عليها، وكذلك عرضوا بضائعهم التي كانت تعادل بجودتها البضائع الأوربية الأخرى وبأقل ثمن منها وهذا ما زاد من إقبال الناس على البضائع الألمانية.

وفي سنة 1307 هـ -1889م تأسست: رابطة التصدير لمصانع الآلات والتعدين الألمانية التي افتتحت معرضاً لها في الآستانة ومخزناً في في سالونيك، ووكالات في سورية وفلسطين(٣٩٤). وقد فتح الألمان مصارف كثيرة في الدولة العثمانية وشجعوا التجار على فتح المصارف والمؤسسات المالية.

وأثناء زيارة الإمبراطور غليوم الثاني إلى القدس تأسّس في فلسطين «بنك فلسطين الألماني» رأسمال قدره 450،000 مارك، وفُتح له فروع أخرى سنة 1317 هـ -1899م، في استانبول ومناستير وسلانيك والقدس ويافا وحيفا والإسكندرية القاهرة. ثم أُسّس في استانبول مصرف اسمه مصرف الشرق» برأسمال قدره 20 مليون مارك، ثم فتحت له فروع في بغداد وبورصة والقاهرة(٣٩٥). وكان ذلك سنة 1324 هـ -1906م.

(*393*) سجل الأرشيف العثماني، سجل رقم (784) وثيقة رقم (2) تاريخ 1296 (تضمنت الوثيقة قائمة بأسماء البضائع الألمانية الداخلة للدولة العثمانية، والمعفى منها من الجمارك ونسبة الضرائب عليها). و ***Ilber Ortayli, Osmanli Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, p.cit, P.59***.

(*394*) سنو، المصالح الألمانية، المرجع السابق، ص259.

(395) Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op.cit, P.159.

وفي سنة 1314 هـ -1896م أسس «الغراف تزيتن شفرين» (*Grefvon zieten - Schwerin*) رئيس جمعية بيت المقدس البرلينية: الشركة الفلسطينية الشرقية الألمانية، لتشجيع التجارة الألمانية في فلسطين والمشرق، وشراء الأراضي وزراعتها وممارسة الأعمال المصرفية.

ولما كان «شفرين» بروتستانتياً فقد كان يتعامل مع جماعة الهيكل الألمانية في فلسطين ومع التجار العرب واليهود. كما انضم له الكاثوليك الألمان بدافع قومي.

ورغم المنافسة الشديدة التي تعرَّض لها مصرف فلسطين من مصرف كريدي ليونّيه الفرنسي (*Crédit Lyonnais*) ومن المصرف العثماني (*Banque Imperiale Ottomane*)، إلا أنه استطاع أن يثبت أقدامه بقوة في فلسطين.

وهكذا جسَّد هذا المصرف أسس التعاون بين المصالح الاقتصادية والتبشيرية الألمانية في الشرق(٣٩٦). وقد ساهم «دوتش بنك» (*Deutsche Bank*) في إنشاء المشاريع التالية في الدولة:

- الاتحاد العثماني للمشاريع الكهربائية - إدارة حصر التبغ والتنباك (*Régi*) من أجل احتكار صناعة التبغ لمدة ثلاثين عاما(٣٩٧).

وقد بلغت قيمة الصادرات الألمانية إلى الدولة العثمانية:

- 77 مليون مارك بين 1298/1306 هـ - 1880/1888م.
- و314 مليون مارك بين 1307/1315-1889/1898م.
- و793 مليون مارك بين 1323/1332 هـ -1905/1913م.

وكانت ألمانيا تصدر للدولة:

- المنسوجات والآلات والأدوات الحديدية والكيماوية والطبيَّة.
- كما كانت تصدر لوازم الخطوط الحديدية والقطارات.
- ولكن الأسلحة كانت تأتي في المقام الأول حيث كانت:

شركة كروب (*Krupp*) وماوزر (*Mouser*) ولوفيه (*Löwr*) هي المصدر الرئيس للأسلحة الألمانية التي بلغت قيمتها بين 1888-1897 حوالي 85 مليون مارك(٣٩٨).

(*396*) سنو، المصالح الألمانية، ص261، 262، 263.

(*397*) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص20.

(*398*) سنّو، ألمانيا والإسلام، ص54.

وفي إحصاء آخر نجد أن حجم الصادرات الألمانية للدولة سنة 1900 بلغ 34 مليون مارك مقابل 30 مليون مارك قيمة الواردات الألمانية من الدولة العثمانية.

وفي سنة 1322 هـ -1904م صدَّرت ألمانيا للدولة ما قيمته 75 مليون مارك واستوردت منها ما قيمته 43،5 مليون مارك(٣٩٩).

5- الاتصالات والتنقيب عن المعادن:

ومن مظاهر التعاون العثماني - الألماني المختلفة نذكر التعاون في مجال البريد والبرق والهاتف.

ففي سنة 1317 هـ -1899م عمد الألمان إلى مدّ خطوط البرق في أنحاء الدولة بعدما كان هذا القطاع بأيدي الإنكليز. وقد مدوا خطاً من مالا(٤٠٠) (*Malla*) إلى استانبول، وخطاً آخر من استانبول إلى أوديسا(٤٠١) (*Odissa*). كما مدّ خط ثالث من برلين إلى بوكرش إلى كونستانا(٤٠٢) وبمساعي السفير الألماني في استانبول، حصلت شركة ألمانية على امتياز خط البرق من كونستانا إلى بغداد. كما حصلت على امتياز خط استانبول - العريش.

وفي سنة 1323 هـ -1905م تم تدشين الخط البرقي بين دمشق والمدينة المنوّرة، أثناء تمديد الخط الحديدي الحجازي، ووضع نصب التأسيس في ساحة المرجة بدمشق(٤٠٣). كما تمّ تكثيف البعثات الجيولوجية الألمانية في الأناضول، وأجري المسح على الثروات الباطنية، وتمت دراسة الجدوى الاقتصادية لاستخراج المعادن. كما وضعت وزارة الحربية الألمانية قائمة بالشركات البريطانية والفرنسية العاملة في حقل النشاطات المنجمية والتي يجب سحب تراخيصها ونقلها إلى الشركات الألمانية(٤٠٤).

ويقول السلطان عبد الحميد: إن سلوك القيصر غليوم الثاني معي جعلني أتصرّف معه تصرُّف الأصدقاء إلى آخر عمري. ثم يقول: وجاء مع الإمبراطور الألماني إلى بلادنا بعض العلماء الألمان، ومن بينهم من كان يشتغل بالتنقيب عن الآثار القديمة حول الموصل فسمحت لهم. ثم كلفت صلاح الدين أفندي بمراقبة هذه البعثات العاملة حول الموصل

---

(399) Kazim Karabekir, Tarih boyunca, op.cit P62

(*400*) مدينة تقع في أقصى جنوب إيران (***www.ar.wikipedia.org***).

(*401*) مدينة أوكرانية تقع على البحر الأسود (***www.ar.wikipedia.org***).

(*402*) ميناء ومرفأ هام على البحر الأسود، تقع شرقي رومانيا (***www.ar.wikipedia.org***).

(403) Kazim Karabekir, op.cit,.P161

(*404*) ستّو، ألمانيا والإسلام، ص51.

فأرسل إلي الإمبراطور ما يزال في بلادنا، أن الألمان يفعلون ما يفعله الإنكليز تماماً حيث يقومون بحفر الآبار النفطية، ولو طلب مني الإمبراطور الرخصة بالتنقيب عن النفط لأعطيته، ولكنه آثر العمل من وراء ظهورنا(٤٠٥).

6- القروض المالية:

وحتَّى تغطي الدولة العثمانية قيمة مشترياتها كانت تضطر لإبرام قروض مع ألمانيا لتخفيف اعتمادها على فرنسا أو إنكلترا. ففي سنة 1306 هـ -1888م أبرمت أول قرض مع ألمانيا بقيمة 1.6 مليون ليرة ذهبية عثمانية بفائدة قدرها 5٪ على أن يكون التسديد بالمارك الألماني، وهذا القرض هو قيمة الأسلحة التي استوردتها الدولة من ألمانيا(٤٠٦).

وثمة ملحوظة هامَّة، وهي أن جميع قروض ألمانيا للدولة العثمانية كانت بالليرة الذهبية العثمانية، وعند تسديد الأقساط تحسب قيمة الماركات بسعر الذهب وتسدد الدولة على هذا الأساس وذلك لتضمن ألمانيا قيمة القرض وتأمن تقلبات الأسعار، وبذلك تحصل على فائدة مزدوجة:

- فهي التي تقوم بتحديد سعر الصرف، وتقوم بالصرف أيضاً.
- وهي التي تضمن ثمن بضائعها بالعملة الذهبية.

وكان السلطان يدرك ذلك تماماً، ولكنه كان مضطراً لذلك، لأن الدول الأخرى ليست أرحم من ألمانيا، بل هي أسوأ منها بكثير كما تجلَّى في قروض الدول الأوروبية لمصر، والتي انتهت باحتلالها.

وفي سنة 1312 هـ -1894م عقدت الدولة العثمانيَّة قرضاً آخر مع ألمانيا قيمته 1.76 مليون ليرة ذهبية عثمانية بفائدة قدرها 4٪ من أجل تسديد ديون شركة حديد الأناضول على الدول لصالح مجموعة دوتش – بنك (***Deutsche Bank***). ثم أردفت ذلك بقرض ثالث مع البنك نفسه مقداره 2،37 مليون ليرة ذهب بفائدة قدرها 4٪ سنة 1903 من أجل تنفيذ المرحلة الأولى من خط حديد بغداد. ثم عقدت قرضاً رابعاً من البنك نفسه قيمته 2.64 مليون ليرة عثمانية سنة 1905 لدفع ثمن التجهيزات العسكرية.

(*405*) مذكرات السلطان عبد الحميد - دار القلم بدمشق 1998، ص156. الأرشيف العثماني، سجل رقم (360) وثيقة رقم (83) تاريخ 1318 هـ.

(*406*) علي محافظة، العلاقات الألمانيَّة – الفلسطينيَّة، 1841م-1945م، المرجع السابق، ص17

وفي سنة 1326 هـ -1908م منحت ألمانيا الدولة العثمانية مبلغ 108 مليون فرنك فرنسي لإقامة أربعة فروع لخط حديد بغداد بطول 840كم، وتولّت شركة «هولستمان» (*Holtzmann*) الألمانية تنفيذ المشروع.

وهكذا بلغت قيمة القروض 12،3 مليون ليرة ذهبية على مدى 28 عاماً.

والجدير بالذكر أن قيمة القروض في عهد الاتحاد والترقي بين 1326 هـ -1908م حتى 1333 هـ -1914م بلغت 46 مليون ليرة...

ومع ذلك كانت ديون الدولة لألمانيا 12٪ من قيمة الدين العثماني العام، مقابل 45٪ لفرنسا و10٪ لإنكلترا[٤٠٧]، وبالرغم من كل محاولات الدولة العثمانية الاعتماد في مشاريعها وقروضها على ألمانيا، إلّا أنه بقية لفرنسا حصة الأسد في هذه الديون، ولم تستطع الدولة التخلص من هذه الهيمنة حتى سقوطها.

ثالثاً - خط برلين - بيزنطة - بغداد *B.B.B*:

1- الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية:

في سنة 1289هـ - 1872 تلقى المهندس الألماني الكبير المتخصص في مد خطوط الحديدية جورج برسيل (*G.Pressel*) تكليفاً من السلطان عبد العزيز بمد عدد من الخطوط الحديدية في البلقان لوصلها بالآستانة[٤٠٨].

وفي سنة 1305 هـ -188م أنجز «برسيل» (مدّ شبكة حديدية معقدة في البلقان تصل ڤيينا بالآستانة ، ترتبط بشبكة الخطوط الحديدية في أوروبا حتى لندن عن طريق كاليه[٤٠٩][٤١٠].

ثم تطلّعت الدولة العثمانية إلى ربط الآستانة بولاياتها في الشام والعراق، وكانت تؤثر التعامل مع ألمانيا، لما حققه «برسيل» من مهارة وكفاءة في مد خطوط البلقان، ولأن

(*407*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص18.

(*408*) مجموعة مؤلفين، ألمانيا والعالم العربي، تعريب، مصطفى ماهر، دار صادر بيروت، 1974م، والبحث الذي نقلنا منه بقلم د.هانس رُويمر ، ص 374.

(*409*) كاليه: بالفرنسية (*Pas de Calais*) وهو المضيق الموجود في أضيق جزء من بحر المانش ويقع بين القنال الإنكليزي وبحر الشمال، وهو أقصر مسافة بين إنكلترا والقارة الأوروبية، (***www.ar.wikipedia.org***).

(*410*) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج3 ص1348.

ألمانيا كانت من أقلّ الدول الأوروبية طمعاً بالدولة العثمانية على عكس كلٍ من روسيا وفرنسا وإنكلترا[٤١١].

وكان بسمارك يفضّل أن تقوم بريطانيا وفرنسا بمدّ الخطوط المطلوبة حتى تتنافس فيما بينها بعيداً عن ألمانيا، كما أن مجموعة «دوتش - بنك» (**Deutsche Bank**) الألمانية كانت متحفظة حيال المشروع بسبب التدهور الاقتصادي في الدولة العثمانية.

ثم تراجع بسمارك وأعلم «سيمنس» في أيلول 1305 هـ -1888ماستعداد السفارة الألمانية في الآستانة لتقديم الدعم الدبلوماسي للمجموعة التي يمثلها للحصول على الامتياز.

وشهدت الآستانة خلال شهر أيلول مناورات ألمانية وبريطانية وفرنسية انتهت بحصول «مجموعة بنك - دوتش الألمانية» (**Deutsche Bank**) على امتياز خط حيدر باشا - أنقرة - قونيه.

وفي العام التالي تأسست «شركة سكة حديد الأناضول العثمانية» من المجموعة الألمانية المذكورة[٤١٢].

وأخيراً وفي الرابع من تشرين الأول 1888 تم في استنبول توقيع عقد الامتياز بين الباب العالي ومجموعة دوتش-بنك التي يرأسها جورج سيمنس (**G.siemans**) أول رئيس لمجموعة البنك الألماني، وأول مدير لخط حيدر باشا - أنقرة[٤١٣].

وكانت النمسا قد مدّت جزءاً من هذا الخط حتى إزميت[٤١٤] فاشترته الدولة وقدّمته للمجموعة الألمانية. وبدأ العمل سنة 1311 هـ -1893م ووصل الخط إلى أنقرة بعد عام، وفي سنة 1314 هـ -1896م وصل الخط إلى قونية، ورافق ذلك وصول أعداد كبيرة من الألمان بمعدّاتهم إلى الدولة[٤١٥]. وفي سنة 1319 هـ - 1901م مات سيمنس وخلفه: فون جافنير (**Von Cavnir**).

وهكذا فإنه في أواخر القرن التاسع عشر، وقبل توقيع عقد خط حديد بغداد بلغ

(*411*) مجموعة مؤلفين، ألمانيا والعالم العربي، المرجع السابق، ص345.

(*412*) سنو، ألمانيا والإسلام، المصدر السابق، ص46.

(*413*) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو 1971، ص387.

(*414*) إزميت، أو إزميد هي مدينة نيقوميديا القديمة على بحر مرمرة. وأما أزمير فهي بلدة «سميرنا» القديمة وتقع على بحر إيجة. دائرة المعارف بطرس البستاني ج3، ص307 و309.

(*415*) عبد العزيز الشناوي، الدول العثمانية ج3، ص1362. محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة 1976م، ص306.

طول الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية نحو 2726 كيلومتراً، وفي أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني وصل طول هذه الخطوط 12،000 كم[٤١٦].

1- الخطوط الإنكليزية:

- إزمير — آيدين		= 373 كم.
- مرسين — أضنة		= 67 كم
	والمجموع	= 440 كم.

2- الخطوط الفرنسية:

- إزمير — قصبة		= 512 كم
- القدس — يافا		= 87 كم
- بيروت — دمشق		= 247 كم
- دمشق — حلب		= 420 كم
	والمجموع	= 1266 كم

3- الخطوط الألمانية:

- حيدر باشا — إزميت		= 91 كم
- إزميت — أنقرة		= 485 كم
- أسكي شهر[٤١٧]- قونيه[٤١٨]		= 444 كم
	المجموع	=1020 كم[٤١٩]

2- **خط بغداد** 1321هـ-1903م:

- <u>فكرة الخط</u>: يعرف اصطلاحاً بخط[٤٢٠]: برلين، بيزنطة، بغداد، ***B.B.B***،

(*416*) سنو، ألمانيا والإسلام، ص51. ود. سيف الله آرياجي، السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، ط1، دار النيل، مصر، 1432 هـ - 2011م، ص48.

(*417*) أسكي شهر: مدينة تقع في الشمال الغربي لتركيا.

(*418*) قونية: مدينة تركية تقع وسط الأناضول.

(419) Ilber ortayli, Osmanli Imparator luğu'nda. Alman Nüfuzu, op-cit, P.142, 143

(*420*) وقد أطلق على مشروع هذا الخط الحديدي من قبيل الاختصار طريق (***Route, B.B.B***)؛ لأنه يبدأ من برلين ويمر ببيزنطة ثم بغداد، وقد اختيرت كلمة بيزنطة بدلاً من استانبول أو الآستانة أو القسطنطينية حتى تبدأ أسماء هذه المحطات الثلاثة الرئيسية بحرف (ب) (***B***). (عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج3، ص173، 174).

واختصاراً بخط بغداد، وقد بدأ المشروع اقتصادياً، ثم تحول إلى مشروع سياسي، شأنه شأن قناة السويس.

فكرة الخط قديمة تعود إلى سنة 1188 هـ -1782م عندما أوصى المهندس الإنكليزي سوليفان (*Sulivan*) بعد رحلة له إلى الشرق إلى ضرورة إحياء الخط البرّي المعروف بطريق الحرير بين أوروبا والهند[٤٢١].

وفي سنة 1267 هـ -1850م اقترح الكولونيل الإنكليزي تشيسني (*Teshicne*) إنشاء خط حديدي في وادي الفرات يصل إلى الخليج العربي[٤٢٢]، وعندما بوشر بحفر قناة السويس سنة 1273 هـ -1856م اشتد قلق بريطانيا على الهند وفكرت بإحياء الطريق البري إليها، ثم صرفت النظر عن الموضوع عندما سيطرت على غالبية أسهم القناة سنة 1292 هـ -1875م[٤٢٣].

3- توقيع العقد:

وعلى أثر زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني التاريخية للدولة العثمانية في خريف 1316هـ - 1898 وقعت ألمانيا مع الدولة العثمانية اتفاقية تمديد خط حديد ***B.B.B*** في أواخر سنة 1317 هـ -1899م وهو خط برلين - بيزنطة - بغداد، وكما صار يعرف اختصاراً بخط حديد بغداد .وكلمة بيزنطة هي القرية التي بنيت القسطنطينية على أنقاضها ومنها أخذت الإمبراطورية الرومانية الشرقية اسمها.

وفي سنة 1318 هـ -1900م قامت بعثة ألمانية برئاسة القنصل الألماني في الآستانة برحلة على طول الخط المقترح في العراق، ثم وضعت تقريرها عن كل المشكلات المحتملة في هذا الخط[٤٢٤].

وأعقب ذلك مشاورات ودراسات واسعة بين المختصين في الدولتين أسفرت عن توقيع العقد النهائي للخط في أوائل كانون الثاني 1902 - 1319هـ. وقد تأخّر صدور الإدارة الشاهانية بوضع الاتفاق موضع التنفيذ إلى يوم 5 آذار 1903م-1320 هـ الذي يعدّ التاريخ الحقيقي لبدء تنفيذ هذا الخط.

(*421*) عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديديّة في بلاد الشام ص199.

(*422*) عزة آقبيق، المرجع السابق ص204.

(*423*) رويمر، ألمانيا والعالم العربي، المرجع السابق، ص372-374.

(*424*) جون لوريمر، دليل الخليج، المرجع السابق، ج1 ص551.

وقد أثار اختيار ألمانيا لتنفيذ هذا المشروع ردود فعل كبيرة لدى الدول الأوروبية، بين مؤيد ومعارض ومتخوف من عواقب هذا الصراع الدولي على تنفيذ هذا المشروع، ويذكر هذا الأمر بتوقيع اتفاقية مشروع قناة السويس مع فرنسا.

وقد وقّع العقد نيابةً عن الدولة العثمانية وزير التجارة والأشغال العمومية: ذهني باشا، ووقعه نيابة عن «شركة سكة حديد الأناضول العثمانية» وهي شركة ألمانية كل من:

- جونيور آرثر (***Gwinner Arthur***): رئيس مجلس المديرين بالشركة.
- والدكتور كورت زاندر (***Dr.Kurt Zander***): المدير العام للشركة.
- وهيجيونين إدوارد (***Huguenin Edouard***): المدير العام المساعد بالشركة[٤٢٥].

4- خط السكة الأصلي والفرعي:

وقد نص العقد في مادته الأولى على خط سير السكة الحديدية المذكورة، فكان الآتي:

1- الخط الرئيسي:

1- قرمان: ***Karaman***.
2- إرجلي ***Ergeli***.
3- كراداش ***Karadash***.
4- أضنة: ***Adana***.
5- حميدية: ***Hamidieh***.
6- عثمانيّة: ***Osmanieh***.
7- باجتشب: ***Bagtcheb***.
8- كازانالي: ***Kazanali***.
9- كلّس: ***Killis***.
10- تل حبيش: ***Tel-Habesh***.
11- حرّان: ***Harran***.
12- رأس العين: ***Ras-el-Aen***.
13- نصّيبين: ***Nisibin***.

(*425*) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1362.

14- عونيات: *Avniat*.

15- الموصل: *Mosul*.

16- تكريت: *Takrit*.

17- صاددجة: *Sadidjeh*.

18- بغداد: *Bagdad*.

19- كربلاء: *Kerbela*[٤٢٦].

20- النجف: *Neajef*.

21- البصرة: *Busra*[٤٢٧].

1- الخطوط الفرعية:

- يتفرع من تل حبيش خط إلى حلب.
- ويتفرع من أقرب نقطة خط إلى أورفه (الرها).
- ومن صاددجه يتفرع خط إلى خانقين[٤٢٨].
- ومن الزبير خط إلى الخليج الفارسي، كما كان يُسمّى
- وهناك فروع قيد الدراسة وهي:
- فروع تتجه إلى مرعش، وعينتاب وبيره جك[٤٢٩] وماردين وأربيل وطوز[٤٣٠]
- كاراماتي وهيت.

وتقوم الشركة وحدها بتنفيذها، من دون غيرها، في حال إقرارها نهائياً[٤٣١].

5- معلومات عن الخط وأهداف كل فريق منه:

أ- معلومات عن الخط:

- تدفع الدولة العثمانية للشركة عن كل كيلومتر من الخط يتم تنفيذه (21،000) فرنك فرنسي ضمانة للخط والعاملين عليه.

---

(426) الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1363.

(427) عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص212.

(428) خانقين: مدينة تقع ضمن محافظة ديالى في العراق على الحدود مع إيران. (*www.ar.wikipedia.org*).

(429) بيره جك (*Bircik*): مدينة في محافظة أورفا جنوب شرق تركيا، كانت تابعة لولاية حلب. (*www.ar.wikipedia.org*).

(430) طوز: تقع شمال العراق عائدة لمحافظة كركوك. (*www.ar.wikipedia.org*).

(431) الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1363.

- عرض الخط 144،5 سم، بينما عرض الخط الحجازي 105 سم.
- الطول الإجمالي للخط 2500 كيلومتر.
- مدة العمل فيه 8 سنوات.
- كلفة المشروع الكاملة 550 مليون فرنك فرنسي(٤٣٢).
- الشركة المالكة: شركة خط حديد الأناضول العثمانية.
- في سنة 1904 دخلت شركات فرنسية وأوربية في المشروع فصارت أنصبة الشركاء كالآتي:
  - المجموعة الألمانية ممثلة بـ« البنك الألماني» ولها 40٪ من الأسهم.
  - المجموعة الفرنسية ممثلة بـ«البنك العثماني» ولها 30٪ من الأسهم.
  - المجموعة المالية للنمسا والمجر وإيطاليا وتركيا ولها 20٪ من الأسهم.
  - شركة حديد الأناضول ولها 10٪ من الأسهم(٤٣٣).

وقد قال خليفة «سيمنس» الألماني في إدارة الخط: «لقد انتهى الحلم بأن يكون خط بغداد بيد ألمانيا»(٤٣٤).

وذكرت جريدة المشرق أن الدولة العليَّة أجازت لجماعة من رجال المال سنة 1321هـ -1903م مد خط حديدي طويل من قونيه إلى بغداد.

وقد كادت الشركة أن تنجز القسم الأول فيه الممتد إلى أركلي وطوله 200 كم، وتباشر القسم الثاني وطوله 60 كم، وهو مكمل للخطوط الموجودة.

كما ذكرت الجريدة: وفي 16 كانون الأول 1903م-1321 هـ عقدت الشركة الجديدة لخط بغداد اجتماعها العمومي في الآستانة، وتم الاتفاق فيه على كل المسائل بين الألمان والفرنسيين.

وفي سنة 1322 هـ -1904م تم تدشين الجزء الأول الذي جاءت نفقاته أقل من المتوقع مما أدى إلى الاندفاع في تمديد الأجزاء الباقية(٤٣٥).

---

(432) ذكرنا أن الليرة العثمانية تساوي 20 فرنكاً فرنسياً تقريباً، وعليه تكون قيمة تنفيذ المشروع 27 مليون ليرة ذهبية عثمانية.

(433) عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص210.

(434) سنّو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص49.

(435) جريدة المشرق، السنة السابعة العدد 3 - 7 شباط 1904م، ص112.

6- أهداف السلطان عبد الحميد الثاني وألمانيا من المشروع.

1- أهداف السلطان عبد الحميد:

كانت أوروبا، ودول كثيرة أخرى في العالم، قد مدّت في بلادها خطوطاً حديدية لتحقيق التقدم الصناعي والزراعي والعسكري في بلادها، الأمر الذي دفع بالسلطان عبد الحميد مع بدايات القرن العشرين إلى ربط السلطنة العثمانية بعدد من الشبكات للخطوط الحديدية الرئيسية والفرعية.

وكان هدفه من مد السكك الحديدية إحكام سيطرته على الدولة، وإعمار المناطق الواسعة في الأناضول التي لا تجد من يزرعها لبعد المسافة وارتفاع كلفة النقل ومداهمة العصابات المسلحة للبلدات والقرى والمدن في أنحاء الإمبراطورية ولاسيّما عصابات الأرمن المسلحة في الأناضول وعشائر البدو على طريق الحج الشامي الشريف.

وعدا عن كل ذلك فإن تهديد بريطانيا للخليج العربي ومحاولاتها السيطرة عليه ومنع الدولة العثمانية صاحبة الحق التاريخي والديني من الإشراف عليه(٤٣٦)، كل ذلك دفع السلطان عبد الحميد إلى إحكام سيطرته على القسم الشرقي من الإمبراطورية العثمانية عن طريق مدّ خط حديدي يربط استانبول بالأناضول والرافدين والخليج بحيث يصبحُ السلطان قادراً على تحقيق الأهداف التالية:

1- سرعة وسُهولة إرسال القوات العسكرية لمحاربة الثائرين على الدولة في الأناضول وفي شرقي العراق، وبعض إمارات الخليج والجزيرة العربيّة.
2- تنشيط الزراعة في الأناضول والرافدين عن طريق نقل الإنتاج الزراعي عبر القطارات بأسعار زهيدة، كما أن انتشار الأمن جرّاء سرعة تحرك القوات العسكرية، سيجعل المزارعين يعودون إلى زراعة الأراضي التي هجروها لانتشار الأمان.
3- تثبيت الوجود العسكري العثماني في الأناضول التي كانت محط أنظار روسيا وحلفائها من الأرمن.
4- العمل على التنقيب على البترول والمعادن على طول الخط ولاسيّما في منطقة الموصل.
5- محاولة الوصول إلى الهند عن غير طريق قناة السويس لزعزعة الحكومة

---

(436) عزّة أقبيق، المرجع السابق، ص204.

البريطانية ووصل العلاقات التجارية والدينية مع مسلمي الهند، الذين كانوا يظهرون تمسُّكهم بالسلطان عبد الحميد ودولة الخلافة.

2- أهداف ألمانيا

أمَّا ألمانيا، فقد كانت تعاني من زيادة في السكان ونقص في الأراضي الزراعيَّة[٤٣٧]، ولذلك توجَّهت أنظارها نحو فلسطين، ونحو الأناضول والرافدين، وكما سنرى عند الحديث عن موقفها من السُّلطان عبد الحميد، فإنها فكرت في إسكان مواطنيها الفقراء في أراضي الدولة العثمانيَّة، بصورة دائمة أو مؤقَّتة.

كما فكّرت ألمانيا بالمواد الأوَّليَّة الزراعيَّة أو المعدنية التي يمكنُ الحصول عليها من الدولة العثمانية والتي هي بأمسِّ الحاجة إليها، لافتقارها الشديد إليها ولاسيما النفط.

ومن أهداف ألمانيا الأخرى تعريف الإنتاج الألماني المتزايد في الدولة العثمانية، كما سنرى عند الحديث عن التجارة.

كما كان لها هدف استراتيجي وسياسي مهم، وهو إيجاد مكان لها في «المسألة الشرقية» وهذا لا يتم إلّا إذا كان لها وجودٌ اقتصادي أو عسكري أو إداري في الدولة العثمانية، وهذا كله يمكن أن يتحقق من خلال هذا الخط العملاق خط بغداد، وسوف نرى في الفقرات التالية ما يزيد الصورة وضوحاً[٤٣٨].

وكان الكونت «فون مولتكه» (*Helmuth Von Moltke*) العسكري الألماني العالمي قد اقترح في أواسط القرن التاسع عشر إنشاء سكة حديدية تخترق الدولة العثمانية كلها حتى الخليج العربي.

وقال: «إنه يجب أن تكون الإمبراطورية الألمانية الموحَّدة هي الكتف الذي تمتد منه هذه اليد الحديدية لتجتاز بعد ذلك آسيا الصغرى، ثم تمتد حتى القفقاس والعراق والهند»[٤٣٩].

(*437*) ازداد عدد سكان ألمانيا 40 إلى 56 مليون نسمة ما بين عامي 1870 و1900، ووصل عددهم إلى 67 مليون نسمة قبيل الحرب العالمية الأولى. (روبير شنرب، تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، نقله إلى العربية يوسف داغر وفريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ص323. ومحمد الأحمد، الحضارة الأوروبية (الحديثة والمعاصرة)، جامعة دمشق، 2007-2008، ص233.

(*438*) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص209.

(*439*) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، المرجع السابق، ص386.

7- موقف إيران وروسيا وفرنسا:

كان السلطان غير واثق من نوايا إيران تجاه الدولة العثمانية رغم محاولاته المتكررة لإصلاح ذات البين معها، بل إن إيران كانت لها مواقف عدائية من الدولة العثمانية، وكانت تطمع في احتلال العراق كما فعلت في سنة 1032هـ-1622 يوم احتلته ثم طردها السلطان مراد الثاني منه بعد معارك طاحنة سنة 1048هـ-1638[٤٤٠].

وكانت إيران قد احتلت إقليم عربستان العربي وجعلته فارسياً وسمته: خوزستان، ولذلك كان السلطان يتوجّس خيفة من مطامع إيران في العراق، ولاسيَّما وأن روسيا كانت تدعمها في ذلك، فأراد السلطان تقوية نفوذه في شرقي بلاده، ووجد أن أهم ما يقوم به في هذا السبيل هو مدّ خط حديدي بين استانبول وبغداد والبصرة[٤٤١].

وفي سنة 1329هـ - 1911 دخلت روسيا على الخط، فعقدت مع ألمانيا اتفاقية: بوتسدام، تعهدت ألمانيا فيها بعدم مد الخط إلى خانقين أو شق طرقات أو مدّ خطوط برقية أو حفر قنوات في منطقة النفوذ الروسي شمالي العراق وفارس. ثم اتفقت ألمانيا مع فرنسا، من خلال البنك العثماني على تقسيم مناطق النفوذ الألمانية - الفرنسية، وهذا اعتراف ضمني من ألمانيا بمناطق النفوذ الفرنسية في سوريا. ثم حاولت التفاهم مع بريطانيا، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى قلب كل المعادلات، وكان الخط قد وصل إلى رأس العين[٤٤٢]. وفي نهاية الأمر يمكننا القول: أنَّ مشروع خط بغداد والخط الحجازي كانا أكبر نصر سياسي واقتصادي وعسكري للدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد على السياسة البريطانية المهيمنة في تلك المرحلة.

8- أهم بنود العقد:

كانت بنود العقد 46 بنداً، اخترنا منها الأمور التاريخية:

1- مدة العقد 99 سنة.

2- تقوم الشركة بتسليم الدولة العثمانية ما تم مدّه من الخطوط الحديدية بواقع 200كم لكل مرحلة. تراقب وزارة الأشغال العثمانية جودة الخط

---

(440) محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر، دار صادر بيروت- لا تاريخ، ج2 ص268.

(441) الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1357.

(442) لوتسكي، المرجع السابق، ص389.

مقابل 170 ليرة ذهبية عن كل كيلومتر ينفذ منه ويدفع المبلغ شهراً بشهر(٤٤٣).

3- يحق لأصحاب الامتياز تملك الأراضي الأميرية(٤٤٤) التي يمرّ منها الخط، لمدّ السكة وإقامة المنشآت العامة. أما إذا كانت الأراضي ملكاً للأفراد فهي تشتري منهم بالسعر المناسب. أما الأراضي التي تحتاجها الشركة بصورة مؤقتة فإنها تقوم بدفع أجرتها لأصحابها.

4- بعد الانتهاء من مدّ الخط، يمدّ بجانبه خط موازٍ له على نفقة أصحاب الامتياز كما يمدّ طريق على طول السكة. تعفى المواد المستوردة لصالح العمل من الرسوم. يبقى خط حيدر باشا - قونيه ملكاً للدولة. يحق لأصحاب الامتياز قطع الأخشاب اللازمة للخط، دون دفع ثمنها(٤٤٥).

5- هناك سبعة فروع للخط، تحتكر شركة الأناضول المنفذة حق تمديدها دون غيرها.

- وهذه الفروع تتجه إلى كل من: مرعش وعينتاب وبيره جك وماردين وأربيل وطوز كارماتي(٤٤٦) وهيت.

6- تتعهد الدولة بحفظ وسلامة العاملين على إنشاء الخط ومعدّاتهم ويلتزم الموظفون والمستخدمون العاملون في تمديد الخط، بارتداء اللباس العثماني والطربوش عند وضع الخط موضع الخدمة العامة.

7- وعلى الشركة صاحبة الامتياز اختيار موظفيها من العثمانيين بقدر الإمكان، ما عدا كبار الموظفين

8- تلتزم الشركة ببناء مكاتب الموظفين والجمارك والبريد ورجال الشرطة كما تقيم مع الخط أعمدة البرق لمصلحة الخط. يحق للشركة نقل البريد على متن قطاراتها دون دفع رسوم(٤٤٧) لمصلحة البريد.

---

(443) الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1364.

(444) الأراضي الأميرية: وهي التي تملكها الدولة العثمانية وتمنع الاستفادة منها بشروط معينة لبعض الناس: منهم اصحاب التجار والزعامات والخاص وغيرها من المنح. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، المرجع السابق، ص27.

(445) الشناوي، المرجع السابق ج3، ص1363.

(446) عزّة آقبيق، المرجع السابق، ص214.

(447) الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1370.

9- تعود ملكية الخط بكل منشآته إلى الدولة بعد انتهاء مدة الامتياز.

10- تتولى الحكومة العثمانية تنظيم خدمة الخط البحري الذي يربط حيدر باشا على الشاطئ الأوربي للبوسفور بواسطة قوارب جديدة وسريعة.

11- وإذا حصلت نزاعات بين الشركة والدولة، فإن محاكم الدولة وحدها هي التي تنظر فيها حصراً.

12- وتكون التركية هي لغة الخطابات في الشركة[٤٤٨].

13- وأخيراً: يتولى أصحاب الامتياز القيام بالتحسينات المستمرّة على الخطوط الحديدية التي تم إنشاؤها من حيدر باشا حتى قونيه عن طريق تسيير قطار سريع (قطار الشرق السريع «اكسبريس») (***Orient Express Train***)[٤٤٩]....

9- آثار الخط ومصيره:

عند افتتاح خط حيدر باشا – انقره سنة 1312 هـ -1894م كانت كمية الدقيق المنقولة إلى حيدر باشا 51،000 طناً قفزت سنة 1326 هـ -1908م إلى 146،000 طن. والتبغ كان 22،500 طن سنة 1302 هـ -1884م فصار 63،500 طناً سنة 1329 هـ -1911م. وقفز القطن من 400 طن فقط سنة 1896 إلى 33750 طناً سنة 1333 هـ -1914م، وهذا يدل على انتشار زراعته بعدما تأمنت طرق نقله[٤٥٠].

ولو قارنا آثار الخط بآثار الخط الحديدي الحجازي لوجدنا أن آثار خط بغداد كانت متواضعة، وذلك لأن ألمانيا صاحبة الفكرة الأولى والامتياز الأول لتمديده لم تترك لتعمل فيه كما حصل في الخط الحديدي الحجازي، كما أنها لم تستطع تحقيق الحلم الذي حلمت به مع السلطان عبد الحميد في أن يتم خلال ثماني سنين وصول قطارات السلطان إلى بغداد والبصرة، كما وصلت إلى المدينة المنورة.

وبهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى انتهى دورها في الشرق والغرب وأصبحت دولة تحت الوصاية الغربيّة لسنوات طويلة، وسيطرت فرنسا ثم بريطانيا على الخط

---

(448) الشناوي، المرجع نفسه، ج3، ص1374.

(449) الشناوي، المرجع نفسه، ج3، ص1377.

(450) ستّو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص51.

الذي لم يكتب له النجاح. كما هو آت بسبب كثرة الشركاء والمسؤولين وتضارب المصالح والأهواء.

وعندما عُزل السلطان عبد الحميد سنة 1327هـ - 1909 لم يكن قد مُدّ من الخط إلا أقل من ربعه.

ثم دخلت دول كثيرة في المشروع، فصار مثل شركة قناة السويس تماماً.

ففي البداية قامت «الشركة الإمبراطورية العثمانية لخط بغداد» بأعمال التنفيذ، وحلت محل شركة سكة حديد الأناضول العثمانية.

ثم عُدِّل مسار الخط عند كلّس[451]، حيث صار يمرُ من «المسلمية»[452] بدلاً من كلّس، بشمالي حلب بـ14كم، ومنها يتابع نحو جرابلس[453] ونصيبين.

- وفي سنة 1331 هـ -1912م وصل الخط إلى جرابلس ونصّيبين.
- وفي سنة 1333 هـ -1914م وصل إلى رأس العين.
- ثم توقف العمل فيه بين 1337 هـ -1918 و1341 هـ -1922م.
- وتابعت فرنسا مدّ الخط إلى تل كوجك سنة 1343 هـ -1924م.
- ثم مدّ الخط إلى الموصل فبغداد التي وصلها سنة 1359 هـ -1940م، أي بعد تأخر زهاء ثلاثين عاماً عما كان مقرراً له[454].

رابعاً ـ الخط الحديدي الحجازي

أ- مشروع الخط الحديدي الحجازي:

لم تكن فكرة الخط الحديدي الحجازي جديدة في مضمونها، لأن قوافل الحج الشامي كانت تسلك الطريق الدولي من دمشق إلى الحرمين الشريفين على مدى ثلاثة عشر قرناً.

لكن الجديد في الأمر الاقتراحات والدراسات العديدة التي تختلف فيما بينها في بدايات الخط ونهاياته.

(*451*) مدينة كلس: تقع جنوب تركيا، تقع على الحدود السورية مباشرة. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*452*) المسلمية: مدينة سورية تتبع إدارياً محافظة حلب في منطقة جبل سمعان. (المرجع السابق).

(*453*) جرابلس: مدينة سورية في محافظة حلب شمال شرق مدينة حلب على نهر الفرات. (المرجع نفسه).

(*454*) أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، دمشق 1996 ط2، ص23.

وكان أول خط حديدي في الدولة العثمانية هو خط القاهرة-الاسكندرية 1273 هـ -1856م الذي نفذته شركة إنكليزية أيام الأمير محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا، وكان السلطان عبد العزيز عندما زار مصر في ذلك العام قد ركب في هذا القطار وأعجب به، وعمل على تعميم القطارات في بلاده.

وفي سنة 1283 هـ -1866م تم تدشين خط إزمير-أيدين فكان أول خط حديدي في تركيا. ثم أنشئ خط القسطنطينية - بلغاريا - اليونان سنة 1291 هـ -1874م الذي يربط الآستانة بأوروبا. وفي سنة 1306 هـ -1888م وصل أول قطار إلى استانبول من باريس[٤٥٥].

ظهرت الفكرة سنة 1281 هـ -1864م أثناء حفر قناة السويس، عندما اقترح الدكتور الأمريكي الألماني الأصل: «زيمبل (*Zimbel*)» مدّ خط حديدي من دمشق إلى ساحل البحر الأحمر، ولكن لم يهتم[٤٥٦] أحد بالفكرة.

وفي سنة 1289 هـ -1872م وضع المهندس الألماني المشهور فون برسيل (*Von Brisal*) خطة لمد خطوط حديدية طويلة تربط المشرق العربي فيما بينه وبين الدولة العثمانية[٤٥٧].

وبعد عامين قدم الضابط العثماني أحمد رشيد باشا مشروعاً لخط حديدي نحو الحجاز وجدّة.

وفي حزيران 1880م-1298 هـ قدّم حسن باشا فهمي، وزير الأشغال العامة في الدولة مشروعاً لخط حجازي، لم يلتفت إليه أحد بسبب إفلاس الدولة[٤٥٨].

ثم عمد والي الحجاز عثمان نوري باشا سنة 1302 هـ -1884م إلى اقتراح مشروع خط حجازي جديد ينطلق من إزميت على بحر مرمرة إلى الحجاز بتكلفة قدرها 3،25 مليون ليرة ذهبية.

وفي سنة 1308 هـ -1890م انطلق القائمقام شاكر باشا العثماني على رأس مجموعة من الحجاج من إستانبول حتى جدّة، وقام بتسجيل ملاحظاته على الأرض وجمعها في مشروع جديد عملي لم يلق آذاناً مصغية، شأنه شأن ما سبق من مشاريع.

وفي العام التالي قدم سليمان شفيق باشا عرضاً جديداً إلى السلطان عبد الحميد

(455) متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، دار النيل، القاهرة، 2011، ص8-10.

(456) متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، المرجع السابق، ص14.

(457) عزّة آقبيق، المرجع السابق، ص163.

(458) أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، المرجع السابق، ص30.

يصل السّاحل السُوري بخليج العقبة حتى لا تغلق بريطانيا البحر الأحمر الاستراتيجي من قناة السويس أمام القوات العسكرية العثمانية المتوجهة إلى الحجاز واليمن.

وفي سنة 1310 هـ -1892م قدم مدير أوقاف جدة أحمد عزت أفندي إلى السلطان عبد الحميد كتاباً يتضمن الأخطار التي تتعرض لها الأراضي المقدسة من وجود الإنكليز في مصر والسودان وسيطرتهم على قناة السويس واقترح مد خط حديدي من الشام إلى الحجاز، فأحال السلطان كتابه إلى الفريق محمد شاكر لدراستها[٤٥٩]...

وقد ذكر الفريق للسلطان بأن المشروع غاية في الأهميَّة ولاسيَّما إذا مُدَّ له فرع إلى العقبة.

وقال إن الخط إذا كان ضيّقاً 105سم يكلف 3 ملايين ليرة عثمانية، و3،7 مليون ليرة إن كان عريضاً: 144،5سم.

وفي سنة 1315 هـ -1897م أرسل الغازي أحمد مختار باشا من مصر خطاباً إلى السلطان عبد الحميد أكد فيه أن سيطرة الإنكليز على الساحل الغربي للبحر الأحمر يُعرِّض الأماكن المقدَّسَة للخطر واقترح البدء بمدّ خط من قونيه إلى قناة السويس، فاقتنع السلطان بذلك وأصبح تنفيذ المشروع من أهم أهدافه[٤٦٠].

2- تنفيذ الخط الحجازي في العام 1318 هـ -1900م:

وفي سنة 1318 هـ -1900م طرح أحمد عزت باشا العابد الفكرة النهائية على السلطان فوافق في الحال؛ لأن نفقات قافلة الحج الشامي كانت تكلف الدولة كل سنة 210،000 ليرة ذهبية.

وأخيراً وفي أوائل نيسان 1900م-1318 هـ أعلن السلطان عن هذا المشروع الذي أضيف إليه خط برقي من استانبول إلى المدينة المنوَّرة[٤٦١].

وقد شرح أحمد عزت باشا العابد للسلطان فوائد هذا الخط وما يسببه من ضربات لبريطانيا فأمر السلطان يوم 2 أيار 1900م-1318 هـ بالمباشرة بتنفيذ المشروع الكبير الذي أطلق عليه **خطوط حديد الحجاز الحميديَّة**[٤٦٢].

---

(459) عزة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، 165.

(460) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص165.

(461) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص30. متين هولاكو، المرجع السابق، ص14.

(462) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص16.

وكان أحمد عزت باشا العابد إدارياً من الدرجة الأولى فقد تابع باهتمام بالغ تمديد الخط الحديدي العظيم إلى سيبيريا، وأقنع السلطان بأن الجيش العثماني يمكن أن يساهم كثيراً في إنجاح المشروع وعندما وصل الخط إلى المدينة المنورة كان يأمل مدّه إلى مكة المكرمة وصنعاء والبصرة لكنه أقصي مع سيده السلطان عن الحكم بعدما صار عملاء بريطانيا هم سادة الدولة العثمانية والحجاز ونجد[٤٦٣].

3- التمويل المالي للمشروع:

كانت ميزانية الدولة تنوء بالديون الأوروبية الباهظة، وفوائدها الخيالية، وكانت كلفة الخط الحديدي الحجازي تعادل خمس ميزانية الدولة، وكان هذا سبب إعراض السلطان مراراً عن التفكير في بناء الخط.

ففي عام 1299 هـ -1881م أصدر السلطان عبد الحميد بناءً على طلب الدول الكبرى: إنكلترا والنمسا والمجر وفرنسا وإيطاليا وألمانيا مرسوماً في يوم 28 المحرم 1298هـ-20 كانون الثاني 1881م-1299 هـ عرف بمرسوم المحرَّم تم فيه توحيد الدين العثماني العام بمبلغ 2،4 مليار فرنك فرنسي.

وتألفت إدارة خماسية من الدول المذكورة كانت تضم 5،000 موظف، كانوا دولة ضمن دولة، وكانت مهمتهم الإشراف على كل كبيرة وصغيرة في الدولة، مثلما حصل في مصر، ولهم صلاحيات واسعة، وقد سيطرت هذه الإدارة على شركة الريجي ***Regie*** والملح ورسوم الطوابع ورسوم الخمور وضريبة العشر وأموال الجزية من بلغاريا وإيرادات الروماني الشرقي وقبرص.

وبهذا، لم يكن بوسع السلطان عبد الحميد الاعتماد على ميزانية الدولة، وبالتالي صرف النظر عن المشروع[٤٦٤].

وحدث سنة 1311هـ -1893 أن احترق الجامع الأموي الكبير بدمشق وأتت النيران عليه بالكامل وهوت قبته وسقوفه وأعمدته، ولم يكن لدى الدولة أو الولاية ما يفي بإعادة إعماره بكلفة قدرت بحوالي مليون ليرة ذهبية. ومع ذلك تم إنجاز البناء في زمن قياسي لم يزد عن تسع سنين، والأجمل من ذلك طريقة تحويل البناء. فلقد تم الاعتماد على

(463) فيليب دوطرازي. تاريخ الصحافة العربية، بيروت 1913، 4 مجلدات، ج2، ص219.

(464) لوتسكي، المرجع السابق، ص384.

التبرُعات والهبات والرسوم المختلفة للإنفاق على الجامع، فقرر السلطان اللجوء إلى الأسلوب نفسه لبناء الخط الحديدي الحجازي، وكلا العملين العظيمين كانا يحظيان بإقبال العالم الإسلامي عليهما من الصين حتى المغرب، وهكذا كان.

فقد قرر السلطان إيجاد ميزانية خارج ميزانية الدولة، للخط الحديدي الحجازي تديرها: «الإدارة المالية لخط الحميدية الحجازي الحديدي». وكان السلطان حريصاً على ألا يكون التمويل عن طريق القروض الربويَّة لأن ذلك أمر لا يجوز في الشريعة الإسلاميَّة وهذا ما أدى إلى نجاح المشروع وزيادة الواردات على النفقات[٤٦٥]. وقد قامت هذه الإدارة بطبع إيصالات مالية تشبه العملة الورقية، وبقيم مختلفة، تدفع للمتبرّع وتبقى معه.

وقد ساهمت صحف العالم الإسلامي بالدعاية للمشروع، وكالعادة، فقد حاولت أوروبا إجهاض هذا المشروع في مهده، لكن توالي الإعانات والهبات والتبرعات والهدايا للجنة الخط المالية، والمباشرة بمدّ الخطوط وتشغيلها، جعل المسلمين يزدادون اندفاعاً في هذا الطريق المقدّس.

وكان الملوك والأمراء والأعيان والعلماء على رأس الداعين لمؤازرة هذا المشروع العظيم.

وقد ساهمت صحيفة الشام بنشر أخبار الخط الحديدي الحجازي على صفحاتها، مبينةً ما أُنجز منه، وما وردته من الأموال، وتساوت في الدعاية لهذا الخط صحف المسلمين والنصارى العثمانيين على حد سواء، فكان لذلك الأثر الأكبر في نجاح الخط[٤٦٦].

وقد بدأ السلطان هذه الهبات فتبرع بـ340.000 ليرة ذهبية. ثم اقتدى به وزراؤه، فكان مبلغ ما جمعُوه (800.000) ليرة ذهبية وهو ما يعادل ربع كلفة المشروع كاملة.

وتبرّع شاه إيران بـ 50.000 ليرة ذهبية.

وخديوي مصر عباس حلمي تبرّع بكميات كبيرة من مواد البناء[٤٦٧].

وفي الهند تجمّع المسلمون لإنجاح الخط الحديدي الحجازي بدافع إيماني قويّ، [وهم الذين احتضنوا الخلافة الإسلامية بعد إلغائها سنة 1342 هـ -1923م حاولوا مبايعة ابن سعود، لكن خاب فألهم فيه].

وهكذا تبارى الأمراء والتجار والعلماء في الهند لجمع التبرعات، وكان من أبرزهم

---

(465) متين هولاكو، المرجع السابق، ص30.

(466) عزّة آقبيق، المرجع السابق، ص170.

(467) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص13.

السيد: محمد إنشاء الله، صاحب جريدة الوطن في لاهور والذي افتتح في الهند أكثر من 150 مركزاً لجمع التبرُعات رغماً عن أنف الإنكليز.

وفي مصر تبرع الخديوي عباس حلمي بكميات كبيرة من مواد البناء كما جمع الأهالي أموالاً طائلة تبرعوا بها لبناء الخط الحديدي، وكانت صحفها الكبرى وعلى رأسها الأهرام والمؤيد والمنار واللواء تنشر أخبار الخط يومياً وتحض على التبرع له.

ثم صدرت إرادة سلطانية بتقديم ميداليات خاصَّة للمتبرعين. البرونزية بـ50 ليرة ذهب والفضية بـ100 ليرة، والذهبية بما فوق ذلك[٤٦٨]. كما وتبرع الموظفون براتب شهر كل سنة.

والخلاصة: فإن النجاح الحقيقي في بناء الخط الحديدي الحجازي لم يكن في نجاح الدولة والسلطان بتأمين نفقاته من مدخرات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإنما النجاح الحقيقي للسلطان كان في التفاف المسلمين حوله بكل قوَّة رغماً عن أن نصف بلادهم كانت تحت الاحتلال الفرنسي أو البريطاني.... لقد كانت العملية في واقع الأمر هي استفتاء على الخلافة الإسلامية وعلى السلطان عبد الحميد، وقد نجح السلطان فيه بتفوّق.

4- التدخل البريطاني الفرنسي لعرقلة الخط:

عارضت بريطانيا وفرنسا مدّ هذا الخط، انطلاقاً من سياستهما الاستعمارية القديمة.

فأما فرنسا، فإنَّها عندما رأت اندفاع المغرب العربي كله لتأييد السلطان عبد الحميد في مدّ هذا الخط، وما طلبه أهل المغرب من السلطان بتخصيص ميناء يافا لحجاج المغرب ينطلقون منه بالقطار إلى الأراضي المقدسة، تخوفت من زيادة عدد حجاج المغرب جرَّاء انخفاض الكلفة وانتصالهم الطبيعي بإخوانهم المسلمين في الأراضي المقدسة، وما ينجم عن ذلك من تحريض المسلمين لهم على محاربة المستعمرين الفرنسيين. ولذلك عارضت المشروع وشككت بنجاحه.

أما بريطانيا فقد رأت أن الدولة العثمانية آيلة إلى السقوط بعد هزيمتها النكراء أمام روسيا سنة 1296 هـ -1878م، ثم فوجئت بما يشدّ أزر هذه الدولة ويجعل العثمانيين

---

(468) أونلك غولصوي، الخط الحديدي الحجازي، استانبول، 1994، ص22. آقبيق، تاريخ الخطوط، المرجع السابق، ص117.

يلتفون حولها وحول الخليفة الأعظم حامي الحرمين الشريفين عن طريق هذا المشروع العملاق الذي ستنفذه أقوى دولة في أوروبا، والذي يستطيع السلطان من خلاله تشديد قبضته على الشام والحجاز واليمن، ويهدد الوجود البريطاني في مصر والسودان وعدن. وكان كل سبب من هذه الأسباب كاف وحده لإثارة بريطانيا التي فرضت وصاية إجبارية ثقيلة على المسلمين[٤٦٩]. ولقد تعددت صور عداء بريطانيا لبناء الخط: فقد عمدت إلى تحريض القبائل على طريق الحجاز، وهي التي كانت ناقمة أصلاً على الخط، فقُتل الجنود، وخرّبت بعض أقسام الخط، لكن الدولة استعملت سياسة اللين والشدة والوعظ حتى أذعن البدو للأمر. ثم عمدت إلى التشكيك بإمكانية بناء الخط بسبب التربة الرملية والجفاف وشدة الحر والعواصف الرملية المدورة. كما أنها عارضت جمع التبرعات للخط، وحاولت عرقلة وصولها، ولاسيما من مصر والهند. ومنعت وصل الخط بخليج العقبة.

وحاولت إقامة خط حديدي منافس من العقبة إلى المتوسط ولكن الخط سار قُدُماً رغماً عن ذلك كله، بسبب التفاف المسلمين عامة حول سلطانهم.

وقد تقرر أن تكون الأراضي على جانبي الخط لمسافة 5كم من كل جانب وقفاً عاماً لمصلحة الخط لا يجوز استملاكها. كما جعلت أراض الحمّة وقفاً دائماً على الخط.

واعتبرت مناجم الفوسفات على جانبي الخط ملكاً خاصاً له والخط برمّته ومنشآته وأراضيه ومحطاته وقف إسلامي عام لا يجوز التصرف به بحالٍ من الأحوال إلى الأبد[٤٧٠].

كانت بريطانيا كما قدمنا من أشد المعارضين لمدّ هذا الخط، ولذلك عملت جاهدة على عرقلته تمهيداً لإلغائه. وكما أسلفنا سابقاً فقد قامت بتشجيع البدو على مهاجمة العاملين على الخط وتدمير ما بنوه والاستيلاء على معدات السكة، وقتل الأجانب العاملين فيها حتى ينفضُوا عن الشركة. ولم يكن هؤلاء بحاجة إلى تشجيع أصلاً فالعدوان طبع فيهم.

ولذلك ما إن بدأ العمل في أراضي الحجازي النائية حتى قام البدو بمهاجمة العمّال والمهندسين واستولوا على المعدّات وحاولوا اختطاف المشير كاظم باشا المدير العام للخط، وقتلوا أكثر من مائةٍ من جنوده، فأرسلت الدولة قوّة آلية سريعة الحركة من الشركس وغيرهم قوامها 5.000 جندي استطاعوا التصدي للأعراب وحماية منشآت الشركة[٤٧١].

(469) متين هولاكو، المرجع السابق، ص26.

(470) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص42.

(471) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، الكويت 1984، ص116.

ومن جهة أخرى أرسل حاكم مصر البريطاني «كرومر» (***Kromar***) تقريراً إلى رئيسه «ادوارد غراي» (***Edward Gray***) بتاريخ 21 شباط 1906-1324 هـ جاء فيه «أن أخرجوا أحد جواسيسنا في فلسطين، المدعو «مارتيني» المفتش في هيئة الخط الحديدي الحجازي في حيفا، ذكر أن للأتراك من جنوب معان 20،000 جندي، وسيكون لهم في العقبه بعد شهر واحد 16.000 جندي»[٤٧٢].

وهذا يدل على المراقبة والمتابعة الدقيقة للإنكليز لخطوات المشروع من ناحية مراحل تنفيذه، وأثره على قوة الدولة العثمانية، وإمكانية استفادتها من هذه التوسعات وعودة فرض سيطرتها على كثير من المناطق التي خرجت عن سيطرتها سابقاً، وبالتأكيد هذا من أكبر مخاوف الإنكليز في تلك المرحلة.

5- إدارة الخط وجهاز التنفيذ:

- تقرر أن تكون الإدارة العامة للمشروع في استانبول.
- وتضم هذه الإدارة التي سميت بالمفوضية العليا والتي تأسست في أيار 1318 هـ - 1900م:

1- الصدر الأعظم رئيساً للمشروع.
2- السيد أحمد عزت باشا العابد مديراً عاماً دائماً.
3- مجموعة من الوزراء.

ثم أنشئت مفوضية الإعانة لجمع التبرعات برئاسة أحمد عزت باشا العابد[٤٧٣].

أما مركز العمليات الرئيسي فكان في دمشق وحيفا ومعان.

- وكان رئيس مفوضية دمشق والي دمشق حسين ناظم باشا الذي أثبت كفاءة إدارية عالية في دمشق كان في مقدمتها إعادة إعمار الجامع الأموي وإسكان المهاجرين.
- أما المدير العام للمشروع في دمشق فهو المشير كاظم باشا.
- وعيّن المشير قائد الجيش الخامس عضواً دائماً.
- والمهندس الألماني الكبير مايسنر باشا (***Misner***) الذي كان يقيم في معان ويساعده المهندس الفرنسي: شرودر (***M.Schroder***).

(472) محمد الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، القاهرة (1985)، ص264.

(473) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص175.

- وفي كانون الثاني 1319 هـ -1901مشكلت مفوّضية بيروت.
- وفي آذار 1902م-1320 هـ شكلت مفوضية حيفا حيث كانت تُشحن إليها القضبان الحديدية ولوازمها بحراً وبعد إنجاز خط عمّان حيفا العملاق صارت المعدّات تشحن من حيفا إلى دمشق وبقية المدن[٤٧٤] على الخط.

وقد أقيمت الورش والمستودعات والإدارة في دمشق في منطقتي البرامكة والقدم الشريف، وكلف المهندس الإسباني (أرنادا) (*Aranda*)، الذي بني قصر العابد بالمرجة، ببناء محطة الحجاز.

وقد أنشئ في دمشق فندق يستوعب 150 نزيلاً، لتسهيل نزول الفنيين.

وكانت حيفا مقرًّا لكبار ضباط الجيش العثماني الذين أوكلت لهم مهمة الدفاع عن الخط ومهام شرفية أخرى وجميعهم كانوا عديمي الخبرة في أمور السكة الحديد.

ومن هؤلاء الضباط الكبار:

- المشير رضا باشا (والذي كان سابقاً موظفاً عادياً في حيفا قائداً عسكرياً في اليمن قبل آن يتسلم هذه المهمة).
- والأميرال خليل باشا (أيضاً كان قائداً عسكرياً في اليمن وقد أشرف على تنزيل معدات الإنشاء ونقلها إلى ميناء حيفا).
- والجنرال جواد باشا.
- ومعهم خمسون ضابطاً آخرون[٤٧٥].

في 19 كانون الالثاني 1900-1318 هـ وقّعت شركة الخط الحديدي الحجازي عقداً مع المهندس الألماني: مايسنر باشا (*Misner*) عقداً لمدة تسع سنين ليكون المدير الفني العام للمشروع براتب شهري قدره 24،000 فرنك يزداد كل شهر وكان تحت إدارته ثلاثة وأربعون مهندساً منهم:

- 17 مهندساً تركياً.
- و12 مهندساً ألمانياً. وبقية المهندسين من دول أوروبية المختلفة[٤٧٦].

وقد اجتمع مايسنر بالمهندسين العثمانيين وأفهمهم أنهم سيعملون تحت إدارته بدون اعتراض، وهو الذي طلب تعيين المهندسين الأوروبيين بالاسم لنقص كفاءة العثمانيين.

(*474*) متين هولاكو، المرجع السابق، ص49.

(*475*) متين هولاكو، المرجع السابق، ص46.

(*476*) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص33.

ثم استدعى المهندس العثماني المتميّز: الحاج مختار بك وجعله رئيس كشافةٍ على الخط، وذلك بعد نجاحه في رسم مسار الخط حتى المدينة المنورة وهو يؤدي فريضة الحج.

وعلى أساس تقريره عدّل مسار الخط ابتعد قليلاً عن بعض المدن في الأردن وسورية.

وقد أثبت المهندسون العثمانيون، خلافاً للمتوقع، مهارة فنية عالية عندما نجحوا في رسم خريطة خط دمشق عمّان الذي كان من أصعب مراحل الخط الحديدي لوعورة الأرض وصعوبة اختراقها[٤٧٧].

ومما يمتاز به هذا الخط عن الخطوط الأخرى، ولاسيما خط بغداد، أنه أُنشئ تحت الإشراف الكامل للدولة العثمانية.

وقد بُنيت على الخط ورشة كبيرة لصيانة القاطرات والعربات.

- كما بني 37 صهريج للمياه.
- وسبعة أحواض.
- ومستشفى في تبوك.
- وأخرى في معان.
- و96 محطة مع توابعها.
- وورش صغيرة في حيفا ودرعا ومعان.
- ومسبك وورشة أنابيب في حيفا.
- ومخازن وعنابر عديدة على مسار الخط[٤٧٨].

وكان تقسيم الأعمال والمراحل يتم بدقة بالغة بحيث قسم الخط كله إلى عدد من الأقسام وقام المتعهدون باستلام عدد معين من هذه الأقسام بأرقامها ويكونون مسؤولين عنها. كما هو مبين في الوثائق التاريخية بدمشق.

فقد ذكرت إحدى هذه الوثائق أن حسين المصري ادَّعى على كل من: الخواجه دومينيكو وشركاه من السكة الحديدية الحجازية بدين قدره (310) ليرات ذهبية عثمانية، وهم الملتزمون للأقسام 13 و14 و15 من السكة الحديدية الحجازية[٤٧٩]، وهذا

(477) متين هولاكو، المرجع السابق، ص50.

(478) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص23 و26.

(479) مركز الوثائق التاريخية بدمشق سجل 79 تجارة وثيقة 120 تاريخ 1907.

يدل على تقسيم الخط كله إلى أقسام متساوية تسلَّم إلى المتعهدين بحسب أرقامها لتسهيل العمل.

وفي وثيقة أخرى: ادعى محمد ثابت مهندس التعميرات بالخط الحجازي، المقيم بدرعا على سعدى الدمشقي، التاجر الدمشقي، بأنه تعهّد له القيام بكافة أعمال القسمين 76 و79 من السكة مقابل 30 ليرة ذهب كل شهر(٤٨٠). وقد عرضنا في نهاية الفصل عدداً من هذه الوثائق التاريخية وكانت أعمال العثمانيين في الخط تسوية الأرض ثم فرش الحصى... وكان يرافق مدّ الخط الحجازي، مد أسلاك البرق التي كانوا يرسلون عبرها إلى دمشق أو حيفا لإرسال ما يلزمهم عبر ما تم تمديده من الخط... وكانت المعنويات عالية ومعدّل الإنجاز 1500 متراً من السكة في اليوم الواحد ارتفعت إلى 3000 متراً حتى إنه تم تمديد 288 كيلومتراً بين تبوك والعلا في عام واحد. أما العمال والمهندسون الأجانب فكانت مهمتهم حفر الأنفاق وبناء الجسور وبناء المحطات ومدّ العوارض والسكك(٤٨١).

وقد استعانت الدولة بخريجي المعاهد الصناعية وأرسلتهم في بعثات دراسية إلى فرنسا، ومن هؤلاء المهندس لطيف الخالدي الذي درس في فرنسا ثم استلم إدارة محطة دمشق.

كما تمت الاستعانة بكتائب من الجيش العثماني، وكان يؤتى بهم من الجيش الخامس في دمشق والسادس في بغداد، وتحسب لهم خدمتهم في بناء الخط مضاعفة عن خدمتهم العسكرية العادية.

وكان عدد هؤلاء 7،500 جندي وضابط، وعندما تنتهي خدمتهم يؤتى بعدد مماثل حرصاً على نشاطهم.

وقد أدى تشغيل الجنود، ذوي الرواتب المنخفضة، إلى خفض كلفة الكيلومتر الواحد من السكة الحديدية إلى 62.000 فرنك(٤٨٢). وكان يوما الخميس والجمعة عطلة إجبارية للجميع يتم خلالهما الراحة والاستجمام وتأمين المياه والمواد الغذائية واللوازم الأخرى.

(*480*) مركز الوثائق التاريخية بدمشق سجل 77 تجارة وثيقة 42.

(*481*) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص180.

(*482*) عزة آقبيق، المرجع نفسه، ص178.

6- الأمور الفنية:

كان الخط الحديدي الحجازي ضيّقاً عرضه 105سم وذلك لأسباب كثيرة أهمها سرعة إنجاز العمل والتوفير في المصاريف.

- وزن المتر الواحد من القبضان الحديدية 21،5 كغ.
- والوزن الإجمالي مع العوارض والقضبان 103 كغ.
- أقيم على طريق الخط:
  - 462 جسراً حجرياً.
  - و271 قنطرة.
  - و800 مجرى للمياه.
  - وعدة معابر[٤٨٣].

وقد بلغ عدد هذه الأعمال جميعاً 1532 منشأة.

- وأقيم جسر حديدي واحد بطول 15 متراً.
- بلغت كلفة الكيلومتر الواحد الإجمالية 50،000 فرنك في المتوسط، وكانت تتراوح بين 50،000 و75،000 فرنك بسبب طبيعة الطريق حيث بلغت هذه الكلفة في خط حيفا-عمان 100،000 فرنك للكيلومتر الواحد بسبب طبيعة الأرض.
- متوسط سرعة القطار 30 كيلومتر في الساعة.
- عدد القاطرات الإجمالي 200 قاطرة[٤٨٤].

7- مراحل إنجاز الخط:

- مزيريب – درعا سنة	1319 هـ -1901م.
- درعا – الزرقاء	1320 هـ -1902م.
- دمشق – درعا	1321 هـ -1903م.
- الزرقاء – عمّان	1321 هـ -1903م.
- درعا – حيفا	1321 هـ -1903م.

(483) متين هولاكو، المرجع السابق، ص55.

(484) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص56.

- عكا – حيفا	1321 هـ -1903م.
- عمّان – معان	1322 هـ -1904م.
- معان – المدوّرة	1324 هـ -1906م.
- المدوّرة – تبوك	1325 هـ -1907م.
- تبوك – مدائن صالح	1325 هـ -1907م.

- مدائن صالح – المدينة المنورة1326 هـ -1908م(٤٨٥)

ملحقات الخط:

- غرز – بصرى	35 كم
- حيفا – درعا	162 كم
- حيفا – عكا	17 كم
- عفّولة(٤٨٦) – نابلس	77 كم
- المجموع العام	1599 كم

ومما أُخذ على الخط اختلاف عرض السكة الأصلية عن بعض الفروع الأخرى من 105سم إلى 144،5 سم إلى 155 سم وهذا ما كان يؤدي إلى تغيير حمولة القطارات إلى عربات أخرى(٤٨٧).

اتخذت منطقة القدم الشريف بدمشق مركزاً عاماً لشركة الخط الحديدي الحجازي، تيمناً بوصول الرسول الكريم ﷺ إلى تلك المنطقة، حسب بعض الروايات.

وقد جرى في دمشق في الأول من أيلول سنة 1900م-1318 هـ ، احتفال كبير بمباشرة العمل بالخط الحجازي، في الوقت الذي كان فيه أهل الشام يعملون ليل نهار لإنجاز بناء الجامع الأموي.

- أول ما نفذ من الخط: مزيريب - درعا بطول 11 كم في أيلول 1901م-1319 هـ.

- درعا- الزرقاء: أنجز في أول أيلول 1902م-1320 هـ وطوله 79 كم.

---

(485) أحمد عابورة، الخط الحجازي، المرجع السابق، ص35.

(486) عفولة: هي مدينة فلسطينية تقع شمالي محافظة جنين في قلب مرج ابن عامر. (www.ar.wikipedia.org).

(487) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، المرجع السابق، ص286.

- الزرقاء - عمّان: أنجز في 19 تشرين الأول 1902م-1320هـ وطوله 20 كم.
- دمشق - درعا: أنجز في أول أيلول 1903م-1321 هـ.
- درعا - معان: أنجز في أيلول 1904م-1322 هـ وطوله 460 كم.
وكان وصول الخط إلى معان إنجازاً كبيراً؛ لأنه سهّل نقل المعدات وصار يشكل مورداً جديداً للخط.
- معان - تبوك: أنجز سنة 1326 هـ -1906م في أيلول، وطوله 233 كم.

وقد عُهد بحماية الخط بين معان وتبوك بالتحديد إلى فرسان الشركس المشهورين بشدّة البأس، لأن تلك المنطقة كانت مأوى للبدو على مدى مئات السنين(٤٨٨)...

وفي أيلول 1907م-1327 هـ وصل الخط إلى العُلا التي تبعد عن تبوك 288 كم وبذلك لاحت تباشير الكمال.

وأخيراً وفي 22 آب 1908-1326هـ تم وصول أول قطار في العالم إلى المدينة المنوّرة في الذكرى الأخيرة لعيد الجلوس للسلطان عبد الحميد بعدما تم تمديد 223 كم بين العلا والمدينة المنورة.

وقد قدّرت تجهيزات الخط في ذلك العام بـ:
- 120 قاطرة بخارية.
- 1200 شاحنة مكشوفة.
- 100 مركبة ركاب.
- 200 شاحنة بريد.
- وعدد كبير من صهاريج الماء المحمولة على القطار.
- والطول الإجمالي للخط، بدون الفروع العرضية 1524كم(٤٨٩).
- وعندما تم افتتاح خط دمشق-تبوك 692كم 1324 هـ -1906م جرى احتفال كبير بهذه المناسبة بدأ بأداء صلاة الفجر في جامع تبوك بإمامة مفتي الشام. ثم جرى عرض عسكري شارك فيه الجنود والأعراب. ودعا الناس للسلطان عبد الحميد. وأطلقت المدافع تحية للسلطان. ثم مُدّت الموائد للجميع. ونوّرت تبوك بآلاف المصابيح.

---

(488) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص182.

(489) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص437. يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، عمان، 2001م، ص77.

- وفي اليوم التالي، ركب المشاركون القطار إلى حيفا حيث غادروها في اليوم التالي إلى دمشق.

كما أقيمت احتفالات مماثلة في مدائن صالح والعُلا شارك فيها عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الشامي وكاظم باشا مدير الخط والفريق جواد باشا وإسماعيل حقي وعلي نوري وعلي رضا باشا الركابي(٤٩٠).وكان تأمين القاطرات والعربات والقضبان الحديدية والعوارض الحديدية والعُمُد من أوروبا لعدم وجود صناعات حديدية ثقيلة في كل الدولة العثمانية.

وكانت القاطرات الثقيلة من طراز (*B*) من موديل هوهنزولّرن، كما كان ثمة قاطرات من شركة كراوس (*Kraus*) الألمانية أو من شركات بلجيكية وإسبانية.

وقد صنعت بعض العربات الفاخرة في الدولة العثمانية لتقلّ الضيوف الكبار والأجانب.

وكان ثمة مقطورات مكشوفة للبهائم والبضائع ومقطورات مغلقة للركاب وأخرى لكبار الضيوف ومقطورات لأداء الصلاة. وكان طول المقطورة 40 متراً وعرضها أربعة أمتار(٤٩١).

8- أجور الركاب:

ذكرنا أن الليرة العثمانية المجيدية كانت تساوي حوالي 100 غرش أو نحو ذلك. والغرش يساوي 40 مصرية أو بارة. وهذا يعني أن الليرة العثمانية تساوي 4،000 مصرية أو بارة. وهذا نموذج عن أجور الركاب التي كانت تحسب عادة بالكيلومتر. فأجرة الكيلومتر الواحد على خط دمشق-درعا وهو خط يعمل طول السنة كانت 8 بارات للدرجة الثالثة. ودرعا — المدينة= 10 بارات عن الكيلومتر الواحد.

وإذا كان الحاج قادماً من بيروت يتوجب عليه أن يدفع من بيروت إلى دمشق على الدرجة الثالثة «متليكين» فقط بين كل محطة ومحطة، و3 متاليك للدرجة الثانية و4 متاليك للدرجة الأولى والمتليك كما ذكرنا يساوي 5 بارات(٤٩٢).

وفي مرجع آخر نقرأ:

(*490*) متين هولاكو، المرجع السابق، ص229.

(*491*) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص181. متين هولاكو، المرجع السابق، ص61.

(*492*) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص241.

أجرة السفر بين حيفا – المدينة المنورة هي: 1184 غرشاً درجة أولى و888 درجة ثانية و592 غرشاً درجة ثالثة. ومن دمشق إلى المدينة المنورة: أولى 1158 غرشاً وثانية 869 غرشاً وثالثة 570 غرشاً. أي حوالي: 12 ليرة ذهب و9 ليرات و6 ليرات ذهب[٤٩٣]. وكان الأولاد دون العاشرة يدفعون نصف الأجرة ويحق لكل راكب حمل 30 كيلوغرام. وللولد 20 كيلوغرام.

وكانت معظم عربات القطار من الدرجة الثالثة التي كانت تسمى «ترسو» بسبب انتشار الفقر.

قامت شركة الخط الحديدي الحجازي ببناء عدة فنادق واستراحات للحجاج النصارى على خط يافا – القدس، للنزول فيها، وكان عددهم كبيراً يزيد عن 20،000 حاجاً في السنة[٤٩٤]. وكانت لغة المسؤولين عن الخط والتذاكر هي باللغة العثمانية لأن الشركة عثمانية. والتوقيت زوّالي غربي لعدم مناسبة التوقيت العربي للاستعمال في مواعيد القطارات[٤٩٥].

9- تدشين الخط 1326هـ-1908م:

في أوائل شعبان 1326هـ-آب 1908 اتصل الخط من جهتي العمل الجنوبية والشمالية، وسرى الخبر في المدينة المنورة، وخرج أهلها يستقبلون أول قطار تدوي صافراته في أرجاء المدينة النبوية الشريفة يوم 22 شعبان 1326هـ-28 آب 1908[٤٩٦].

وكان في المقطورة الأولى كاظم باشا مدير المشروع وكان والي المدينة المنوّرة عثمان باشا لاحتفال كبير يوم الخميس 25 شعبان-أول أيلول 1908م-1326م في عيد الجلوس السلطاني.

وقد نصبت الزينات عند ميدان المحطة وتمّ توليد الطاقة الكهربائية في المدينة المنوّرة للمرة الأولى فكانت فرصتها مضاعفة، وأقيمت فيها على مدى أيام احتفالات خيالية شارك فيها:

- كاظم باشا مدير المشروع الذي حمله أهل المدينة على أكتافهم، وكان معه رئيس المهندسين مختار بك.

---

(493) عبد القادر محمود، المؤتمر السابع لتاريخ بلاد الشام، 2006م، ص7.

(494) الموسوعة الفلسطينية، بيروت 1990 بحث للدكتور عبد الكريم رافق، قسم 2، مجلد 2، ص961.

(495) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص242.

(496) عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة 3 مجلدات 1993م، ج3، ص28.

- والسيد علي كامل، شقيق الزعيم المصري مصطفى كامل.
- ولطفي السيد صاحب جريدة الأمة.
- والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد .
- والشيخ عبد العزيز جاويش.
- والأديب السياسي شكيب أرسلان وغيرهم.

وبعد انقضاء الاحتفالات أعيدت من جديد وشارك فيها أكثر من 30.000، وشهدت المدينة المنوَّرة من السرور ما لم تشهد له من قبل مثيلاً...

ولم يُضيّع العلماء وقتهم بل تدارسوا في وضع العالم الإسلامي، وما يتعرَّض له من أفكار فاقترحوا على السلطان إنشاء جامعة إسلامية في المدينة المنوَّرة باسم جامعة صلاح الدين يتولى إدارتها الشيخ عبد العزيز جاويش، وطالب آخرون بحمل السلاح والتدرب عليه ورفعُوا مقترحاتهم لكنها وصلت بعد أن خرَّب الأتراك بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وعزلوا سلطانهم، وجعلوا من اليهود والإنكليز والفرنسيين قدوتهم، فكان في ذلك القضاء عليهم وعلى البلاد العربية وعلى الخلافة الإسلامية وعلى الخط الحديدي الحجازي، رمز الوحدة الإسلامية(٤٩٧).

10- آثار إيجابية للخط الحديدي الحجازي:

حمل القطار إلى المدينة المنورة أكداساً ضخمةً من السلع التجارية من الشام وفلسطين، واكتظت أسواق المدينة المنورة بالبضائع التي رفعت أسعارها، وصارت سوقاً لخيرات الشام يحمل إليها الياميش والبرتقال، والبطيخ اليافاوي والدقيق والحنطة. كما حمل القطار إلى الشام ماء زمزم وتمور الحجاز، وكانت حمولة القطار 112.000 طن من البضائع. وكثر زوار المدينة المنورة، وفتحت فيها الفنادق وأدرك الناس فوائد الجامعة الإسلامية، لكن فرحتهم كالعادة كانت قصيرة. وقد صدرت بهذه المناسبة أول جريدة في المدينة المنوَّرة تحمل الاسم الشريف وهي بالعربية والتركية(٤٩٨).

وعلى الرغم من غارات البدو المستمرة على الخط والتي قدرت بـ123 غارة سنة 1326 هـ -1908م وحدها، تم خلالها تخريب خطوط اللاسلكي واقتلاع القضبان وتهديم

(497) عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المرجع السابق، ج3، ص32.

(498) عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ج3، ص29.

بعض المحطات، ونهب الركاب إلا أنه أمكن السيطرة على ذلك كله بتوزيع الهدايا على البدو وزيادة الوجود العسكري للشركس.

ومن جهة أخرى: بدأ الشركس بزراعة الأراضي الخصبة في وادي الزرقاء بعد مرور الخط الحديدي منه. وازدادت الزراعة في حوران زيادة كبيرة بعد أن أمكن نقلها بسرعة وبكلفة قليلة... وازدهرت التجارة على خط حيفا. وانطلقت الرحلات السياحية من دمشق إلى طبرية. وبلغ إيراد الخط سنة 1324 هـ -1906م من دمشق إلى تبوك 12.000 ليرة ذهبية. وعدد الحجاج سنة 1326 هـ -1908م من الشام 30.000 حاجاً.

وفي النهاية فإنه عندما يذكر هذا الخط، لابد من أن نذكر بالعرفان والتعظيم من ساهم فيه وعلى رأسهم:

- السلطان عبد الحميد.
- وأحمد عزت باشا العابد.
- وكاظم باشا مدير المشروع.
- وحسين ناظم باشا والي الشام.
- والمهندس الألماني مايسنر (***Meisner***) المدير الفني للمشروع.
- وآلاف الجنود المجهولين الذين أقاموا هذا العمل العظيم[٤٩٩]....

وقد ذكر «فيليب دوطّرازي» الأديب اللبناني المشهور، والذي كان صديقاً لأحمد عزت باشا العابد معلومات نادرة عن الرجل الأول وراء تنفيذ الخط الحديدي الحجازي.

قال إنه كان اقتصادياً ماهراً. مدّ خط تلغراف فزّان-طرابلس بـ60.000 ليرة، بينما طلبت الشركات الأجنبية 130.000 ليرة عثمانية ذهب. ومدّ خطاً برقياً بين ولاية إزمير وبنغازي بـ10.000 ليرة عثمانية ذهب فقط. وكانت شركة «إيسترن» (***Estrin***) تتقاضى كل عام من الدولة 80.000 ليرة ذهبية أجرة المخابرات على خطوطها بين إزمير وبنغازي. ومدّ الخط البرقي بين دمشق والمدينة المنوّرة بكلفة لا تزيد عن خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهب.

ولقد لعبت هذه المواهب الفذّة، إلى جانب رفاقه في العمل دوراً كبيراً في سرعة إنجاز الخط الحديدي الحجازي وانخفاض تكاليفه[٥٠٠].

(*499*) متين هولاكو، المرجع السابق، ص59.

(*500*) فيليب دوطّرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج2، ص215.

ونختم الحديث عن الخط الحديدي الحجازي، بما ذكره «جورج أنطونيوس» نقلاً عن السفير البريطاني في الآستانة الذي كتب في تقريره السنوي عام 1325 هـ -1907م:

«ومهما يكن فقد ظهر السلطان أمام ثلاثمئة مليون مسلم بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للإسلام، وبثّ في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مدّ سكة حديد الحجاز... وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حدّ لم يسبق له مثيل، وأصبحوا يقبلون استبداده المطلق، الذي لم يشهد له أحد مثيلاً من قبل، برضا تام، وصارت إرادة «الباديشاه»[٥٠١] هي الشريعة المطبقة على الأرض، فإذا شعر مسلم بالظلم، فإنه يعزو هذا الظلم إلى الموظفين ولا يعزو إلى الخليفة عملاً فيه سوء»[٥٠٢].

أما جورج أنطونيوس فقال: «كان هذا المشروع من عدة وجوه ضربة خبير في السياسة، فقد أثار الحماسة البالغة في جميع ديار الإسلام، وكان له أكبر الأثر في تثبيت الخلافة الإسلامية...»[٥٠٣].

(501) الباديشاه: ولقد كان ينادى به السلطان بغيابه بلفظ (باديشاه أفندي مز) أي سيدنا السلطان ولكن لقبه الرسمي فهو «حنان». (محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، ص113.

(502) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ط8، بيروت، 1987، ص144.

(503) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، المصدر السابق، ص142.

الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية بين الدولتين

(العلاقات الألمانية - الفلسطينية)

العلاقات الاجتماعية بين الدولتين
(العلاقات الألمانية ـ الفلسطينية)

أولاً – المستعمرات الألمانية في فلسطين

1- تقديم:

بدأ النشاط الألماني في فلسطين سنة 1262 هـ -1845م، باستيطان مبشرين لـ«إخوة كريشونا» في القدس.

وتبع ذلك تأسيس جمعية «الكيرز - زفرت» على جبل صهيون ثم عُين القسّ «فردريك فالنتر» (*Frederick Valentr*) أول راعٍ للجماعة الإنجيلية الألمانية في القدس.

وفي سنة 1270 هـ -1853م أسّس الواعظ الألماني في كاتدرائية برلين «شتراوس» (*Straus*) بعد عودته من فلسطين «جمعية بيت المقدس» وفي سنة 1274 هـ -1857م أصدرت الجمعية مجلتها: «**أحدث الأخبار من الشرق**».

ولكي تضمن الجمعية املاكها في فلسطين قامت سنة 1298 هـ -1880م بنقل ملكية جميع ممتلكاتها في بيت لحم، وبيت جالا[٥٠٤] من الأراضي إلى القنصل الألماني في القدس، لكي تكون بمنأى عن المصادرة أو الإلغاء[٥٠٥].

ومن الجمعيات الاستعمارية الألمانية في فلسطين: صندوق اكتشاف فلسطين. والجمعية الألمانية لاكتشاف فلسطين. والمعهد الإنجيلي الألماني للآثار في الأرض المقدسة[٥٠٦].

وهذه الجمعيات كانت تمثّل «الرأي العام الشعبي» الذي كان شديد الحماسة للهجرة

(*504*) بيت جالا: مدينة فلسطينية تقع في الضفة الغربية إلى الشمال الغربي من بيت لحم، خضعت للاحتلال الإسرائيلي سنة 1967، ولكنها تخضع الآن للحكومة الفلسطينية. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*505*) ستّو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص111.

(*506*) ستّو، المرجع السابق ص138.

إلى فلسطين بالنسبة للنصارى أو لليهود الألمان لكي يقيموا في فلسطين «مملكة المسيح» من جديد.

يقول علي محافظة في دراسته الوثائقية:

«كان من المفروض أن تستغل الحكومة الألمانية وجود طائفة من مواطنيها في فلسطين لصالحها، غير أن دراستنا للوثائق الموجودة في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية أفضت إلى عكس هذا الافتراض.

فقد اتصف الموقف الرئيسي الألماني من هذه المستعمرات بالتحفظ لاعتقاد المسؤولين الألمان، أن المصالح التي يمكن أن تحققها ألمانيا من خلال دعمها لهذه المستعمرات لا تساوي المشاكل التي قد تواجهها في علاقتها مع الدولة العثمانية التي كانت تتابع بدقة كل ما يجري في فلسطين».

ومع ذلك فقد اضطرت الحكومة الألمانية إلى تقديم دعم كبير لهذه المستعمرات استجابة للضغط الشعبي. الكبير للرأي العام الألماني والبلاط القيصري، حيث كان القيصر يتابع باهتمام شديد أخبار المستعمرات والمستعمرين ويحرص على حمايتهم التامة ولاسيما جمعيَّة الهيكل، أكبر الطوائف الألمانيَّة في فلسطين(٥٠٧).

وحدث في سنة 1294هـ-1877 أن اندلعت الحرب الروسية- العثمانية، ووقف المسلمون في الدولة العثمانية وخارجها حتى الصين مع الدولة والسلطان، وصاروا يهددون كل ما هو من أوروبا، ولاسيما النصارى الأوروبيين في الدولة العثمانية وفلسطين على وجه التحديد.

وكان الألمان المقيمون في فلسطين ولبنان ممن أدرك هذا الخطر، وعلى الرغم من أن عددهم لا يزيد عن 1100 ألماني، فقد حملوا السلاح وحصنوا مستعمراتهم، وطالبوا حكومتهم بالتدخل الفوري لحمايتهم. وعلى أثر ذلك أرسل «الإمبراطور غليوم الأول» السفينة الحربية الألمانية غازيل (*Gazelle*) إلى الساحل السوري. وبعد شهر واحد، قدم قائد هذه السفينة ويدعى فون هاكه (*Von Hake*) تقريراً إلى وزارة خارجيته، قال إنه يخشى من ردة فعل إسلامية عاتية، إذا ما انهزمت الدولة العثمانية أمام روسية. وطلب إرسال سفن ألمانية إلى الساحل السوري وبقاءها بضع سنين، ووافقه على ذلك القنصل الألماني في القدس. ثم أرسل بسمارك مضطراً بعض السفن الألمانية إلى المنطقة خوفاً من

---

(507) سنّو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص119.

«انتقام إسلاميّ من الأوربيين»[٥٠٨]. وأعلن القنصل الألماني في القدس عندما قطعت العلاقات العثمانية مع روسيا، أن ألمانيا قد وضعت حمايتها على الرعايا والممتلكات الروسية في فلسطين ورفعت العلم الألماني على مبنى القنصلية الروسية[٥٠٩] في يافا. وقد قام المستعمرون الألمان بتحصين مستعمراتهم في فلسطين وعمدوا إلى التدريب العسكري، كما كان يفعل اليهود.

وحاول الهيكليّون سنة 1298 هـ –1880م الحصول على اعتراف الحكومة العثمانية بهم وتنظيمهم الإداري المستقل وأيدهم القنصل الألماني في القدس، غير أن مسعاهم في تدخل حكومتهم لدى الباب العالي لتأييدهم، قد باء بالفشل ورفضت الدولة العثمانية توسيع صلاحيات الأقليات الدينية في فلسطين حتى لا يقيموا دولة ضمن دولة.

وكان بسمارك غير مقتنع أصلا بهذه المستعمرات وجدواها كما كان الإمبراطور غليوم الثاني يتعامل مع هذه المستعمرات بحذر بالغ حتى لا يسيء إلى صديقه الجديد: السلطان عبد الحميد ولاسيما عندما قامت المظاهرات في فلسطين ضد الأجانب عموماً، ومن ضمنهم الألمان[٥١٠].

2- المستعمرات والمؤسسات البروتستانتية

أ- جمعية الهيكل ومؤسساتها:

جمعية أو جماعة الهيكل[٥١١]، هي حركة دينية «أصولية» في الكنيسة البروتستانتية، هاجمت الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية معاً، لعدم تصدي هذه الكنائس للفساد الأخلاقي، وخلق الإنسان «المعافى» كما أراد المسيح.

ويعود ظهورها إلى القرن السابع عشر، وقد عكفت هذه الجمعيّة على دراسة الإنجيل، وكان أعضاؤها يرون أنهم «شعب الله المختار» الذي يتوجّب عليه الاجتماع في «أورشليم». وعلى جميع الألمان أن ينصرفوا إلى إقامة «هيكل الرب» في أورشليم (القدس)،

(*508*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص270.

(*509*) أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس، عمان، 1996م، ص590.

(*510*) محافظة، العلاقات الألمانية، الفلسطينية، ص122.

(*511*) جمعية الهيكل: وهي جمعية تعود في أصولها إلى حركة الأتقياء التي ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر كحركة إصلاحية في الكنيسة، ونجحت هذه الجمعية برئاسة زعيمها هوفمان بالحصول على ترخيص بشراء أراضي بالقدس في (1867)، ونجحت الجمعية بالحصول على أرض قربه خط حديد القدس، بنوا عليها مستعمرة لتصبح مقر جمعية الهيكل. (المركز الفلسطيني للإعلام ***www.palestine-info,com***).

واحتلال فلسطين. وقد باشرت الجمعية بإقامة سبع مستوطنات «هيكلية» في فلسطين.

وقد تزعَّم الجمعيَّة كل من «هوفمان وهارديج» (*Hoffman & Hardej*) اللَّذيْن عرضا أفكارهما في كتاب «الغرب والشرق» الذي حدَّد المبادئ الأساسية لنشر الاستعمار المسيحي في المشرق».

ومن أهم هذه المبادئ:

1- استحالة حل المسألة الشرقية بالقوة.

2- يكون الحل بإنفاذ «حملة صليبية سلمية» لنشر المسيحية في المشرق[٥١٢].

3- تُقدم هذه الحملة السلمية صورة حيَّة عن الدين المسيحي، والأخلاق المسيحية المقرونين بالعمل.

4- لا جدوى من الحملات العسكرية لتنصير المسلمين؛ لأنها لا تستطيع نشر «الأخلاق المسيحية» التي هي الأساس.

وفي سنة 1271 هـ -1854م أسَّس «كريستوف هوفمان» (*Christopher Hoffman*) «جمعية شعب الله في أورشليم» وقد أطلق عليها اسم: المعبد الألماني (*Deutsche Tempel*). وعندما سُمح للأجانب المقيمين في الدولة العثمانية بحق امتلاك الأراضي في 22 شوال 1285هـ-5 شباط 1867[٥١٣] تحت ضغوط شديدة من جانب الدول الأوروبية جميعاً. قررت الجمعية سنة 1285 هـ -1868م أن يقوم كل من: «هوفمان وهارديج» (*Hardaj-Hoffman*) بالسفر إلى فلسطين لإنشاء أول أرض للجمعية عليها[٥١٤]. وفي 15 أيلول 1868م-1285 هـ تقدما بطلب للباب العالي للموافقة على شراء قطعة أرض مساحتها ثلاثة أميال مربَّعة على جبل الكرمل في حيفا، من أجل الاستقرار الديني في فلسطين. وأعلنا أن الجمعية هي جمعية دينية صرفة، لا تتدخل بالسياسة بأي حال، وعملُ أعضائها بعد العبادة، الانصراف إلى تطوير الزراعة في فلسطين. كما أنهما تعهَّدا بعدم إشراك أي إنسان من الجمعيات الأخرى في جمعيتهم. وبالمقابل التمسا من الباب العالي إعفاءهم من الضرائب والرسوم من 5-7 سنين وألَّا يتدخل أحد من المسؤولين في الدولة في شؤونهم.

ثم اجتمعا بالسفراء الأوربيين في القدس وقالا: «إن ظروف شعبنا أقنعتنا بأن الوقت قد

(*512*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص116.

(*513*) أحمد حامد القضاة، نصارى القدس، ص395.

(*514*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص236.

حان لبناء «هيكل الرب» في الأرض المقدسة[515]. «فأقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تؤكّد أن بناء الهيكل هو الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حدٍّ سواء».

ولم توافق الدولة العثمانية لقناعتها بأن هذه الجمعية ستكون «دولة ضمن دولة» لاسيَّما اشترط هوفمان (*Hoffman*) وزميله ألا يتدخل أحد من الدولة العثمانية في شؤونهم.

ورداً على الدولة العثمانية، قامت الجمعية في آذار 1869م-1286 هـ بشراء الأرض الممتدة من ساحل البحر حتى سفوح جبل الكرمل في حيفا[516]، وبعد عام واحد تم بناء 12 منزلاً عليها، وتضم منازل سكنية ومدرسة ومعبداً، وكان يتصدر البناء عبارة: «لتنسني يميني إن نسيتك يا قدس»

وقد حرص هوفمان وجماعته على أن تكون المستعمرة على الطراز الألماني، وزرعت فيها الأشجار والزهور، وعاشت في عزلة تامة عن السكان العرب.

وبصورة عامَّة كانت كل مستعمرة ألمانية تضم: قاعة للاجتماعات العامَّة. وقاعة للعبادة. ومدرسة للأطفال وفرقة موسيقية. ونادياً للرياضة ومستوصفاً صغيراً[517].

وحتى سنة 1290 هـ -1873م لم يزد عدد سكان المستعمرة المذكورة عن 254 نسمة، و31 داراً و20 غرفة كانت تستخدم ورشاً صغيرة.

وفي سنة 1902 صار عدد السكان 517 نسمة يقيمون في 92 منزلاً ولهم 95 ورشة.

وكان نشاطات المستعمرة زراعية بحتةً، فقد زرعوا الزيتون، وبنوا طاحونة هولندية وأسسوا مزرعة للأبقار، وصاروا يُصنّعون منتجاتهم الزراعية والحيوانية ويصدرون قسماً منها[518].

وهذه الجمعيَّة الألمانية هي الجمعية الوحيدة التي نجحت وتطوَّرت بدعم الحكومة الألمانية، وذلك كلُّه في عهد بسمارك.

وقد دفعت هذه المستعمرات العربَ إلى الاقتداء بها في أساليب العمل والزراعة والتجارة والخدمات. ولهذه الجمعية مؤسسات مهمة هي: دار الأيتام السورية. والنزل أو الفنادق الخاصة. والمستعمرات الهيكلية.

(*515*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص106.

(516) David Kushner: Palestine in the Last Ottoman period (political, social and Economic transformation) Jerusalem 1986, P: 374

(*517*) محافظة، المرجع السابق، ص107.

(*518*) محافظة، المرجع نفسه، ص108.

ب- دار الأيتام السُورية أكبر المؤسَّسات التبشيرية في سُوريَّة:

بعد حوادث 1277 هـ -1860م في لبنان، تداعى رجال الدين النصارى في العالم إلى لبنان لإزالة آثار تلك الحوادث، وإيواء الأيتام والمشردين والأرامل. وممن وفدوا لهذا الغرض الراهب الألماني الكاثوليكي «لودفيغ شنلّر» (*Schneller*)، الذي حضر من فلسطين إلى لبنان والتقط بعض الأيتام النصارى الموارنة ونقلهم إلى القدس ليؤسس: «دار الأيتام السورية» التي تحوَّلت مع الوقت إلى أكبر المؤسسات التبشيرية في سورية، وكان هدفه الأوَّل نشر البروتستانتية في الشرق الأدنى(٥١٩).

وقد آوى شنلر، الأيتام الموارنة في داره في القدس، وكان عددهم أحد عشر يتيماً وأعلن افتتاح الدار رسمياً يوم 11 تشرين الثاني سنة 1860م-1277 هـ. وكان هدفه الأسمى «تربية الأولاد وتعليمهم ليصبحوا أعضاء مفيدين لكنيسة المسيح. وكانت الدار تتعرَّض لحملات عنيفة من «جمعية يهود لندن» ومن الكاثوليك.

وفي سنة 1293 هـ -1876م أصبح عدد الطلاب في الدار 210 صبيٍّ وثماني بنات. من سورية وفلسطين ولبنان ومصر، وكانوا يضمون الملحدين والمسلمين والمسيحيين، ويمارسون الزراعة والتجارة والمهن الحرة بالإضافة إلى التبشير، أو التنصير كما كانوا يسمونه(٥٢٠).

وكان شنلّر يأمل أن يشكل الخريجون وكنيسة عربية إنجيلية في الأراضي المقدسة لها مطرانها الألماني المستقل.

وكان ينظر إلى «جمعية الهيكل الألمانية» كنموذج يحتذى لنشاطاته في طريقة التعليم والتبشير والاستيطان.

وقد عكف شنلر على شراء الأراضي في فلسطين، واصطدم مع اليهود الذين كانوا منذ سنة 1287 هـ -1870م يرون أن الأرض لهم وأن شراءها يعدّ إثماً، لأنها تخص اليهود وحدهم.

وبعد خمسين عاماً من تأسيس الدار، كانت مساحة الأراضي التي يمتلكها شنلر وورثته 55 هكتاراً تعادل 550000 متراً مربعاً.

وفي سنة 1307 هـ -1889م، وهي سنة التقارب الألماني العثماني استأجر شنلر أرضاً في الرملة لمدة أربعين عاماً بإيجار زهيد، وكانت مساحتها 585 هكتاراً وبنى عليها مستعمرة «بير سام» لكنها لم تحقق النجاح المأمول.

(*519*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص64.

(*520*) سنو، المرجع السابق، ص68.

وفي سنة 1312 هـ -1894م أقام شنلر مستعمرة قبل وفاته بعامين وهذه المستعمرة كانت مؤسسة حرفية - تجارية ألمانية لإيجاد فرص عمل لخريجي دار الأيتام السورية.

وقد أقام المنشآت والورش والمعامل خارج أسوار المستعمرة، كما بنى المنازل لسكان المستعمرة.

وقد ساهم في بناء هذه المستعمرة رجال ألمان متديّنون، وأطلق على كل قسم منها اسم إحدى المدن الألمانية، وكانت هذه المستعمرة تضم ورشات لصناعة الخزف والنجارة والحدادة والتجليد والقرميد والأحذية والألبسة والمفروشات والمشروبات، وكان الإنتاج يصدر إلى أوروبا ويتهافت عليه «المؤمنون». كما أقام ورشة للمكفوفين لتدريبهم على ما ينفعهم[521].

وحتّى لا تنهار المؤسسة الهيكلية الكبرى، شكل شنلر ما يُعرف بـ«الرابطة الإنجيلية لدار الأيتام السورية في القدس» وقامت هذه الرابطة سنة 1314 هـ -1896م بعد وفاة شنلر بتسديد ديون الدار الكبيرة، ووضعت يدها على جميع ممتلكات الدار وسارت على طريق شنلر في الاستعمار والتبشير[522]...

ومن المؤسسات الإنجيلية الألمانية الأخرى في فلسطين:

- مدرسة القسيس «فيزر» (*Phaser*) في القدس وهي خاصة بالإنجيليين.
- ونزل رهبنة القديس يوحنا حيث يقيم الحجاج الألمان.
- ومأوى المجذوبين الذي وسّع سنة 1305 هـ -1887م والجمعية الإنجيلية الألمانية في كل من حيفا ويافا[523].

ج- الفنادق الألمانية الخاصّة:

1- نزل القدس:

بدأت مع تزايد المستعمرات الألمانية في فلسطين أعداد كبيرة من الألمان بالهجرة إلى القدس للحج أو العمل أو السياحة. وكما لم يكن في القدس فنادق رخيصة للعامّة، اضطر العمال الألمان إلى المبيت في نزل الفرنسيسكان المسمى: كازانوفا (*Casanova*).

وقد استاء الألمان من ذلك وخافوا العاقبة ولاسيّما بعد ارتداد عدد من الألمان إلى الكاثوليكية.

(*521*) سنو، المرجع نفسه، ص75.

(*522*) المرجع نفسه، ص72.

(*523*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص69.

ولذلك عمد المطران الألماني «غوبات» (*Gubat*) إلى تأسيس نزل بروتستانتي بمساعدة القنصل البروسي في القدس. وافتتح النزل سنة 1268 هـ -1851م في منزل شماسات «الكيزر زفرت» على جبل صهيون، على أن يستقبل العمال الألمان يومياً ولمدة 14 يوماً بدون مقابل، ريثما يتدبروا أمرهم. ثم نقل النزل إلى دار يملكها مصطفى البيرقدار في القدس بعدما اشتراها ترجمان القنصل البروسي في القدس، وعهد الإمبراطور الألماني فردريك غليوم الرابع إلى رهبنة «فرسان القديس يوحنا» بإدارة هذا النزل.

وكان الألمان لا يُخفون تعلقهم الشديد وحبهم لفرسان القديس يوحنا، ولذلك قام الإمبراطور غليوم الثاني أثناء زيارته للقدس سنة 1316 هـ -1898م بشراء قطعة الأرض التي كان فرسان القديس يوحنا قد أقاموا عليها مستشفاهم خلال الحروب الصليبيّة، وسجلت جميع الأبنية الألمانية في فلسطين باسم الرايخ الألماني(٥٢٤).

2- فندق أوغستا فيكتوريا (*Augusta Victoria*):

بني هذا النزل: الذي سمي بالمطلع في قرية الطور، وهذه القرية أصلاً بكاملها هي وقف شرعي على ذرية الشيخ المجاهد علي الهكاري، أوقفها عليه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وقد تم بناء النزل سنة 1316 هـ -1898م أثناء زيارة الإمبراطور غليوم الثاني إلى القدس، على يد وزير الإمبراطور، الذي قدّمه هدية للإمبراطورة «أوغستا فيكتوريا» (*Augusta Victoria*) حرم الإمبراطور. وكان الهدف من هذا النزل إيواء الحجاج الألمان عند زيارتهم لفلسطين. وأرض النزل ما تزال موقوفة، ولذلك صدر سنة 1326 هـ -1908م فرمان سلطاني بتحكير أرض الوقف المذكور رسمياً. والتحكير شرعاً هو تأجير أرض الوقف لمدة طويلة قد تصل إلى مئة عام، بأجرة زهيدة، مقابل مبلغ من المال يُدفع عند العقد. وهذا النزل اليوم هو مستشفى يديره الاتحاد اللوثري في فلسطين(٥٢٥).

د- ومن المستعمرات الإنجيلية الألمانية الأخرى:

1- مستعمرة يافا 1290 هـ -1873م:

في آذار 1869م-1286 هـ وفد إلى هوفمان (*Hofman*) المبشر الإنجيلي ميلر (*Miller*)

(*524*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص138.

(*525*) عبد الكريم رافق، مؤتمر تاريخ بلاد الشام السابع، ص11.

والألماني ميسلر (*Misller*)، الذي اشترى المستعمرة الأمريكية في يافا المعروفة باسم قرية آدامز: (*Adams-City*)، وكانت جماعة أمريكية دينية قد زعمت بأن المسيح سيعود إلى فلسطين في وقت حددوه وأقاموا هذه المستعمرة ليشهدوا فيها «عودة المسيح» لكن المسيح لم يعد، ولهذا باعوها وعادوا إلى بلادهم. ومساحتها تتراوح بين 400 هكتار و600 هكتار.

2- مستعمرة سارونا 1288 هـ -1871م- *Saraona*:

على طريق يافا - تل الربيع (تل أبيب)[٥٢٦]، ومساحتها 78 هكتار ثم توسعت حتى صارت 474 هكتاراً سنة 1316 هـ -1898م.

3- مستعمرة ريفايم 1289 هـ -1872م- *Rephaim*:

اشترى الهرر[٥٢٧] فرانك (*Herr Frank*)، أحد أعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا، قطعة من الأرض في رفايم[٥٢٨] شمال غرب محطة سكة حديد القدس في شهر نيسان 1872م-1289 هـ. ومساحتها 25 هكتار. وفي سنة 1295 هـ -1578م أصبحت هذه المستعمرة، المقرُّ العام لجمعية الهيكل، وسكانها يعملون بصنع العربات وإصلاحها.

4- مستعمرة فال هالاوك 1310 هـ -1892م- (*Wal Haloc*):

أنشأها المستعمرون الألمان سنة 1310 هـ -1892م، على طريق يافا تل الربيع (تل أبيب)، وأقيم فيها مستشفى لمعالجة الألمان المقيمين في المستعمرات الألمانية[٥٢٩].

5- مستعمرة فيلهما 1320 هـ -1902م (*Wilhma*):

شمال شرق اللّد[٥٣٠] والمساحة 1000 هكتار.

(*526*) تل الربيع (تل ابيب): مدينة فلسطينية تقع على المتوسط. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*527*) الهرر (*Herr*) بالألمانية يعني السيد.

(*528*) رفايم: وادي موجود في القدس، ورفايا: اسم عبري معناه (يهوه قد شفى) وهو رجل من نسل داود. قاموس الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية، ص47.

(*529*) علي محافظة، العلاقات الألمانية - الفلسطينية ص111، وامين ابو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ص592. وهناك بعض الاختلافات في مساحة مستعمرة يافا بين المصدرين.

(*530*) اللد: من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، شمال غرب القدس، أسسها الكنعانيون في الألف الخامسة قبل الميلاد. (*www.ar.wikipedia.org*).

6- مستعمرة شمعة 1289 هـ -1872م:

أنشأتها دار الأيتام السورية لأغراض البحث.

7- مستعمرة فالدهايم 1325 هـ -1907م (*Waldheim*):

غرب الرملة[٥٣١]: أنشأتها دار الأيتام السورية أيضاً[٥٣٢].

3- المستعمرات والمؤسسات الكاثوليكية في فلسطين:

أ- مستعمرة شنايدر (*Schneider*):

في أواسط السبعينات، قام الراهب الفرنسيسكاني الألماني: «شنايدر» بشراء أرض في منطقة عمواس – قبية خارج القدس لإنشاء مستعمرة ألمانية عليها.

وبدأ العمل في المستعمرة، لكن جمعية القبر المقدّس، الألمانية التي كان يتبعها شنايدر، آثرت الولاء للكنيسة الكاثوليكية على الولاء لألمانيا، ونقلت شنايدر إلى الإسكندرية بتحريضٍ من الدوائر الكنسية الفرنسية، بعد قيام شنايدر بانتقادها.

وذكر الجمعيّة بأنها ليست جمعية تبشيرية ألمانية، وأنها رغماً عن ذلك قد قدمت المساعدات لمؤسسات ألمانية كاثوليكية في فلسطين من أمثال:

- جمعية المتشرّعات في غزة.
- مستشفى الراهب ماير (*Maier*) في الناصرة.
- مدرسة سكس في القدس.
- ومؤسسة شنايدر نفسه[٥٣٣].

ب- جمعية فلسطين للكاثوليك الألمان 1297هـ-1879م:

طالب الراهب الألماني الكاثوليكي «ماير» (*Maier*) مع عدد من رجال الدين والنبلاء والعلماء والتجار الألمان، بقيام جمعية دينية كاثوليكية ألمانية في فلسطين على أسس قومية ألمانية.

---

(531) الرملة: من أكبر وأقدم المدن الفلسطينية شمال غرب القدس، تأسست سنة 716م على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك، وسميت نسبة إلى الرمال التي تحيط بها. (المرجع السابق).

(532) انظر سجلات يافا 61 ص37، و140 ص133، و162 ص306.

(533) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين. ص195.

وقد قامت هذه الجمعية في ألمانية رسميًا سنة 1302 هـ -1884م وحددت أهدافها بما يلي:

- تشييد نزل وكنيسة ومدرسة ومستشفى في فلسطين.
- نشر المذهب الكاثوليكي ضمن «المظلّة الألمانية»[٥٣٤].

ولبلوغ هذه الأهداف، قامت الجمعيّة بضم راهبات بورومية والآباء العازاريين الألمان في فلسطين إليها.

وقد قابل الكاثوليك الألمان هذه الجمعية باستحسان بالغ حتى إن أعضاءها كانوا سنة 1305 هـ -1887م أزيد 22000 نسمة.

وفي سنة 1304 هـ -1886م اشترت الجمعية الأرض التي كان الراهب شنايدر قد ابتاعها خارج بوابة يافا في القدس في منطقة عمواس - قبيّة[٥٣٥].

ج- الجمعية الكاثوليكية للأرض المقدسة 1313هـ-1895م:

نشأت من دمج جمعية القبر المقدس، وجمعية فلسطين للكاثوليك الألمان سنة 1313 هـ -1895م، وكان من أهدافها:

1- حماية الأرض المقدسة:
2- دعم الإرساليات الكاثوليكية منها.
3- المحافظة على مصالح الكاثوليك الألمان فيها.
4- تكون مجلّة «الأرض المقدسة» هي الناطقة باسم الجمعيّة بدل جريدة «ورقة فلسطين».

وقد وضعت الجمعية نفسها تحت رعاية الرايخ الثانية[٥٣٦].

تشييد نزل الكاثوليك في القدس 1305 هـ -1887م

تم تشييد هذا النزل في الأرض المشتراة من شنايدر (***Schneider***) خارج بوابة يافا في القدس، وكان يديره الأب شميدت (***Schmidt***).

(*534*) سنو، المرجع السابق، ص196.

(*535*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص197. عمواس-قبية: قرية فلسطينية تبعد عن القدس 30كم، وتقع في منطقة اللطرون، جنوب شرق الرملة. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*536*) سنو، المرجع السابق ص197.

ويضم النزل 30 غرفة في جناحين أحدهما للحجاج والآخر للحاجّات.
كما يضم كنيسةً صغيرة.
والهدف منه إيواء الرحالة الألمان والحجاج والدارسين من الكاثوليك.
كما شُيِّدت نزل أخرى في عمواس 1304 هـ -1886م.
وحيفا 1306 هـ -1888م.
ومستعمرة الطبقة الزراعية سنة 1307 هـ -1889م[٥٣٧]؟

وفي سنة 1317 هـ -1899م، اشترت الجمعية الألمانية للأراضي المقدسة، بواسطة القنصل الألماني في القدس، قطعة أرض كبيرة في القدس وأقيم عليها النزل الجديد سنة 1908 وبنيت فيه كنيسة ومدرسة[٥٣٨].

ثانياً: المستعمرات اليهودية الألمانية في فلسطين

ا- الألمان واليهود في فلسطين

كان الاهتمام الألماني الكبير بفلسطين ومحاولة نشر المذهب الإنجيلي «البروتستانتي» هناك بين النصارى والمسلمين على حد سواء ينطلق من ثوابت متأصلة عند الألمان لا علاقة لها بالمصالح السياسية أو الاقتصادية.

ذلك أن النصارى الكاثوليك والأرثوذكس لم يكونوا مهتمين كثيراً أو قليلاً بأمر اليهود ومصيرهم، سواء يهود أوروبا، أو الدولة العثمانية، بل إنهم كانوا يعادون اليهود عداء سافراً لأسباب دينية صرفة.

أما الألمان الإنجيليين فقد كانت نظرتهم لليهود ومعهم سائر البروتستانت ذات طابع خاص. فهم يرون أن اليهود قد دفعوا «ضريبة العذاب غالياً» يوم اضطهدوا في مصر ويوم خرجوا منها، ولذلك فقد «رفع» عنهم الحساب والمساءلة تماماً، وصارت مساعدتهم والوقوف معهم من أهم الواجبات الدينية للإنجيلين، وهو من صميم العقيدة المسيحيَّة، ولذلك وقفت الكنائس البروتستانتية على اختلافها موقف المتعاطف مع اليهود[٥٣٩][*].

---

(537) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص198.

(538) سنو، المرجع السابق، ص199.

(539) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص109.

(*) يقول الدكتور جلال صادق العظم: أن الصهيونية تحقق للأوروبيين هدفين في آن واحد، الخلاص من زيادة

2- مرسوم تحرير اليهود:

في سنة 1228 هـ -1812م صدر مرسوم تحرير اليهود في ألمانيا ويقضي بمساواتهم بالألمان والنصارى من البروتستانت والكاثوليك.

ومع ذلك لم يقض هذا المرسوم إلى حصول اليهود على ا لمساواة المنشودة.

ومن هنا برزت للألمان البروتستانت فكرة جديدة وهي تنصير اليهود على المذهب البروتستانتي، ثم تصديرهم إلى فلسطين حيث يقيمون المستعمرات وبذلك تحقق ألمانيا هدفين في وقت واحد:

1- ترحيل اليهود من ألمانيا التي كانت تعاني من كثرة سكانها.

2- إقامة المستعمرات الألمانية في فلسطين وإعادة مملكة المسيح فيها.

وكان الألمان عامة لا يثقون باليهود ولا يطيقونهم، ولم تكن مساعدتهم الظاهرية لهم إلا للتخلص منهم في ألمانيا.

وكان الفيلسوف الألماني «فيخته» (*Fichte*) يرى أن اليهود جسم غريب في ألمانيا، ويشكلون دولة ضمن دولة، وعلى الرغم من دعوته الألمان لاحترام اليهود إلا أنه قال:

«أمّا أن نعطي اليهود حقوق المواطنة، فهذا لا يتم إلا إذا استبدلنا في ليلة واحدة رؤوساً أخرى برؤوس اليهود. خالية من الأفكار اليهودية، ولكي نحمي أنفسنا منهم فلا أرى سوى فتح أرض الميعاد لهم ونرحّلهم جميعاً إلى هناك»[٥٤٠].

وكان معظم الألمان يرون في اليهود، شعباً فاسداً مشحوناً بميول شريرة.

ورغم كل الجهود التي بّذلت لتنصير اليهود وتوطينهم في فلسطين إلا أن يهود فلسطين، وقفوا من المنصّرين البروتستانت موقفاً عدائياً سافراً، ووصفوهم بالمرتدّين[٥٤١].

وكان اليهود، يعتمدون على نفوذهم الاقتصادي الهائل في ألمانيا للضغط على الحكومة الألمانية لاستخدام نفوذها في دعم اليهود.

وبالمقابل ظهر تيار «محافظ» في ألمانيا، كان يرى أن اليهود غرباء وأن اليهودية كدين مناقضة للتعاليم المسيحية، ولكي يحصلوا على المواطنة لابد من تنصّرهم، ووقعت

عدد السكان والخلاص من منافستهم المالية، ويضاف لذلك أنها أداة لتحقيق مصالحهم، حيث الوطن القومي لليهود

(*540*) سنو، ألمانيا والإسلام، مرجع سابق، ص286.

(*541*) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، مرجع سابق، ص38.

هذه المهمة الصعبة على «جمعيَّة نشر المسيحية بين اليهود». لكن التنصير لم ينجح، وكان الذين تنصروا في الظاهر مشكوكاً بعقيدتهم النصرانية وصحة تنصّرهم(٥٤٢).

ولقد كان اهتمام ألمانيا بفلسطين منذ عام 1258 هـ -1842م.

وفي عام 1317 هـ -1899م فتح «أورنجين فردريك» (*Oranjin Fredrich*) مدارس اليهود في فلسطين(٥٤٣).

3- اليهود في الرايخ الثاني 1288هـ-1871م:

كان عدد اليهود في الرايخ الثاني عام 1288 هـ -1871م حوالي 400000 نسمة وقد تضمَّن الدستور الألماني الاتحادي الصادر عام 1289 هـ -1872م نصاً واضحاً على المساواة بين الألمان البروتستانت واليهود والكاثوليك تماماً.

ومع ذلك انقسمت ألمانيا إلى قسم معاد لليهود وعرف هؤلاء بـ«اللاساميين» حذروا بشدة من الهجرات الواسعة لليهود الروس إلى ألمانيا، ونشروا بين الألمان خطر اليهود على ألمانيا.

وفي عام 1296 هـ -1878م تقدم اليهود بمذكرة إلى المستشار بسمارك عقب مؤتمر برلين، طالبوا فيها بإقامة دولة يهودية في فلسطين، فردَّ عليهم المستشار بالقول: «إنها فكرة حمقاء»(٥٤٤)

وبالمقابل، ورداً على هؤلاء نشط اليهود وأنصارهم في ألمانيا بنشر «السامية» والدفاع عنها.

حيث تأسست في عام 1302 هـ -1884م «جمعيَّة محبِّي صهيون» في برلين برئاسة اليهودي زيميل (*S.Simmel*). كما تأسست جمعيات ألمانية يهودية لمحاربة اللاساميَّة مثل: جمعية العلماء الروس عام 1307 هـ -1889م. وجمعية إسرائيل الفتاة: (*Jung Istael*). واتحاد الطلبة اليهود في ألمانيا عام 1310 هـ -1892م. وأصدر «بودنهماير»(٥٤٥)

---

(542) سنو، المرجع السابق، ص287.

(543) Ilber ortayli, Osmanli imperator luğünda, Op-cit, P.181

(544) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص141.

(545) بودنهماير (*Bodenhmir*): (مالحسن بودنهماير): أحد رفاق هرتزل ومساعديه وقد حضر المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل، وحتى إنه كان يعلم بالمؤتمر قبل انعقاده وقد قال بودنهماير بيتاً كان في سفينة كانت بقربه في مضيق الدردنيل في تركيا: «إن لأحلامنا أجنحة لا تعرف الحدود وإن المنطقة ما بين نهري النيل والفرات يجب أن تفتح أمام الاستيطان اليهودي لتحقيق الوعد الإلهي لليهود بالدولة اليهودية الكبرى». ***www.uaecion.net*** .

(*Bodenhmir*) كتاباً دعا فيه إلى تهجير اليهود الروس إلى فلسطين وسورية للاستقرار فيهما. وتم تشكيل الاتحاد المركزي لليهود الألمان عام 1311 هـ -1893م[٥٤٦]. وفي العام نفسه أسّس في كولون (*Köln*) «جمعية كولون لتنمية الزراعة والصناعة في فلسطين» التي تحول اسمها إلى: «جمعية كولون القومية اليهوديّة» وخلاصة مبادئها:

1- إن الرباط القومي لليهود، لا يتعارض مع ولائهم لأوطانهم.

2- إقامة دولة يهودية تمثلهم، وتضمن الملجأ لغير المرغوب فيهم من اليهود.

3- إيقاظ الوعي اليهودي، وممارسة العمل في فلسطين.

وفي عام 1315 هـ -1897م عقد اليهود الألمان مؤتمراً في 11 تموز، قبيل مؤتمر بازل[٥٤٧] (*Basel*)، نجم عنه إنشاء «الاتحاد الصهيوني في ألمانيا».

وطالبت مجلّة (*Kadimah*) في برلين عام 1312 هـ -1894م، «بصهيونية تقدمية» يندمج فيها اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية اندماجاً كاملاً دائماً[٥٤٨].

وفي عام 1315 هـ -1897م دعا «اتحاد الصهاينة الألمان» عقب مؤتمر بازل إلى مؤتمر عام في فرانكفورت[٥٤٩] (*Frankfurt*) يوم 31 تشرين الأول 1897. أسفر عن انتخاب لجنة تنفيذية برئاسة «بودنهايمر» (*Bodwnhmir*)، وصدرت صحيفة: الصهيوني (*Der Zionist*) 1319 هـ -1901م كما أنشأ اليهود الألمان وجمعية إغاثة اليهود الألمان[٥٥٠].

وكان «هوفمان» (*Hoffman*) مؤسّس جمعية الهيكل يرى أن تكون الأراضي المقدسة ملكاً لشعب الله المختار.

قال: «إن الله كان ينوي في البداية منح هذه البلاد للشعب اليهودي، غير أن هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة ولم يعد شعباً مقدساً، والهيكليون وحدهم أوجدوا المقدس الجديد: شعب الله.».

وحين بدأت الهجرات اليهودية الكبرى إلى فلسطين 1882-1890 أدرك الألمان الخطر

(*546*) محافظة، المرجع السابق، ص137.

(*547*) بازل (*Basel*): وهي ثالث اكبر مدينة في سويسرا، تقع على نهر الراين في شمال غربي البلاد، في كانتون مدينة بازل الملاصق للحدود الألمانية والفرنسية. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*548*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق ص138.

(*549*) فرانكفورت (*Frankfurt*): مدينة تقع وسط ألمانيا على ضفاف نهرب الماين (*Main*) في ولاية هسن، تعد العاصمة الاقتصادية لألمانيا. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*550*) محافظة، المرجع السابق ص157.

الحقيقي لليهود، ولاسيما عندما عقد مؤتمر بازل عام 1897 وصارت «مجلة العالم» (*Die Welt*) الصادرة في حزيران 1897 هي الصوت العالمي لليهود.

وقد شنت الحركة هجوماً قوياً على الصهيونيين، وأبرز: «فرتيس لورخ (**Fritz Lorch**)» عدم ولاء الصهيونية للدولة العثمانية، وتعاون الصهاينة مع بريطانيا لتقسيمها وتمزيق أشلائها[٥٥١].

ولذلك انحصر تأييد اليهود بالإنجيلين من دون «الهيكليين».

2- المستعمرات اليهودية في فلسطين:

أ- البدايات

في عصر السلطان سُليمان القانوني استغلّ اليهودي العثماني «يوسف ناجي» صداقته مع السلطان، والتمس منه السماح بإسكان خمسة آلاف يهودي بالقرب من بحيرة طبريا في فلسطين، فوافق السلطان على ذلك، لأن الدولة العثمانية كانت في ذلك الوقت أقوى دولة عسكرية في أوروبا والعالم، وكان ذلك بداية الهجرات اليهودية إلى فلسطين.

وفي القرن التاسع عشر هاجرت موجة جديدة من اليهود واستقرت في إزمير فصار أعضاؤها وسطاء بين أوروبا والدولة العثمانية وجنوا من ذلك فوائد جمّة[٥٥٢].

ثم كانت حرب القرم عام 1273 هـ -1856م، والحرب الروسية العثمانية 1294 هـ - 1877م المشؤومة وبالاً على الدولة العثمانية؛ لأنها أرغمتها على إعطاء «الأقليات» وفي مقدمتهم اليهود حق التعبير عن آرائهم وتشكيل الجمعيات الخاصة بهم تحت ستار الحرية الدينية، وأصبحت تلك الجمعيات بؤراً للتآمر على المسلمين والدولة العثمانية.

ثم جاءت حادثة اغتيال اليهود لقيصر روسيا عام 1299 هـ -1881م وما نتج عنها من عواقب على الدولة العثمانية[٥٥٣] حيث هاجر إليها عشرات الآلاف من اليهود الروس الذين كانوا يتعرضون للإبادة الجماعية.

(*551*) محافظة، المرجع السابق ص131.

(*552*) كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة 1976م، ص71.

(*553*) اغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني (1881): تولى الحكم في ذروة حرب القرم التي كشفت ضعف الروس، قام ببيع للولايات المتحدة الأمريكية مقابل سبعة ملايين دولار في 1863، قامت ضده الكثير من الثورات قمعها بشدة، في 13 آذار 1881 وأثناء طريق عودته إلى قصر الشتاء اغتيل ألكسندر الثاني بواسطة يهودي استخدم قنبلة يدوية، توفي على أثرها وتسلم مكانه ألكسندر الثالث. (**www.ar.wikipedia.org**).

ولم تكن الدولة العثمانية تشعر بأدنى خطر من هذه الهجرات، التي كان فيها اليهود مثل النصارى يعيشون ضمن الدولة العثمانية، ويحتكمون إلى شرائعهم ويمارسون عباداتهم وأعمالهم بمنتهى الحرية. ويبدو أنه لم تكن لديهم فكرة عن الصهيونية والخطر منها إلا عندما ظهر هرتزل ومشاريعه(٥٥٤).

وفي عام 1274هـ - 1858، وقبل السماح للأجانب بتملك الأراضي في الدولة العثمانية، بدأت عمليات شراء الأراضي بمختلف الأساليب من جانب الحركة الصهيونية، وهذه الأراضي تشمل:

أولاً - الأراضي داخل المدن.

ثانياً - أراضي الأرياف.

أولاً- الأراضي داخل المدن:

ركزت الحركة الصهيونية على شراء الأراضي داخل ثلاث مدن هامة هي القدس ويافا والخليل(٥٥٥). ففي القدس بنيت 36 مستوطنة أو كومبانية كما كانت تسمى في المناطق الشمالية والشمالية الغربيّة من السور (سور مدينة القدس القديمة)، ثم تمّ شحنها بالمستوطنين(٥٥٦).

وحتى لا تقع هذه المستوطنات تحت المصادرة تم وقفها وقفاً خيريًا على غرار الوقف الإسلامي.

وفي عام 1323هـ - 1905 اشترت الحركة الصهيونية في منطقة «الشيخ جرّاح»(٥٥٧) 5600 دونم، لإقامة الجامعة العبرية عليها وتقع في الناحية الشمالية الشرقية من السور.

وفي يافا تركز الاستيطان شمالي المدينة على شاطئ البحر داخل حدود بلدية يافا، بعيداً عن المدينة وضواحيها. وقد أُنشأت في مدينة يافا مستوطنتان:

---

(554) الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص72.

(555) الخليل: مدينة فلسطينية ومركز محافظة الخليل تقع في الضفة الغربية إلى الجنوب، وتعتبر أكبر المدن الفلسطينية من حيث عدد السكان والمساحة، أسسها الكنعانيون في الألف الثالثة قبل الميلاد سميت بالخليل نسبة إلى نبي الله إبراهيم، حيث يعتقد أنه سكن مدينة الخليل في منطقة الخليل الإبراهيمي. (***www.ar.wikipedia.org***).

(556) أمين أبو بكر، ملكية الأراضي ص597 نقلاً عن سجلات المحاكم الشرعية في القدس.

(557) الشيخ جراح: مدينة مقدسية تتبع مدينة القدس وهي الجانب الشرقي للقدس وقعة تحت الاحتلال الصهيوني 1967، وهي الآن من أحياء القدس الشرقية. (***www.ar.wikipedia.org***).

1- مستوطنة المنشية المعروفة بمنشية اليهود عام 1306 هـ -1888م، كان فيها حوالي 6000 مستوطن.

2- مستوطنة تل أبيب «تل الربيع» التي بدأت بالتضخم حتى انفصلت عن يافا.

أمّا في الخليل فقد كان مركز الاستيطان في محلّة اليهود داخل المدينة القديمة، وهؤلاء اليهود فيها منذ عصر المماليك.

وحتى ندرك مدى اهتمام اليهود بالاستيطان نقرأ في إحدى الوثائق من سجلات يافا.

«وكّل إبراهيم سالم الإسرائيلي من تبعية إنكلترا والمقيم بيافا، وكّل الخواجا سلمون بن إبراهيم الإسباني التبعية في «شراء أي عقار في أي محل كان، من أي إنسان كان، من أراض ومسقفات في منطقة فلسطين بأي ثمن كان !!!...»[558].

ب- أشهر المستعمرات اليهودي - الصهيونية في فلسطين:

كان اليهود الغربيّون يلجؤون إلى شتى الطرق لإقامة المستعمرات في فلسطين وشراء الأراضي، رغم القوانين العثمانية.

وعلى سبيل المثال: فقد قرّر الصهيوني «بتاح تكفا» المشمول بالجنسية الألمانية 1303 هـ -1883م، بناء مستعمرة بدون الحصول على رخصة من الآستانة، كما تقتضي القوانين.

فقام والي القدس «رؤوف باشا»[559] المشهور بحبه للعرب وعدائه للغرب والصهيونية، بتقديم بتاح تكفا إلى المحاكمة بتهمة مخالفة القوانين، وطبّق عليه عقوبات قاسية، أو دمّر ما أقامه في مستعمرته، ومنع جميع المحامين في القدس من الدفاع عنه. فاحتجّ القنصل الألماني في القدس على ذلك وأحضر له محامياً من دمشق، فتجاهله القضاة العرب في القدس. وعند ذلك لجأ القنصل الألماني إلى سفارته في الآستانة لتتولى

(558) أبو بكر، المرجع السابق ص601 نقلاً عن سجلات المحاكم الشرعية في يافا.

(559) رؤوف باشا: كان متصرفاً للقدس (1867-1888) سعى سفير الولايات المتحدة الأمريكية (أوسكار شتراوس) اليهودي الأصل إلى طرد رؤوف من منصبه وذلك بالضغط على السلطات العثمانية التي وافقت على استبدال هذا الوالي بوالي آخر أقل عداءً للصهيونية، وذلك لأن أعمال رؤوف باشا أدت إلى تجميد النشاط الصهيوني في متصرفية القدس خلال فترة ولايته. (الموسوعة الشاملة، مجلة العربي، **www.islamport.com**).

الدفاع عن «بتاح تكفا» ومع الأسف، ثم الفصل في قضيته لصالحه وصالح قنصل ألمانيا في القدس، وخسر العرب القضية، وذلك كله في العام 1303 هـ -1883م[٥٦٠].

وقد تم بناء 13 مستوطنة في الأرياف، وشراء مساحات واسعة من الأراضي، تمهيداً لبنائها في المستقبل، وذلك بدءاً من عام 1287هـ - 1870، وهذه أهم المستعمرات في الألمانية الصهيونية.

1- مستعمرة أبو شوشة:

أسَّسها المصري في الصهيوني الألماني «ميلفيل بيرجهام» (*Melville Bergham*) عام 1289 هـ -1872م، وكانت تشتمل على جميع قرية «أبو شوشة» في الجنوب الشرقي من الرملة. ومساحتها 20000 دونم، تم شراؤها بـ450 ليرة ذهبية فقط، يعني أن سعر الدونم كان (2.3) غرش عثماني فضي فقط[٥٦١].

والسبب في هذه الصفقة الخاسرة أنه كان للدولة العثمانية على أهالي القرية المذكورة مبلغ قدره (450) ليرة. فدفعه «ميلفيل» المذكور وعلى أثر ذلك آلت إليه سندات الطابو في القرية وعددها 153 سنداً، وقد عُرف المشتري وأسرته في القرية وفي فلسطين بـ«آل بركم».

وبعد الشراء شيَّد «آل بركم» في هذه الأراضي اصطبلات والمخازن وأقاموا محركاً لضخ الماء، وتحوَّل أبناء القرية إلى أجراء لديهم. كما اشترى «آل بركم» هؤلاء داراً مقابل باب الخليل في القدس مع أراضي متفرقة في القدس ولفتة والمالحة. وأخيراً دان «آل بركم» بالبروتستانتية وتخلَّوا عن دينهم اليهودي[٥٦٢].

2- مستعمرة نس-تصونا *Nes-Tsiyonas*:

ومعناها «تذكار بيت الله»، أسَّسها الموسوي والكلساني: «فردريك تلر» (*Frederic Tyler*) ثم تنازل عنها للحاخام النمساوي «روبين» (*Rubin*) عام 1301 هـ -1883م، ومساحتها 1350 دونماً وهي في وادي حنين[٥٦٣] من أراضي قرية صَرَفَنْد

(*560*) محمد كمال الدسوقي، المرجع السابق، ص90.

(*561*) أبو بكر، المرجع السابق، ص603 نقلاً عن سجلات القدس.

(*562*) أبو بكر، المرجع نفسه، ص605 نقلاً عن سجلات القدس.

(*563*) وادي حنين: قرية فلسطينية في قضاء الرملة، دخلتها عصابة الهاغانا الصهيونية سنة (1948) وهجروا معظم أهلها إلى الأدرن. (***www.ar.wikipedia.org***).

الخراب[٥٦٤]، إلى الجنوب من مستعمرة «ريشون لتسيون» (***Rishon Lezion***) - رؤوس صهيون-[٥٦٥].

3- مستعمرة بئر يعقوب 1327 هـ -1907م:

بين الرملة وصرفند الخراب.

4- خلدا:

جنوبي الرملة شرقي خط حديد يافا - القدس.

يلاحظ أن الدولة العثمانية ساهمت دون وعي منها، بانتقال الأراضي إلى اليهود بسبب الضرائب الباهظة المفروضة على الفلاحين الذين كانوا يضطرون إلى الاقتراض بالفائدة ورهن أراضيهم مقابل ذلك، وعندما يعجزون عن الدفع، تباع الأراضي ويتلقفها اليهود وسماسرتهم الكثيرون[٥٦٦].

وعلى سبيل المثال: نجد أن كلاً من: انطون التيّان وسليم كسّار وهما من سماسرة الأراضي اشتريا أراضي «مستعمرة بتاح تكفا» من أهالي قرية «ملبس» من قضاء يافا بعدما عجز هؤلاء عن دفع الضرائب للدولة عام 1292 هـ -1875م. ثم باعا هذه الأراضي لليهود[٥٦٧].

وبصورة عامة فقد هاجر إلى فلسطين في أيام الإمبراطور غليوم الأول[٥٦٨] (*Wilham I*) ما بين 20000 إلى 30000 يهودي أقاموا عدة مستعمرات منها:

- ريشون لزيون: الأوَّلون إلى صهيوني.
- نسّ-زيونا: صهيون الجديدة.

(*564*) قرية صرفند الخراب: تقع بعد غربي الرملة، جنوب غرب صرفند العمار. (***www.howiyya.com***).

(*565*) أبو بكر، المرجع السابق، ص607 نقلاً عن سجلات يافا.

(*566*) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) (1275-1368هـ=1858-1948م)، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت-لبنان، 2009، ص104. (تضمنت الصفحة وثيقة عثمانية تبين كيف اضطر الفلاحون في القدس إلى بيع أراضيهم بسبب الرسوم الباهظة والضرائب).

(*567*) أبو بكر، المرجع السابق ص605. عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان في فلسطين، عمان 1986 ص43.

(*568*) غليوم الأول (***Wilham I***): ملك بروسيا (1861-1888) وإمبراطور ألمانيا للوحدة عام 1871 حتى 1888. (***encylopedia ،www.arab-ency.com ،www.ar.wikipedia.org***).

- زخرون يقعف: زمّارين.

- جديراه: ومعناها القطرة[٥٦٩].

وحتى عام 1300 هـ -1882م كان عدد اليهود في فلسطين 24000 نسمة ثم قفز هذا العدد إلى 47000 نسمة عام1308 هـ -1890م.

وفي عام 1267 هـ -1850م أقام «شمارها يرون» مستعمرة شمالي جوداسا.

وفي عام 1308 هـ -1890م أقام المستوطنان: «رهفوت» و«خضيرة» مستعمرتين شمال جوداسا.

وفي عام 1314 هـ -1896م أقامت «جمعية محبي صهيون» الألمانية جنوب جوداسا مستعمرة «بيرنيفيا».

وعند انعقاد مؤتمر بازل 1316 هـ -1897م: كان ثمة 18 مستعمرة صهيونية في فلسطين يقيم فيها أكثر من خمسين ألف يهودي[٥٧٠].

ج- الهجرات اليهودية

أ- دور الألمان في الاستيطان اليهودي:

كان من بين الألمان فئات متعاطفة جداً مع اليهود ومع أمانيهم القومية في الإقامة في فلسطين وإقامة وطن قومي لهم فيها، وكما بينا فهؤلاء كانت أعمالهم فردية غير مدعومة بشكل علني من الحكومة، وربما كانت الحكومة مستاءة منها لما تسببه من مشكلات مع الحكومة العثمانية.

من ذلك أنه في شهر شباط 1892م-1310 هـ كُشف القناع عن محاولة صهيونيَّة للشروع في وضع الأساس لدولة يهودية في الأراضي المقدسة، وذلك عندما أقدم يهودي ألماني يدعى «فريدمان» (*Friedman*) على شراء باخرة كبيرة، حشد فيها عدداً من الخبراء في الكيمياء، والمهندسين والجغرافيين، ومعهم ثلاثون أسرة يهودية، وجميعهم مسلّحون ومعهم الذخيرة والمدافع، ونزلوا على الساحل الشرقي المواجه لشرم الشيخ عند المويلح. ثم احتل فريدمان مدينة «مدين» وجعلها عاصمة لدولة إسرائيل التي أقامها ثم نصب الغزاة خيامهم وشرعوا في إخضاع مشايخ العرب المجاورين بالإغراء والتخويف، وأعلنوا أنهم مأذونون في حكم هذه المنطقة من الحكومة المصرية والألمانية

(*569*) وليم فهمي، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة 1969-القاهرة ص41..

(*570*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص96.

والإنكليزية. وفي يوم التاسع من شباط، كشفت جريدة المؤيد القاهرية النقاب عن هذا الحادث، وتابعتها الأهرام بعد يومين. وقد بادر حاكم الحجاز إلى إرسال قوة عسكرية لاحتلال قلعة المويلح[٥٧١] وإجلاء اليهود، لكن فريدمان تصدى لهذه القوة وهددها بالحرب، فانسحبت[٥٧٢].

ولذلك بادرت مصر إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة ضابط إنكليزي، فقامت أزمة مع الدولة العثمانية التي اعتبرت العقبة وما حولها من أملاكها وليست لمصر.

ولما كان الخديوي مستاءً من الاحتلال البريطاني لمصر، فقد قرّر عدم مواجهة السلطان عبد الحميد الثاني، واستجاب لمطالبه، فلم يسع «لورد كرومر» (***Lord Kromar***) حاكم مصر الفعلي إلا التسليم للأمر الواقع، ولاسيما بعدما انتشرت أخبار هذه الحوادث في العالم كله.

وصدر يوم 16 شباط 1892 قرار وزاري بالتخلّي عن مدينة العقبة وما حولها جنوباً من شبه جزيرة العرب إلى الدولة العثمانية.

ويقول أحمد حسين: «ومن العجيب أن جميع كتب التاريخ المصري أغفلت حادثة «فريدمان» واحتلاله «مدين»[٥٧٣] واتخاذها عاصمة لما سمّاه «دولة إسرائيل»».

وهذه فيما نعلم أقدم محاولة فعلية لإقامة دولة إسرائيل في العصر الحديث[٥٧٤].

ولكن لماذا اخفي ذكر هذه الحادثه في كتب التاريخ المصري ؟؟هل ياترى كان ذلك استخفافاً من قبل المؤرخين المصريين لهذه الحادثة.. أوأنه اريد ؟آن يختفي ذكر هذه الحادثة حتى لاينتبه العرب إلى حقيقة المشروع الصهيوني القادم. المدعوم من قبل القوى الاستعمارية وربما بتعاون مع العثمانين، أو أقلها أهمال مقصود من قبل العثمانين. وعدم الاكتراث والأستخفاف بمخاطر هكذا مشروع على منطقتنا ....

(*571*) قلعة المويلح: تشتهر المويلح بقلعتها المشهورة التي كانت عن برج شيده الشريف محمد أبو سرور في عهد المماليك، وبنيت على شكلها الحالي في عهد السلطان سليمان القانوني (968هـ). ولقد كان غاية بناءها تأمين الحجاج وخدمتهم حيث أن المويلح تقع على طريق الحجاج المصريين، وكانت تتبع ولاية مصر. (محمود بن ضاري القتامي، شمال الحجاز، دار العصر الحديث، الرياض. ***www.almowaileh.com***).

(*572*) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، القاهرة ج3، ص1152.

(*573*) مدين: تقع بالقرب من مدينة البدع التابعة لمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية، قريباً من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*574*) احمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، المرجع السابق، 3/ 1153.

3- اليهود والألمان والسُلطانُ

أ-الألمان واليهود:

في وثائق دمشق الشرعية نقرأ مايلي:

«استأجر المسيو فرانك بن يعقوب» من تبعيَّة ألمانيا من الشيخ «محمد سعيد السيوطي»، الناظر على أوقاف الجذماء بدمشق وذلك:

1- جميع أرض قرية «جلين»[575] الكائنة في الجيدور في لواء حوران، من أعمال دمشق الشام.

2- وجميع أرض قرية كوكب[576] القبلية الملاصقة للقرية الأولى ويحدّ الأرض من جهة:

- جنوباً : وادي اليرموك.
- وشرقاً : رجم الحجارة.
- وشمالاً : الطريق الآخذ إلى المزيريب.
- وغرباً : وادي الجليلات.

3- وجميع الثلثين من مزرعة «المزيرعة»[577].

- لمدة 15 سنة.
- أجرة السنة 750 غرشاً.

1312 هـ -1895م[578].

وهذه الوثيقة تدل على دور اليهود الألمان المهم في إقامة المستعمرات اليهودية بشتى السبل.

وبعد حوالي عشر سنين نقرأ في وثيقة أخرى:

- استأجر هارون آفندي حيطوب، مدير مكتب «الأليانس» (*Allianz*) الإسرائيلي في دمشق.

---

(575) قرية جلين: قرية في حوران تتبع ناحية مزيريب، محافظة درعا.

(576) قرية كوكب: بالقرب من دمشق، وهي مكان رؤيا القديس بولس المذكور في الكتب المقدسة، وفيها دير القديس (ماريولس) (***www.ar.wikipedia.org***).

(577) المزيرعة: قرية فلسطينية تقع إلى الشمال من مدينة اللد وإلى الجنوب من مجدل يابا (مجدل الصادق) شمال شرقي مدينة الرملة، جنوب شرق يافا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(578) مركز الوثائق التاريخية بدمشق-سجل 1039 الوثيقة 21 والوثيقة طويلة ومفصَّلة تماماً.

من «علي بن صالح العجلوني»، الناظر على وقف الجذماء بدمشق.

1- جميع أراضي قرية كوكب التابعة لقضاء القنيطرة[٥٧٩].

2- جميع أراضي قرية كوكب القبلية.

3- وجميع أراضي قرية جلين.

4- والثلثين من جميع أراضي المزرعة الملاصقة للقريتين لمدة 15 عاماً.

5- أجرة السنة 800 غرش[٥٨٠].

إن هذه الطرق المشبوهة التي اتبعها كبار الملاك اليهود في الاستحواذ على الأراضي في بلاد الشام لا نعلم مدى حقيقة الموقف الدولة العثمانية منها، هل كانت الدولة غير مدركة لمخاطر هذه الطرق المشبوهة في شراء الأراضي وعواقبها الوخيمة فيما بعد على أهالي المنطقة أصحاب الأرض الحقيقيين، أو أن هذه العملية ناتجة عن فساد إداري عرف وانتشر في المراحل الأخيرة من ضعف الدولة العثمانية.

ب- السلطان واليهود:

كانت علاقة الإمبراطور غليوم الثاني بالسلطان عبد الحميد الثاني وموقف السلطان عبد الحميد من الإمبراطور واليهود وموقف هؤلاء من الإمبراطور غليوم الثاني والسلطان عبد الحميد الثاني، مسألة غاية في التعقيد:

- فاليهود يريدون الإقامة في فلسطين بعيداً عن السيطرة العثمانية.
- والعثمانيون كانوا يتوجّسون خيفة من خطر اليهود، أو أي جماعات أخرى نريد الإقامة في دولتهم بعد تجربتهم المريرة مع الأرمن.
- والإمبراطور غليوم وحكومته يريدون خدمة اليهود بما لا يتعارض مع حقوق السلطنة، وهذا ما أدّى إلى توجُّههم نحو بريطانيا، والعمل على إسقاط السلطان، وإنهاء الدَّولة العثمانيَّة.

وربما أدرك السلاطين العثمانيون خطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين، منذ حوادث الستين: 1277 هـ -1860م، عندما تدخلت آوروبا وفي مقدمتها فرنسا في شؤون الدولة بحجة حماية الأقليات، وأدرك السلاطين أن اليهود، يمكن أن يشكلوا دولة ضمن دولة، أو

---

(579) القنيطرة: محافظة سورية كانت تتبع لقضاء درعا، وتقع على ملتقى الطرق المؤدية إلى دمشق - لبنان - فلسطين - درعا. (*www.ar.wikipedia.org*).

(580) مركز الوثائق التاريخية بدمشق السجل 1212 وثيقة 79، تاريخ 1321هـ-1904م.

على الأقل يمكن أن يجدوا من يحميهم في أوروبا إذا سمحت لهم الدولة العثمانية بالاستقرار في فلسطين.

ولذلك أصدر السلطان عبد العزيز في 18 رجب سنة 1287هـ - تشرين الأوّل سنة 1870 فرماناً يجعل أراضي فلسطين أرضاً أميرية، يعني أن تصبح ملكاً للدولة والسلطان، لا يجوز للأفراد التصرف بها(٥٨١). وكان هذا المرسوم يشمل 80٪ من أراضي فلسطين. أما الـ20٪ الباقية فكانت ملكاً للأفراد أو أوقافاً للسكان على اختلاف مذاهبهم. ثم أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في سنة 1308هـ-1891 إرادة سنيّة بشراء أكبر قدر من أراضي فلسطين غير الأميرية من حسابه الخاص، وجعلها ملكاً خاصاً له، لمنع الراغبين في بيع أراضيهم من بيعها إلى اليهود وعملائهم.

وفي العام نفسه رفض السُلطان عبد الحميد قرار الصدارة العظمى بمنح الجنسيّة العثمانية لـ400 يهودي في صفد و40 يهودياً في يافا قدموا سوّاحاً إلى فلسطين، وأصدر تفسيراً لهذا الرفض جاء فيه: أن اليهُود ينوون إقامة دولة لهم في فلسطين عاصمتها القدس. وأن السلطنة ليست أراضٍ خالية حتى يملأها اليهود. وهي ليست مسؤولة عن مصير اليهود الذين طردتهم أوروبا من بلادهم فيها. وأن الأرمن انقلبوا على الدولة بعدما ساعدتهم وآوتهم، وسيفعل اليهود مثلهم. ثم أمر بعدم بيع شبر واحد من الأرض لليهُود في فلسطين وفي الدولة كلها(٥٨٢).

وقد بدأت مقاومة الدولة العثمانية للهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ الهجرات الكبيرة بين 1312/1299 هـ -1894/1881م، وبلغت هذه التدابير أشدها سنة 1305 هـ - 1887م عندما أصدر متصرف القدس تعميماً إلى القناصل الأجانب للتعاون معه من أجل تنفيذ الفرمان القاضي بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين: أو الإقامة فيها أكثر من شهر واحد بالنسبة للزوّار.

ومع بداية قدوم الموجة الثانية من الهجرة 1313/1309 هـ -1895/1891 صدرت الأوامر في تشرين الثاني 1891 بمنع هجرة اليهود نهائياً. ومع ذلك دخل الآلاف من اليهود

---

(581) احمد كوندز، الدولة العثمانية المجهولة السؤال 167 وانظر فيما يلي.

(582) أحمد كوندز وسعيد آوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة والكتاب على شكل 303 سؤالاً وجواباً عن الدولة العثمانية وهو غير مرقّم، والمعلومات التي أوردناها من السؤال رقم 167 عن موقف السلطان عبد الحميد من اليهود وفلسطين. وعمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني، مرجع سابق، ص134، وفيها صورة عن قرار السلطان عبد الحميد بمنع اليهود من الاستيطان في فلسطين.

بطرق ملتوية، وأقاموا بصورة دائمة بفضل عدم دقة القوانين العثمانية، ونشاط القناصل الذين كانوا في مجملهم سماسرة لليهود(٥٨٣).

وتكررت أوامر المنع للمرة الثالثة في آب 1898-1316م، إلا إذا ضمنت القنصليات خروجهم بعد شهر، ثم مددت المهلة ثلاثة شهور.

وعمدت الدولة لتطبيق هذا الإجراء إلى حجز جوازات اليهود الزائرين، وإعطائهم بطاقات حمراء ينتقلون بموجبها، وفيها تاريخ دخولهم، وبقي هذا الأمر سارياً حتى سقوط السلطان عبد الحميد الثاني(٥٨٤).

ج- الإمبراطور الألماني غليوم الثاني واليهود:

وإزاء ذلك نجد أن الإمبراطور غليوم الثاني كان مدركاً تماماً لحساسية الموقف عند اليهود وعند السلطان، وبناء على ذلك كان يتصرَّف بمنتهى الحذر ويحاول باستمرار تطمين السلطان بالنسبة للهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وكانت سياسة الإمبراطور تقوم على المحافظة على كيان الدولة العثمانية أمام الدول الأوروبية الراغبة في اقتسامها علناً مقابل مكتسبات بسيطة لليهود في فلسطين لا تضرُ الدولة ولا السلطان.

وكان هدف اليهود المعلن، والذي ذكره هرتزل بصراحة فيما بعد يتلَّخص بمنح اليهود نوعاً من الحكم الذاتي في فلسطين مقابل دعم الصهيونية للدولة العثمانية مالياً وإعلامياً في أوروبا كلها.

وكان الإمبراطور الألماني مهتماً بهذا الأمر، لأنه كانت لألمانيا ديون طائلة على الدولة العثمانية ومع ذلك بناءً على رأي وزير الخارجية الألماني: بولوف (*Bolof*) والسفير الألماني في الآستانة مارشال (*Marshall*): قررت ألمانيا رسمياً رفض مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين على مبدأ الحكم الذاتي، ووضع شرطاً ثابتاً تجاه الاستيطان وهو مراعاة سيادة السلطان المطلقة على فلسطين، وهذا يعني أن يعيش اليهود في فلسطين كالنصارى، مواطنين عثمانيين وهو ما رفضه اليهود تماماً.

وعندما أصبح بولوف (*Bolof*) رئيساً للوزراء سنة 1318 هـ -1900م ازداد تصلب

(583) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس، المرجع السابق، ص103، وتتضمن وثيقة توضح وضع العراقيل أمام اليهود لمنعهم من الاستيطان في فلسطين.

(584) علي محافظة، العلاقات الألمانية - الفلسطينية، المرجع السابق، ص100.

الحكومة الألمانية، لكن ذلك لم يمنع ألمانيا من تقديم دعما للمؤسّسات اليهودية في فلسطين، لاعتبارات دينية وثقافية وسياسية[٥٨٥]. وكان الإمبراطور الألماني يعرف تماماً «الخطوط الحمراء» في السياسة العثمانية، ولم يحاول تخطيها إطلاقاً، أو المساومة عليها. ولم يُعرف عن الإمبراطور إطلاقاً أنه حاول الغدر بالسلطان أو الضغط عليه، كما كانت تفعل أوروبا، وكان يقول إنه يَتبع في ذلك سياسة جدّه الإمبراطور فردريك غليوم الرابع[٥٨٦] (*Friedrich Wilhelm IV*)، الذي كان يقيم علاقات إنسانية مع الدولة العثمانية بعيدة عن الاستخفاف بالسلطان والدولة أو التعالي أو فرض أي نوع من الهيمنة على الدولة العثمانية[٥٨٧].

4- هرتزل ومؤتمر بال:

أ- هرتزل من خلال يومياته: *T.Herzel*

ولد في بودابست[٥٨٨] (*Budapest*) سنة 1277 هـ -1860م. - في سنة 1302 هـ - 1884م حصل على الدكتوراه في الحقوق وعمل بالكتابة الأدبية والسياسية والتدريس في فيّنا[٥٨٩] (*Vienna*). - اقترن سنة 1307 هـ -1889م بـ«يوليا ناشاوار» (*Yulia Nashawar*) وهي شابة يهودية أنجب منها بنتيه: باولينا وترودا، وابنه هانس، رغم أنه لم يكن على وفاق مع زوجته لعدم قناعتها بأفكاره، أقام في باريس بين 1308 هـ -1890م و1313 هـ - 1895م. وحتى سنة 1312 هـ -1894م لم يكن مقتنعاً بالصهيونية وبحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم. لكن قضية الضابط اليهودي «دريفوس»[٥٩٠] التي شغلت الفرنسيين

(*585*) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص67.

(*586*) فردريك غليوم الرابع (*Friedrich Wilhelm IV*): (1795-1861) حكم بروسيا بين عامي (1840-1861). (*www.ar.wikipedia.org*).

(*587*) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص1349.

(*588*) بودابست (***Budapest***): عاصمة المجر وأكبر مدنها، تقع على نهر الدانوب. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*589*) فيّنا (بالألمانية ***Wien***): عاصمة النمسا اشتهرت بكونها مركزاً عالمياً للتعليم والأدب والموسيقى والعلوم. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*590*) قضية دريفوس هي صراع اجتماعي وسياسي حدثت في نهاية القرن التاسع عشر تحت الجمهورية الفرنسية الثالثة، اتهم بالخيانة في هذه القضية النقيب ألفريد دريفوس وهو فرنسي الجنسية يهودي الديانة، وقد هزت هذه القضية المجتمع الفرنسي خلال اثني عشر عام (1894-1906) وانقسم الفرنسيون بين مؤيد لدريفوس (***Les dreyfus***) ومعارض له (***Les antidreyfus***)، لقد اتهم دريفوس في 1894 بأنه أرسل ملفات فرنسية سرية لألمانيا

في ذلك العام وما رافقها من هجوم قويّ على اليهود والساميَّة، جعلته يؤمن بأنه لابد لليهود من وطن يجمعهم لأنهم كانوا برأيه شعباً لا أرض له، ولا كرامة في وطنه[٥٩١]. ولقد قال هرتزل: في روسيا تجبى الضرائب مضاعفة من اليهود. وفي رومانيا يقتَّلون. وفي ألمانيا كانوا يسحلون ويعذبون بالدولاب والنار. وفي النمسا حاربهم، «اللا ساميون». وفي باريس نفاهم المجتمع الراقي. وانطلقت في برلين صرخة مدويَّة. وليرفع اليهود الخيام ويرسلوا....»[٥٩٢].

وعاد إلى فيينا (*Vienna*) وهو يرى أوروبا كلها تثور ضد الساميَّة، وعكف على وضع كتابه «الدولة اليهودية» الذي صدر في شباط 1896م-1314م، وأدى إلى «إيقاظ» الشعب اليهودي في العالم.

- وفي بال[٥٩٣]: أو بازل في سويسرا كان المؤتمر الصهيوني الأول في شهر آب 1315 هـ -1897م، وفيه «ولدت الدولة اليهودية على حد قول هرتزل. وعقدت بعده خمسة مؤتمرات سنوية. ومات تيودور هرتزل في 3 تموز عام 1904م-1322م عن 44 عاماً ودُفن في ڤينا. وفي سنة 1369 هـ -1949م نقل إلى «جبل هرتزل»[٥٩٤] في ضواحي القدس[٥٩٥].

ب- هرتزل وألمانيا:

كان هرتزل ألماني الثقافة والهوى، وكانت ثقته بألمانيا والإمبراطور غليوم الثاني مطلقة ولذلك كانت ألمانيا هي أول دولة أوروبية اختارها هرتزل لتحقيق أهدافه.

(ومعروف كره الفرنسيين للألمان في تلك الفترة بسبب قضية الألراس واللورين)، وبالإضافة إلى ذلك فإن القضاء والمجتمع الفرنسي يعادي السامية (ولقد كشفت هذه القضية شدة الصراع بين الساميين واللاساميين). (*www.ar.wikipedia.org*).

(*591*) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، منظمة التحرير. بيروت 1968م، ص8.

(*592*) أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود. الدار العربية للموسوعات، بيروت 2006م، ص125 و295.

(*593*) بازل (***Basel***): بازل بالفرنسية تسمى بال، والإيطالية بازيليا. مدينة سويسرية تقع على نهر الراين في شمال غربي البلاد في كانتون مدينة بازل. الملاصق للحدود الألمانية والفرنسية. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*594*) جبل عين لحارم (جبل هرتزل). جبل يقع غرب مدينة القدس، تم نقل رفات مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل من فيينا إلى أعلى قمة الجبل، ليطلق على الجبل تسمية «جبل هرتزل»، شُيد على الجبل سنة 1951 «مقبرة وطنية إسرائيلية لدفن جثث القادة والجنود اليهود، وتضم رفات (ليفي أشكول، غولدا مائير، إسحاق شامير، إسحاق رابين» بالإضافة إلى رفات جنود يهود. (مجلة دنيا الوطن 2013/8/7، ***www.alwatanvoice.com***).

(*595*) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، دار الجيل، عمان 1987، ص11-15.

واجتمع هرتزل مع «دوّق بادن الكبير»[596] الحاكم الفخري لألمانيا وحاول إقناعه بأن الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية ستكونان أداة طيعةً في أيدي الألمان، وإن تهجير اليهود الألمان إلى فلسطين سيخفف عن ألمانيا موجة العداء للسامية[597]. وفي حزيران 1313 هـ -1895م كتب رسالة إلى بسمارك الذي كان يرى فيه «المحك، وحجر الزاوية» في موضوع اليهود. كما كان يرجو الخير من قيصر ألمانيا غليوم الثاني، لأنه الرجل الوحيد الذي يمكن أن يفهم خطة هرتزل. ولدى لقائه «دوق بادن» سأله: ماذا بخصوص السلطان والسلطنة العثمانية فقال إنه سيدعمها ويحافظ عليها، إذا تخلّى له السلطان عن قطعة أرض لا قيمة لها عنده[598].

ج- هرتزل والدولة اليهودية:

- نظام الحكم:

عرض هرتزل في كتاب الدولة اليهودية (*Judisde Staat*) أفكاراً دقيقة لنظام الحكم الأمثل للدولة اليهودية المنتظرة فقال: إن الحكم ديموقراطي الفردي، والجمهورية الأستقراطية تبدوان لي المؤسستين السياسيتين المرغوبتين. وإن الديموقراطية هي الفضيلة كما قال مونتسكيو. ثم يقول: «إن التصويت العام هو مخالف للعقل، وإن الجماهير هي أسوأ من البرلمانات، فالجماهير مستعدة لأن تقبل بسهولة كل المعتقدات الزائفة، وتدع نفسها بسرور تحت سيطرة الصخّابين والعجّاجين، وأمام شعب يعقد جلسة عمومية لا يمكن بحث للسياسة الخارجية ولا الداخلية. وأنا أفكر بقيام جمهورية أرستقراطية... وإن الجمعية اليهودية ستحطّم كل معارضة...»[599].

- اللغة:

كل شخص يحتفظ لنفسه باللغة العبرانية الأم، ويتكلم مع الآخرين باللغة التي يفهمونها، وإن ما يشدّنا إلى بعضنا هو دين آبائنا.

---

(596) هو فردريك الأول وهو أكبر الأمراء لألمانيا سناً، قام بتتويج الإمبراطور ولّيم الأول سنة 1871م. وكان صديقاً حميماً لهرتزل، توفي سنة 1907م. أنيس الصايغ، يوميات هرتزل، بيروت 1968م، ص519.

(597) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص143.

(598) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص24.

(599) هرتزل، الدولة اليهودية ص72، دمشق، 1970.

- الجيش والدين:

إن الجيش وأرباب الدين سيبقون مُعززين في أماكنهم، ولكن ليس لهم التدخل في شؤون الدولة، لأن حشر أنفسهم فيها يستدعي صعوبات داخلية وخارجيَّة.

إنَّ كل فردٍ حرٌ في معتقده ودينه، وإذا حدث أن بعض أتباع الديانات الأخرى كانوا يقيمون معنا، فإنا سنمنحهم حماية قانونية، ومساواة في الحقوق[٦٠٠].

- الدولة والجيش:

إننا نتصوَّر الدولة اليهودية دولة حيادية، ويكفيها تجهيز جيش مؤلف من جنود يحترفون القتال، مجهَّزين بأسلحة حديثةٍ من أجل ضمان الأمن الداخلي والخارجي للبلاد.

-دور الحاخامات القيادي:

ويقول في «الدولة اليهودية»:

- سيكون لكل مجموعةٍ من اليهود حاخام، وهو العالم الديني وستلتفّ المجموعة من حوله، وسيقول الحاخامات ما يتوجَّب عليهم قوله.
- إن تعليمات «الجمعيَّة اليهودية» و«الشركة اليهودية» سوف تعلن بصورة نظامية على علماء الدين وسوف ينشرونها للناس، ويقومون بشرحها، وإن إسرائيل ستصلّي من أجلنا ومن أجلها هي نفسها. وستقام في البلاد الجديدة «الجمعيات الخيرية». وسيرأس الحاخامات الجماعات الصغيرة، ويناقشون معها كل المسائل[٦٠١].

- فوائد قيام الدولة اليهودية:

ويوضح هرتزل لسنة 1313 هـ -1895م، أفكاره عن الدولة اليهودية فيقول: نحن نريد أرضاً نكون سادتها في أي مكان في المعمورة، وليس في ذلك ما يدعو للسخرية أو الغرابة. وإن البلاد التي تظهر فيها «اللاسامية» سترحب بهجرتنا منها. ولابد من إيجاد:

---

(600) هذا يعني أن ما يتشدَّق به حكام إسرائيل اليوم، من إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، يناقض تعليمات هرتزل، نبي اليهود الحديث. كما يناقضها في البند الآخر لأن إسرائيل لم تكن دولة حيادية في يوم من الأيام وإنما هي رأس حربة ينتقل من دولة لأخرى حسب الظروف.

(601) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية ص58.

- جمعية يهودية تخطط وتنظّم وتقرر.

- وشركة يهودية تنفذه ما تقرره الجمعية.

ويمكن أن يهاجر إلى الدولة المرجوّة، فقراء اليهود لتمهيد الأرض، ثم يعقبهم متوسط الحال ثم الأغنياء. ومن أراد البقاء حيث هو فليبق. وستساعد الدولة التي تمنحنا الأرض وننشئ فيها الطرق وسينتفع الجميع بنا(٦٠٢). وتبقى فلسطين وطننا الذي لا يُنسى.

- إن اسمها وحده يبعث صرخة تجمُّع لشعبنا لا يمكن مقاومتها، أما بالنسبة للأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين فستكون لها الحصانة التامة، وستخرج رسمياً من دولتنا يحرسها حرس الشرف. وهكذا سنعود بعد 18 قرناً إلى «أرض أجدادنا»(٦٠٣).

وقام هرتزل على الفور بإصدار كتاب «الدولة اليهودية» 1314 هـ -1896م ثم أصدر جريدة العالم (*Die Welt*) سنة 1315 هـ -1897م ثم أعدّ لمؤتمر بال (***Basel***).

د- مؤتمر بال ومولد الدولة اليهودية 1315 هـ -1897م:

وتكتب أحياناً بازل، وهي مدينة سويسرية معروفة عقد فيها بين 28-31 آب 1897 أول مؤتمر صهيوني عام في التاريخ، ويمكنُ أن يسمَّى هذا المؤتمر «مؤتمر هرتزل» لأنَّه كان وراء انعقاده ونجاحه واستمراره.

- فلقد كانت المشاركة فيه كبيرة، إذ حضره أكثر من مئتي عضو من ست عشرة دولة، ومئات المراقبين والصحفيين.

وبعد ثلاثة أيام من المناقشات العلنية صدر عن المؤتمر القرار الحاسم التالي:

«تتطلع الصهيونية إلى إقامة وطن تضمنه القوانين الدولية، لشعب إسرائيل في أرض إسرائيل».

وقد تجنب المؤتمر صراحة استخدام كلمة «دولة» لعدم إثارة الدولة العثمانية وألمانيا، على أمل الحصول على أرض فلسطين من السلطان.

كما أسَّس المؤتمر «المنظمة الصهيونية العالميَّة» التي تديرها اللجنة التنفيذية المصغرة بزعامة هرتزل، وأصبح هذا الجهاز بمثابة حكومة موحَّدة لجميع يهود العالم(٦٠٤).

(*602*) تيودور هرتزل، المصدر نفسه، ص24.

(*603*) المصدر نفسه، ص35.

(*604*) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية»، آباء الحركة الصهيونية. ص20.

ولسنا بصدد التوسّع في ذكر القرارات التفصيلية للمؤتمر، لأنها معروفة، ولكن من الضروري الحديث عن أثره في إقامة «دولة إسرائيل»، ودور أعضائه الألمان الكثيرين في ذلك[1].

وقد علق هرتزل عقب صدور القرارات بالقول: «لو طلب مني تلخيص مؤتمر بازل بجملة واحدة لكانت هي: **في بازل أسست الدولة اليهودية** ولو قلت ذلك بصوت عالٍ لضحك مني الجميع، ولكن ربما بعد خمس سنين، أو خمسين سنة بالتأكيد ستقوم الدولة بإرادة شعبنا.

لقد شكل هذا المؤتمر اليهودي الذي انتخبني رئيساً، برنامج الصهيونية في تأسيس وطن محميٍّ قانونياً وعلناً لليهود الذين لا يريدون الاندماج في بلادهم الحاضرة....»[٦٠٥].

لقد أرضى هذا المؤتمر بقراراته جميع اليهود الشرقيين والغربيين. وقد ارتاح اليهود الغربيون إلى التزام المؤتمر بالقوانين الدولية. وسعد اليهود الشرقيون باحتمال عودتهم إلى فلسطين وأرضت أحلامهم الدينية والقوميّة.

وقد تجنب المؤتمر كلمة دولة، كما بيّنا لعدم إثارة السلطان أو حكومة الأرجنتين التي كانت الدولة المرغوبة بعد فلسطين.

ولكن، يلاحظ أن القرارات تجنّبت تماماً ذكر عبارة العرب أو المسلمين أو العثمانيين في فلسطين، وهذا ما يؤكد الطابع العدائي للعرب منذ البداية..[٦٠٦].

وبصورة عامّة: أرسى المؤتمر قواعد الحركة الصهيونية. وتم تشكيل لجنة عمل من 23 عضواً لمعالجة الأمور المستجدّة التي تقع خارج أوقات المؤتمر. وقد اختصرت هذه اللجنة إلى لجنة خماسيّة يرأسها هرتزل، ونائبه: ماكس نورداو[٦٠٧] (*Max Nordau*). وفي المؤتمر الثاني 1898م-1316 هـ تأسّس «البنك الاستعماري اليهودي» تحت اسم: «البنك البريطاني الفلسطيني» وهو الذي صار البنك الوطني لإسرائيل[٦٠٨].

ومن أطرف وأهم ما يقال عن هذا المؤتمر قبل انعقاده أنه عندما بلغت متصرّف القدس في أيّار سنة 1315 هـ -1897م أنباء عن مؤتمر يهودي سينعقد في ميونيخ[٦٠٩]

(*605*) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص89 و90.

(*606*) الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص345.

(*607*) ماكس سيمون نورداو (*Max Simon Nordau*): ولد سنة 1843 وتوفي سنة 1923، وهو من قادة الحركة الصهيونية ومن مؤسسيها مع ثيودور هرتزل. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*608*) هرتزل، الدولة اليهودية ص9. والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص346.

(*609*) ميونيخ (بالألمانية *München* مينشن): هي ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا تقع جنوب ألمانيا على نهر إيسار قريباً من جبال الألب. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*München*) في خريف ذلك العام، قام المتصرف باستدعاء القنصل الألماني العام في القدس وسأله عن حقيقة الأمر فقال: «إن دعوة هرتزل دعوة خيالية بعيدة عن الواقع».

فردّ عليه المتصرف بالقول: «أخشى من خطورة هذا المؤتمر في فلسطين، وخطورة الهجرة اليهودية إليها ...»[٦١٠].

5- لقاءات هرتزل بالسلطان والإمبراطور:

أ- موقف الإمبراطور غليوم الثاني:

كتب الهر «فون تاتنباغ» (*Herr Von Tattenbag*) تقريراً عن مؤتمر بازل الأول مفاده أن انتشار الوعي القومي بين اليهُود الألمان قد يؤدي إلى حرب دينية ألمانية داخلية. وقد قرأه الإمبراطور غليوم الثاني وعلّق عليه: «دع اليهود يذهبون إلى فلسطين، وكلّما أسرعوا في الهجرة كان أفضل، ولن أضع العراقيل في طريقهم...».

وبعد مقابلة هرتزل للقيصر في القدس سئل عن هذا اللقاء فقال: «لم يقل نعم، ولا قال لا ...».أما القيصر، فقد علم من وزير الخارجية العثمانية أحمد توفيق[٦١١]، الذي رافقه في زيارته للقدس أنه لا علاقة للسلطان بالصهيونية، وليست للدولة أية اهتمامات بإنشاء دولة يهودية في فلسطين...

وكان هذا كافياً لأن يفقد القيصر بقية آماله في مساعدة اليهود[٦١٢].

وأصبحت سياسة الإمبراطور حيال اليهود تتلخص في بندين:

1- تجاهل الدولة القومية الصهيونية في فلسطين تماماً.

2- الاكتفاء بدعم المؤسسات اليهودية الألمانية فيها، بما يُساعد على نشر النفوذ الألماني في الشرق[٦١٣].

وكان هرتزل يرى بحق أن الإمبراطور متعاطف مع السلطان، وليس مع اليهود.

وكان الإمبراطور يقول: «إن الفكرة الصهيونية كانت تستهويني دائماً وتثير عطفي».

وقال السفير الألماني في فيينا: «إن تعاطف الإمبراطور مع الصهيونية من وجهة

(*610*) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص143.

(*611*) أحمد توفيق باشا (1845-1936): كان آخر من شغل منصب الصدر الأعظم سنة 1922، ولد في استنبول وتوفي فيها، شغل منصب الصدر الأعظم ثلاث مرات، كما شغل منصب وزير خارجية الدولة العثمانية لمدة أربعة عشر عاماً خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني ومحمد السادس. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*612*) محافظة، المرجع السابق، ص144.

(*613*) محافظة، المرجع نفسه، ص155.

نظره، يعني أن تقوم الصهيونية بإصلاح أحوال الدولة العثمانية، وأن ينشئ اليهود الألمان في فلسطين مؤسسات صناعية وزراعية تساهم في تقدم الدولة العثمانية عند تعميمها عليها وهو مستعد للتدخل لدى السلطان لحماية اليهود ومؤسّساتهم في فلسطين ضمن السيادة العثمانية»[٦١٤].

وكان الإمبراطور يخشى من السياسة الصهيونية وما ستلحقه من أضرار على صديقه السلطان، وهو ما عبَّر عنه بوضوح وزير الخارجية الألمانية الذي قال: «إن الصهيونية كما هي لا تثير اهتمام ألمانيا، وإن أي خطوات فعَّالة من جانب الصهيونية قد تثير غضب السلطان العثماني...».

وعندما التقى الإمبراطور بهرتزل في الآستانة سنة 1316 هـ -1898م، أهدى للإمبراطور ألبوماً فيه صور المستعمرات اليهودية في فلسطين، وحقق أهدافه بدقة بالغة وباختصار: «إيجاد وطن معترف به ومضمون للشعب اليهودي في فلسطين».

فردَّ الإمبراطور: «إن جميع الجهود التي تهدف إلى النهوض بالزراعة في فلسطين لأجل رخاء الدولة العثمانية، يمكنها أن تحصل على اهتمامي وعطفي مع مراعاةٍ كاملة واحترامٍ لسيادة السلطان..»[٦١٥].

وكان اللقاء يوم 18 تشرين الأول سنة 1316 هـ -1898م وقال هرتزل بعد اللقاء: «لم يكن عند الإمبراطور شك في أننا سننجح في استعمار فلسطين. ما دامت لنا هذه الموارد الإنسانية والمالية، وقد طلب مني مسبقاً صورة عن الخطاب الذي سألقيه أمامه في القدس، ثم طلب مني كلمات أقولها للسلطان وهي: «نريد شركةً قانونية في فلسطين تحت الحماية الألمانية»، وهو هنا لم يستعمل عبارة وطن ولا دولة، لأنه كان ما يزال واثقاً بمساعدة الإمبراطور لشعبه...»[٦١٦].

ب- هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني:

قال «نيولينسكي»[٦١٧] (*Neulenski*) لهرتزل: إن السلطان قال لي: «إذا كان هرتزل

(*614*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية واليهود، ص138.

(*615*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص281.

(*616*) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص15.

(*617*) نيولينسكي (***Neulenski***): رئيس تحرير صحيفة (بريد الشرق)، والصديق المقرب لهرتزل وكذلك تربطة علاقة مودة مع السلطان عبد الحميد الثاني، وهذا ما دفع بهرتزل أن يجعل منه مرافقاً وواسطة بينه وبين السلطان أثناء الزيارة المشهورة (1896). (***www.alnabanews.com***).

صديقك فانصحه ألا يسير في هذا الطريق، ولينظر حتى تقسَّم الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على كل فلسطين بدون مقابل...».

ثم سأل السلطان نيولينسكي: «هل اليهود مصممون على أخذ فلسطين بأي ثمن؟ ألا يمكن أن يعيشوا في بلدٍ آخر؟»

قال نيولينسكي: «فلسطين مهدهم، وإليها يريدون الرجوع». فرد السلطان: «ولكن فلسطين مهد لأديان أخرى كذلك». فقال نيولينسكي: «إذا لم يستطع اليهود أخذ فلسطين فسيذهبون إلى الأرجنتين».

وكان هرتزل قد أعلم نيولينسكي (*Neulenski*) أن يخبر السلطان بأن اليهود سيدفعون 20 مليون ليرة ذهبية، منها مليونان «بدل فلسطين» و18 مليون لتصفية الديون العثمانية لأوروبا[٦١٨].

يقول السلطان في مذكراته سنة 1313 هـ -1895م «لليهود قوّة في أوروبا أكثر من قوتهم في الشرق، ولذلك فإن معظم الدول الأوروبية تحبذ هجرتهم إلى فلسطين للتخلص منهم.

ونحن في الدولة العثمانية، لدينا عدد كاف من اليهُود، فإن أردنا إبقاء العنصر العربي متفوقاً علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين اليهود في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة مقدراتها خلال وقت قصير، وبذلك فإننا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين - العرب - بالموت المحتَّم.

إن هرتزل يحاول مساعدة قومه، وهو ذكي جداً، لكنه نسي أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشكلات، ولن يكتفي الصهاينة بممارسة الزراعة في فلسطين، بل يريدون تشكيل حكومة، وانتخاب ممثلين...

إنني أدرك أطماعهم جيداً، وكما أنني أقدّر في رعايانا من اليهُود خدماتهم لدى الباب العالي، فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين»[٦١٩].

كان هرتزل شديد الحرص على كسب صداقة السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني لقناعته بأن في أيديهما مفتاح الدولة اليهودية في فلسطين.

ولذلك أرسل له من بازل في 13 آب 1315 هـ -1895م عند انعقاد المؤتمر الصهيوني

(*618*) يوميات هرتزل ص33. ونيولنسكي (1841-1899م) كان مسؤولاً عن الإدارة السياسية في السفارة النمساوية في الأستانة، وهو من أصدقاء السلطان.

(*619*) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص35.

الثاني هذه البرقية: «إن الصهيونيين المجتمعين في مؤتمر بازل، يرون أن واجبهم الأول أن يرفعوا تعهُدهم بإخلاصهم وتقديرهم للطف جلالته نحو رعاياه اليهود إلى أعتاب عرش جلالة السلطان.

إن الصهيونيين يرغبون في إغاثة إخوانهم التعساء في أوروبا، وفي الإسهام في عظمة الإمبراطورية العثمانية وازدهارها، وإنهم ليأملون بإخلاص، أن تحظى هذه الرغبات والولاءات بتقدير حكمة الخليفة العظيم وتشجيعه...»[٦٢٠].

ج- لقاء هرتزل بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني:

في يوم 18 أيّار 1901م-1319 هـ ، التقى السلطان عبد الحميد هرتزل في قصر يلدز، وكان اللقاء في مجمله للحديث عن الديون العثمانيّة لأوروبا وطريقة تسديدها، وعن أوضاع اليهود الممتازة في الدولة العثمانيّة، ولم يجر فيها بحث ما له علاقة بالدولة اليهودية.

وعندما كان السلطان يودّع هرتزل في قصر يلدز، همس في أذن رئيس الكتاب تحسين باشا قائلاً: «سوف ترى بعينك أن هذا الرجل سوف يطيح بي، فإن فشل في ذلك فلن يستطيع أحد أن يفعل ذلك»[٦٢١].

أما ماقاله هرتزل عن السلطان عبد الحميد الثاني: «إن عبد الحميد الثاني رجل ضعيف وجبان، لكنه طيب القلب، لا أراه داهية ولا صارماً، بل سجيناً تعيساً ترتكب بطانته الطمّاعة السيئة السمعة باسمه أكبر رجس... وأنا لم أكن أتصور وجود هذه العصابة من اللصوص المرتشين من بوابة القصر حتى باب السلطان. إن عبد الحميد ليس المجرم المتوحش الجالس على العرش، وإنما المجرمون هم الذين يحيطون بالعرش....»[٦٢٢].

وبعد شهر من اللقاء، عرض هرتزل على السلطان دفع 1،5 مليون ليرة ذهبية إذا «لمس اليهود مشاعره الكريمة نحوهم» ثم كتب في تموز 1901-1319 هـ: «إنكم ستتحررون من الدين تماماً عندما تسلمونا فلسطين وأقول لليهود: هذه فلسطين...»[٦٢٣].

---

(620) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص149.

(621) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني، دار مروة-القاهرة 2008 ص527، وهذا الكتاب يكشف اللثام عن تآمر الألمان على السلطان ورعايتهم لجمعية الاتحاد والترقي وإسقاط السلطان.

(622) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص178.

(623) أنيس صايغ، المصدر نفسه، ص188.

وفي يوم 20 كانون الأول 1901م-1319 هـ ، ومن محل إقامته في استانبول وجّه هرتزل رسالة إلى السلطان، كانت خلاصتها:

1- ستكون لجلالتكم فوائد اقتصادية جمّة في إعلام يهود العالم بالمشاعر الكريمة التي يحملها قلبكم الأبوي للشعب اليهودي المضطهد، وقد حانت الفرصة الآن..
2- وإن ألمانيا مستعدة لمساعدتنا في ذلك.
3- وأنا لا أخيّب أمل من يثق بي.
4- ونحن واصلونا إلى هدفنا بإذن الله بمساعدة الدولة الإنجيلية الناهضة - يعني ألمانيا -[٦٢٤].

وكان عرض السلطان الذي قدمه أحمد عزت باشا العابد يتضمن النقاط التالية:

1- إن السلطان سيفتح دولته أمام جميع يهود العالم اللاجئين من أوطانهم.
2- على هؤلاء اليهود أن يصبحوا رعايا عثمانيين ويتخلوا عن جنسياتهم ويلتزموا بالخدمة العسكرية وسائر الواجبات الأخرى حتى يصبحوا رعايا عثمانيين.
3- يستطيعون الإقامة في أي مقاطعة في الدولة: ماعدا فلسطين.
4- يقومون مع المسلمين باستثمار جميع المناجم وحقول النفط في الدولة ضمن شركة عثمانية من المسلمين واليهود[٦٢٥].

ثم ألقى هرتزل آخر ما في جعبته على عرض السلطان فقال: إذا سُمح لنا بالاستعمار بلا قيود - يعني بدون استثناء فلسطين - أقنعت أصحابي بتأسيس بنك تركي عظيم يكون مقرُّه في القسطنطينية، وفروعه في كل المدن المهمّة في الإمبراطورية، وسوف يعهد لهذا البنك الذي سيقتصر أعضاؤه على اليهود والمسلمين بتنظيم حسابات الدولة العثمانية تنظيماً حديثاً، ونبرهن للجميع أن مجيء اليهود هو في صالح الدولة....

وأخيراً كتب آخر جملة للسلطان: «فإن كنتم لا تعتقدون أن من الضروري المضيّ في هذا الاقتراح، أرجو من جلالتكم الإذن لي بالسفر صباح الغد. وأرجو أن تذكروا دائماً أني خادمكم المطيع، وسوف أسعى في المنظمة اليهودية التي أمثلها بالخير تجاه شخص الخليفة المعظم، الصديق العظيم الوحيد الذي لنا في هذه الأرض...

(624) المصدر نفسه، ص193.

(625) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص197.

وغادر هرتزل الآستانة وكتب يقول: لعلّني يوماً أحصل على الميثاق، الوطن القومي، وإذا كنت سأحصل عليه فهذا يكون بعد تقسيم الدولة التركية...[٦٢٦]. وهكذا انقطعت آمال هرتزل مع السلطان وتوجّهت نحو أعدائه.

يقول هرتزل في كتابه «اليوميات الكاملة»: «لقد جالت في خاطري خطة واحدة تتمثّل في شنّ حملة مباغتة ضد السلطان.. ولنشرع الآن في تأسيس علاقة مباشرة مع كل الأمراء الأتراك في الخارج. وجماعة تركيا الفتاة.

وبالفعل نجح هرتزل في ذلك، وأبقى في استانبول صديقه «عمانوئيل قره صو»[٦٢٧] الذي كان ضمن الوفد الصهيوني الذي جاء إلى استانبول لمفاوضة السلطان.

وقد التمس من السلطان أن يبيعه مزرعة الخيول السلطانية في إقليم القدس حتى يتسنى لليهود إقامة كيان لهم فيها... ثم أخذ يتقرب من السلطان إلى أبعد الحدود، وأصبح من أقرب الناس إلى السلطان عبد الحميد...

كان «عمانوئيل قره صوه» رجل هرتزل الأول في الدولة العثمانية، وعندما يئس من السلطان، أخذ بنصيحة هرتزل وقرر الانضمام إلى خصومه، ثم كان واحداً ممّن طلبوا من السلطان عبد الحميد الثاني التنازل عن العرش...[٦٢٨].

د- هرتزل والإمبراطور الألماني (غليوم الثاني):

كتب هرتزل إلى السفير الألماني في ڤينا، بأن رحلة الإمبراطور ستكون بمثابة حجٍّ يقوم به صاحب الجلالة، وقد يتوصّل بها إلى تحوّلٍ مهم في تاريخ الشرق إذا كان فيها بدء عودة اليهود، ولكن هذا الهدف سيبقى مختفياً كالينابيع لا تُرى في رؤوس الجبال وإنما في المنحدرات.

وقال عن ألمانيا: ستُمكّن الصهيونيةُ اليهودَ من حب ألمانيا ثانيةً، ألمانيا التي ظلت قلوبنا متعلقة بها بالرغم من كل شيء..[٦٢٩].

---

(626) انيس صايغ، المصدر نفسه، ص204.

(627) عمانوئيل قره صو (الماء الأسود) رئيس المحفل مقدونيا الماسوني وعضو مجلس المبعوثان العثماني، وكان مع الوفد الذي قابل السلطان عبد الحميد الثاني عندما قرآوا عليه بيان خلعه عن السلطنة. (www.al-a7rar.net).

(628) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد. ص530.

(629) انيس صايغ، المصدر السابق، ص108.

وقال دوق بادن الكبير لهرتزل: إن السلطان سيقبل نصيحة بخصوص اليهود في فلسطين، وإنه - بعد موافقة السلطان - سيتبنّى هجرة اليهود إلى فلسطين[٦٣٠].

اللقاء المنتظر: وأخيراً وفي الثاني من تشرين الثاني سنة 1316 هـ -1898م التقى هرتزل والقيصر في القدس وألقى خطابه التاريخي الذي صيغ بعناية تامة، وبدهاء شديد، وفيه من التحديد والوضوح، ما لم يذكره هرتزل للسلطان فيما بعد .

خلاصة خطاب هرتزل في القدس 1316هـ-1898م

يتقدم وفد من أبناء إسرائيل إلى القيصر في البلاد التي كانت لآبائنا والتي لم تعد لنا بالتماس لتحقيق حلمنا في العودة إليها؛ لأنها هي البلسم الشافي لشعبنا المسكين.

إن صهيونية اليوم هي صهيونية عصرية... وتهدف إلى حل المسألة اليهودية في ظروف الوقت الحاضر. ونحن نؤمن بأننا سننجح بسبب تقدم وسائط النقل وطرق إنجاز الأعمال[٦٣١].

وفي بازل وضعنا منهاج حركتنا أمام العالم كله: «وهو أن نخلق ضمن القانون المدني وطناً قومياً للشعب اليهودي في أرض أجدادنا التي تستصرخ الناس للعمل فيها.... ونحن نطلب من جلالتكم مساعدتكم السامية مع تأكيدنا أنه ليس لطلبنا أدنى ضرر لحاكم هذا البلد. إن صداقة جلالتكم لصاحب الجلالة السلطان معروفة، ونحن متأكدون أن الخطة الصهيونية ستحمل معها الخير لتركية وستحمل إلى هذه البلاد موارد مالية وفنيَّة. نحن نخطط لقيام شركة يهودية لأراضي سورية وفلسطين، والتي ستأخذ على عاتقها مهمَّة القيام بهذا المشروع تحت حماية القيصر الألماني[٦٣٢]. وفكرتنا هذه لا تُسيء إلى حقوق أحد، ولا إلى مشاعره الدينية، إنها تؤمن المصالحة المرغوبة دائماً.... ونحن نعرف ونحترم جميع الأديان التي قامت على الأرض التي قام عليها دين آبائنا. ونقول بأن القدس ذات الأسوار المهمَّة مدينة رمزية لجميع الأمم المتحضرة. ونتمنى، في هذه اللحظة العظيمة أن تُشرق شمس السَّلام والعدل على جميع الناس.. بما فيهم نحن...»[٦٣٣].

وقد ردَّ الإمبراطور «بأن المسألة تحتاج إلى دراسة مطوَّلة.. والبلاد تتسع للكل...».

---

(630) انيس صايغ، يوميات هرتزل، 111.

(631) انيس صايغ، المصدر نفسه، ص117.

(632) المصدر نفسه، ص118.

(633) المصدر نفسه، ص120.

وانتهى اللقاء، ولم يكن هرتزل مرتاحاً له[٦٣٤].... وكتب في يومياته يقول: «لا ألمانيا ولا انكلترا ستعملان شيئاً من أجلنا، ولذلك فإن أي تدخل هو أمر لا لزوم له...».

ولم ييأس هرتزل من ذلك وقام بزيارة فلسطين، «أرض إسرائيل» حيث زار مستوطنات: رشون لزيون، ودنس تسيونه، ورحبوت، والمدرسة الزراعية: مكفي (إسرائيل)[٦٣٥]. وهي للرابطة الإسرائيلية العمومية - الأليانس -.

وكان يلتقي المستوطنين ويستمع إلى مخططاتهم ووجهات نظرهم وماهية العمل الذي يتوجّب تنفيذه في «أرض إسرائيل». وقد خلف وجوده بينهم الإحساس بأنه زعيم الشعب اليهودي في كل العالم[٦٣٦].

ثم أصدر كتابه «أرض قديمة جديدة» ذكر فيه أنه بعد عشرين عاماً ستقوم دولة اليهود...

وزار البابا، وملك إيطاليا، ولكن القدر كان له بالمرصاد وأوصى قبل موته أن يدفن في ڤيينا إلى أن يتم نقل جثمانه إلى أرض إسرائيل. ومات يوم 3 تموز 1904م-1322م بعد أن قدم لشعبه خلال أقل من عشر سنين ما لم يقدمه غيره عبر مئات السنين[٦٣٧].

ثالثاً - العلاقات الثقافية والعلمية

1- الجمعيات الثقافية الألمانية

شهد عهد السلطان عبد الحميد. نشاط ثقافي واسع مع ألمانيا، عثر عليه في آلاف المخطوطات الإسلامية النادرة المحفوظة في متحف برلين الإسلامي. والتي نقلت إلى هناك عن طريق الشراء أو الهدايا بجهود عشرات المستشرقين الألمان، في مختلف المجالات.

ففي سنة 1296 هـ -1878م تأسست في برلين «جمعية فلسطين الألمانية» بهدف استكشاف الأراضي المقدسة ودراستها علمياً.

وقد اهتم علماء الآثار الألمان بالتنقيب عن الآثار في فلسطين وشرقي الأردن بدعم من «جمعيّة فلسطين الألمانية». وكانت جهود الألمان محدودة جداً قبل تأسيس هذه

---

(634) المصدر نفسه، ص122.

(635) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص21.

(636) عبد الكريم النقيب، المرجع السابق، ص25.

(637) هرتزل، الدولة اليهودية، المصدر السابق، ص10.

الجمعية إلا ما كان من القسّ كلاين (*F.Klein*)؛ الذي اكتشف حجر الملك ميشا المؤابي في ذبيان[٦٣٨] سنة 1285 هـ -1868م.

وفي سنة 1298 هـ -1880م، قام العالمان الأثريان الألمانيان: شيك، وغوته. بنسخ نقوش القدس لحساب جمعية فلسطين الألمانية، واكتشفا نقوش بركة سلوان.

وفي سنة 1302 هـ -1884م كلفت الجمعية «شوماخر» أحد سكان المستعمرة الهيكلية الألمانية في حيفا، بوضع خارطة لحوران وشمالي الأردن[٦٣٩]... وألّف «شوماخر» (*Schuhmacher*) سنة 1308 هـ -1890م كتاب الناصرة المعاصرة. ثم تأسّست في برلين تحت رعاية الإمبراطور جمعية الشرق الألمانية سنة 1316 هـ -1898م.

وتم التنقيب عن الآثار في منطقة «مجدّو»[٦٤٠] - تل المتسلّم - . وتم سنة 1907 الكشف عن الآثار في أريحا في فلسطين.

ومن الجمعيات الألمانية التي نشأت في عهد السلطان عبد الحميد:

- المعهد الألماني الإنجيلي للدراسات القديمة حول القدس.
- وجمعية الاستشراق الألمانية في ميونيخ (*München*).
- واللجنة الإلمانية للشرق الأدنى[٦٤١].

وكان الإمبراطور غليوم يقضي الساعات في درس الآثار والحفريات من أجل معرفة كيف أثّر الشرق بالغرب. يقول الإمبراطور: «إن علم الآثار الآشوري عظيم الأهمية في نظري، لأنه يؤدي إلى إيضاح العهد القديم والتثبت من التوراة، لذلك قبلت بسرور أن أرأس «الجمعية الألمانية للآثار الشرقية. وكنت أتابع بدقة نتائج الحفريات في نينوى وآشور وبابل وسورية ومصر، وتوسطت مراراً لدى الحكومة العثمانية لحماية هذه الحفريات وتسهيل مهمّة العلماء القائمين عليها ...»[٦٤٢].

(*638*) حجر ميشا: مسلة تاريخية كتبها الملك ميشع ملك المملكة المؤابية التي ظهرت في وسط الأردن في القرن التاسع قبل الميلاد، وتعتبر من أقدم المسلات التاريخية في بلاد الشام، والتي يخلد فيها انتصاره على بني إسرائيل في عام (850ق.م)، اكتشف في ذبيان عاصمة المؤابين في عام (1868) على يد الراهب الألماني كلاين (*F.Klein*)، وهي موجودة حالياً في متحف اللوفر في باريس. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*639*) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، مرجع سابق، ص28.

(*640*) مجدو: تقع في سهل مرج ابن عامر، غرب مدينة جنين وتعرف أيضاً بـ(تل المسلم). (*www.ar.wikipedia.org*).

(*641*) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص60.

(*642*) مذكرات غليوم الثاني، القاهرة 1922، ترجمة مجد الدين الخطيب وأسعد داغر، ص147.

2- بعثات التنقيب عن الآثار:

أ- في بعلبك:

ذكرت مجلة المشرق اللبنانية أن قلعة بعلبك أخذت بألباب الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، عندما زارها في طريق عودته من دمشق يوم العاشر من تشرين الثاني 1898م-1316م.

وعندما عاد الإمبراطور إلى بلاده، التمس من صديقه السلطان عبد الحميد أن يأذن لبعثة تنقيب ألمانية عن الآثار بالحفر في قلعة بعلبك وما حولها، فوافق السلطان.

وفي بداية سنة 1317 هـ -1899م قدم إلى بعلبك كل من: الدكتور كولدواي (*Dr.Koldeway*)[٦٤٣]. والمهندس الرسام أندريا (*Andreae*).

وباشر العمل ووضعا خريطة للهياكل في بعلبك، وقدّما للإمبراطور تقريراً عن خطة العمل والمبالغ اللازمة، فأمر بمباشرة الحفر على أن تتكفل حكومة بروسيا بالإنفاق على المشروع[٦٤٤].

وفي شهر آب 1900م-1318 هـ قدمت بعثة ألمانية من كل من:

- العلّامة أوتو بوشتاين (*O.Puchstein*).
- والمهندس بروتو شولس (*B.Schulz*).
- ومعاونه دانيال كرنكر (*D.Krenker*).
- والمستشرق موريس سوبرنهم (*M.Sobermheim*)[٦٤٥].

وقد دامت عمليات الحفر والتنظيف وإعادة ترتيب الحجارة الواجب إبقاؤها في القلعة من أيلول 1900م-1318 هـ حتى تموز 1903م-1321 هـ. ثم تفرَّغ المهندسون لرسم أقسام القلعة بالحبر الأسود ثم عكفوا على إعداد تقريرهم. وقد تمكن الألمان من إزالة الأنقاض والتعدّيات على آثار بعلبك، وأظهروا معبد جوبيتر الكبير وآثار بعلبك الأخرى.

ووجدوا في قرية (نيحا) غربي بعلبك آثار هيكل يشابه هيكل بعلبك، كما وجدوا في جدار كنيسة الروم الأرثوذكس ختماً يمثل الإله جوبيتر «البعلبكي» كما وجدوا تمثالاً آخر في أطلال قرية «نبع اللجوج» شرقي بعلبك في جبال لبنان الشرقية، وهو النبع الذي جلبت مياهه إلى القلعة بقناة رومانية.

(*643*) روبرت يوهان كولداوي (1855-1925) وهو عالم آثار ومعماري ألماني، وينسب له اكتشاف مدينة بابل القديمة في العراق. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*644*) مجلة المشرق 1904م - السنة السابعة - العدد الثالث، ص97.

(*645*) المصدر السابق ص98.

وقد أثبت البارون أوبنهايم كل الآثار المكتشفة ولاسيَّما السُور المحيط ببعلبك. وقد تبين أن السور من آثار الرومان، وليس من آثار الفينيقيين، أما السور الفينيقي فقد طمست آثاره تماماً وقام عليه البناء الروماني ثم المسيحي والإسلامي(٦٤٦).

وقد كانت الدكة التي تحمل هيكل جوبيتر، والذي اكتشف الألمان أنه هيكل باخوس، مطمورة تماماً، فكشفت وهي مبنية بالحجارة الضخمة غاية في الضبط والإتقان، وهذا الهيكل يعتبر من أجمل آثار بعلبك.

وكان أمام باب الهيكل فسحة كبيرة يتقدمها درج عظيم، وبعده صفَّان من الأعمدة المضلَّعة، وبعدها الباب الكبير الذي كان آية في الروعة والإتقان. وكان هذا الباب قد انخفض نحو مترين بفعل الزلازل فرفعه الألمان إلى مستواه وظهرت نقوشه البديعة. وطول الهيكل من الشرق إلى الغرب 35 متراً وعرضه عشرون، وقد نظّف الألمان كل الهيكل حتى أعادوه كما كان.

وقد اكتشف الألمان في بعلبك آثار القلعة التي بناها العرب لمضاهاة آثار بعلبك الرومانية، وكانت الحجارة الضخمة في هذه القلعة تعلو على أعمدة الهيكل، مما يدل على عبقرية العرب العمرانية، وقد تمت دراسة الآثار العربية ورسمت وحفظت.

وقد وجد الألمان في بعلبك آثاراً بيزنطية عليها الصلبان وبعض النقود النحاسية ونقوداً عربية كثيرة وسيوفاً ومعاول وسكاكين وصحوناً وأجراناً وزجاجات كانت توضع فيها المادة التي تكوّن «النار اليونانية»(٦٤٧) كما وجدوا كمية كبيرة من النبال والقنابل الحجرية التي تقذفها المنجنيقات كما وجدوا ثلاث كتابات عربية في القلعة بالخط الكوفي(٦٤٨). وقد عُهد إلى الدكتور سوبرنهيم (***M.Sobermheim***) بجمعها.

ويقول (ميخائيل ألوف)(٦٤٩): «وقد اجتمعت به لقراءتها على وجه الصحة ونسخها

(*646*) المصدر نفسه، 99-104.

(*647*) النار اليونانية (النار الإغريقية): يطلق على سائل محرق استعمل كسلاح من قبل البيزنطيين في حروبهم البحرية منذ (674م)، وحتى يومنا لا يعرف تركيبها بدقة، ولكن يرجح أنها كانت مزيجاً مركباً من عدو مواد سريعة الاشتعال كـ(الكحول - النفط - ملح الصخور - الكبريت - القار)، ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس (***Theophanes***)، أن اختراع النار الإغريقية يرجع للمهندس الفينيقي (كالينيكوس) (***Callinicus***) من بعلبك وذلك سنة (670م). (***www.ar.wikipedia.org***).

(*648*) مجلة المشرق، المصدر السابق 160.

(*649*) ميخائيل ألوف: ميخائيل بن موسى ألوف: من أهل بعلبك، وكان أمين آثارها، وله كتاب صغير في تاريخها القديم سماه (تاريخ بعلبك). (***www.ency.kacemb.com***).

مع جميع الكتابات الموجودة في الجامع والأسوار، وقد نسخنا حوالي أربعين كتابة ستنشر كاملة. وكان في الجهة الغربية من المدينة هيكل جميل صغير مستدير هو هيكل الزهرة. فلما دخلت المسيحية إلى المنطقة حوّله المسيحيون إلى كنيسة باسم القديسة بربارة. وبقي الهيكل إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر ميلادي، عندما تهدم بفعل زلازل سنة 1173هـ-1759م الشهير. وقد اشترى الألمان الأبنية المحيطة بالهيكل وهدموها ورفعوا الأتربة، ووجدوا تمثالاً للشمس على شكل امرأة من ورائها الشمس ووجدوا داخل الهيكل مدفناً للمسيحيين(٦٥٠).

وقد قام عالم الآثار أوبنهايم بك (***Obenhaimbek***) 1366/1277 هـ -1946/1860م بالطواف في سورية والعراق وآسيا الصغرى بحثاً عن الكتابات العربية، ومُنح لقب «بيك».

كما قام ب.مايسنر (***P.Meisner***) 1347/1285 هـ -1 بالت868/1947منقيب عن الآثار الآشوريَّة، ونشر خلاصة أبحاثه في لايبزيغ(٦٥١) (***Leipzig***) سنة 1311 هـ -893م ودرَّس اللغة البابلية والآشورية(٦٥٢).

وقام إرنست هرسفليد (***Ernest Herzfeld***) 1368/1297 هـ -1948/1879م بالتنقيب طويلاً في «سرَّ من رأى» (سامراء) بالعراق واتفق مع النبيل الألماني فردريك ڤوان زاره (***Friedrich Besucht Fuan***) على الكشف عن آثار دجلة والفرات. ونقَّب في حلب: وله كتاب سامراء والرحلة الأثرية في بلاد دجلة والفرات. كما وضع كتاب «دمشق دراسة معمارية» ومؤلفه المهم: «كتابات حلب وآثارها ..»(٦٥٣).

ب- الحفريات في منطقة نهر الكلب:

نشط العلماء الآثاريُون الألمان في التعرف آثار منطقة نهر الكلب، ومن أشهر هؤلاء العلماء:

- عالم الآثار المصرية الفرعونية: لبسيوس (***Lepoius***).
- والمهندس آربكام (***Erbakamm***).

(*650*) مجلة المشرق، المصدر السابق 161 والمقال بقلم ميخائيل ألوف.

(*651*) لايبزيغ (***Leipzig***): هي ثاني أكبر مدن ولاية ساكسونيا شرق ألمانيا، تقع على بعد 150 كيلومتر جنوب برلين. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*652*) نجيب العقيقي، المستشرقون، القاهرة، ج2، ص406 وص424.

(*653*) نجيب العقيقي، المستشرقون، المرجع السابق، ج2، ص444.

- وعالم الهيروغليفية ڤايدنباخ (*Weldenbach*).

وقد اكتشفوا آثاراً مهمة نشرت في المجلات المتخصصة[٦٥٤].

ويبدو اهتمام الإمبراطور بالآثار بوضوح، من خلال اتفاقية خط برلين — بغداد الحديدي. فقد جاء في المادة 27: «تعفى الشركة صاحبة الامتياز من تقديم الطلبات إلى السلطات المختصّة للحصول على ترخيص بالبحث والتنقيب عن الآثار».

وهذا يعني أن للشركة أن تمارس عمليات التنقيب عن الآثار بدون الحصول على إذن خاص، كما أن البعثات الأثرية الألمانية انتشرت في العراق قبل توقيع اتفاقية الخط بسنوات[٦٥٥].

3- المستشرقون الألمان وأبحاثهم:

قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دراسات إسلامية واسعة في ألمانيا على يد عشرات المستشرقين الألمان الذين حققوا ونشروا أمهات كتب التراث العربي الإسلامي بأسلوب علمي راقٍ، نتيجة إعجابهم الكبير بالتراث الشرقي.

وقد أنشئت الجمعيات الثقافية الألمانية المتخصصة في جميع مجالات الحضارة العربية الإسلامية.

وفيما يلي ذكر لأهم هذه الجمعيات مع أشهر المستشرقين الألمان وأعمالهم في عهد الإمبراطور الألماني غليوم الأول، وغليوم الثاني، والسلطان عبد الحميد الثاني.

- ففي سنة 1262 هـ -1845م أنشئت الجمعية الشرقية الألمانية، التي ضمت المستشرقين الألمان بهدف إحياء التراث الإسلامي.

وفي سنة 1264 هـ -1847م ظهرت المجلّة الشرقية الألمانية التي كانت متخصصة في نشر أخبار المطبوعات العربيّة.

- ثم تأسست في استانبول المكتبة الإسلامية للمستشرقين الألمان، أسسها الدكتور هلموت رينير (*Helmut Renner*) وقد عنيت بنشر النصوص العربية كـ«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«المخصص» لابن سيده وغيرها[٦٥٦].

(*654*) عبد الرؤوف سنّو، المرجع السابق، ص331.

(*655*) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص1371.

(*656*) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص348.

كما تأسست الجمعية الشرقية الألمانية للدراسات على يد المستشرق مارتن هارتمان (*Martin Hartmann*).

وفي سنة 1316 هـ -1898م صدرت مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية ومجلّة معهد اللغات الشرقية في برلين التي أسسها المستشرق: زاخاو (*Zachao*).

وفي سنة 1318 هـ -1900م ظهرت مجلّة «في سبيل فهم الشرق». وفي سنة 1322 هـ -1904م تأسس متخف الفن الإسلامي في برلين وقد كتب على مدخله بالعربية. «متحف الفن الإسلامي» وإلى جانبه خريطة الوطن العربي. وصدرت سنة 1324 هـ -1906م حولية جامعة بون (*Unversität Bonn*). ومحفوظات أوراق البردي ومجلة الإسلام[٦٥٧]. ومجموعة علوم القرآن بإشراف المجمع العلمي الباڤاري (*Composite-bayerischen*) في ميونيخ[٦٥٨].

أشهر المستشرقين الألمان وأعمالهم:

- **ڤون أبيل (*Von Abel*) 1318/1280 هـ -1900/1863م:**

نشر ديوان أبي محجن سنة 1887 والمعلّقات السبع.

- **سيمون ڤايل (*Simone Veil*): 1307/1223 هـ -1889/1808م:**
  - ترجم ألف ليلة وليلة إلى الألمانية.
  - وضع كتاباً عن الرسول الكريم في ثلاثة مجلدات.
  - وترجم عشرات المخطوطات العربيّة.
- **ف. فستفيلد (*F.Vstfeld*): 1317/1223 هـ -1899/1808م:**

نشر أكثر من مئتي مصنف عربي إسلامي.

- **جيلدي مايستر (*Jelde-Meister*): 1308/1228 هـ -1890/1812م:**

نشر «مروج الذهب» للمسعودي و«نزهة المشتاق» للإدريسي 1303 هـ -1885م.

- **ج. ڤتشتين (*C.Vtstein*): 1323/1231 هـ -1905/1815م:**

كان قنصلاً للإمبراطور فردريك الرابع في دمشق حيث أتقن العربية، وقام برحلات إلى حوران، حصل خلالها على العديد من المخطوطات العربية.

وباع لجامعة برلين 2000 مخطوط عربي.

واشترى مكتبة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق.

---

(657) نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج2، ص350.

(658) نجيب العقيقي، المرجع نفسه، ج2، ص353.

ونقّب عن آثار قرطاجنة[659].

- **هنريخ كيابرت (*Heinrich Kiabert*):**

نشر خرائط فلسطين وآسيا الصغرى 1320 هـ -1902م.

- **أ. فرموند (*A.Vermond*): 1333/1243 هـ -1913/1827م:**

وضع كتاب «قواعد اللغة العربية» في القاهرة سنة 1298 هـ -1880م والحكايات العربية، وكتاب دين بابل، ودين اليهود، ودين النصارى 1300 هـ -1882م.

كما ألّف المعجم العربي - الألماني سنة 1305 هـ -1887م.

- **ث. نولدكه (*W.Nöldeke*): 1349/1252 هـ -1930/1836م:**

هو أستاذ بروكلمان (*Carl Brockelman*) وزاخاو (*Zachao*) وياكوب (*Jakob*) وشواللي (*Chvalli*) ومن أجمل مؤلفاته:

- تاريخ النص القرآني.
- وديوان عروة بن الورد.
- وحياة محمد عليه السلام.
- ومنتخبات الألماني للأصفهاني 1308 هـ -1890م.
- وقواعد اللغة الفصحى 1304 هـ -1896م وعشرات المؤلفات الأخرى.

- **ج. فللهوزن (*C.Vllahozn*): 1327/1260 هـ -1918/1844م:**

ومن أهم مؤلفاته:

- محمد عليه السلام في يثرب.
- تاريخ اليهود.
- تاريخ الدولة الأمويّة[660].

- **زاخاو (*Zachao*): 1349/1262-1930/1845م:**

- أوفدته الحكومة الألمانية إلى سورية والعراق سنة 1298 هـ -1880م.
- أسس معهد اللغات الشرقية في برلين 1306هـ -1888م ودرّس فيه طويلاً.
- وله كتاب «رحلة إلى سورية وبلاد الرافدين» 1301 هـ -1883م.

- **كارل بروكلمان (*Carl Brokelman*): 1376/1285 هـ -1956/1868م:**

- أشهر المستشرقين الألمان.

---

(659) نجيب العقيقي، المرجع نفسه، ج2 ص371.

(660) نجيب العقيقي، المرجع السابق ج2، ص387.

- نشر سنة 1313 هـ -1895م كتاب الوفا في حقوق المصطفى للسمهودي.
- وتاريخ الأدب العربي. وهو أكبر مصنف من نوعه بالعربية.

رابعاً - الألمان ونشاطهم في التبشير

1- الألمان والإسلام:

وُجدت في ألمانيا، مثلما الحال في أوروبا، هيئات وجمعيات ومبشّرين، كان هدفهم الأوّل الإطلاع على الإسلام، هذا الموقف لا يمثّل بالضرورة السياسة الرسمية الألمانية تجاه الدولة العثمانية التي كانت موطن المسلمين، والملاذ الآمن لهم تجاه الهجمات الأوروبية الشرسة نحو الشرق العربي سياسياً واقتصادياً ودينياً. وكانت هذه الجمعيّات، أهلية في مُجملها، شديدة التعصب بدرجة تذكر بالحروب الصليبية الأولى.

أما عن موقف الدولة الألمانية الرسمي من هذه المنظمات والجمعيات، فإنها كانت تدعم بعضها، وتتجاهل بعضها الآخر رعاية لمشاعر السلطان عبد الحميد والمسلمين، الذين وجدوا في الإمبراطور غليوم الثاني «خليفة آخر للمسلمين» ورأى آخرون أن إسلامه «مسألة وقت».

وسوف نتناول فيما يلي جُهود المبشرين والمؤسسات التبشيرية الألمانية في سورية مع التركيز على فلسطين.

- المبشرون وأفكارهم:

ذكرت «مجلة الشرق المسيحي، التي تنشرها جمعيّة التبشير الشرقية الألمانية إنه قد أزف الوقت الذي يزعزع فيه الإسلام من أركانه، ويُنشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية، وإن هذا الارتقاء التاريخي، وما نعمله في أرمينيا وسورية وروسيا. قد جعلنا ندعو مجلتنا: «الشرق المسيحي، وارسالية التبشير الإسلامية».

يعني إنها والإسلام من العالم تماماً وعودة المسلمين إلى نقطة الصفر، نقطة البداية التي يبدؤون فيها بنشر دينهم من جديد .... أي أنهم صاروا أقلية...»[٦٦١].

وقال القسّ الألماني لسبيوس (*Lesbos*) سنة 1313 هـ -1895م: «إن الشرق يدعو الغرب لشدّ أزره، وعلينا تحرير الشرق بواسطة كنائس السيد المسيح، وتخليص الكنائس

(*661*) ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي - ترجمة محب الدين الخطيب، بيروت 1980، ص43.

المسيحية من ظلم الإسلام، ونفتح طريقاً للسيد المسيح بإرجاع هذه الكنائس سيرتها الأولى. ثم يقول:

«هلموا إلى قلب العالم الإسلامي، لنحرز فوز الصليب على الهلال، فالإسلام هو العدو القديم للمسيحيين الشرقيين...»[٦٦٢].

وكان «شنلر» (*Schneller*) القسّ الألماني النشيط في فلسطين، يرى أن الإسلام عدو يجب القضاء عليه، وجاء بنظرية جديدة لتحقيق ذلك، عندما أعلن أن أسلوب التنصير عن طريق الحملات الصليبية العسكرية، أمر أثبت فشله تماماً، لأن المسلمين يتوحَّدون عندما يتعرَّضون للعدوان، وأما شنلر فقد رأى تنصير المسلمين من الداخل، بالوسائل السِّلميَّة وليس العسكريَّة، وتنبأ، كما تنبأ غيره، بقرب انحسار الإسلام وفي ذلك يقول:

«إن المحمَّدية التي جاءت إلى العالم بحد السيف، لن تستطيع أن تُصلح نفسها بل ستنهار...».

وقد انفصل شنلر عن زميله شبتلر، وأنشأ في فلسطين «دار الأيتام السورية» التي تحدثنا عنها.

وكان عدد طلاب هذه الدار سنة 1293 هـ -1876م يساوي 210 طالب وطالبة من الشام وفلسطين ومصر وأفريقيا وأرمينيا، من المسلمين والنصارى على حد سواء، وكان يُعمَّد في كل عام نحواً من أربعين من هذه الدار، وفيهم مسلمون[٦٦٣].

وكان يخطط أن يزوِّج خريجي دار الأيتام، من خريجات مدرسة «طاليطا قومي» التي سنتحدث عنها، والتابعة لشمَّاسات جمعية: «الكيزر-زفرت» أي القيصر زفرت[٦٦٤].

ولم تكن أعمال شنلر ودار الأيتام والجمعيات التنصيرية الألمانية بخافية عن أعين المسؤولين في الدولة أو حتى النصارى من غير البروتستانت.

وقد أفتى «بطريرك الموارنة» «إلياس بطرس الحويك» بحرمان كل من يساعد البروتستانت أو يزورهم، أو يلبي لهم طلباً أو يساعدهم على البقاء أو ينتسب إلى معاهدهم أو مدارسهم[٦٦٥].

(*662*) ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، المرجع السابق ص99.

(*663*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ص63-65.

(*664*) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص69.

(*665*) أرشيف استانبول، مجلس مخصوص، وثيقة 1751 .

ويقـول الألمـاني «جـون لـوريمر» (*Jon Lorimer*) إن كـبير البروتـستانت المـدعو «ميلانكتـون» (*Malancton*) أرسـل إلى بطريـرك القـسطنطينية يوشـافاط الثـاني خلاصـة عـن أفكـار البروتـستانت لكنـه تجاهلـها واتهـم البروتـستانت بالهرطقـة[٦٦٦]، حتـى إن «أسـعد الشدياق» أخ أحمد فارس الشدياق مات تحت التعذيب في بطريركية الموارنة بلبنان[٦٦٧].

ويقول والي سورية أحمد مدحت باشا في تقريره إلى السلطان عبد الحميد الثاني: «إن في سـورية خليطـاً مـن الأتـراك والعـرب والـروم والموارنـة والكاثوليـك والبروتـستانت والسريان والأرمن وغيرهـم... وإنهـا منـذ زمـن بعيـد معرَّضـة للتدخل الخـارجي مـن الـدول الأجنبية...»[٦٦٨].

وفي سنة 1302 هـ -1884م عمدت جمعيَّة بيت المقدس الألمانية إلى فتح عيادة طبية خاصة بها للتبشير بين المسلمين في الخليل، ثم فتحوا مدرسة للسبب نفسه، فأصدر المفتي فتوى بتحريم التعامل مع المدرسة والعيادة. فاضـطرت إلى إغـلاق أبوابهـا سـنة 1306 هـ - 1888م.

وفي سنة 1316 هـ -1898م افتتح الإمبراطور غليوم الثاني أثناء زيارته إلى فلسطين داراً للأيتام على طريق الخليل[٦٦٩]، لمباشرة التنصير.

جذور التبشير الألماني

تأسست في انكلترا وألمانيا، بعد الثورة الفرنسية هيئات وجمعيات لتنصير اليهود، ثم توسعت هذه الجمعيات بعد اتحادها، في عملية التبشير البروتستانتي في الشرق.

كانـت فكـرة اسـتعمار فلـسطين واسـتيطانها تهـيمن علـى أفكـار مؤسـسي هـذه الجمعيات.

ولقد قويت هذه الفكرة بعد انهيار الدولة العثمانية أمام جيوش محمد علي، وبعد إخراج جيوشه من الشام على يد الدول الأوروبية، تبيَّن أن الوقت قد حان ليس لاقتسام تركة الرجل المريض، بل لاقتسام الرجل المريض نفسه.

لذلك طلب «شبتلر» مـن وزيـر بروسـيا المفـوَّض في بـرلين الـسعي لإقامـة مـستعمرة

---

(666) جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، 5 مجلدات، دار الثقافة بالقاهرة 1990م، ج4، ص332.

(667) عبد الرؤوف عيسى، التنصير الأمريكي، مكتبة مدبولي بالقاهرة 2005م، ص94.

(668) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، مرجع سابق، ص355.

(669) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص61.

بروتستانتية نموذجية في فلسطين، وقدم مذكرة إلى وزير الخارجية البروسيَّة تتضمن مشروعاً يحدد مستقبل الأراضي المقدسة على النحو التالي:

- فصل فلسطين عن بقية الولايات العربية في الدولة العثمانية وربطها بالدولة العثمانية مباشرة.
- وضع سكانها المسيحيين تحت حماية الدولة الأوروبية.
- تكون القدس عاصمة للأراضي المقدسة.
- وتصبح بيت لحم والناصرة مستعمرات مسيحية.
- تتولى فرنسا والفاتيكان حماية هذه الدولة....

لكن المشروع فشل بسبب رفض الكاثوليك الألمان حماية فرنسا والبابا.[٦٧٠].

المستشفى البروسي في بيروت

وكان يسمَّى «خستخانة بروسية» وقد تأسس في جمادى الأولى 1277 هـ ~1860، وألحقت فيه مدرسة لتخريج المرضات، وتخرَّجت منه بالفعل أعداد جيدة منهن ومعظمهن من السوريات، وقد قمن بالتدريس فيه بعد التخرج.

وممن عمل في هذا المستشفى البروفيسور «ڤان ديك» (*Van Dijk*) الذي نال أعلى وسام من الإمبراطور الألماني غليوم الثاني بسبب نشاطه التبشيري المتميز في المستشفى المذكور[٦٧١].

ثم قام فؤاد باشا بإهداء هذا المستشفى قطعة أرض لبناء مستشفى جديد عليها، وسجلت الأرض في السجلات الرسمية على أنها هبة من الحكومة العثمانية[٦٧٢].

رهبنة شمَّاسات الكيزر زفرت

من أخطر وأخبث الجمعيات التبشيرية الألمانية في فلسطين على الإطلاق.

وقد تأسس أول منزل للشمَّاسات على نهر الراين تحت اسم: «رهبنة شماسات الكيزر زفرت على الراين»

(*670*) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، مرجع سابق، ص90.

(*671*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص181.

(*672*) يسرى الحنفي، الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام، رسالة ماجستير جامعة أم القرى 1412هـ، ص405.

على يد الراهب تيودور فليدنر (*T.Fliender*) قرب دسلدورف[٦٧٣] (*Düsseldorf*) وذلك سنة 1252 هـ -1836م بهدف القيام بنشاط تبشيري نسائي خارج ألمانيا.

وفي سنة 1268 هـ -1851م وصل فيلدنر إلى القدس ومعه أربعة شمّاسات، وأسّس فيها مستشفى ومدرسة للبنات في منزل على جبل صهيون، كان يوجد فيه النزل البروسي.

وبعد خمسين عاماً كانت هذه الجمعية تدير خمس عشرة محطة تبشيرية في فلسطين تضم مدارس ومستشفيات ومؤسسات ظاهرها خيريّ، وتشرف عليها أكثر من مئة شمّاسة[٦٧٤].

وفي سنة 1306 هـ -1888م دشّن «كارل شيلشت» (*Carl Chelst*) راعي البروتستانت في القدس المستشفى الجديد للشماسات، وهو رابع مستشفى ألماني كبير في الدولة العثمانية بعد مستشفيات الآستانة والقاهرة والإسكندرية[٦٧٥]. ثم تولى هذا المستشفى عمليات التبشير على أحدث الأساليب وأخبثها كما سنرى.

مدرسة طاليطا قومي

في سنة 1270 هـ -1853م وصلت إلى القدس الراهبة الألمانية «شارلوت بيلز (*Charlotte Pilz*)».

وكانت على درجة عالية من الدهاء والإصرار للأندفاع في التبشير مهما كان الثمن، ومهما كانت الطريقة، حيث تولت الإشراف على الراهبات على مدى خمسين عاماً، حتى عرفت المدرسة باسم شارلوطة عند الأهالي.

وقد قامت هذه الشمّاسة ببناء مدرسة كبيرة في القدس سنة 1285 هـ -1868م ضمّت 89 طالبة، منهن أربع بنات مسلمات.

وفي سنة 1321 هـ -1903م. بلغ عدد الطالبات 523 طالبة: [306 من الأرثوذكس. و92 من البروتستانت. و19 بنت يهودية. و13 بنت أرمنية. و11 حبشيّة وقبطية. و55 فتاة مسلمة][٦٧٦].

---

(673) دوسلدورف (*Düsseldorf*): هي عاصمة ولاية شمال الراين، في غرب ألمانيا. (*www.ar.wikipedia.org*).

(674) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص87-88.

(675) سنو، المرجع السابق ص93.

(676) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص93.

أما اسم المدرسة الغريب، فهو من اختراع الشماسات لأهداف مرسومة بعناية، فطاليطا هذه بحسب ما هو في الإنجيل فتاة ماتت فأحياها المسيح وقال لها: طاليطا قومي، فقامت. ولذلك اختير هذا الاسم لإثارة فضول الطالبات وإقناعهن مسبقاً بالدين المسيحي.

وخوفاً من الاصطدام بالأهالي قرّر المسؤولون عن الإرساليات الألمانية البروتستانتية في فلسطين الابتعاد عن التنصير المكشوف، والعمل بمفهوم الشمولية أو المسيحية العالمية عن طريق تقديم خدمات اجتماعية يومية للسكان المحليين، وكسب الأتباع، وزرع «الإيمان» في قلوب السكان.

ومن أخطر ما ابتدعوه شعار الشماسات الجديد وتنصير المرأة عن طريق المرأة، وكان شعارهن المعلن: «تحرير المرأة العربية الجاهلة المهملة والمضطهدة من عزلته الاجتماعية التقليدية ومن عبوديتها المُهينة».

ورأت الشماسات في حجاب المرأة المسلمة إذلالاً لكرامتها فعملن على إقناع المسلمات بنزع الحجاب وتعليم المرأة، وأعدادها للعمل...

وهذا يعني تغريب الفتاة المسلمة (*Westernisation*) في تقاليدها وعاداتها، تمهيداً لتنصيرها على المذهب البروتستانتي[٦٧٧].

ولمّا لم تكن النتائج المرجوّة من ذلك مشجّعة فقد رأت الشماسات أن السبب في ذلك يعود إلى أن البنات يتعلمن عند أهلهنّ قواعد الحياة الإسلامية الأصيلة، لذلك قررت الشماسات حجز البنات في المدارس لأطول مدة ممكنة وعدم السماح لهن بزيارة أهلهن على مدى عدة شهور[٦٧٨].

وقد أرغمت الشمّاسات الأهالي، بمساعدة القنصليّة الألمانية في القدس على توقيع عقود مع المؤسسة يتعهدون فيها إبقاء التلميذات داخل الدار لمدة سبع سنين كاملة.

ورغبة من الشمّاسات بضمان أكبر عدد من المُنصّرات فقد كانت تقام علاقات اجتماعية مع الخريجات داخل دورهن.

وصارت الشماسات يقمن بزيارة المنازل ودعوة النساء إلى حفل هنا، ومناسبة هناك ولاسيما في أيام الميلاد ورأس السنة.

---

(677) سنو، المرجع السابق، ص97.

(678) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص98.

ومع نهاية القرن تمكنت راهبات «الكيزر زفرت» من إقامة شبكة من جمعية الشابات من الخريجات للاتصال بمن سبقهن(٦٧٩).

ثم أنهن خططن للعمل على استقطاب الفتيات اليتيمات اللائي لا أُسر لهن إطلاقاً.

وقد نجح التنصير نسبياً معهن حيث كانت الشماسات يمنعنهن من الصوم في شهر رمضان لأنه عديم الفائدة، كما كن يطلبن منهن الصلاة ليسوع وحده لأن الصلاة لمحمد خطيئة.

وبذلك تمكنت الشماسات من تنصير عدد من اليتيمات وغيَّرن أسماءهن بأسماء مسيحية، وأمَّن لهن العمل داخل الأسر المسيحية، أو في مؤسسات التبشير(٦٨٠).

وفي المستشفى الخاص بالجمعية «جمعية الكيزرزفرت» تم تعيين قسيس عربي، لقراءة الإنجيل باللغة العربية، وكان يشارك في القداس كثير من المسلمين المرضى، للحصول على عناية الأطباء والممرضات، ولاسيما وأن حضور القداس كان اختيارياً.

وضمن المستشفى كان المرضى يرون من العناية والرعاية والخدمة ما لا يرونه في أي مكان آخر.

ويذكر ناشر مجلة «أخبار الشرق» أنَّ بعض المسلمين أصبحوا بعد فترة من الإقامة بالمستشفى مقتنعين بأن ما يحدث فيها هو الإيمان الصحيح وأن المسيح يهب قوَّة حياة أقوى من تلك التي يهبها محمدٌ(٦٨١).

وكانت خطة المستشفى تقوم على زرع أصحَّاء من المستشفى وسط المرضى المسلمين لإقناعهم بالمعتقدات المسيحية التي كانت سبب شفائهم.

وقد أكَّد (ديسلهوف) (*Disselhoff*) مدير جمعية الكيززفرت، «أن المستشفى هو حقل تبشيري هام وأن عدداً كبيراً من المسلمين تأثروا بالمعتقدات الإنجيلية، وأن بعضهم تنصروا وأن إحدى المنصَّرات صارت تعمل مبشِّرة بين جماعتها..(٦٨٢).

ولم يكن الأهالي بغافلين عما يجري في المدرسة أو المستشفى فقد حدث أن تنصَّر أحد الشبان المسلمين في المستشفى الألماني، فهاجم الأهالي القنصلية البروسية في القدس، وقتلوا والد الشاب، الذي هرب بمساعدة الراهب غوبات.

(*679*) عبد الرؤوف سنو المرجع السابق، ص102.

(*680*) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص99.

(*681*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص100.

(*682*) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص101.

وتـصـرّت امـرأة مسلمة وعملت على تنصير ابنتها التلميذة في مدرسة «طاليطا قومي» عند شارلوطة، وعندما تحرك المسؤولون، تم تهريب الأم وابنتها إلى مصر بأسماء جديدة...

كما تنصرّت ثلاث بنات في مدرسة شارلوطة، ونُقلن إلى لبنان، ثم عدن بأسماء مسيحية كل ذلك والشمّاسات يُنكرن محاولاتهن للتنصير ولذلك صدر سنة 1302 هـ – 1884م إنذار إلى المدرسة بعدم استقبال أي فتاة مسلمة في المدرسة، وإلغاء جميع العقود السابقة، وقد هدد الأمر أولياء البنات بالسجن إذا هم أرسلوا بناتهم إلى المدرسة.

أما القنصلية الألمانية فكانت لا تتدخل في الأمر ولا تدعم الشمّاسات أو تعارضهن، لكن المؤسسات التبشيرية الواسعة في ألمانيا، كانت تدعم بالمال كل الجمعيات التنصيرية في فلسطين[٦٨٣].

ولكن بالنتيجة.... كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل، وذلك بسبب التربية العربية والأسلامية المتأصلة بأهالي المنطقة، وشدة تمسك مسلمين هذه المنطقة، بعاداتهم وتقاليدهم، ونبذهم لكل مافيه تغريب عن بيئتهم ودينهم .

نتائج حملات التنصير على المسلمين

ونضرب هنا مثلاً واحداً لما جرى في واحدة من المؤسسات التبشيرية وهو مستشفى «معونة المسيح» الذي هو أصلاً مأوى للمجذومين، أقيم عند بوابة صهيون في القدس، واختير له هذا الاسم للدلالة على قوّة المسيحية وقدرته على شفاء المرضى. وكان المرضى المسلمون أو معظمهم يشاركون في القداس اليومي، كما كانوا يمارسون طقوسهم الإسلامية. وقد رأى القائمون على المأوى أن هذا يعدّ بحد ذاته نجاحاً كبيراً وهو تشكيك المسلم في عبادته. وقد صدر تقرير خطير عن هذا المأوى سنة 1306 هـ –1888م جاء فيه: «إن مسلماً – متنصّراً – عاد ثانية إلى الإسلام عند احتضاره وقال للراهب الواقف فوق رأسه والذي كان يقرأ له من الكتاب المقدس. لقد خُلقت مسلماً وأريد أن أموت كذلك» فأجابه القسّيس: «إن الخلاص لا يكون إلا بالإيمان بيسوع».

واشتكى مريض آخر بأنه يمنع من قراءة القرآن وحاول ثالث أن يدحض ما جاء في الإنجيل فطُرد فوراً من المأوى.

---

(683) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص107.

ثم تدخل رئيس بلدية القدس وأقنع القنصل الألماني بالقدس، بطرد المبشّر العربي من المأوى، ومنع التبشير، فوافق القنصل مرغماً ومُنع التبشير(٦٨٤).

التبشير الكاثوليكي الألماني

بعد قيام «الرايخ الثاني» سنة 188 هـ -1871م قامت في ألمانيا حملة شعواء ضد الكاثوليك وكنيستهم الألمانية، وكان بسمارك يقود الحملة تحت شعار «الكفاح الثقافي»...

وفي سنة 1304 هـ -1886م انتهت الحملة ومُنعَت ملاحقة الرهبان الكاثوليك والمؤسسات الكاثوليكية في ألمانيا.

وعندما زار الإمبراطور غليوم الثاني القدس سنة 1316-1898م ألقى مدير المؤسسة الكاثوليكية الثقافية أمام الإمبراطور خطاباً أعرب فيه عن أمله في رغبة الكاثوليك بأن يكونوا تحت راية الإمبراطور في نشر مذهبهم في فلسطين، أسوة بالبروتستانت.

ووافق الإمبراطور على دعمهم وقدَّم لهم الأرض لبناء كنيسة نياحة العذراء كما دعم جميع مؤسساتهم في فلسطين(٦٨٥). وصارت جمعيَّة القبر المقدس تدعم المؤسسات الكاثوليكية ولاسيما رهبنة الفرنسيكان وراهبات القديس يوسف وتشجع الرحلات إلى الأراضي المقدسة(٦٨٦).

كما قامت الجمعية الألمانية للأراضي المقدسة 1327/1313 هـ -1918/1895م والتي قررت مساعدة الألمان الكاثوليك في فلسطين ودعم مؤسساتهم ولكن نشاط الكاثوليك الألمان التبشيري كان أضعف بكثير من نشاط البروتستانت ثم انتهت آثار الفريقين ولم يتجاوز عدد الألمان في مؤسسات البروتستانت والكاثوليك عن بضع مئات...

نشاط الكاثوليك الألمان التبشيري

طالبت الجمعيات الألمانية الكاثوليكية بأن يكون لها دور في مناطق النفوذ الاستعماري الألماني.

وكانت هذه الجمعيات ترى أن الاستعمار بدون تبشير عمل غير محمود، لأن

---

(684) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، الصفحات 145، 146، 147.

(685) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص72.

(686) قفر سلامة، أملاك الألمان في القدس، المؤتمر السابع لبلاد الشام عمَّان 2006، وفيه تفصيلات وافية عن كنيسة المخلّص الكاثوليكية التي دشَّنها الإمبراطور غليوم في القدس سنة 1898م.

الإرسالية هي التي تقدّم «السند والدعم للنشاط السياسي الاستعماري الألماني فيما وراء البحار».

وكان الكاثوليك الألمان يرون أن الاستعمار هو ضرورة طبيعيّة لألمانيا، وأن الكاثوليك ملزمون بجعل كنيستهم تشارك في هذا التحول والارتقاء...

وقال مولر (*Müller*)، عضو جمعيّة الأرض المقدسة، بأن خطط الكاثوليك الألمان السعي إلى ملء كل المراكز الهامة في الشرق، وتأسيس مستوطنات ومدارس ومستشفيات وكنائس فيه...

وقال آخر: إنه لابد من شراء الأراضي في فلسطين لإقامة مستعمرات كاثوليكية عليها، وأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى إيقاظ السكان المحليين من عطالتهم وتدريبهم على الفلاحة، ودعم الطابع الألماني في الأراضي المقدسة دعماً متيناً[٦٨٧].

موقف الدولة العثمانية من «التبشير»

كان سوء الإدارة العثمانية، ينعكس على كل القرارات التي يتخذها المسؤولون في كل مجالات الإدارة، ولاسيما في موضوع التبشير أو التنصير.

وكان المبشّرون أو المنصّرون، يعرفون ذلك جيداً، فكانوا يعمدون إلى التحايل على القوانين أو استخدام سلاح الرشوة الذي كان متفشياً في الدولة حتى في قصر يلدز، كما ذكر هرتزل.

ولذلك كان يصدر القرار، وبعد بضع سنين تكتشف الدولة أن الآخرين قد التفوا حوله، فتعمد إلى التعديل والتبديل، وفي تلك الأثناء يكون المبشرون قد حققوا ما أرادوه كاملاً.

وفي سنة 1305 هـ -1887م تمّ إبرام اتفاقية بين القنصل الأمريكي في بيروت والدولة العثمانية، هذه خلاصتها:

- تقدم الإرساليات الأمريكية إلى السلطات العثمانية المحلية تقارير عن مناهج التعليم، ولوائح بأسماء المدرسين ونماذج عن الكتب المدرسية حتى يتم الترخيص بفتح مدرسة جديدة.
- ووافق القنصل الألماني في القدس على ذلك، وطلب من المؤسسات الألمانية، أن تحذو حذو المؤسسات الأمريكية، ورغم ذلك كله، وصلت

(687) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص203.

أخبار مؤكدة عن انتشار عمليات التبشير في المؤسسات الأوروبية المختلفة في الدولة[٦٨٨].

والأغرب من ذلك، فقد كانت الدولة، وبعبارة أدق السلطان عبد الحميد نفسه كريماً ومتسامحاً مع الأجانب الراغبين في بناء كنيسة أو مدرسة أو مستشفى أو مقبرة أو مؤسسة وكان يشدد على المسؤولين بالالتزام التام بحماية الأجانب وقمع أي مخالفة أو اعتراض من عند الأهالي.

وفي سجل الكنائس العربية في الدولة العثمانية نماذج كثيرة من «الفرمانات» التي توضح الفكرة.

ففي أحد الأوامر السلطانية إلى متصرف القدس، أمر بتمكين راهب الطائفة البروتستانتية في القدس المدعو: «يوردك» (*Jordjek*) من إنشاء مستشفى في القدس، مع التشديد على المتصرف «رؤوف باشا» بمنع أي اعتراض قد يظهر من الأهالي، بشرط ألا يسمح لأحدٍ من خارج الطائفة المذكورة بالعلاج في هذا المستشفى، والدعاية لها أو الضغط على الناس للدخول بالمذهب البروتستانتي[٦٨٩].

وفي قرار آخر نقرأ الموافقة على بناء كنيسة للطائفة البروتستانتية في بيت جالا مع ثلاث غرف لتعليم الأطفال والبنات والتاريخُ 12 آذار 1886م-1304 هـ[٦٩٠].

وفي وثيقة ثالثة نقرأ: «تقدّم المواطن الألماني «يورديك» (*Jordjek*) راهب الطائفة البروتستانتية بطلب للحصول على الموافقة السنية بمايلي:

أولاً - إنشاء مستشفى نعيم 16 غرفة في بيت جالا يستقبل الأهالي من بيت جالا وبيت لحم.

تثبيت شرائه لأرض مساحتها 7 دونمات خارج بيت لحم تكون مقبرة للبروتستانت.

ونفقات البناء (1000) ليرة ذهبية فرنسية تبرَّع بها الراهب المذكور.

ومن جهتنا لا يُوجد محذور من البناء على ألا يرغموا الناس على الدخول البروتستانتية[٦٩١] 13 آب 1887م-1305 هـ.

(*688*) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص79.

(*689*) عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، عمان المصدر الملكي للدراسات الدينية 1998م، وتاريخ الأسر 1887، ص57.

(*690*) عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية، المرجع السابق، ص49.

(*691*) عبد الرحيم أبو حسين، المرجع نفسه، السابق ص57.

وفي وثيقة رابعة طلب من هيئة التدريس الداخلة ضمن المؤسسات الألمانية الخاصة بطائفة البروتستانت في قرية بيت ساحور للموافقة على إقامة مدرسة على قطعة أرض أميرية إيجارها السنوي 7500 غرش وأبعادها 40×20 متراً والارتفاع 10 أمتار. ولا يوجد مانع لدينا في ذلك والحذر من المخالفة[٦٩٢].

والوثيقة الأخيرة لبناء كنيسة وبرج الناقوس فوق الأرض على طريق الطاحون خارج يافا من الخواجا لورخ و الخواجه فرانك من رعايا دولة ألمانيا العظيمة. وقد صدر الأمر بالموافقة كالعادة[٦٩٣]...

وبذلك يتضح مما عرضناه أمران:

1-أن ألمانيا كدولة لم تسعَ إلى تحقيق أية مطالب علنية أو سريّة في فلسطين منذ قيام الرايخ الأول سنة 1288 هـ -1871م وحتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

2-كما أنها لم تستغل المستعمرين الألمان في فلسطين لأغراضها السياسية، ولم تكن تدعمهم إلا في أضيق الحدود وضمن الاعتبارات الإنسانية، وكانت تتجاهلهم تماماً عندما كانوا يتمادون في طلباتهم[٦٩٤]....

ونختم الفصل بشهادة إنسان معاصر للسلطان عبد الحميد

وهو واحد من كبار الوطنيين في سورية: فارس الخوري[٦٩٥]، المسيحي البروتستانتي والذي عاصر السلطان عبد الحميد الثاني، فقد نظم بحق هذا السلطان قصيدة طويلة بعد عزله، وانتقد سياسته الداخلية والخارجيَة وأيّد الاتحاديين كما فعل كثيرون غيره.

(*692*) عبد الرحيم أبو حسين، المرجع نفسه، ص72.

(*693*) المرجع نفسه، ص73.

(*694*) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص127.

(*695*) فارس الخوري (1873-1962): سياسي ومفكر وطني. ولد في قرية الكفير التابعة حالياً لقضاء حاصبيا، من أب وأم بروتستانيين، درس في الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأمريكية في بيروت)، نظم الشعر وأولع فيه، تولى وزارات في العهد الفيصلي، أسس مع عبد الرحمن الشهبندر وعدد من الوطنيين في سوريا (حزب الشعب)، انتخب رئيساً للمجلس النيابي السوري عام 1936، ومرة أخرى سنة 1943، وتولى رئاسة مجلس الوزراء السوري، ووزير للمعارف والداخلية في سنة 1944، انتخب عضواً في مجلس الأمن الدولي (1947-1948) واصبح رئيساً له في آب 1947، عندما كان يمثل سوريا في مجلس الأمن، ترأس الوفد الدولي إلى هيئة الأمم للدفاع عن القضايا العربية، من أقواله: «إن قضية فلسطين لا تحل في أروقة مجلس الأمن ولكنها تحل على ثرى فلسطين». توفي في 2 كانون الثاني 1962 في مشفى السادات بدمشق. (***www.ar.wikipedia.org***).

ثم لمَّا تبين له ما حل بالبلاد من هـزائم وانتكاسات وعنصرية طورانية رهيبة ومـن شعارات براقة زائفة قال موضحاً دور السلطان في المحافظة على فلسطين من اليهود .

«لم أندم في حياتي على شي ندمي على قصيدة كنت نظمتُها إثر إعلان الدستور العثماني، وهجوت فيها السلطان عبد الحميد الثاني، فلقد تأكد لي، بما لا يقبل الجدل، أن هذا الخليفة الإسلامي قد راح ضحية الصهيونية العالمية بمنعه هجرة اليهود إلى فلسطين، ووضعه نظام الجواز الأحمر لكل يهودي يدخل فلسطين زائراً، ومنعه إياهم من تملك الأراضي، وقد انتقلت الدسائس ضده من يهود الدونمه في سالونيك مركز اليهود الأساسي المتظاهرين بالإسلام[٦٩٦] .....».

(696) كوليت خوري، أوراق فارس الخوري، مؤسسة طلاس، 1985م، ج1، ص166 وص404.

الفصل الخامس

موقف الدول الكبرى
من العلاقات العثمانية - الألمانية

موقف الدول الكبرى
من العلاقات العثمانية ـ الألمانية

أولاً ـ موقف الدول الكبرى
من العلاقات العثمانية ـ الألمانية

أ- موقف إنكلترا:

كانت إنكلترا من أشدّ الدول عداءً للدولة العثمانيّة على الإطلاق، وتعمل على محاصرتها وتقسيمها بصورة علنية، وذلك لأنها كانت أكبر دولة استعمارية، وكانت لها مصالح في المنطقة (مصر وطريق الهند)، وهذا ما فرض عليها الحالة العدائية مع الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من أن السلطان منحها درة الدولة العثمانيّة وهي قبرص، فإنّها مضت قدماً في نصب المكائد للسلطان والدولة العثمانية وهيّأت كل الأسباب لاحتلال مصر ومنع التدخل العثماني فيها، وكأن مصر من ممتلكاتها .

كما أنها عمدت إلى سد الخليج العربي تماماً في وجه القوات العثمانية وأقامت دويلات تابعة لها هناك، ثم خططت للتدخل المباشر في قلب الجزيرة العربيّة وأقامت فيها أمراء يحاربون الدولة العثمانية تحت ستار الدين والعقيدة الصحيحة، وكأنها كانت تريد لحبّها في المسلمين، تنقية الدين الإسلامي من الشوائب والأفكار الضارة.

و سيطرت على عدن والكويت وقناة السويس جعلت الجزيرة العربية ولاسيما المقدسات الإسلامية تحت السيطرة التامة لها دون أن يستطيع السلطان عبد الحميد الثاني «حامي الحرمين الشريفين» التدخل للحماية.

وعندما بوشر بالخط الحديدي الحجازي وقفت إنكلترا تعارضه بشدّة لأنه يربط بين المسلمين ويوحّدهم ويضاعف قوّتهم، وهذا بحدّ ذاته جرأة كبرى ترتكبها الدولة

والسلطان بحق بريطانيا العظمى، كما كانت بريطانيا تعلم تماماً أن جميع المسلمين في العالم بما فيه مستعمراتها، يأتمرون بأمر السلطان ويرونه خليفتهم.

ومن هذا المنطلق كانت بريطانيا تعارض تماماً كل ما من شأنه تقوية الدولة العثمانية وتدعيم مركز السلطان، وفي مقدّمة ذلك التقارب العثماني-الألماني، وما نجم أو سينجم عنه من مشاريع اقتصادية وعسكرية واتصالات وقوّة للدولة العثمانية العدو التاريخي لبريطانيا.

وسوف نعرض فيما يلي مواقف بريطانيا التفصيلية من ذلك التقارب ومدى نجاحها أو فشلها في عرقلته.

كانت بريطانيا تساعد قطّاع الطرق في اليونان وأرمينيا ومقدونيا، وتشدّ من أزر المعارضين للسلطان، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يدرك ذلك جيداً، وكانت سياسته في مقاومتها تعتمد على:

أ- عدم المجابهة العسكريَّة مع بريطانيا بأي ثمن، ومن هنا لم يتدخل في مصر مع أنه صاحب السيادة الاسمية فيها.

ب- محاربتها بالأساليب السلميَّة وفي مقدمتها الجامعة الإسلامية، وتوطيد علاقته بألمانيا التي أصبحت القوَّة العسكرية الأولى في العالم.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يقول:

«إن روسيا وإنكلترا مثل فأرين ينخران في جسد أمتنا وإني أخاف من إنكلترا أكثر من جميع الدول، لأن الإنكليز لا يمكن أن يتخلوا عن شيء أمسكوا به ولو مرة واحدة... وإنهم يحاولون فصل العرب والأرمن والأرناؤوط عن الدولة»[٦٩٧].

والأمر الذي كان يغيظ بريطانيا من السلطان هو رسوخ قدم السلطان عبد الحميد في الحكم ومحبة المسلمين له حتى في المناطق الواقعة تحت سيطرتها ولاسيما في مصر والهند.

وقد ازداد استياؤها من التقارب العثماني-الألماني ولذلك عمدت إلى استخدام سلاح ذو حدَّين وهو:

1- إثارة الأقليات والنعرات الطائفية الكثيرة في الدولة.

2- والتشكيك في جدوى أو عرقلة أي مشروع اقتصادي تقوم به ألمانيا في

(697) سليمان قوجه باش، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص304.

الدولة العثمانية ولاسيما السكك الحديدية وقد شرحنا موقفها بجلاء من خلال حديثنا عن الخط الحديدي الحجازي[٦٩٨].

وذكر القنصل البريطاني في دمشق «ريتشارد وود» (***Richard Wood***) أن أعيان دمشق وعلماءها هم العقبة الأولى في وجه «الإصلاحات» ويعني بالإصلاحات الإملاءات الغربية على الدولة العثمانية والتي كانت السبب المباشر لحوادث الستين.

وعبّر القنصل صراحة عن عدائه الشديد للشريعة الإسلامية وممثليها المسلمين[٦٩٩].

وقد وُضع تقريران في سنة 1296 هـ -1878م تحت تصرف الحكومة البريطانية مفادها:

أ- أن السوريين مستائين من الحكم العثماني.

ب- وإنهم يتوقعون سقوط مصر تحت الحكم البريطاني.

ج- وإنهم يريدون أن ينعموا بمزايا الحكم البريطاني أسوة بمسلمي الهند ولذلك فإنهم يرحبون بالقوات البريطانية في بلادهم[٧٠٠].

وفي تموز سنة 1878م-1296 هـ صدر تقرير ثالث من القنصل البريطاني في بيروت تحدث فيه عن «موجة الاستياء العامة» من الحكم العثماني.

وفي العام نفسه قام سكرتير السفارة البريطانيّة في الآستانة: «إدوارد ملت» (***Edward Melet***) بجولة واسعة في سورية ولاسيّما في حوران، وكان عمله الرئيسي فيها تحريض السكان على الحكم العثماني، وهو ما ذكره مدحت باشا بوضوح في تقاريره إلى السلطان عبد الحميد...[٧٠١].

موقف بريطانيا من خط حديد بغداد

كان موقف بريطانيا من التقارب الألماني العثماني ولاسيّما عند الإعلان عن خط حديد بغداد، موقفاً متحفظاً في بداية الأمر.

وكان باعتقاد بريطانيا أن النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، كفيل بإيقاف النفوذ الروسي فيها، وهو برأي البريطانيين أشد خطراً على مصالحها في المنطقة من النفوذ الألماني.

(*698*) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص115.

(*699*) ليندا شيلشر، دمشق في القرن 18 و19، ترجمة عمر الملاح ودينا الملاح، دمشق، 1998، ص67.

(*700*) عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية، بيروت 1998، ص68.

(*701*) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص71.

ولكن هذا الموقف سرعان ما تغيّر عندما أدركت بريطانيا أخطار هذا المشروع والتقارب كله والتي يمكن إجمالها في هذه النقاط:

1- إن مشروع خط بغداد إذا تم سوف يصرف كثيراً من الناس عن العبور من قناة السويس وهذا سيؤثر على أسهمها التي كانت بريطانيا تحاول الاستئثار بها.

2- كما يؤثر على خطوط الملاحة البريطانية في العراق.

3- ويهدد الوجود البريطاني في الخليج إذا ساقت الدولة وألمانيا قواتهما العسكرية إلى حدود الكويت.

4- كما أن الخطوط الملاحية الألمانية في الخليج عبر قناة السويس ستهدّد أمن الخليج.

ومما زاد قلق بريطانيا الوجود العسكري العثماني القوي في مسقط والبصرة والأحساء وشط العرب والعراق، لذلك بادرت إلى توقيع معاهدتها مع صديقها أمير الكويت سنة 1312 هـ -1899م(٧٠٢).

وفي سنة 1310 هـ -1892م نشر لورد كيرزن (*Curzon*) كتابه: «فارس والمسألة الفارسيّة»، وكان مما قال فيه: إنه يعتبر التنازل لروسيا عن ميناء في الخليج إهانة متعمّدة لبريطانيا العظمى قد يؤدي إلى الحرب.

وكانت بريطانيا ترى في خط بغداد مشروعاً حسناً ففي سنة 1312 هـ -1899م أراد القيصر غليوم الثاني (*Wilhelm II*)، زيارة جدته، ملكة بريطانيا في لندن، والتقى هناك وزير المستعمرات تشامبرلن (*Chamberlain*) ومستشار الخزانة بلفور (*Balfour*) وأبدى الاثنان مساندتهما لألمانيا في خط بغداد، واستحسنا الفكرة، وذلك لعرقلة تقدم روسيا في الخليج والرافدين والأناضول(٧٠٣).

ومن واقع هذا التقارب البريطاني مع ألمانيا، أيّدت ألمانيا بدورها بريطانيا في صراعها مع فرنسا حول حادث فاشودة في السودان سنة 1311 هـ -1898م، كما أن ألمانيا سكتت متعمّدة عن الوجود البريطاني في مصر(٧٠٤).

---

(702) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، ج3، ص1981.

(703) ألمانيا والعالم العربي، مجموعة باحثين، ص402.

(704) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانيّة في فلسطين، ص277.

وكانت بريطانيا تهوّن من شأن خط بغداد حتى أواخر القرن، ولا ترى فيه خطراً على مستعمراتها في الهند.

وفجأة أصبحت ألمانيا هي العدو الأخطر على بريطانيا وحاولت من جهتها التحالف مع فرنسا وروسيا ضد ألمانيا والدولة العثمانية معاً، ووقّعت الاتفاق الودي سنة 1322 هـ -1904م مع فرنسا، واتفاقاً مماثلاً سنة 1325 هـ -1907م مع روسيا لتطويق ألمانيا والدولة العثمانية[٧٠٥].

ويقول نجيب عازوري بأن بريطانيا سيطرت على قبرص بعدما أقنعت السلطان بأن وجودها في قبرص يجعل الأسطول البريطاني قادراً على تحطيم أي وجود روسي في الدردنيل وخليج الإسكندرونة ووادي الفرات.

فإذا تحركت روسيا في الدردنيل فإن القوة الإنكليزية الأسطورية سوف تنهار.

ولذلك كانت خطة إنكلترا في القرن التاسع عشر وضع العقبات والحواجز أمام التوسع الروسي على الخط الممتد من الدردنيل والدانوب حتى بريطانيا.

وكان من واجب ممثل بريطانيا في الآستانة مراقبة نشاط روسيا في البلقان والأناضول ووادي الفرات وسورية وفلسطين[٧٠٦].

ثم تبدل الحال وصار الوجود الألماني في الدولة العثمانيّة والمشاريع الاقتصادية الألمانية تعني تقوية الرجل المريض وبداية للهيمنة الألمانية على المنطقة، ولذلك وقفت بريطانيا مع فرنسا وروسيا ضد الدولة العثمانيّة والإمبراطورية الألمانية وهو ما يعدّ السبب الأقوى لنشوب الحرب العالمية الأولى[٧٠٧].

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في تقييم عام لموقف بريطانيا منه ومن الدولة:

«إنهم يريدون أن يكون الخديوي - عباس حلمي - خليفة على المسلمين، وهو يوشك أن يكون كافراً.

تلقى العلم في جنيف، ثم أتمّ دراسته في فيينا، فلابُدّ أن يتعوّد بعادات الغرب.

ولكن ليس من مسلم يعتزّ بدينه يقبل أن يحكمه واحد من طراز الخديوي عباس حلمي أو أن يكون خليفة على المسلمين[٧٠٨]».

---

(705) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق ص407. عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص217.

(706) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربيّة، مصدر سابق، ص103 وما بعد.

(707) سليمان قوجة باشي، السلطان عبد الحميد، ص435.. عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، ص47.

(708) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، 133.

«ولا يستغربنَّ أحدٌ أن يقوم الإنكليز بتنصيب لورد كرومر إذا اقتضى الأمر خليفة على المسلمين».

وقد كتبت صحيفة (*Sotndart*) بصراحة أن جزيرة العرب يجب أن تكون تحت سيطرة الإنكليز، وعدن المقرّ العام للتخريب في الجزيرة، ويقول السلطان: ونحن نفضل رؤية أساطيل ألمانية وفرنسية في البحر الأحمر على أن نرى إنكلترا تنفرد بالسيادة هناك.

وعندما يمد الخط الحديدي سيتغيَّر الحال»[٧٠٩].

ويرى السلطان أنه إذا سيطر البريطانيون على منطقة البحر الأحمر، فإن خط بغداد سيكون في خطر.

ثم يقول:

«ولقد رُفع العلم الإنكليزي في الكويت سنة 1319 هـ -1901م وقد استنكرنا هذا العمل بشدّة.

أما ألمانيا فقد أعلنت مشاركتنا في رأينا تجاه هذه الأحداث، وأعلنت استنكارها...

لقد قتل الإنكليز المئات بوحشية غريبة في بوشهر من قبيلة علي بن علي...

لقد أقام الإنكليز القيامة خلال ثورات الأرمن... أما الدول الكبرى،فقد التزمت جانب الصمت مما يدل على انعدام معاني الرحمة في قلوب الغربيين...»[٧١٠].

لقد كانت بريطانيا تكاد تفرض انتدابها على الدولة العثمانية، ووصلت في جبروتها تجاه الدولة حداً لم تصله دولة أخرى.

على سبيل المثال نذكر مسألة واحدة مشهورة عرفت بـ«حادثة جدة» شغلت العالم طويلاً.

وخلاصتها أنه كانت لأحد أهالي جدة المدعو: صالح جوهر، سفينة رفع عليها العلم البريطاني، لتحميه بزعمه، من الدول الأخرى، فنصحه أهل جدة بإنزال هذا العلم، ورفع العلم العثماني، ففعل ذلك وأنزل العلم البريطاني ورفع العلم العثماني، بوصفه مواطناً تابعاً للدولة العثمانية والسفينة ملكه.

فاغتاظ القنصل البريطاني في جدة، وهاجم السفينة وأنزل العلم العثماني وداسه بقدمه وشتم المسلمين ومقدساتهم.

فاستاء الناس في جدَّة لذلك وهاجموا «حي النصارى» في المدينة فهرب القنصل،

---

(709) المصدر نفسه، 135.

(710) المصدر نفسه، ص142.

فقتلوا نائبه والقنصل الفرنسي واثني عشر رجلاً من الأجانب، وانتشر الخبر في العالم الإسلامي، ووصل إلى دمشق فقامت التظاهرات فيها نصرة لأهل جدّة وفرحاً بإذلال الإنكليز.

ثم تدخلت بريطانيا لدى السلطان عبد المجيد وطلبت منه إطلاق يدها في جدّة، فإذن لها في ذلك، فشكلت محكمة في جدّة حكمت على 14 رجلاً بالإعدام ونفذ الحكم في الحال.

ولم يكتف القنصل البريطاني بذلك بل أراد إذلال السكان وطلب من الأمير «ابن عون» أمير مكة المكرمة أن يرافقه في زيارة البيت الحرام، إمعاناً منه في التشفي، وخوفه العاقبة، وأن حياته قد تتعرض للخطر، فخاف وتراجع عن الزيارة، هذا هو الموقف البريطاني من الدولة العثمانية، وهو يلخص كل المواقف الأخرى، حتى اليوم[٧١١].

ولم تقف رغبة بريطانيا عند إسقاط السلطان عبد الحميد بل إنها شاركت بصورة فعلية في عدة محاولات للإطاحة به قبل سنة 1327 هـ -1909م.

ففي سنة 1320 هـ -1902م أعد طلعت بك وزملاؤه خطةً للإطاحة بالسلطان عبد الحميد عن طريق الاستعانة بالقوات العسكرية الموضوعة تحت إمرة رجب باشا في ليبيا.

وقد توجَّه الأمير صباح الدين وإسماعيل كمال إلى بريطانيا لاستلام المساعدات منها، وقد رحَّب لورد ساندرسون (*Sanderson*) بالفكرة وقررت بريطانيا إرسال أسطولها إلى سواحل استانبول بحجة الزيارة العادية، ووضعته تحت تصرّف «الثوار».

وقام علي حيدر، ابن مدحت باشا بالحصول على مبلغ 10،000 ليرة ذهبية إنكليزية من لندن.

وبدوره قام اللورد كروم بمباركته لهذه «الثورة» وقال لإسماعيل كمال الذي التقاه في القاهرة: «إن هذه القضية قضيَّة بريطانيا أكثر من كونها قضيَّة تركيا، وإذا ما نجح هذا الانقلاب فلسوف يكون بمثابة ميلاد جديد لتركيا التي ستكون صديقاً لبريطانيا».

ومن سوء حظ بريطانيا وعشّاقها أن الخطط الموضوعة نفذت بعناية فائقة إلا خطّة واحدة وهي أنّ رجب باشا لم يرسل أيَّ جندي من ليبيا[٧١٢]...

يقول أرمينوس فامبيري (*Arminius Vambere*) الجاسوس الإنكليزي عن السلطان

(*711*) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مصر، *1887*، ص*367*، وفيه الحادثة مفصل تماماً.

(*712*) سليمان قوجه، السلطان عبد الحميد، ص545.

عبد الحميد الثاني: إن بريطانيا لن يتسنّى لها اكتساب صداقة السلطان ووده، وقررت ضرورة الإطاحة به وعزله...

ثم يقول: إنه لزام علينا الإسراع في تفتيت الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها. وعلى بريطانيا أن تتدخل فوراً لمد يد العون إلى العناصر المناوئة للسلطان عبد الحميد...

ولقد أوصيتُ في تقريري بأن تؤيد بريطانيا الجماعات الموجودة في السعودية الرابحة في يد الإنكليز[٧١٣]...

وعندما جاء السفير البريطاني الجديد إلى الآستانة، أقام علاقة وطيدة مع جماعة تركيا الفتاة، مما أدى إلى ازدياد نفوذ البريطانيين وشدة وطأتهم.

وقال السلطان عبد الحميد الثاني عن صديقه الحميم «أرمينوس ڤامبيري»: «لقد قام هذا الرجل بمساعدة بريطانيا بإقامة علاقة وثيقة مع المعارضين ثم شرع في النهاية يكثف من وطأة هجومه على شخصي... وقد أجمع أعداء الإمبراطورية على أنهم لن يستطيعوا القضاء على الدولة العثمانية دون القضاء على السلطان أولاً..

وقد أعلن ڤامبيري إهانته لي عياناً بياناً. ويقول: لقد اشتد عداء الإنكليز لنا منذ منحنا الألمان امتياز خط بغداد، واشتد عداء فرنسا أيضاً التي كانت تتعلق بأذيال السياسة الإنكليزية[٧١٤].

وكان طريق العالم الكبير، من وجهة نظر بريطانيا، يمر من قبل الدولة العثمانية، وكان طريق الشرق، وطريق الحرير يمر من الأراضي العثمانية.

وكان معظم سكان الإمبراطوريّة البريطانية في آسيا هم من المسلمين الذين يدينون بالولاء الحقيقي للسلطان عبد الحميد، وليس لبريطانيا[٧١٥].

ولذلك لجأت بريطانيا إلى التقرُّب من الدولة العثمانية بحساب دقيق جداً، وفي الوقت نفسه لم تكفّ عن التخريب داخلها بإثارتها الأكراد والأرمن والعرب وصولاً إلى الهدف الأسمى وهو إسقاط السلطان عبد الحميد، آخر الخلفاء المسلمين الحقيقيين، ووضع سلطان جديد لا حول له ولا قوة.

وكان للتفوق العسكري العثماني الذي بدا واضحاً في حرب اليونان أثر قاتل على

---

(713) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص508.

(714) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص509.

(715) Yrd.Doç.Dr.Av. Faruk Yılmaz, imparatorluk döneminde Türk-Almaniliskileri- Ankara 2004, P.50-51.

بريطانيا، إذ أثار هذا الانتصار مخاوف بريطانيا من عودة القوة العثمانية من جديد، ولذلك لم تغفل يوماً واحداً عن الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يعلم تماماً بهذه النوايا الاستعمارية المدمّرة[٧١٦].

وكانت بريطانيا تتحرك ضمن الدولة العثمانية من خلال الأرمن الذين أرادت بريطانيا أن تقيم لهم دولة في الأناضول، لكن السلطان عبد الحميد الثاني كان يعرف ذلك تماماً، ولذلك قال للإمبراطور غليوم الثاني: «إنني أفضل الموت على القيام بإصلاحات تجعل من الأناضول الشرقي منطقة ذات استقلال ذاتي»[٧١٧].

ومن العوامل التي أهاجت أوروبا عموماً وبريطانيا خصوصاً ذلك الانتصار العثماني الهائل على اليونان، والذي جاء بعد سلسلة من الهزائم والنكسات التي منيت بها الدولة العثمانية من الحرب الروسية - العثمانية المشؤومة إلى تسليم قبرص إلى سقوط تونس ومن بعدها مصر[٧١٨].

وكانت أوروبا تردد شعارها علناً وتسير على هداه وهو: «- إن ما أخذه الصليب من الهلال لا يمكن أن يعود إلى الهلال».

- وما أخذه الهلال من الصليب لابد أن يعود إلى الصليب». وهو ما يمكن تسميته بالحرب الصليبية الجديدة.

ولذلك عندما طالبت الدولة العثمانية بالاحتفاظ بمساحة من الأرض اليونانية على الحدود، قال لورد سالزبري في مجلس العموم: «لا سبيل إلى إعادة أي شيء إلى الهلال سبق له أن انتقل إلى الصليب».

لقد خرجت الدولة العثمانية منتصرة في الحرب اليونانية لكنها عوملت وكأنها دولة مغلوبة.

لقد كانت بريطانيا بالتحديد. وراء معاهدة استانبول في 9 تشرين الثاني 1315 هـ -1897م التي قضت بانسحاب تركيا من الأراضي اليونانية، وتسليم كريت لليونان، وطرد أهلها المسلمين الذين جيء بهم إلى الأناضول ودمشق، وهكذا ظهرت بريطانيا بوجهتها القبيح الذي كانت تخفيه أو تظهره بحسب الظروف[٧١٩].

---

(716) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص126.

(717) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص119.

(718) ***Kazim Karabekir, op-cit, P.228***

(719) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص403.

وكان في بريطانيا، كما في أوروبا كلها، رجال شرفاء منصفون ينظرون إلى الدولة العثمانية بدون تحيز أعمى، ولكنهم لا يؤثرون في سياسة بلادهم لأنهم قلة.

وهذا مايثبته قول السِّير «ريتشارد وود» (*Richard Wood*) قنصل بريطانيا في تونس، وهو من المستشرقين المعتدلين، «بأن الدولة العثمانية حرصت على إرضاء رعاياها من النصارى واليهود، وإزالة الفروق بينهم وبين المسلمين، وتقليدهم المناصب الرفيعة وإعلاء شأنهم»، ثم يقول:

«ولا يخفى أن الباب العالي وجد في هذا السبيل مقاومة من الرعايا المسلمين، بل من الكنائس نفسها لما بينها من العداوات حتى صار النصارى يتعلمون من دولة إسلامية أهداف الدين من الحضّ على الرفق واللين والتساهل والصبر»[٧٢٠].

ومن الرجال الإنكليز الذين أنصفوا السلطان والدولة العثمانية المستر «كليف بجهام» (*Cliff bjaham*) المندوب العسكري في السفارة الإنكليزية في بطرسبورغ في كتابه: «مع الجيش العثماني في تساليا» الذي قال:

إذا كانت بريطانيا، بقوَّتها الهائلة تئن من ايرلندا، فكيف يكون السلطان الذي يقود دولة فيها خليط من الأجناس والأديان والمقاصد، لا يقدر عليها إلا الذي خلقها.

وإني بلسان الإنصاف أدعو كل إنكليزي أعماه الغرض أن يخصص وقتاً ليرى الدولة العثمانية على حقيقتها.

ثم يقول: كان بودّ الكثير ممن أعماهم الغضب من الإنكليز أن تستولي روسيا على الآستانة وتُنهي المسألة الشرقية ولكن خاب فألهم فهم على جانب عظيم من الجهالة والحمق، ألا يدرون أن البحر المتوسط يصبح تحت رحمة روسيا؟

إذا كانت بريطانيا لا تكفل السلام في بريطانيا فما بالك بالدولة العلية وعندها ما يماثل أضعاف ايرلندا من يونان وبلغار وأرمن وأفلاق وأكراد وأرناؤوط ودروز وشوام مع اليهود والعرب والشركس جميعهم يكرهون بعضهم، ومع ذلك تحكمهم الدولة بالعدل والأمان وإن دولة كهذه تملك نظاماً أقوى من النظم الأوروبيّة[٧٢١]...

وإن المذابح الأرمنية لم تكن مدبرة، بل كانت نتيجة خمسة أسباب أهمها التشهير بها في بلاد الإنكليز وسب السلطان الأعظم علناً، وسبّ دين الإسلام، وقد كان لذلك وقع سيء في قلوب المسلمين، ونتج عنه سقوط نفوذ بريطانيا في الدولة العثمانية.

---

(720) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في سورية، مرجع سابق، ص314.

(721) علي شاكر باشا، القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان، القاهرة، ص21

كما أن السير «غراي» (*Gray*) سفير بريطانيا في الآستانة غير منصف في طلباته لحماية المسيحيين.

كما أن الضغط البريطاني على الدولة العثمانية أثار المسلمين ضد الأوروبيين، وكانت المذابح دفاعاً عن النفس لأنه لا يعقل أن يسمح السلطان للأرمن بأن يسودوا على المسلمين[٧٢٢].

وأخيراً قامت بريطانيا بتدبير خلع السلطان عبد الحميد، وكانت تلك الضربة القاضية التي أدت إلى انهيار الخلافة والدولة العثمانية فيما بعد، وأنتجت الواقع المرير الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية اليوم من تجزئة وتشرذم كبيرين.

لقد قام التنظيم السريّ البريطاني بتنظيم قوة المعارضة العثمانية ودبروا معاً ما يعرف بحادثة 31 آذار 1909، ونزل جيش الحركة بقيادة محمود شوكت باشا إلى شوارع استانبول وكانت السفارة البريطانية في الآستانة العقل المدبّر لكل ما حصل يوم 31 آذار وما قبله وما بعده.

وكان عميل البريطانيين الأول في الآستانة هو إسماعيل كمال، وهو أرناؤوطي متسلّط. وقد أوصله الإنكليز إلى رئاسة مجلس «المبعوثان» بعد أحداث تموز 1908م-1326 هـ[٧٢٣].

والخلاصة فإن بريطانيا لم تكن صديقة للعالم الإسلامي والعربي في أيّ وقت أبداً، ولكن كانت تحبُ أن تبدو في أعين العالم الإسلامي دولة صديقةً، ولا زالت كذلك[٧٢٤]. وستبقى بريطانيا وغيرها، مهما غيرت من أقنعتها الاستعمارية الغادرة، ذلك العدو الطامع المتربص ببلادنا والطامع في خيراتها، والراغب في تقسيمها والسيطرة عليها مهما تغيرت الأزمان.

ب- موقف روسيا:

كانت روسيا هي العدو التقليدي الثاني للدولة العثمانية وكانت تحلم على مدى القرون بالسيطرة على استانبول أو القسّطنطينية تمهيداً للسيطرة على «أرثوذكس الشرق».

---

(722) علي شاكر باشا، المرجع السابق، ص183.

(723) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص165.

(724) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص281.

وكانت كنيسة روسيا تابعة لكنيسة القسطنطينية وبقيت كذلك حتى سنة 1589 ثم أصبحت بطريركية مُوسكو التي أخذت على عاتقها مساندة الشعوب السلافية ضد الدولة العثمانية وسعت لنشر نفوذها على العالم الأرثوذكسي بكاملة، وقد اعتبرت نفسها «روما الثالثة» بعد روما الأولى، وروما الثانية أي القسّطنطينية[٧٢٥].

ومن جهة أخرى فقد بدأ النفوذ الفعلي الروسي في السلطنة العثمانيّة منذ معاهدة «كارلو فيتز» (*Karlo Witz*) التي وقعت مع بطرس الأكبر، والتي نصت على أن قيصر روسيا سيكون «وسيطاً» بين السلطان العثماني وبين رعاياه المسيحيين الأرثوذكس.

وصارت روسيا تغّلفُ مصالحها السياسية في الدولة العثمانية بغلاف ديني سمي بـ«الجامعة الأرثوذكسية» وكانت ترى نفسها مسؤولة عن جميع الأرثوذكس تجاه الدولة العثمانية.

ولذلك عمدت إلى إثارة البلقان واليونان حتى تصل إلى هدفها الأسمى وهو القسطنطينية[٧٢٦].

وفي معاهدة «كوتشك قينارجة» (*Küçük Kaynarca*) سنة 1188 هـ -1774م، حصلت روسيا على حق تشييد كنيسة لها في الآستانة، يكون بطاركتها تحت حماية الوزير الروسي المفوَّض في الآستانة.

وقد كانت هذه المعاهدة، وتباين تفسير بنودها السبب الرئيسي في الخلافات العثمانية - الروسيَّة حتى قيام الثورة العظمى في روسيا 1336 هـ -1917م.

وجاءت حرب القرم ومعاهدة باريس 1273 هـ -1856م ضربة قوية لروسيا، حيث أُلغيت في المعاهدة المذكورة الحماية الدينية الروسية على الأرثوذكس في المشرق العربي، لكن روسيا لم تيأس، وحاولت إيجاد دور لها، ولاسيما في فلسطين، حيث أسست سنة 1300 هـ -1882م «الجمعية الفلسطينية الإمبراطورية الأرثوذكسية» التي عملت بالتنسيق مع رجال السياسة والدين على دعم النفوذ الروسي الديني والاقتصادي الروسي في فلسطين[٧٢٧].

لقد ذكر الإمبراطور غليوم الثاني أنه عندما كان في وزارة الخارجية تحت إمرة

---

(725) ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، المكتبة البولسية، بيروت سنة 1999، ص277.

(726) روسيا وأرثوذكس الشرق، مجموعة باحثين، جامعة البلمند، لبنان، 1998م، ص238. و *Kazim Karabekir, op-cit, P.299-300*.

(727) روسيا وأرثوذكس الشرق، المرجع السابق، ص241.

بسمارك قال له بسمارك إن هدفه الثابت هو عدم قيام أي تحالف بين روسيا وبريطانيا بأي حال من الأحوال، ولقد كانت هذه خطة بسمارك الأساسية وبناءً عليه فقد قال:

«قُلتُ لبسمارك لقد سنحت لنا الفرصة في الماضي، وما كان علينا في الحرب الروسية- العثمانية إلا أن ندع الروس يقتربون من الآستانة، حتى تهبُّ بريطانيا لصدّهم وستنشب الحرب بين الدولتين.

ولكننا بدلاً عن ذلك أجبرنا الروس على قبول معاهدة آياستيفانوس، واضطررناهم للتقهقر بعدما وصلت جيوشهم إلى أبواب القسطنطينية، ثم كانت معاهدة برلين سنة 1296 هـ -1878م التي سلبنا فيها مكتسبات روسيا المنتصرة، وكانت النتيجة عداءً تاريخيًا من الروس تجاهنا . وأكمل قائلاً: «في الواقع أنه منذ مؤتمر برلين انتهى التفاهم الروسي - الألماني، نهاية محزنة وحلَّ محله التقارب الروسي-الفرنسي وهو ما لم يدركه بسمارك وبذلك خرجت دولتان من الدول الصديقة لألمانيا وصارتا تعملان ضدناً»[٧٢٨].

ويقول: ولقد سمعت ذلك من الضباط البروسيين الذين كانوا يقاتلون في صفوف الروس في الحرب الروسية - العثمانية وأولهم الكونت «بفايف» (*Pfeif*)»[٧٢٩].

ويقول الإمبراطور الألماني: «لقد التقيت كبار الضباط الروس في «بريست لينُوفْسك» (*Brest Linowisk*) فقالوا: إن مؤتمر برلين كان غلطة قاتلة لألمانيا تجاه روسيا، فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط ومن الحكومة، ويشعر الجيش أن بسمارك جنى عليه جناية عظيمة بعد الحرب الدموية التي خاضت غمارها سنة 1294 هـ -1877م، وأنه لابد أن ينتقم لنفسه، وهكذا فإنك تجدنا حلفاء هذه الجمهورية الفرنسية الملعونة الممتلئة بغضاً لكم والقائمة على أفكار مخرّبة قد تكون السبب في خراب هذا البيت المالك إذا وقعت الحرب بيننا وبينكم، وهذا ما حدث بعد ذلك»[٧٣٠].

وذكر غليوم الثاني أنه في أثناء وجوده في «برست لينوفسك» (*Brest Linowisk*) أنه التقى القيصر الروسي «الكسندر الثالث»[٧٣١] (*Alexander III*) وقد قال له:

(*728*) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني ص10.

(*729*) المصدر نفسه، ص10 و11.

(*730*) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ص19.

(*731*) الكسندر الثالث (*Alexander III*): من أسرة رومانوف (1845-1894) قيصر روسيا السابع عشر ما بين عامي (1881-1894) خلفاً لأبيه الكسندر الثاني. (*www.ar.wikipedia.org*).

«إذا أردتُ الأستانة فإني قادر على الاستيلاء عليها متى شئت بدون الحاجة إلى نصائح بسمارك وإذنه...»(٧٣٢). ولكن السياسة الروسية تغيرت تجاه ألمانيا بعد وفاة القيصر الروسي الكسندر الثالث، وجلوس القيصر نيقولا الثاني(٧٣٣) على العرش، فلقد ذكر غليوم في مذكراته: أنه في سنة 1319 هـ -1901م ألح رئيس الوزراء البريطاني تشمبرلن إلى روسيا في محاولة منه لعقد اتفاق ضد ألمانيا، فاعتذر القيصر نيقولا عن ذلك بسبب أواصر القربى بين القيصرين الروسي والألماني والعلاقات التاريخية بين الجيشين الروسي والبروسي(٧٣٤). ثم ما لبث أن عمدت بريطانيا إلى عقد اتفاق مع اليابان ونشبت على أثر ذلك الحرب بين روسيا واليابان وهزمت روسيا هزيمة نكراء جعلتها تنصرف تماما عن أمور الشرق وتحصر اهتمامها في الهند ومشاكل البلقان والأستانة وفارس(٧٣٥).

والمهم أن روسيا اتبعت مع الدولة العثمانية بعد مؤتمر برلين 1395 هـ -1878م سياسة الحرب الباردة وإثارة القلاقل في بلغاريا وكريت(٧٣٦).

ومنذئذ صارت سياسة روسيا تجاه الدولة العثمانية تتبلور ضمن المحاور التالية:

1- سحب تأييد روسيا للأرمن، حتى لا تكون روسيا ألعوبةً بيد بريطانيا الداعمة للأرمن أبداً.

2- المحافظة على الوضع الراهن في أوروبا حتى تنعم روسيا بالحرية المطلقة في البلقان والشرق الأوسط.

3- إعداد الجيوش الروسية وتجهيزها تدريجياً كي تحقق هدفها في الوقت المناسب وهو احتلال القسطنطينية(٧٣٧).

وعندما علم السلطان بهذه السياسة عمد إلى تغيير سياسته فوراً تجاه روسيا وكان يقول إن المتاعب والمصائب التي سببتها لنا روسيا في الماضي القريب لن تُمحى من الذاكرة، إنها أخطر وأكبر عدوٍ مفزعٍ قريبٍ من حدودنا.

---

(732) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، المصدر السابق، ص19.

(733) نيقولا الثاني: آخر أباطرة روسيا، استمر حكمه من (1894 عند وفاة والده ألكسندر الثالث حتى 1917 حين تنازل عن العرش لأخيه الدوق الأكبر ميخائيل ألكسندر فيتش، ينتسب إلى عائلة رومانوف الإمبراطورية، أعدم مع أسرته رمياً بالرصاص في 17 تموز 1917، بعد الثورة البلشفية في روسيا. (**www.ar.wikipedia.org**).

(734) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ص21.

(735) عازوري، المصدر السابق، ص84.

(736) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دمشق، 1990، ص147.

(737) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، ص296.

وعلى هذا الأساس عمد السلطان إلى استرضاء القيصر الروسي وإتحافه بالهدايا القيمة، وكان يرسل كلاً من فؤاد باشا وطورخان باشا إلى قصر القيصر الروسي على ساحل البحر الأسود.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يقول لابنته عائشة: «إني كنت لا أفوّت أدنى فرصة لتقوية أواصر الود والصداقة مع القيصر الروسي من أجل حماية الدولة العثمانية من المخاطر المهلكة الآتية من روسيا»[٧٣٨].

أما عن التقارب الألماني العثماني، فلم تكن روسيا مرتاحة إليه، كما أنها لم تكن ترتاح لأي تقارب مع أي دولة أخرى، طالما أنه يفيد الدولة العثمانية أو يقوّيها. وقد وقفت موقف العداء تجاه هذا التقارب؛ لأنها ترى أن ألمانيا أخرت انهيار الدولة العثمانية بدعمها العسكري والفني لها. ولذلك أثارت المتاعب في وجه الدولة من الشرق والجنوب والغرب.

فمن الشرق، كانت روسيا منزعجة تماماً من التغلغل الملاحي الواسع لبريطانيا في الرافدين والخليج وبالقرب من إيران، الحليف التاريخي لروسيا.

وكانت بريطانيا ترى في العراق ما تراه فرنسا في سورية، وتعتبره بشكل أو بآخر من نصيبها، ولذلك وافقت على عروبة إقليم عربستان ودافعت عنها، بينما وقفت روسيا مع إيران لضم هذا الإقليم إليها.

ومن الجنوب، كانت تنتهز الفرص لإثارة القلاقل بين الأرمن، على الرغم من سياستها المعلنة بعدم استعدادها لمساعدة الأرمن أو إقامة دولة لهم على حدودها. ومن الغرب أثارت البلقان وغيرهم. وعندما حاولت اختراق الخليج تصدّت لها بريطانيا بدون أن تكلف الدولة العثمانيّة هذا العناء[٧٣٩].

وقد أثارت روسيا معركة صحفية عنيفة ضد مشروع سكة حديد بغداد.

ونشرت جريدة «نوڤويا ڤريميا» (*Novoye Vermya*) المشهورة في آب 1901م1319 هـ مقالاً شديد اللهجة ضد المساعي الألمانية في السلطنة.

ومما قالت فيه: «إن سكة حديد بغداد ستعطي ألمانيا الأساس المادي الذي يمكنها فرض سيطرتها من هامبورغ إلى الكويت مما يؤدي إلى فصل العالم السلافي عن العالم اللاتيني».

---

(738) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، ص298.

(739) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج3، ص1359. و ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit, P.161-162***.

وقد عرض البارون الروسي كابنيست (*G.Capnist*)، في سنة 1316 هـ -1898م مقترحات لإنشاء خط حديدي من طرابلس في لبنان إلى بغداد والبصرة والكويت، ولكن هذه المقترحات فشلت نتيجة معارضة بريطانيا التي كانت حريصة على منع تغلغل الروس في الخليج.

ومن جهة أخرى رفضت روسيا الهيمنة البريطانيّة في الخليج والشرق الأدنى وقالت بأن أكثر من نصف سكان الخليج يتبعون الدولة العثمانية على الرغم من وجود مصالح بريطانية خاصة لا تحب روسيا المجادلة فيها.

ثم مارست روسيا ضغوطاً على الدولة لممارسة حقوقها في الخليج[٧٤٠].

وفي مواجهة الخطر الألماني المحتمل والذي بدا واضحاً من تغلغل الألمان في الدولة العثمانية ولاسيما بعد نجاحها في الحصول على مشروع خط حديد بغداد عقدت روسيا مع بريطانيا معاهدة سان بطرسبورغ (*Saint Petersburg*) في 31/آب/1907م-1325 هـ وكان من أهم ما جاء فيها: اقتسام الدولتين لأراضي إيران، وتمثل هذه المعاهدة مثالاً صارخاً لاغتيال حقوق سيادية لدولة كبيرة وهي الدولة العثمانية وتقسيم أراضيها دون علمها، وأهم آثار هذه المعاهدة أنها مكنت بريطانيا من السيطرة التامة على منطقة الخليج العربي بما في ذلك الساحل الشمالي للخليج حيث ميناء «بندر عباس» وقد أدى إلى تنامي معارضة بريطانية وروسيا لمشروع خط بغداد الألماني[٧٤١]، لكن بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني عقد الإمبراطور الألماني مع القيصر الروسي نيقولا الثاني اتفاق بوتسدام (*Potsdam*) 19/آب/1911م-1330 هـ تراجعت فيه روسيا عن معارضتها للخط مقابل قيام روسيا بتمديد الخطوط الحديدية في بلاد فارس. وبعد عامين حذت بريطانيا حذو روسيا ووقعت اتفاقاً مع الدولة العثمانية في 29/تموز/1913م-1332 هـ حول الخليج العربي الذي أصبح في حقيقة الأمر خليجاً بريطانياً[٧٤٢].

وقد ردّت ألمانيا، منذ بدايات التقارب على روسيا فقد دعا البرلمان (***Bundesrag***) الألماني في برلين إلى وقفة مترابطة ضد العدوان الروسي على الأجزاء الأوروبيّة من الدولة العثمانية، لوضع نهائي وأبدي لأطماع روسيا بالقسْطنطينيّة.

وإن الذي يُغري روسيا بالسلطنة ليس تحرير الأرمن وإنما القيام بحرب دينية

(*740*) مجموعة باحثين، ألمانيا والعالم العربي، دار صادر، بيروت، 1974م، ص401 وما بعد.

(*741*) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج3، ص221، 222.

(*742*) الشناوي، مرجع سابق، ج3، ص224، 225، 226.

تتضمن السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين التي يؤمها كل عام آلاف الحجاج الروس.

وكانت روسيا، كما فُهِمَ في ألمانيا، لا يمكن أن تقتنع بالوصول إلى البحر المتوسط وخليج الإسكندرونة؛ لأن شعبها سيطالبها بالزحف لاسترداد الأراضي المقدسة، وهي بدورها تفهم ذلك جيداً وتسعى إلى تطبيقه[٧٤٣]....

أما الإمبراطور غليوم الثاني: فلم يكن يقيم كبير وزن لروسيا ولا لأحلامها، وكان يرى أن بوسعه إن أراد امتلاك الأناضول قبل أن تتمكن روسيا من التحرك[٧٤٤].

ولم تكن روسيا بحاجة إلى ذريعة محدَّدة لتبرير مواقفها العدوانية من الدولة العثمانية، ومع أنها استاءت من التقارب العثماني-الألماني إلى حد كبير، فإن ذلك لم يزد من عدائها للدولة العثمانية؛ لأن عداءها قديم وعميق لا يحتمل الزيادة.

لقد عاشت روسيا منذ نشأتها تحت وطأة هاجس الخوف من الدولة العثمانية على حدودها، والعداء للمسلمين داخل بلادها.

وكان القياصرة يرون أن محاربة الإسلام والمسلمين في داخل روسيا جزءاً من محاربة العثمانيين والمسلمين.

ومن جهة أخرى كان هدفهم الأسمى الحصول على درَّة التاج العثماني وهي استانبول أو القسطنطينية، وبذلك تتحقق لروسيا السيطرة العسكرية والروحية على أراضي الدولة العثمانية، وسكانها من الأرثوذكس[٧٤٥].

[وكانت كنيسة موسكو قد انشقت عن بطريرك القسطنطينية سنة 998 هـ - 1589م[٧٤٦]، وحمل متروبوليت موسكو لقب بطريرك.

وعندما جاء بطرس الأكبر[٧٤٧] ألغى بطريركية موسكو واستعاض عنها سنة 1134هـ

(*743*) لورنس أوليفانت، أرض جلعاد، ص469.

(*744*) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص141 وما بعد.

(*745*) مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، ص102.

(*746*) الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لبطريركية موسكو، هكذا أصبح اسمها بعد أن انشقت عن بطريركية القسطنطينية، حيث اعتبر الروس الأرثوذكس موسكو بأنها روما الثالثة (بعد القسطنطينية روما الثانية)، وبأنها آخر حصن للعقيدة الأرثوذكسية الحقة، ففي عام 1589 نال رئيس الكنيسة الروسية لقب بطريرك واضعاً نفسه بمرتبة بطاركة القسطنطينية، الإسكندرية، أورشليم. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*747*) بطرس الأكبر، أو بيتر العظيم أو بيوتر الكسيفيتش رومانوف (1672-1725) قيصر روسيا الخامس، حكم روسيا من عام *1682* خلفاً للقيصر فيودر الثالث وحتى وفاته عام *1725*، ويعتبر من أعظم من حكم روسيا على

-1721م بمجلس كنسي، فأصبحت الكنيسة آلة في يد القياصرة، وصار القيصر يملك السلطة السياسية والدينية][٧٤٨].

ومنذ عهد بطرس الكبير، صار العداء للدولة العثمانية شعار جميع القياصرة الذين كانوا يعزفون على وتر القومية الروسية وعلى وتر الكنيسة الأرثوذكسية لإثارة الروس ضد الدولة العثمانية أيًا كانت مذاهبهم.

وإذا حصل تعديل في هذه السياسة، فهو تعديل مؤقت لأسباب خاصة، ثم يعود العداء الأبدي السياسي والأيدلوجي للدولة العثمانية كما كان، ولم تتغيّر هذه النظرة إلا بعد سقوط حكم القياصرة سنة 1336 هـ -1917م.

ولقد كانت الدولة العثمانية من وجهة نظر روسيا حكومة وشعباً الدولة التي تحجب عنهم ضوء الشمس، لأنها تسيطر على المضائق، وعلى القسطنطينية باعتبار العثمانيين هم الورثة الشرعيون للإمبراطورية البيزنطيّة.

وبدورها كانت الدولة العثمانية تقف في وجه التوسعات الروسية الاستعمارية والتي بدأت منذ عهد بطرس الأكبر وآتت ثمارها في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية[٧٤٩] (*Catherine II*)[٧٥٠].

وممًا زاد في حدَّة العداء العثماني - الروسي، أن روسيا كانت تؤلّبُ كلاً من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبان مالطة والبابا على محاربة الدولة العثمانية ومحوها من الوجود تماماً.

والغريب أنه لم يكن هدف روسيا خاصة، وأوروبا عامة تحرير المسيحيين من حكم المسلمين، وإنما وضع المسلمين تحت رحمة أوروبا[٧٥١]، بالإضافة إلى الأهداف والأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وكان مبدأ «الجامعة الأرثوذكسية» في مقدمة أهداف روسيا.

مدار تاريخها، وهو مؤسس مدينة بطرسبورغ والتي مثلت عاصمة لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها، خلفه في الحكم زوجته الإمبراطورة كاترين الأولى. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*748*) المطران ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، ص281.

(*749*) مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، ص103.

(*750*) الإمبراطورة كاترين الثانية: (*1729-1796*): إمبراطورة روسيا الثانية عشر من 1762 حتى وفاتها 1796، وهي جدة كلاً من القيصر ألكسندر الأول والقيصر نيقولا الأول. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*751*) مجدي الصاخوري، المرجع السابق، ص104.

ففي سنة 1313 هـ -1895م عرّف جنرال روسي الجامعة الأرثوذكسية «بأنّها رباط الأخوّة الذي يجمعُ بين المسيحيين الأرثوذكس ويجعل الجيوش تحارب في سبيلها».

وقال: «أنا ابن كنيستي قبل أن أكون ابن بلدي. أنا أرثوذكسي يوناني ثم روسي في الدرجة الثانية. وإن الروس لا يساوون شيئاً إذا لم يكونوا وطنيين، لكنهم مسيحيُون قبل أن يكونوا روساً...»[٧٥٢].

وفي سنة 1296 هـ -1878م عندما تم إنشاء بلغاريا الكبرى، وأُنشأت الجامعة السلافية من روسيا إلى جانب الجامعة الأرثوذكسية، وصارت روسيا توظف هاتين الجامعتين لإفهام الدولة العثمانية المسلمة أنه لم يعد للإسلام سلطان على النصارى...[٧٥٣].

وكان السلطان عبد الحميد يُحاول إثارة الفتن بين روسيا وعدوّتها التقليديّة النمسا.

ولم يكتف بذلك بل إنه حاول إقامة تحالف أو تفاهم مع الدولة التي لم تخطر على بال أحد، وهي اليابان التي كانت دولة ناشئة وتجاور روسيا، ولذلك كان ابتهاج السلطان والمسلمين لا حدّ له بهزيمة روسيا النكراء أمام اليابان سنة 1323 هـ -1905م والتي خلدها الشعراء العرب في دواوينهم، وقال السلطان: «لقد سعدنا كثيراً بهزيمة روسيا وانتصار اليابان وهو ما نراه نصراً لنا ...»[٧٥٤].

وكان أكثر ما يخشاه السلطان سيطرة روسيا ليس على المضائق والآستانة، لأن أوروبا لها بالمرصاد، وإنما سيطرتها على الأناضول وكان يقول: «إن الروس إذا استقروا في الأناضول، فإنهم سيوطّدون أقدامهم ومن الصعب إخراجهم».

ومن الغريب والطريف، أن قيصر روسيا والسلطان عبد الحميد كانا على تفاهم تام في أمور أخرى وفي مقدمتها محاربتهما للثورات والثوريين وأصحاب الدستور والحرية والمساواة لأن مصيرهما كان واحداً، وهو ما تحقق بعد حين...[٧٥٥].

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول جاهداً، كما هي سياسته، عدم الوصول مع أي دولة إلى نقطة اللاعودة، مهما كانت درجة العداء معها.

---

(752) روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، 1998م، ص245.

(753) روسيا وأرثوذكس الشرق، المرجع السابق، ص246.

(754) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص299.

(755) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، ص526.

ومن هذا المنطلق، استغرب السلطان عبد الحميد الحملات الصحفية الروسية على ألمانيا وعلى الدولة العثمانيّة عند توقيع اتفاق خط حديد بغداد.

وقال السلطان: «لو كانوا يعرفون، فإن مدّ الخط المذكور بأيد ألمانيا أفضل لروسيا بكثير من أن تقوم بهذا العمل بريطانيا ذات الأطماع التي لا تنتهي.

فالألمان لا يفكرون إلا بالمنافع الاقتصادية، أما بريطانيا فالخوف الشديد منها أنها إذا استولت على الأرض يصعب عليها كثيراً أن تتركها، وليس في مصلحة روسيا أن تكون بريطانيا جارتها من الجنوب».

ويقول السلطان: «إنه لولا قضية المضائق، لكنّا نحن وروسيا أفضل صديقين، فإن ثمة تشابه في الإجمال والتفصيل بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية»(٧٥٦).

ج- موقف فرنسا:

كانت فرنسا ترى في السلطان عبد الحميد عدوًا ومنافساً لها، وكانت تعدّ العدّة للثأر من ألمانيا وهو اليوم الذي يبدو أنه لن يأتي أبداً، فلقد كانت شديدة التأثر من الضربة التي تلقتها من ألمانيا سنة 1288 هـ -1871م وكانت تسعى لجمع نفسها وبذل جهودها لتحقيق هذا الثأر.

وكانت تعارض بشدة الامتيازات التي حصلت عليها ألمانيا من السلطان، كما كانت تعارض أي تحالف ألماني عثماني، وكانت تتحين الفرص لإلحاق الضرر بالسلطان العثماني ودولته.

وكان السلطان عبد الحميد يقابلها الشعور نفسه، وذلك بسبب أطماعها المعلنة في سورية وأفريقيا، وتأييدها للمعارضة العثمانية.

وتفاقم الأمر بعد احتلالها تونس سنة 1299 هـ -1881م ومساعدتها الأرمن، وتراخيها الغريب أمام بريطانيا في مسألة مصر، مع أنها ربما كانت تستطيع إرسال قوات فرنسية إلى مصر، وتجبر بريطانيا إلى الانسحاب.ومحاولة الوقوف في وجه اطماعها في المنطقة.

وبالفعل فقد كانت باريس مركز المؤامرات على الدولة العثمانية، وذلك بعد احتوائها لأنصار تركيًا الفتاة ثم الاتحاد والترقي، ومساعدتها للجمعيات المتمردة في مقدونيا ورعايتها لأسرهم في أوروبا.

---

(756) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص144.

وهكذا فإن فرنسا كانت في وضع لا تحسدُ عليه مع ألمانيا وتركيًا، ولكنها، كما سنرى، كانت تحاول الإبقاء على شعرة معاوية مع الدولة العثمانية، وفيما يلي ذكر لمراحل تطور العلاقات العثمانية الفرنسيَّة، وموقف فرنسا من التقارب العثماني-الألماني بصورة مفصَّلة.

كانت فرنسا منذ سنة 942 هـ -1535م[٧٥٧] تتمتع بوضع خاص في الدولة العثمانيَّة من حيث الامتيازات لها ولرعاياها المسيحين الكاثوليك[٧٥٨].

وفي سنة 1740[٧٥٩] وقعت معاهدة أخرى أكَّدت أهم المكتسبات الفرنسية في الدولة العثمانية، وكانت بداية لامتيازات أخرى طالبت بها الدول الأوروبية.

ووفقاً لمعاهدة (*Letters Patentes*) حيث ورد فيها المدة 32 المتضمنة:

«إن المطارنة التابعين لفرنسا، وسائر الرهبان الذين يمارسون الديانة الفرنجيَّة-الكاثوليكية، ضمن حدود بلادهم من أي أمَّةٍ وأي نوع لن يتعرضوا لأي مضايقة بشأن ممارستهم مهام وظائفهم حيث يقطنون ضمن سيادتنا في أرجاء سلطتنا منذ أمد بعيد. وإن الحقوق التي حصلت عليها فرنسا تبقى محفوظة لها، وإنه لمن المسلَّم به ألا يحدث أدنى تبديل في الوضع الراهن للأماكن المقدسة[٧٦٠]....

وكانت ألمانيا ترى أن ثمة خطأ في كلمة واحدة في هذه المادة وهي وجود كلمة (*Nation*) بدلاً من (*Genre*) التي تعني الجنس وليس الأمَّة، وبذلك لا يحق لفرنسا إخضاع الرعايا الألمان الكاثوليك لسيطرتها...

ثم لجأت فرنسا إلى البابا الذي أعلن في تموز 1898م-1316 هـ موافقته على إنشاء لجنة دوليَّة للدفاع عن امتيازات فرنسا في الشرق، وأكد على هذه الحقوق التقليدية.

ومن جهة أخرى، وقعت فرنسا مع الخديوي إسماعيل اتفاقية تستثنى فيها المؤسسات الكاثوليكية المشمولة بحماية فرنسا من مسألة الخضوع لسلطة المحاكم الدولية التي كانت قد أنشئت في مصر.

(*757*) وهي المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة الامتيازات أو معاهدة «الصداقة والتجارة الفرنسية العثمانية» وعقدت بين الملك الفرنسي فرانسوا الأول والسلطان سليم القانوني.

(*758*) ***Roger Owen, The Middle East in the world Econmy-London, 1993, P.23-24***. حتى الصفحة ***43*** يتكلم الباحث في هذه الصفحات عن امتداد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية منذ 1535 حتى عام 1914، وخاصة في منطقة بلاد الشام.

(*759*) معاهدة بلغراد 1740م وفيها اعترف السلطان العثماني لفرنسا بحق حماية الكاثوليك في الدولة العثمانية.

(*760*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص272.

وقد صرّح القنصل الألماني العام معقباً على تلك الاتفاقية بأن الحكومة الألمانية لا تعترف بحماية مطلقة لأي دولة على المؤسسات الكاثوليكية في الشرق، وتحتفظ لنفسها بكامل الحقوق تجاه رعاياها الألمان العاملين في المؤسسات الفرنسية، وترى أن هذه الاتفاقية لا تعني الكاثوليك الألمان في مصر[761].

ومن جهة أخرى كانت فرنسا بحسب موقعها وحضارتها وسمعتها العسكرية العالية منذ أيام نابوليون، وسيطرتها على الجزائر وغيرها، تعدُ أسطورة عسكرية وحضارية في العالم.

وكانت ترى منذ أيام الحروب الصليبيَّة أن لها بالشرق علاقة خاصة متميّزة تشبه الحماية أو الوصاية أو الحقوق التاريخية.

وعندما حصلت على الامتيازات الكثيرة من السلطان سُليمان القانوني صارت الدولة الأولى في الآستانة، وصارت سفارتها ضمن الدولة العثمانية. وازدادت هذه الأهمية مع تزايد ضعف الدولة العثمانية.

ولم تقابل فرنسا هذه الامتيازات بأي تقرب للدولة العثمانية لمساعدتها أو الوقوف في وجه الدول الطامعة فيها، بل إنها وقفت بكل قوتها وراء محمد علي باشا في مصر حتى اللحظة الأخيرة. ثم بادرت إلى احتلال الجزائر وألحقتها بها مباشرة ومارست فيها أسوأ أنواع الإرهاب العرقي والديني وكانت الجزائر بمثابة الدرع الجنوبي المهم للدولة العثمانية مكّنها في بعض الفترات من السيطرة على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ولذلك كانت هزيمة فرنسا أمام القوات الألمانية 1287 هـ -1870م فرحة كبرى في كل العالم الإسلامي والدولة العثمانية. فانهارت هيبتها العسكرية وصارت دولة من الدرجة الثانية، ومن هنا نستطيع أن نفهم موقفها من التقارب الألماني-العثماني.

وقد عبّر السفير الألماني في الآستانة البارون «هانز فيلد» (*Hansfeld*) سنة 1298هـ -1880م في تقرير بعث به إلى برلين عن هذه الحقيقة بالقول:

«لقد انتهى أمد النفوذ الفرنسي بانتهاء نابوليون الأوَّل[762] (*Napoleon Bonaparte*) وإذا كان النفوذ الإنكليزي قد حل محلّه منذ عهد رئيس الوزراء الإنكليزي

(761) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص273.

(762) نابليون الأول (*Napoleon Bonaparte*): هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين عاش خلال أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر (1769-1821). (*www.ar.wikipedia.org*).

الماكر اللورد بالمرستون[٧٦٣] (*Lord Palmerston*)، فإنه انتهى بدوره إبّان عهد اللورد غلادستون[٧٦٤] (*Lord Gladstone*).

وطلب من القيصر سرعة التحرك لملء الفراغ[٧٦٥]...

وقد عبّر السلطان عبد الحميد عن رأيه في فرنسا عندما قال: لقد منحنا للإمبراطور غليوم الثاني حق حماية الكاثوليك التابعين للكنيسة الألمانية في فلسطين فبدأت فرنسا بالصراخ والعويل.

يجب على الفرنسيين أن يعرفوا أن عهد فرانسوا الأوّل وغيره قد ولّى وانقضى، ولم تعد فرنسا وحدها هي حامية الكاثوليك.

والألمان أنفسهم لا يرضون بحماية الفرنسيين لهم، ولا يقبلون حامياً لهم إلا بلدهم.

وإن الفرنسيين الآن — 1316 هـ -1898م - يبدون أبعد عن قلوبنا مما كانوا سابقاً، وقد يكون استيلائهم على تونس نصيب في ذلك[٧٦٦].

وكان بسمارك منذ سنة 1292 هـ -1875م يحض فرنسا على احتلال تونس، وقال للفرنسيين في مؤتمر برلين 1295 هـ -1878م: خذوا تونس إن كنتم ترغبون.

وفي سنة 1298 هـ -1880م قال: «إننا لا يُمكن إلا أن نبتهج عندما تضع فرنسا يدها على المغرب»[٧٦٧].

ولم تترك فرنسا لغيرها، الانفراد بالدولة العثمانية، وإنما بادرت إلى استخدام «حقها التاريخي» في سُورية الطبيعية.

(*763*) هنري بالمرستون (*Lord Palmerston*) (1784-1865): سياسي إنكليزي ووزير خارجية بريطانيا من (1820-وحتى 1841) وساعد اليونان وبلجيكا على نيل استقلالهما، ووقف ضد محمد علي باشا والي مصر في توسعاته (1839- 1841)، ترأس الوزارة مرتين من 1855 حتى 1858، ومن 1859 وحتى 1865، واجه حرب القرم ببراعة وساعد على استقلال إيطاليا دبلوماسيته المشهور رفعت مقام بريطانيا بين الدول. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*764*) وليم غلادستون (*William Ewart Gladstone*): سياسي بريطاني (1809-1898)، تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا أربع مرات من 1868 إلى 1874، ثم من 1880 وحتى 1885، وبعدها لمدة عام 1886، وآخر مرة استلم الوزارة وعمره (82 عام) من 1892حتى 1894، وهو بذلك يكون أكبر من تولى هذا المنصب في تاريخ بريطانيا.

في أثناء وزارته الثانية (1882) غزت بريطانيا مصر واحتلتها، ونقل عنه قوله: (ما دام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق. (*www.ar.wikipedia.org*).

(*765*) أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص307.

(*766*) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص125.

(*767*) أوروبا من 1789م حتى أيامنا، مجموعة مؤلفين 3 مجلدات، باريس، مكتبة العويدات، بيروت، 1995م، ج3، ص323.

ومن هذا المنطلق فتحت المدارس والجامعات والجمعيّات الدينية وراهبات الناصرة، وكانت قمّة أعمالها جامعة القديس يوسف في بيروت التي كانت منارة روحية لأحباب فرنسا في الشرق العربي.

وكان هم فرنسا الأول تشكيك السوريين عمُوماً بالسلطنة والسلطان والعقيدة، ونشر «الحضارة الفرنسيّة» مكانها[٧٦٨].

وكأن سلاح فرنسا الرئيسي في الشعوب العثمانية رفعُ الشعارات الجديدة مثل شعار الحريّة والإخاء والمساواة، والحكم الدستوري وقيام الأحزاب والجمعيات، من أجل بذر بذور الشحناء والتباغض والخصام بين أبناء الوطن الواحد حتى يسهل دخول فرنسا بوصفها دولة «محرِّرة». وهو ما تحقق بالكامل في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[٧٦٩].

وكانت هزيمة فرنسا النكراء أمام بروسيا في شتاء 1287 هـ -1870م وتتويج الإمبراطور غليوم الثاني في قلب باريس في كانون الثاني سنة 1288 هـ -1871م واحتلال الألزاس واللورين، ضربة قاضية لفرنسا.

وقد حاول بسمارك من جهته إلهاء فرنسا عن ألمانيا ودفعها دفعاً لاحتلال المغرب العربي، بينما كانت فرنسا تحاول الخروج من الموقف الذي لا تحسدُ عليه والذي وضعها بسمارك فيه[٧٧٠].

ولم تكن في وضعٍ يسمح لها بالثأر ومحو عار الهزيمة أو استعادة الألزاس واللورّين، بل إنها كانت تخشى دائماً هجوماً ألمانياً جديداً عليها.

وكان بسمارك حريصاً على عدم تحالف فرنسا مع أي دولة أخرى، وحتى يتم ذلك عقد هو ما يعرف بـ«معاهدة الأباطرة الثلاثة» سنة 1299 هـ -1881م لمدة ثلاث سنين والتي ضمت إمبراطور ألمانيا وروسيا والنمسا - المجر.

وفي هذه المعاهدة تعهدت روسيا بعدم مهاجمة ألمانيا إذا نشبت الحرب بينها وبين فرنسا، حتى ولو كانت ألمانيا هي البادئة بالحرب. وكان ذلك انتصاراً كبيراً لألمانيا.

ثم جددت المعاهدة سنة 1302 هـ -1884م وانضمت إليها إيطاليا[٧٧١].

وقد حاولت فرنسا الخروج من السرداب الذي دفعها إليه بسمارك فتقربت من

---

(768) جيرارد دو جورج، دمشق عبر العصور، دار قتيبة، دمشق، 2007، ص599.

(769) أكمل الدين أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المرجع السابق، ص275.

(770) أوروبا من 1789 حتى أيامنا 1995م، مرجع سابق، ج3، ص318.

(771) أوروبا من 1789 حتى أيامنا 1995م، المرجع نفسه، ج3، ص321.

إيطاليا عن طريق اتفاقية اقتصادية تطورت في تشرين الثاني سنة 1902م-1320 هـ إلى اتفاق سياسي تعهدت إيطاليا بموجبه بالوقوف على الحياد، إذا وقعت الحرب بين ألمانيا وفرنسا.

وهكذا نجحت فرنسا في خلخلة التحالف الثلاثي الموقّع سنة 1302 هـ -1884م.

وفي سنة 1310 هـ -1892م وقعت فرنسا معاهدة مع روسيا في «8 آب» وضمنت بهذه المعادة أن تنجدها روسيا بحوالي 800.000 جندي روسي إذا هاجمتها ألمانيا، مقابل 130.000 جندي فرنسي تدفع بهم فرنسا لمساعدة روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو النمسا - المجر.

وهكذا خرجت فرنسا من السرداب الذي دفنت فيه على مدى ربع قرن، وصار بإمكانها الدخول في حلبة التنافس على الدولة العثمانية كما كان الحال قبل حرب السبعين[٧٧٢].

ألمانيا وفرنسا وجهاً لوجه

كانت فرنسا قلقة من النشاط الكاثوليكي الألماني في فلسطين؛ لأن ذلك يعد تحدياً مباشراً لحقوقها التاريخية في المشرق العربي.

ثم جاء تأسيس «جمعيّة فلسطين للكاثوليك الألمان» فكان القشّة التي قصمت ظهر البعير.

وعلى أثر ذلك كتب القنصل الفرنسي في بيروت إلى حكومته يقول: «علينا الحذر من جانب ألمانيا ...

فللمرة الأولى يظهر العنصر الكاثوليكي الألماني في سورية. فإن راهبات «بوروميه (*Boromeh*)» قد أسّس لهن بمساعدة حكومة برلين مركزاً، وهن يأملن في أن يؤسّسن مراكز في أنحاء مختلفة من منطقة الجليل إن لم يكن في سورية ذاتها.

فبالنظر إلى قيام التنافس الذي يمكن اعتباره عملاً غير ودّي بالنسبة لفرنسا؛ لأنه يتناقض مع بنود اتفاقية دولية رسمية، فإن علينا أن نحافظ في مؤسساتنا أكثر من أي وقت مضى....»[٧٧٣].

---

(772) أوروبا من عام 1789 حتى أيامنا، المرجع نفسه، ج3، ص332.

(773) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص196.

وفي هذا الصدد يقول المارشال الألماني: «فون بيبرشتاين (**Von Bieberstein**)» في رسالة إلى المستشار الألماني «هو هنلوهه (**Hohenlohe**)»[٧٧٤]:

«وإن محاربة النفوذ الفرنسي في مسائل الكنيسة الكاثوليكية للروم الكاثوليك الذين يعيشون في تركيا هو أحد مهام السياسة الألمانية في تركيا، وبفضل نفوذنا السياسي في تركيا فنحن الوحيدين الذين يُمكننا وضعنا من تشجيع عملية التفتيت الذي تجد الحماية الفرنسيّة نفسها فيه بسرعة مدهشة.

وإذا ما تمكنت ألمانيا من إزاحة الحماية الفرنسية المطلقة في الشرق، فإن هذا سيرفع بشكل كبير من سمعتنا في أعين الشرقيين...»[٧٧٥].

وكتب بولوف[٧٧٦] (**Bernhard Von Bülow**) وزير الخارجية الألمانية إلى الإمبراطور غليوم الثاني: «إنه من المفيد عموماً دعم كل ما يمكن بواسطته تقويض هيبة فرنسا في المشرق من جهة، وإذكاء الخصام الذي بدأ يظهر بين الألمان والكاثوليك الفرنسيين في المسائل الشرقية من جهة أخرى.... »[٧٧٧].

وكانت فلسطين هي من أكثر المناطق الساخنة بين الألمان والفرنسيين في الدولة العثمانية لأنها كانت المحك الحقيقي لوضع ألمانيا وفرنسا في الدولة.

وحدثت سنة 1298 هـ -1880م صدامات دامية بين أعضاء جمعية الهيكل الألمانية في فلسطين، ورهبان الكرمل المتمتعين بالحماية الفرنسية الذين استعانوا بالفلاحين العرب لمهاجمة المستوطنين الألمان(نتيجة للتنافس بين الدولتين ألمانية وفرنسا على النفوذ في المنطقة).

وفي سنة 1306 هـ -1888م أعلمت الخارجية الألمانية القنصل الألماني في القدس بأن جميع الألمان الموجودين في الشرق لهم حق التمتع بالجنسية الألمانية سواء كانوا رهباناً أو غير ذلك[٧٧٨].

(*774*) الأمير شلودفيغ (***Honhenlohe***): (1819-1901) سياسي ألماني، تولى منصب المستشارية في الإمبراطورية الألمانية الثالثة من 1894 حتى 1900. (***www.ar.wikipedia.org***).

(*775*) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص287.

(*776*) برنارد فون بولوف (*1849-1929*): سياسي ألماني، أمير ورجل دولة، شغل منصب مستشار الإمبراطورية الألمانية في الفترة (*1900-1909*). (***www.ar.wikipedia.org***).

(*777*) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص287.

(*778*) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص272.

وحاولت فرنسا رفع علمها على مؤسسة راهبات «بوروميه (*Boromeh*)» الألمانيات، إلا أنهن رفضن ذلك ورفعن العلم الألماني في تموز 1310 هـ -1892م كما سبق ذكره.

ثم أعلن «الباب العالي» أنه يقف إلى جانب ألمانيا فيما يتعلق برفع العلم الألماني على مؤسسة الراهبات، وكان أكثر من أن تحتمله فرنسا، لكنها قبلت به راغمة[٧٧٩].

ويقول نجيب عازوري إن لفرنسا في الشرق إرساليات ومصالح لا تحصى.

فلها المدارس والملاجئ والمستوصفات والمستشفيات ورؤوس الأموال والمشاريع ولاسيما في السكك الحديدية.

ولها أهم الأشياء التي لا يمكن لأحد منافستها فيها وهو حماية رعاياها الكاثوليك المتمسكين بها ولذلك فإن مركزها في سورية ولبنان وفلسطين والعراق يتحدى كل منافسة[٧٨٠].

1- فهناك 450.000 ماروني مع بطريرك وثمانية مطارنة.

2- و150.000 من الروم الكاثوليك مع بطريرك و14 مطراناً.

3- و60000 كاثوليكي لاتيني.

4- و70.000 كلداني كاثوليكي.

5- وبطريرك لاتيني في القدس.

6- و20000 عربي على الطقوس اللاتينية.

7- ورئيس أساقفة في بغداد.

أي 750،000 «محميّ فرنسي» و5 بطاركة و37 مطراناً وثلاثة رؤساء أساقفة.

ولقد عاملت فرنسا هؤلاء بمنتهى الحب والصداقة وساعدتهم واحترمت طقوسهم[٧٨١].

وقد وصلت العلاقات الفرنسية-العثمانية سنة 1319 هـ -1901م إلى الطريق المسدود، ونقلت وكالات الأنباء في ذلك العام أنباء انقطاع العلاقات السياسية بين الدولة العلية وفرنسا.

(*779*) عبد الرؤوف سنو، مرجع سابق، ص274.

(*780*) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص121.

(*781*) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص122.

ويقول فرح أنطوان[٧٨٢] صاحب مجلة الجامعة إن أحد المراسلين في الآستانة شرح له السبب في ذلك، وهو في جملته نتيجة المنافسة الألمانية الشديدة.

ففي عام 1310 هـ -1902م: كانت مبيعات فرنسا في الدولة 60 مليون فرنك.

1- فهبطت سنة 1311 هـ -1893م إلى 56 مليون فرنك.

2- وفي سنة 1312 هـ -1894م أصبحت 53 مليون.

3- وفي سنة 1313 هـ -1895م أصبحت 51 مليون.

4- وفي سنة 1314 هـ -1896م صارت 41 مليون.

5- وانخفضت سنة 1314 هـ -1897م إلى 39 مليون فرنك.

أي أن قيمة المبيعات الفرنسية في الدولة انخفضت إلى 11٪ من قيمة المبيعات الأوربيَّة.

بينما بلغت مبيعات ألمانيا سنة 1314 هـ -1897م حوالي 40 مليون فرنك بعد أن كانت بضعة ملايين[٧٨٣].

وأما سبب تراجع فرنسا وتقدم ألمانيا، فيعود إلى اعتماد المعامل الفرنسيَّة في ترويج بضاعتها على سماسرة وعملاء من إيطاليا واليونان وألمانيا، وهؤلاء يرفعون السعر فيقل الطلب على البضائع الفرنسية.

أما المعامل الألمانية فإنّها ترسل عملاء مختصين بطرق ترويج البضائع.

ولهم فوق ذلك شركة كبرى تدعى: شركة التصدير لها فروع في مصر والآستانة واليونان وسالونيك وإزمير ومرسين وبيروت وحلب ودمشق ويافا وحيفا وبروسة[٧٨٤] (***Bursa***)، تعرض على التجار بضائعها التي يحملون نماذج منها؛ لأن الشرقيين لا يشترون شيئاً قبل رؤيته.

(*782*) فرح أنطون (*1874-1922*): أديب وروائي وكاتب مسرحي وصحفي لبناني. ولد في طرابلس لبنان، أصدر مجلات «الجامعة العثمانية 1899» و«الجامعة»، كما كان محرراً في صحيفة «صدى الأهرام»، وأنشأ مع أخته روز = = أنطون مجلة «السيدات»، وسافر إلى أمريكا سنة 1907، وأصدر في نيويورك «الجامعة» مع نقولا حداد، ورجع مصر 1909 حيث كتب في الصحف التالية (اللواء، الأهالي، البلاغ) وألف روايات ومسرحيات من مثل «أبو الهول يتحرك»، و«الفراعنة ساهرون». (***www.ar.wikipedia.org***).

(*783*) أنطون فرح، مجلة الجامعة، الإسكندرية، السنة الثالثة، أيلول، *1901*م، جمادى الأولى 1319 ص87 وما بعد.

(*784*) بورصة أو بروسة (***Bursa***): هي رابع أكبر مدينة تركية تقع شمالي غربي البلاد بين مدينتي استنبول وانقرة، وكانت عاصمة لولاية بورصة أيام العثمانيين، وتشتهر أن فيها أضرحة السلاطين العثمانيين الأوائل، والعديد من المعالم والمباني العثمانية الهامة. (***www.ar.wikipedia.org***).

ومن ناحية أخرى، كانت المعامل الألمانية تصنّع بضائع رخيصة الثمن خصيصاً لتصدرها إلى الشرق بناء على طلبات مسبقة من التجار.

أما المعامل الفرنسية فإنها تريد من الشرقي أن يخضع لذوقها، ويقول فرح انطون: «بناءاً على قول الفرنسي الذي روى ذلك: مسكينة يا فرنسا أذكر أنه لم يكن أحد في القرن السادس عشر يقدم على الاتجار مع فرنسا إلا بواسطتنا، والآن فقد تخطانا الجميع[٧٨٥].

وقد حاولت فرنسا تحسين صورتها لدى السلطان ذلك أنه بعد تعيين المسيو «كونستاس (*Constance*)» سفيراً لجمهورية فرنسا في الآستانة، بدأت العلاقات الفرنسية-العثمانيّة بالتحسن بعد التدهور السريع الذي كانت عليه.

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني بهذا الصدد: «إن السفير المذكور يسعى لإعادة الهيبة إلى بلاده، وقد اتصل بضباطنا وبشيخ الإسلام وبعدد من الوزراء[٧٨٦]، إن الفرنسيين يخشون من صداقتنا مع الألمان، ولو أمعنّا النظر في صُلب الموضوع لرأينا أن هناك صراعات ومبارزات بين: المسيو كونستاس، والبارون مارشال «ڤون بيبرشتاين» الألماني، كل منهما يسعى إلى إفشال جهود الآخر، وهذا أمر يسرّنا، واليوم يبذل السفير الفرنسي كونستاس جهداً عظيماً لمصلحة بلاده، ولقد استطاع التوسع في نشر الثقافة الفرنسية والحصول على بعض الامتيازات، ولقد أخطأنا عندما ألغينا امتياز فرنسا في السواحل حيث برزت لنا مشكلات البريد والصحة العامة والديون العمُوميّة...»[٧٨٧].

وكما ذكرنا مراراً فإن السلطان كان شديد الحرص على إرضاء جميع الدول المعنية بالمسألة الشرقية وبخاصة فرنسا.

ولقد حاول إشراكها بشكل أو بآخر بمدّ الخطوط الحديدية في الدولة ولاسيما في إقليم الشام إلا أنها كانت مترددة، وقد جاء ردّها على عروض السلطان برسالة من سفيرها في الآستانة إلى وزارة الخارجية في باريس.

وجاء في الرد: «إن فرنسا ترحب بمدّ خط حديد بغداد، لكنه يستحيل عليها المشاركة فيه ما لم يكن لها وضع خاص مساوٍ تماماً لأوضاع الدول الأخرى».

وإن الفرنسيين لا يستطيعون الافتراق عن الروس والإنكليز، ولا يمكن بناء خط

---

(785) مجلة الجامعة، المرجع السابق، ص92.

(786) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص131.

(787) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص139.

بأموال الفرنسيين وغيرهم، ويبقى تحت إدارة الألمان الصرفة، ويبقى للآخرين دور ثانوي[٧٨٨].

ولم يتم اتفاق فرنسا النهائي مع الدولة إلا سنة 1331 هـ -1912م.

د- إيطاليا:

في صيف 1283 هـ -1866م نشبت الحرب بين بروسيا والنمسا، وكانت نصراً ساحقاً لبروسيا وقائدها مولتكه[٧٨٩] (*Möltke*)، ولم تستمر الحرب أكثر من ثلاثة أسابيع استطاعت خلالها بروسيا أن تذهل العالم بانتصاراتها وخططها العسكرية، التي أصبحت مشهورة في أوروبا.

أما حليفة بروسيا إيطاليا، فإن جيشها سرعان ما سُحق يوم 24 تموز 1866 في سهل لومبارديا أمام النمسا في معركة كستوزا[٧٩٠] كما مُني الأسطول الإيطالي الذي كان متفوقاً على الأسطول النمساوي، مني بهزيمة نكراء في معركة «ليزا» البحرية، ولولا وقوف بسمارك إلى جانب إيطاليا، لانهارت إيطاليا تماماً بعد هاتين الهزيمتين وسيطرت النمسا على البندقية وما حولها، وقد طلب منها بسمارك إعادتها إلى إيطاليا بشرط توقيع الصلح، فأعادتها، وأدى ذلك إلى استياء عام في إيطاليا بوصفه إعانة بالغة لها لعجزها عن استرداد البندقية بقوّتها، وليس بواسطة بروسيا[٧٩١].

---

(788) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، المرجع السابق، ص117.

(789) هبلموت فون مولتكه (*Helmuth Von Möltke*): قائد بروسي (من 1800 حتى 1891) تولى رئاسة أركان الجيش البروسي (الذي صار الجيش الألماني بعد تأسيس الإمبراطورية الألمانية 1871) من 1857 إلى 1888:

- قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة كونيغ غراتس (*König grätz*) ضد النمسا في الحرب النمساوية البروسية 1866.
- قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة سيدان عام 1870 ضد الفرنسيين (الحرب البروسية الفرنسية).
- أعطي لقب غراف (كونت) عام 1870، ثم رقي إلى رتبة مارشال في العام التالي.
- تقاعد من رئاسة الأركان عام 1888.
- هو عم هيلموت فون مولتكه رئيس أركان الجيش الألماني في بداية الحرب العالمية الأولى. (*www.ar.wikipedia.org*).

(790) معركة كستوزا: جرت سنة 1866 خلال حرب الاستقلال الإيطالية الثالثة في عملية توحيد إيطاليا.

(791) أوروبا في القرن 15 و20 مجموعة مؤلفين، القاهرة، 1950، ص502.

هذه هي صورة إيطاليا عندما تم إعلان قيام الإمبراطورية الألمانية عقب هزيمة فرنسا المروّعة في حرب السبعين. وكانت إيطاليا قد ارتقت إلى مصاف الدول الكبرى ولو نظرياً في التجارة والصناعة والعلوم والآداب، كما أنها من أكثر الدول الأوربية تحرراً ومنها خرج الكتّاب المتحررون دعاة المحبة الدستورية واستقلال الشعوب (الأوربية طبعاً)، وكان الأدباء والساسة الإيطاليون يوحون لأنصار تركية الفتاة وحلفائهم من العرب بأن إيطاليا ستقف معهم إن هم ثاروا ضد السلطان حتى ينالون حريتهم وسوف تساندهم مع بريطانيا وفرنسا ولكنها لم توافق بين هذه الدعوة وبين دعواها في ليبيا[٧٩٢].

لقد كانت إيطاليا دولة فتية على الساحة الأوربية وحديثة عهد بأمور الاستعمار والتحالفات والمعاهدات، ولم تكن لها وجهة نظر محددة ثابتة من الدولة العثمانية سواء قبل التقارب العثماني - الألماني أو بعده، وكانت إيطاليا آخر دولة أوربية تشارك في المسألة الشرقية وكانت ترى بوضوح ما حققته بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا من مكاسب على حساب الرجل المريض فأرادت أن تعوض ما فاتها من الغنائم، ولم تظهر أنيابها الاستعمارية إلا بعد احتلال فرنسا لتونس سنة 1299 هـ -1881م، وكانت تونس وطرابلس الغرب من المناطق التي أصبحت إيطاليا ترى فيها ما رأته فرنسا في سورية والصهيونية في فلسطين والإنكليز في مصر والخليج. فادعت كما أدعى الآخرون أن لها «حقوقاً تاريخية» في طرابلس الغرب وحقوقاً أخرى في ألبانيا[٧٩٣] وتريشا والبوسنة[٧٩٤] و«دالماسيا»[٧٩٥] التي تعد ميراثها التاريخي منذ أيام روما وأباطرتها، وأما السلطان فكان يرى في ألبانيا والأرناؤوط حلفاء أقوياء له في وجه اليونان ومقدونيا[٧٩٦].

وكما ذكرنا، فقد نجح بسمارك بضم إيطاليا إلى معاهدة الأباطرة الثلاثة، روسيا وألمانية والنمسا-والمجر وذلك سنة 1312 هـ -1894م وضمن بذلك حيادها في حال نشوب حرب ألمانية-فرنسية من جديد[٧٩٧].

---

(792) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص151.

(793) البانيا (بالألبانية ***Shqipëri***): هي إحدى دول إقليم البلقان الواقع جنوب شرق أوربا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(794) البوسنة: تقع جنوب شرق أوربا وهي مناطق ودول البلقان تقع معظمها في كرواتيا الحديثة. (المرجع السابق).

(795) دالماسيا: تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي. (المرجع السابق).

(796) نجيب عازوري، مصدر سابق، ص150.

(797) أوروبا منذ 1798 حتى أيامنا، المرجع السابق، ج3، ص328.

ولكن فرنسا عادت ونجحت في توقيع معاهدة مع إيطاليا سنة 1320 هـ -1902م، تعهّدت فيها إيطاليا بالوقوف على الحياد في حال نشوب حرب فرنسية-ألمانية[٧٩٨].

ولم يُلق السلطان بالاً لمطامع إيطاليا، ثم تقصّى الأمر من جهاز «الخفية»[٧٩٩] فكانت المعلومات كالتالي:

- إن للإيطاليين بمدارسهم ومصارفهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية هدفاً واضحاً هو الاستيلاء على:

- طرابلس الغرب وملحقاتها.
- وألبانيا.
- ومناطق الأناضول المطلّة على البحر المتوسط مثل إزمير واسكندرونة وأنطاليا[٨٠٠].

ولذلك بادر السلطان إلى إرسال 15،000 جندي إلى ليبيا.

وممّا دفع السلطان إلى اتخاذ جانب الحذر تجاه إيطاليا أن تنظيمات تركيا الفتاة كانت مستوحاة من غاريبالدي والكاربوناري الإيطاليين.

كما أن الجماعات السريّة الإيطالية الإرهابية كانت متعاونة مع مثيلتها الفرنسية في إثارة القلاقل في الدولة على جميع المستويات تمهيداً لإسقاط السلطان وتحقيق أهدافها وهو ما تحقق فعلاً في عهد الاتحاد والترقي سنة 1331 هـ -1912م[٨٠١]. كما هو معروف وتركت ليبيا لمقارعة الإيطاليين وجهاً لوجه. والغريب أن حكومة الاتحاد والترقي سحبت القوات العثمانية من ليبيا قبل سقوطها بيد إيطاليا.

وكما كان لفرنسا أطماع في سوريا، فقد كانت إيطاليا تطمع بجارتها المترامية الأطراف «ليبيا» أو كما كانت تعرف بطرابلس الغرب وبرقة وبنغازي.

ولذلك ثارت إيطاليا واحتجت على انتزاع فرنسا تونس من حصتها، وبادرت إلى الارتماء في أحضان ألمانيا لمساعدتها على تحقيق أهدافها الاستعمارية مما أدى إلى دخولها في حلف الأباطرة الثلاثة كما ذكرنا[٨٠٢].

---

(798) المرجع نفسه ج3، ص332.

(799) جهاز الخفية: جهاز الأمن والتجسس، وقد نشط هذا الجهاز كثيراً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

(800) محمد حرب، المرجع السابق، ص139

(801) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص525.

(802) أوروبا، المرجع السابق، ص325.

ولم تكن إيطاليا معنية بالتقارب الألماني-العثماني، لأنها كانت مثل النمسا- المجر، حليفة لألمانية، وكانت أهدافها التي كانت تطالب فيها في أفريقيا، وكما قال رئيس وزرائها ماتزيني: «إن شمال أفريقيا ميراث إيطالي...».

ولذلك رسمت إيطاليا خططاً هادئة وسلمية، للوصول إلى هدفها من الدولة العثمانية وهو احتلال ليبيا.

وقد تجلّت هذه السياسة على النحو التالي:

1- إنشاء المدارس والمصارف والمشافي في طرابلس.

2- اعتراف الدول بحقها في طرابلس.

3- إعلان الحرب واحتلال طرابلس[٨٠٣].

وهو ما تحقق، ولكن بعد إسقاط السلطان عبد الحميد[٨٠٤].

ثانياً – نتائج التقارب العثماني-الألماني

كانت سياسة «تحقيق التوازن» هي الشعار الثابت والمعلن للسلطان عبد الحميد تجاه الدول الأوربية.

وكان حريصاً على استغلال الخلافات العميقة فيما بينها حتى لا تتفق عليه.

1- فقد جعل فرنسا تقف وجهاً لوجه تجاه إيطاليا في ليبيا.

2- وجعلها خصماً عنيداً للإنكليز عندما احتلوا مصر.

3- كما أخذ يعمل على إثارة النعرات بين الصرب والجبل الأسود ورومانيا.

ومن جهة أخرى، كان يقيم صداقات حميمة مع قيصر روسيا وملوك ورؤساء أوروبا، وسفرائهم في الآستانة، بل وجواسيسهم مثل ڤامبيري (*Vampiri*) الجاسوس الإنكليزي الذي تعاطف تماماً مع السلطان وكان يكرم السفراء ويدعوهم إلى مائدته ويقدم لهم الهدايا الفاخرة.

(*803*) محمد حرب، المرجع السابق،ص 138.

(*804*) وأخيراً قال السلطان عبد الحميد الثاني، «إن ملك إيطاليا «أمبرتو» هو صديقه، وقد مات بقنبلة موقوتة فصار ابنه عمانوئيل ملكاً مكانه، وكانت العلاقات بيننا وطيدة، والصداقة قائمة، وكانت زوجته، ابنة أمير الجبل الأسود، وكنت أعتني بهذا الأمير وأمنحه راتباً». عائشة عثمان أونلي، والدي السلطان عبد الحميد، المصدر السابق، ص119.

وأفضل مثال على هذه السياسة ما أحاط به الإمبراطور غليوم الثاني في زيارته، مما جعله صديق السلطان المعجب به وبشعبه.

ونظراً لعدم وجود خلفية عدائية متأصلة عند الإمبراطور الألماني تجاه السلطان عبد الحميد فإن هذا الإكرام الذي قوبل به في السلطنة جعل الإمبراطور الحليف القوي للسلطان بدون كتابة اتفاقات أو معاهدات، وهو ما دفع بالسلطان عبد الحميد إلى الاستخفاف أحياناً بمثلث الشر: بريطانيا وروسيا وفرنسا. كما حدث عندما سحق تمرد الأرمن رغم احتجاج ساسة الإنكليز وحلفائهم[805].

وقد قال السلطان لابنته عائشة: «إن الإمبراطور غليوم الثاني شخصية رقيقة محبوبة، وهو يستهدف قوة ألمانيا العسكرية، وأنا في علاقتي معه كنت أحسب حساب الدول الأخرى ولا أفعل ما يغضبها، وكنت في نفس الوقت الذي أبدي احترامي له أبدى الاحترام نفسه لإمبراطور روسيا، إن موقعنا الجغرافي يقتضي منا ذلك»[806].

أ- على الدولة العثمانية:

كان هذا التقارب فرصة جديدة، وربما أخيرة، للدولة العثمانية لاسترداد نشاطها وقوتها بعد أن كادت تنهار بفضل الهزائم العسكرية والأزمات الاقتصادية وتربص أوروبا وعملائها في الداخل بالدولة.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد رأى في ألمانيا المزايا التالية:

أ-إن تقربه منها سوف يخفف عن الدولة من حدة الهجمة الأوروبية ويعرقل إلى حين، المطامع الأوروبية فيها، وقد يلغيها تماماً.

ب-وكان العالم الإسلامي عموماً معجباً بكل ما هو ألماني ويرى في ألمانيا والجيش الألماني والصناعة الألمانيَّة والأفكار الألمانية شيئاً رائعاً، وبقيت هذه النظرة عند غالبية العرب حتى سقوط هتلر، وكان السلطان عبد الحميد بدوره يدرك ذلك كله ولاسيما البحرية الألمانية والنهضة الشاملة السريعة في ألمانيا.

ج-وكان يرى أن ألمانيا من أقلّ الدول طمعاً أو اهتماماً بالدولة العثمانية، لاسيما في أيام الإمبراطور غليوم الثاني.

(805) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص396.

(806) عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، دار البشير-عمان، 1991، ص118.

وكان يقول: «إني كنت أرى بوضوح أن ظهور ألمانيا كفيل بزعزعة التوازن الأوروبي، فقد كانت قوة ألمانيا تزداد بسرعة ودهشة. وكان الروس يحسبون حساباً لقياصرة ألمانيا بحكم القرابة»[٨٠٧].

وقال السلطان في ألمانيا: «هناك أشياء مشتركة بين دولتنا في نظام الحكم:

- لا سبيل إلى حصول مصادمات عسكرية بيننا لعدم وجود حدود مشتركة.
- ثم إني معجب بالقوة العسكرية الألمانية والصناعة الألمانية.
- وإن جيشنا وسلاحنا سيتطور كثيراً بالمساعدة الألمانية وسيتعزز موقف ألمانيا في بلادنا وتحصل على امتيازات اقتصادية[٨٠٨].

وأما الثمن الذي دفعه السلطان مقابل ذلك فهُو ثمن زهيد مثل توزيع بعض الأراضي هنا وهناك أو تقديم الهدايا والمجاملات للإمبراطور غليوم الثاني[٨٠٩].

وكما كان يقول: «إني لم أعد أي دولة بشيء، ولم أُخلف وعدي»[٨١٠].

وكان السلطان يتعامل مع الإمبراطور غليوم الثاني وحكومته معاملة ودية، لا ينقصها الحزم الدائم.

وكان الإمبراطور موقناً بقيام حرب عالميَّة، وكان يطمع أن تكون الجبهة الشرقية لألمانيا وهي أراضي الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا مفتوحة أمام الألمان، وهذا يعني ببساطة دخول الدولة الحرب مع ألمانيا.

ويقول السلطان: «إن ما لم يستطع الإمبراطور ذكره في زيارته سنة 1307 هـ - 1889م، ذكره صراحة في زيارته الثانية سنة 1316 هـ -1898م عندما طلب مني إعداد اجتماع سري بينه وبيني، وفي ذلك الاجتماع قال:

«هل ستقفون إلى جانبنا إذا شُنّت الحرب في أوروبا يا حضرة السلطان:

فردَّ السلطان، الذي كان يتوقع هنا السؤال: أنت صديق عزيز علينا، ولكن ليس من سلطتي الآن أن أُجيبك عن سؤالك إجابة شافية وسأفكر في الأمر ملياً.

وقد دفع السلطان عرشه ثمناً لهذا الموقف؛ لأن الألمان الذين كانوا يدربون الجيش العثماني الثالث اعتمدوا عليه في الإطاحة بالسلطان، وهذا يؤكد حقيقة مهمّة

---

(807) يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، ص66.

(808) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، ص305.

(809) يوسف عمر، المرجع السابق، ص69.

(810) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص293.

وهي أن الدولة العثمانية حصلت على الكثير من ألمانيا من دون أن تفقد سيادتها واستقلالها[٨١١].

ويقول السلطان عبد الحميد: «إن بيننا وبين الألمان شبهاً في الصفات جعلتنا نميل نحوهم. فالهدوء والحيطة والصبر على المشاق هي الصفات المميزة للشعبين، والجرأة والاستقامة واللطف والكرم هي صفات الألمان مثلما هي صفاتنا.

هناك أسباب جعلتني أميل نحو الألمان وإن لم ترض فرنسا، ولو لم يكن شيء لهذا الميل سوى شخص الإمبراطور غليوم لكفى.

إنه رجل تحبه النفس وتثق به، فهُو جدير بالإعجاب.

والألمان أساساً أقرب إلى النفس من الفرنسيين؛ لأنهم قوم شرفاء صادقون نشيطون ومخلصون في عملهم.

والفرنسيون قوم يُحبون أن يعملوا لكنهم لا يثبتون على أعمالهم ثبات الألمان، يضيعون وقتهم في سياسات لا تستقر على قرار.

والألمان إذا بدؤوا بأمرٍ بحثوا فيه وسبروا أغواره وعرفوا مداخله ومخارجه بعكس الفرنسيين[٨١٢].

ويقول نجيب عازوري: رأينا في حيفا ويافا مستعمرين ألمان، أتوا فقراء منذ بضع سنين يمتلكون حالياً عقارات تبلغ قيمة بعضها حوالي 300.000 فرنك وهم يتأقلمون بسرعة وسهولة ويشتغلون كثيراً وينتجون بكثرة...[٨١٣].

وكان السلطان يرى أن ألمانيا من أقلّ الدول انتفاعاً بانحلال السلطنة، وأن اندفاعها بتنفيذ المشاريع الاقتصادية في السلطنة، ولاسيّما في الأناضول يعطي ألمانيا حق الدفاع عن الدولة من أي خطر، ولاسيما خطر الدب الروسي.

لقد كان الهدف الرئيسي لألمانيا في السّلطنة هو الاقتصاد والمشاريع الاقتصادية[٨١٤]. بالإضافة إلى تحقيق مكاسب سياسية مهمة من خلال التحالف مع الدولة العثمانية وهذا ما تجلى في الحرب العالمية الأولى (1333/1338هـ -1914/1918م).

---

(811) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، 516-520.

(812) السلطان عبد الحميد، مذكراتي ص122.

(813) نجيب عازروي، يقظة الأمة العربية، الطبعة الأولى، باريس، 1905، المؤسسة العربية للنشر، 1980، ص142.

(814) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص140.

ب- مكاسب السلطان من تحالفه مع ألمانيا:

إن من أهم مكاسب السُلطان من تحالفه غير المعلن مع ألمانيا ذلك النصر المدوي الذي حققته الدولة العثمانية بالجنود المسلمين والخبرة الألمانيّة، في حربها على اليونان 1315 هـ -1897م.

لقد كان السلطان يقتفي أثر محمد علي باشا الذي وظّف الخبرة العسكرية الفرنسية لتحقيق انتصاراته الكبرى في جزيرة العرب وعلى الدولة العثمانية نفسها.

لقد تواترت عليه برقيات التهنئة من ملوك العالم وأمرائها وأعيانها وشعرائها.

وقد كتب (*Vonder*) رئيس الوفد العسكري الألماني الذي درب الجيش العثماني يقول: «كان هذا النصر سبباً في تغيير الفكرة التي شاعت في أوروبا بخصوص الخطط المزعومة لتقسيم الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها كما طُوي الاصطلاح الأدبي الشائع المعروف باسم الرجل المريض في الغفلة والنسيان.

لقد كان انتصار السلطان بمثابة زيادة في رد اعتباره داخل بلاده نفسها وأوهن عزيمة المناوئين له من جماعة الاتحاد والترقي. والشيء العظيم الذي حصل بعد عام واحد قدوم الإمبراطور غليوم الثاني إلى صديقه السلطان عبد الحميد، وإعلانه من دمشق وعلى ضريح صلاح الدين أنه صديق للسلطان وللـ300 مليون مسلم من رعاياه الذين عليهم أن يثقوا بألمانيا صديقة مخلصة للسلطان والمسلمين»[٨١٥].

وقد قوّم السلطان هذا النصر فقال: رغم عدم الحصول على مكاسب من أرض اليونان فإننا أصبحنا أصحاب هذا النصر العظيم...

لقد أزال هذا النصر قناع السخرية والتحقير والازدراء. لقد كان الأعداء الذين كانوا يعاملونني حتى أمد قريب وكأنني رجل منبوذ، يتسابقون الآن على زيارة حاكم الإمبراطورية العثمانية التي تأبى الضيم ولا تهاب الموت، ولما أخفقوا في القضاء عليه واجتثاث جذوره باتوا الآن يطرونه ويتملّقونه ويتزلفون إليه.

وكان الإمبراطور غليوم الثاني ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة واهية غير ذات قيمة، ولكن عندما تحقق الانتصار العظيم الخاطف على جميع الجبهات رأى أن الدولة العثمانية جديرة بالتحالف معها.

ليس ذلك فحسب بل إن ملك إيران مظفّر شاه قدم إلى استانبول ليعرض إخلاصه

(*815*) سليمان قوجه باش، المرجع السابق، ص405.

وولاءه للسلطان عبد الحميد الثاني وظهرت صوره في صحف العالم وهو ينحني لتقبيل يد السلطان[٨١٦].

ومن المكاسب غير المنظورة التي حققتها السلطنة من زيارتي الإمبراطور غليوم الثاني، نذكر أموراً طريفة عديدة منها :

1- تثبيت مركز السلطان عبد الحميد بين رعاياه وبين المسلمين من الصين حتى الأطلسي، وقد بدا ذلك واضحاً في انتصاره على اليونان، الذي سبق أن تحدثنا عنه.

وأمراً آخر، هو أن الصحف العثمانية ذكرت، ولاسيما عند الزيارة الثانية للإمبراطور سنة 1316هـ-1898م، أن السلطان عبد الحميد هو أرفع رتبة من الإمبراطور العظيم غليوم الثاني؛ لأنه هو الذي سأل السلطان الحضور إلى الآستانة، بدون دعوة مسبقة من السلطان، كما أن السلطان لم يرد على زيارة الإمبراطور الأولى بزيارة لبرلين، وهذا يؤكد المكانة السامية التي يتمتعُ بها السلطان في العالم.

وأمر ثالث وهو أن الصحف الأوربية والصحف الموالية للغرب في مصر، كانت تنشر ما يقال عن السلطان عبد الحميد في أوروبا، مثل وصفه بقاطع طريق من الدرجة الأولى، أو تسميته بالسلطان الأحمر، ولذلك كان حضور أعظم إمبراطور في أوروبا إلى الآستانة والاستقبال الحافل الذي قوبل به، قد وحّد المسلمين من حوله، ورفع منزلته في أعينهم وهو ما تجلّى بوضوح حتى في البلاد الواقعة تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي مثل الجزائر وتونس ومصر وغيرها[٨١٧].

جـ- ما خسره السلطان في هذا التحالف:

حاول الإمبراطور غليوم الثاني في زيارته الثانية للسلطان عبد الحميد معرفة رأيه في موضوع التحالف الألماني - العثماني بعبارة أدق موقف الدولة العثمانية من ألمانيا، إذا قامت الحرب في أوروبا .

---

(816) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص406.

(817) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص142.

ولقد قال للسلطان بوضوح: «هل ستقفون إلى جانبنا إذا شنَّت الحرب في أوروبا يا حضرة السلطان؟ وإن هذه الحرب لا مناص منها؟ فرد عليه السلطان:

ليس من سلطتي الآن أن أُجيبك عن سؤالك إجابة شافية، ويمكنني أن أفكر في الأمر ملياً وفي اللحظة التي تضطرنا الظروف لذلك[٨١٨].

ولما سقطت هيبة الألمان من عين السلطان عبد الحميد بسبب إصرارهم على التحالف معهم، التفت الألمان وفي مقدمتهم رئيس الوفد العسكري الألماني في الدولة كولتز (*Goltz*) الذي اهتم في الفترة الطويلة التي قضاها في الدولة بغرس فكرة الإعجاب بالألمان في نفوس الشبان الأتراك الذين قاموا في النهاية بعزل السلطان.

وهذا هو الثمن الذي دفعه السلطان في تقرُبه من ألمانيا: لقد قوَّى الدولة العثمانية وأنقذها من التقسيم والانهيار، ثم انهار هو نفسه[٨١٩].

ب- على ألمانيا:

اعترف الإمبراطور (غليوم الثاني) صراحة في مذكراته بأنه كان يقاتل في صفوف روسيا في الحرب الروسية- العثمانية 1295 هـ -1878م ضباط وعساكر من بروسية[٨٢٠].

وقد تبدَّل موقفه من الدولة العثمانية بعد الزيارة الأولى للآستانة سنة 1307 هـ - 1889م، وهو يقول في ذلك: «بعد عودتي من الآستانة سنة 1307 هـ -1889م أعربت للبرنس – بسمارك - بناء على طلبه، عمَّا شعرت به في الآستانة من السعادة.

وقد دُهشت عندما أبدى احتقاره الشديد للدولة العثمانية ورجالها ولكل ما له علاقة بها، فحاولت أن أُغيِّر رأيه في ذلك عبثاً.

وقبل زيارتي لروسيا عرض علي أن أقدم لروسيا الآستانة والدردنيل معها هدية لروسيا حتى لا تتعب نفسها باحتلالها[٨٢١].

ولم تكن ألمانيا قبل عهد الإمبراطور غليوم الثاني شديدة الاهتمام بالدولة العثمانية.

وكان بسمارك لا يجشّم نفسه مشقة فتح كيس البريد الآتي من الآستانة[٨٢٢].

(*818*) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص518.

(*819*) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص520.

(*820*) الإمبراطور غليوم الثاني، المذكرات، ص11.

(*821*) الإمبراطور غليوم الثاني، المذكرات، ص16.

(*822*) مجموعة باحثين، ألمانيا والعالم العربي، ص384.

وكـان في ألمانيـا مـن يـرى أن سـلامة ألمانيـا ليـست في الدولـة العثمانيـة، ولكـن مـن السيطرة على البحار والتصدّي للأساطيل البريطانية.

كما كان هنـاك تيّار ألماني يـرى أن المصير النهائي للسلطنة هـي أن تـصبح محميّةً ألمانيةً[٨٢٣].

وكانت نظرة «الاستعماريين» الألمان تنطلق من أنّ الأناضول تستوعب 70 مليونـاً مـن السكان ويقيم فيها ما دون المليونين وألمانيا أحق بهذه الأراضي، وقال أحد الألمان:

«لكي تتحقق سلامة الإمبراطورية الألمانية يجب أن نمدّ أيدينا إلى جنوب أوروبـا مـن خلال الدولة العثمانية، ثم نسيطر على الأناضول والرافدين ونصل إلى الهند...»[٨٢٤].

وعنـدما نجحـت الحكومـة الألمانيـة في التقـارب النـسبي مـن الدولـة العثمانيـة في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ظهرت في ألمانيا أصوات استعمارية عالية من بعض الفئات والجمعيات والسياسيين، مثل قولهم:

- «من هامبورغ إلى البصرة».
- «ومن برلين إلى بغداد».
- «ومن بحر الشمال إلى خليج فارس»[٨٢٥].

ونشر الألماني المتطرف «جروته (*Grothe*)» كتاباً بعنوان سكة حديد بغداد سنة 1902 لخصّ فيه «المطالب الاستعماريّة لاتحاد عُموم ألمانيا» وحاول أن يجتذب إليها الرأي العام الألماني مطالب بصراحة بالسير على خطا فرنسا وبريطانيا، وكان مما قال:

«إن من مصلحة تركية أن تمنح شركة السكك الحديدية الحق في أن تقوم بإنشاء مزارع ومستعمرات قرب الخطوط الحديدية»[٨٢٦].

ج- ألمانيا في الميزان:

هناك من يرى أن مطالب «اتحاد عموم الألمان» المطالبة باستعمار "الشرق الأدنى "تدل على السياسة الاستعمارية الباطنة لألمانيا.

(*823*) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية، ص142.

(824) Tarih boyunca... P.147

(*825*) ألمانيا والعالم العربي، ص385.

(*826*) ألمانيا والعالم العربي ، ص389.

والواقع أن الكتّاب الليبراليين المعتدلين والتيارات اليسارية الديمقراطية الاشتراكية في ألمانيا كانت تعارض مطالب «الاتحاد» معارضة شديدة.

وقد أصدر «رورباخ (*Rohrbach*)» الكاتب الكبير عدة نشرات عارض فيها مطالب عموم ألمانيا ووصفها بأنها حمقاء من الناحية السياسية، وهاجم النوايا الاستعمارية عند بعض الألمان وقال إنها ستلحق الأضرار بالمصالح الألمانية في المنطقة[٨٢٧]وقال:

وقال إن على ألمانيا مساعدة الدولة العثمانية الحاضرة وإنه لا يجوز إرسال الفلاحين الألمان إلى الأراضي المستصلحة في العراق، بل تكفي الأموال الألمانية والخبرة الألمانية.

كما هاجمت الكاتبة «روزا لوكسمبورغ (*Rose Luxmburg*)» السياسة الاستعمارية الألمانية عموماً، وخصوصاً في الشرق الأدنى[٨٢٨].

وبعد «الانفتاح» الألماني، أو الاندفاع الألماني نحو الشرق (*Drong nach Osten*) أصبحت ألمانيا الدولة الأولى في علاقاتها بالدولة العثمانية، وخاف السلطان من هذا الاندفاع ولاسيّما أنه كان أمراً جديداً تماماً على الدولة العثمانية لم تشهده من قبل.

ولذلك بادرت ألمانيا إلى تطمين الدولة العثمانية وإزالة مخاوف السلطان عبد الحميد من اجتماع الدول الغربية بهذا الكم والكيف وقراراتهم تجاه الدولة العثمانية ولاسيما عند توقيع اتفاق خط بغداد[٨٢٩].

وأفهمت ألمانيا العثمانيين، أنه على أثر انحسار الدور الفرنسي وكراهية السلطان للإنكليز حصل فراغ في الدولة العثمانية تقدمت ألمانيا لملئه.

وفي سنة 1309 هـ - 1891م طلب المستشار الألماني «كابريڤي (*Kapriwi*)» وضع تقرير عن المستعمرات الألمانية في الأناضول وفلسطين فجاء الجواب كما يأتي:

إن المستعمرات الهيكلية الألمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثالاً مشجعاً للاستعمار، لأن المستعمرين الألمان يعادون السكان وهؤلاء يعادونهم وإذا كان الألمان المقترح توطينهم في آسيا الصغرى، فسيواجه قناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، وتدخل الباب العالي المستعر لدى سفارتنا في الآستانة، وقد يدمر علاقاتنا الطيبة مع السلطان بدلاً من أن ينمّيها، والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك.

---

(827) ألمانيا والعالم العربي، ص391.

(828) المرجع نفسه، ص392.

(829) علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص23.

ثم قدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الألمانية تقريراً هائلاً خلاصته أن توطين الألمان في الدولة العثمانية مشروع اقتصادي فاشل[٨٣٠].

وكانت ألمانيا تردد باستمرار بأنه ليس من وراء مشروعاتها الاقتصادية في السلطنة أهداف استعمارية أبداً، وإنما هي مصالح اقتصادية وفنية بهدف دعم السلطنة ومنع انهيارها.

وفي السبعينات من القرن التاسع عشر بات سقوط الدولة أمراً وشيك الوقوع بعد الانهيار الاقتصادي الواسع، ولمحت روسيا وبريطانيا إلى احتمال تقسيم الإمبراطوريّة، وكان رأي القيصر حتى من قبل توليه الحكم أنه ينبغي تقوية الدولة العثمانية بالإصلاحات المناسبة وليس بالتقسيم[٨٣١].

وكان الاقتصاديون الألمان حريصين على تماسك الدولة العثمانية لضمان نجاح مشروعاتهم الاقتصادية، فيها.

وعندما كانت تتعالى أصوات الألمان المطالبين بتحويل الدولة العثمانية إلى مستوطنات ألمانية، كانت الدولة تكذبهم وتعارض مشروعاتهم[٨٣٢].

وقد ذهب المؤرخون ورجال الإعلام مذاهب شتى في توضيح أو تفسير موقف الإمبراطور غليوم الثاني من السلطنة والسلطان والإسلام.

والمسألة ببساطة أنه نظر إلى المسألة بعين الحكم العدل المنصف البعيد عن الهوى، وهو ما لم تفهمه أوروبا لأنها لم تضع الأمور في نصابها، ولم تكن راغبة بذلك.

وحصل في دمشق أن ألقى أحد شباب النصارى كلمة في دار البلدية بدمشق بحضور الإمبراطور، فقال الإمبراطور لوزيره: إن المسيحيين في بلاد الدولة أحسن حالاً من الأيرلنديين في بريطانيا. والمسلمين في الهند وروسيا واليهود في الجزائر.

والمسلمون أكثر رغبة في مسالمة النصارى مما يصفهم الواصفون وهذا الرأي الواضح هو الرأي الصحيح، وهو ما لم يفهمه الآخرون حتى اليوم.

ولذلك نشرت صحف أوروبا نصّ خطابه في القدس وقالت إن الإمبراطور أراد أن يحذر أوروبا ويختم الجامعة الإسلامية بخاتمه وهو ما حببه إلى جميع المسلمين.

ويقول فرح أنطون صاحب جريدة الجامعة العثمانية: «لقد كانت ألمانيا أقرب دول

---

(830) ألمانيا والعالم العربي، ص395.

(831) المرجع السابق، ص393.

(832) المرجع نفسه، ص395.

العالم إلى إنصاف دولتنا العثمانية لقد كره الإمبراطور أن يكون من جملة النسور الطامعة في افتراس الدولة العثمانية»[٨٣٣].

ولم تسعَ الحكومة الألمانية إلى تحقيق أي مطلب سرّي أو علني في فلسطين منذ قيام الرايخ الثانية سنة 1288هـ-1871م حتى نهاية الحكم العثماني سنة 1337هـ-1918م.

كما أنه لم يصدر عنها لليهود وعد رسمي مماثل لتصريح بلفور كما أنها لم تستغل المستعمرين الألمان لأغراضها السياسية في البلاد[٨٣٤] فبريطانيا هي كانت الدولة الأسبق والأقوى آنذاك.

يقول نجيب عازوري: إن الألمان على العموم قوم شرفاء ودعاة رزينون ولقد خاف اليهود منهم ومن مستعمراتهم فأقدموا على شراء الأراضي في فلسطين للحدّ من انتشارهم[٨٣٥]....

كانت أهداف ألمانيا الحقيقية في الدولة العثمانية تتركّز حول الأناضول وطرق المواصلات بحيث يصبح بإمكانها السيطرة التامة على الأراضي الممتدة من سواحل بحر الشمال حتى سواحل الخليج العربي.

وكانت ترى في الأناضول «سلّة غذاء» كبرى لها وللسلطنة في آن واحد حلًا لمشكلة زيادة السكان الكبيرة في ألمانيا، وكما قيل عن الألمان فقد كانوا من أكثر الشعوب قدرة على الاستعمار في العالم كما ثبت من مستعمراتهم في فلسطين حتى إنهم أصابوا اليهود بالهلع وهم سادة الاستيطان والاستعمار.

وحتى تزيل ألمانيا حاجز الخوف والتردد والقلق عند السلطان بخصوص نواياها في السلطنة، فقد اهتمت ظاهرياً بمسائل ثانوية لا تعنيها كثيراً، مثل تعمير بعض الكنائس وبناء بعض المستعمرات والمشافي والمدارس في لبنان وفلسطين ودمشق، وذلك من أجل كسب مودة السلطان وبطانته ولتعويد الموظفين والمسؤولين العثمانيين، بل والسكان أيضاً على طريقة العمل والحياة الألمانيّة[٨٣٦].

وقد استغلّت الدبلوماسية الألمانية تناقضات الباب العالي مع الدول الأوربية بمهارة عالية.

---

(833) مجلة الجامعة العثمانية-نيسان 1899م ص18 و19 بقلم فرح أنطون.

(834) علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية ص127.

(835) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص142.

(836) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص142.

وقد أشار الدبلوماسيون الألمان إلى ما فعلته بريطانيا من خلال قبرص ومصر، واحتلال فرنسا لتونس، وقيام روسيا بضمّ قارص وأردهان وتحرير البلقان، وأكدت الدبلوماسية الألمانية بأن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي ليست لها مصلحة في إضعاف الدولة العثمانية أو اغتصاب أراضيها، واستخدم الألمان جميع الوسائل لتخويف السلطان من أوروبا ومخططاتها ضد الدولة.

وفي ثمانينات القرن التاسع عشر حصل انقلاب في السياسة العثمانية، ومالت من الاتجاه الإنكليزي القديم إلى الاتجاه الألماني الجديد.

وقد دُشن هذا التقارب بالزيارة الثانية للإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) التي أعلن فيها أنه المدافع عن الإسلام[٨٣٧].

ومن الأمور التي حاول الإمبراطور تحقيقها مع السلطان عبد الحميد، كانت إدارة أملاكه الإمبراطورية الخاصة.

ولقد كان للسلطان في فلسطين والأردن وصور وعكا وبئر السبع والرافدين أراضٍ شاسعة تشكل خمس أراضي الإمبراطورية العثمانية الصالحة للزراعة.

وقد زاد الألمان أن الإشراف على هذه الأملاك وإداراتها وتطويرها. يساعدهم على تثبيت سلطانه في الدولة العثمانية، ويحببهم بالألمان أصدقاء السلطان الأوفياء.

وبعد استشارة المحيطين بالسلطان رفض السلطان هذا الحرص لأنه أدرك أهداف ألمانيا منه، وكان رفضه مهذباً عندما قال: «بكالوم» (***Backlems***)، أي سنفكر التي تعني تأجيلاً طويلاً للطلب الألماني[٨٣٨].

أمّا حقيقة موقف الإمبراطور غليوم الثاني من الاستعمار ومن السلطان عبد الحميد ومن الإسلام ومن المسيحية مسألة دقيقة للغاية.

ومن خلال ما عرضناه من المصادر خلصنا إلى ما يلي:

- إن الإمبراطور رجل مسيحي متمسك بدينه بشدّة متناهية شأنه شأن ملوك روسيا وبريطانيا وغيرهم.

وفي خطابه في كنيسة المخلّص بالقدس يوم 31 تشرين أول 1898 قال بصراحة:

«إن حضوري إلى القدس الشريف كان لكي تطأ أقدامي الأرض التي داسها سيدنا وربنا يسوع المسيح، والتي مات فيها ثم قام وصعد منها إلى السّماء...

(*837*) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو، 1971، ص387.

(*838*) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص405.

يجب علينا أن نشهر دين المسيح الحقيقي ليكون نوراً على منارة، ينير كل مكان وكل زمان....

وإني سأستمر على هذا الدين الحق والمبادئ القويمة التي تسلمتها من آبائي وأجدادي، وإن إيماني ثابت على الصخرة الأزلية، التي هي السيد المسيح، وإني سأبقى متمسكاً بالكلمة التي تأسست مملكته عليها وهي الإيمان الحقيقي بالرب يسوع المسيح حسبما هو مبين في إنجيله وإن سأجاهد لمجد الرب وخير الكنيسة[٨٣٩].

فالإمبراطور إذن مسيحي متديّن والفرق بينه وبين الآخرين من حكام أوروبا الطغاة، أنه كان حريصاً على حريَّة الأديان لدى الجميع، ولاسيما المسلمين، وكان يحترم مقدساتهم وعقيدتهم، ويدافع عنها كما يدافع عن عقيدته.

ليس هذا فحسب، بل إنه رأى في الجامعة الإسلامية وتقوية الدولة العثمانية أمراً مشروعاً طبيعيًا وليس دليلاً على تعصب المسلمين كما تقول بريطانيا .

لقد كانت ألمانيا في عهد غليوم الثاني تحديداً دولة شريفة تحترم المسلمين ودولتهم وخليفتهم وأبطالهم دون أن تكون لها مطامع في بلادهم، وإنما هي المصالح المشتركة، وهو ما لم تفهمه دول أوروبا وأمريكا حتى اليوم. وهذه هي خلاصة الموقف الألماني وقيمته باختصار.

(*839*) خليل سركيس، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني، دار القادري، دمشق، 1997، ص62.

الخاتمة

ومع نهاية هذا البحث عن العلاقات الألمانية - العثمانية، يمكننا القول: أن الدولة الألمانية لم تكن بالفعل تلك الدولة الصديقة الحقيقية كما اعتقد العثمانيون وعلى رأسهم سلطانهم (عبد الحميد الثاني) فلقد كانت الأهداف الاستعمارية، هي الأهداف الحقيقية من وراء توطيد هذه العلاقات وتقويتها، فألمانيا كانت قد وصلت متأخرة إلى ساحة الاستعمار الدولي وأرادت أن تحصل على مكان لها بين الدول العظمى من الناحية السيادية ومن الناحية الاستعمارية ورأينا كيف أن بسمارك سعى لأن تكون ألمانيا هي صمام الأمان في الحفاظ على السلم الدولي في أوربا وكذلك سعى من بعده الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) لكي يجعل من ألمانيا دولة قوية عظمى من جميع النواحي (الاقتصادية والسياسية والعسكرية) وبما أن الدولة العثمانية كانت الأضعف بين الدول الكبرى في تلك المرحلة وكانت أيضاً ممتلكاتها من أفضل وأهم المناطق المطموع بها والمتنازع عليها من قبل الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا - انكلترا - روسيا) فلذلك سعى الإمبراطور الألماني، لتمتين علاقاته مع هذه الدولة المتهالكة وأن يظهر صداقته لها في وقت كانت تظهر معظم الدول الأوروبية عدائها الشديد للعثمانيين وطمعها بممتلكاتها، حتى أن كثير من هذه الدول قامت باقتطاع أراضي عثمانية واستولت عليها في تلك الفترة الزمنية، فكانت هذه هي الفرصة التي استغلها الإمبراطور الألماني من أجل الدخول إلى الدولة العثمانية بصورة الصديق المعين والمسعف للدولة العثمانية وسلطانها وإنقاذهما من السقوط.

وكان أن نجح هذا الإمبراطور لحد ما في كسب ودّ وصداقة السلطان (عبد الحميد الثاني) وكذلك محبة الشعوب الإسلامية الذين تحكمهم الدولة العثمانية وخاصة بعد زيارته الثانية إلى دمشق والقدس وخطبته المشهورة هناك.

هذا بالنسبة لألمانيا وإمبراطورها، أما بالنسبة للدولة العثمانية وسلطانها (عبد

الحميد الثاني)، فلقد كانت الدولة تعيش في تلك المرحلة أسوأ أيامها، ولم يكن أمام السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن يقبل أي يد تُمد له بالمساعدة والعون حتى لو كانت هذه اليد مشكوك في صدق نواياها، وفي كثير من الأحيان استطاع عبد الحميد أن يكشف النوايا الخبيثة للألمان من وراء إقامتهم علاقات مع دولته الشبه منهارة، وقد حاول في أكثر المواقف أن يظهر للألمان فهمه وكشفه لهذه النوايا والوقوف في وجه أطماعهم ومشاريعهم الاستعمارية في بلاده.

وأما إذا حاولنا أن نبين من هو المستفيد الأكبر من الطرفين (الألماني-العثماني) في إقامة هذه العلاقات، فقد كان الألمان بحكم ضعف الدولة العثمانية فهي لم تستطع الحفاظ على نفسها حتى أمام هذا المستعمر المتخفي بزي الصديق.

واستطاع الألمان أن يكونوا هم الطرف الأقوى والأكثر استفادة من هذه العلاقات من جميع النواحي وخاصة (الاقتصادية والعسكرية والسياسية) وكانت نتائجها كارثية على الدولة العثمانية حيث نجح الألمان في جر الدولة العثمانية وأخذها إلى حرب عالمية انتهت بتقسيم الدولة العثمانية وسقوط الخلافة في النهاية (1923) بينما بالرغم من خروج ألمانيا مهزومة في هذه الحرب إلا أنها نجحت في أن تعود أكثر قوةً من قبل وتصبح هي القوة الوحيدة والعظمى والمسيطرة في القارة الأوربية على يد زعيمها هتلر، طبعاً بغض النظر عن النتائج الكارثية التي جلبها هتلر على دولته ألمانيا فيما بعد.

هذا بالنسبة لتأثير العلاقات الألمانية-العثمانية على الدولة العثمانية وألمانيا، أما بالنسبة لتأثيرها على الوطن العربي فلقد كان تأثيرها سلبياً إلى حدٍ كبير، وخاصة بالنسبة إلى فلسطين والاستيطان اليهودي فيها.

فبالرغم من محاولات الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني منع استيطان اليهود في فلسطين ووضع العراقيل الكبيرة في وجه اليهود، وبالرغم من عدم الدعم العلني والصريح للإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» لليهود ولاستيطانهم فلسطين، إلا أنه بصورة أو بأخرى أدت ألمانيا واليهود الألمان على الأخص دوراً بارزاً في جلب وتثبيت أولى المستوطنات اليهودية في فلسطين.

وقد شكلت هذه المستوطنات النواة الحقيقية للاستيطان اليهودي والهجرات التي تلاحقت إلى المنطقة فيما بعد وأدت إلى تشكل الكيان السرطاني المزعوم (إسرائيل).

ولا يستطيع المحلل والباحث أن يتصور أن هذه التجمعات اليهودية الألمانية الأولى التي جاءت إلى فلسطين ونجحت في إنشاء مستعمرات لها هناك، لم تكن مدعومة أو

بعيدة عن الدعم الرسمي من قبل الحكومة الألمانية في ذلك الوقت فهي بطريقة أو بأخرى نجحت في الحصول على الدعم المادي والمعنوي والتأييد المطلق لها في الاستمرار في بناء مستعمراتها داخل فلسطين.

وقد رأينا أثناء البحث كيف كانت تتعالى الأصوات بين حين وآخر من قبل الرأي العام الألماني وحتى بعض الشخصيات السياسية البارزة في الحكومة الألمانية من أجل دعم هذه المستوطنات وتقديم العون المادي لها، وتأمين الغطاء السياسي لها والقانوني من قبل الإمبراطورية الألمانية، وكيف طُلب في كثير من الأحيان من «بسمارك» والإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» فيما بعد في أن يساعد اليهود في الحصول على الموافقات القانونية لبناء مستوطنات لهم في فلسطين داخل القدس وفي مناطق متفرقة من فلسطين.

ورأينا كيف التقى هرتزل بالإمبراطور الألماني وطلب منه رسمياً دعم اليهود في قضيتهم المزعومة وأن يتوسط لهم لدى صديقه السلطان عبد الحميد الثاني في أن يسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وشراء الأراضي من أجل إقامة وطنهم القومي فيها.

وما كان رفض الإمبراطور الألماني محبةً في السلطان وكرهاً في اليهود، بل كانت خطوة دبلوماسية منه أراد منها التأكيد على صداقته مع السلطان العثماني ودعمه له ومحبته للمسلمين في العالم كله، حتى ظنه الكثيرون - من ساذجي العالم العربي والإسلامي - أنه صديق حقيقي لهم. وفي كثير من الأحيان أدعى بعضهم وأشاع أن الإمبراطور الألماني قد تحول إلى الدين الإسلامي.

وفي الحقيقة لم تكن هذه هي الصورة الحقيقية لمشاعر الإمبراطور ومواقفه من الدولة العثمانية وسلطانها وأتباعه من المسلمين، بل كان الهدف الحقيقي له هو الحصول على شعبية كبيرة لدى هؤلاء البسطاء من أجل أن تكون ألمانيا دولة عظمى وكبرى في العالم. ومن أجل أن يضرب مصالح كلٍ من فرنسا وانكلترا اللتان تسيطران على مناطق كثيرة في العالم معظم شعوبها من المسلمين.

وفي نهاية الأمر على الرغم من كل التحليلات والتأويلات والأبحاث التي حاولت أن تفسر وتعطي الأسباب الحقيقية والأيادي الخفية وراء زرع «إسرائيل» في قلب الوطن العربي فحقيقة وجود هذا الكيان الغاصب ما زالت قائمة إلى الآن.

وخلاصة الأمر أن هذا العدو لن يخرج من بلادنا حتى تتوحد كلمتنا نحن العرب جميعاً وتتوحد رايتنا تحت راية واحدة وتحت قيادة واحدة وفي ذلك الوقت فعلياً نستطيع

اقتلاع «إسرائيل» من جذورها من منطقتنا وكل أتباعها معها إلى الأبد ويعود الحق المسلوب إلى أصحابه.

ولكن هيهات هيهات أن يتم ذلك في هذا الوقت العصيب والزمن الأسود على أمتنا العربية والإسلامية، فالوطن أصبح أوطان وأصبح لفلسطين إخوان وأخوات (العراق-سوريا-مصر-ليبيا ...) فغدونا فرقاً وفرقاً حتى داخل الوطن الواحد ودعوتنا أننا نبني وتحرر ونحن بأيدينا ندمر ونخرّب.

الملاحق

الوثائق والصور

ملحق رقم (1)

أولاً ـ رحلة خالد العظم
على متن الخط الحجازي إلى الحرمين الشريفين
سنة 1915

في سنة 1915 أراد جمال باشا قائد الجيش الرابع في دمشق أن يرسل وفداً من علماء دمشق إلى الأراضي المقدسة لإقناع مشايخ الحرمين وشيوخ القبائل وأولي الشأن هناك بالانضمام للدولة العثمانية في حربها المقدسة مع الكفّار، وعدم الإصغاء إلى عملاء فرنسا وانكلترا الذين يريدون هلاك الإسلام.

وكان ممَّن سافر عدد كبير من أعيان الشام ومنهم خالد العظم، ابن محمد فوزي باشا العظم، الذي كان في استانبول آنذاك وقد سافر مع والدته وأختيه وعمّتيه,

وقد انطلقت الرحلة في ربيع 1915.

يقول: «حُجز لنا في عربات الدرجة الأولى غرفتان، في كل غرفة سريران، وقد اكتظت الغرف الباقية بـ«المشايخ» الذين زاد عددهم عن المئة...

ولم يكد القطار يغادر محطة القنوات حتّى تعالت أصوات المشايخ بآيات القرآن الكريم والمدائح النبوية.

وكان المشايخ قد اتفقوا مع سائق القطار على التوقف عند كل آذان لأداء الصلاة، فكانوا يصلّون جميع الأوقات صفوفاً طويلة وسط الصحراء، وكان منظراً بديعاً، وكنت أؤدي الصلاة مع المشايخ في كل الأوقات، ويسحرني صوت المؤذن يردد في صلاة الفجر: اللّه أكبر...

وبعد الصلاة كان المشايخ - يعني العلماء - يقومون بإعداد الأطعمة ويتهادونها فيما بينهم، كما يقدّمون ما جاؤوا به من دمشق من الأطعمة الفاخرة مثل المعمول و«كول واشكور».

وكانت رحلة ممتعة جداً، لولا بطء القطار الذي كان يتوقف كثيراً للتزوّد بالحطب لعدم وجود الفحم الحجري....

وكنّا انطلقنا من دمشق بعد صلاة الفجر، فوصلنا عمّان عند غروب الشمس[٨٤٠].

---

(840) أكرم العلبي، خالد العظم، ص202، دمشق 2005.

ملحق رقم (2)

ثانياً – وثائق شرعية متعلقة بالخط

1- عسكري عامل في السكّة 1903:

«قرر القاضي الشرعي بدمشق:

على ا لسيد: طالب اللحّام نفقةً شرعية لبنت ولده محمود الغائب عن دمشق في سلك العسكرية في طريق السكة الحجازية والمقيم في قرية عمّان».

وهذه الوثيقة تبين وجود عسكري من دمشق، يمضي خدمته العسكرية في عمّان، عاملاً في الخط الحجازي[٨٤١].

2- دعوى على الشركة 1907:

ادّعى: ناصيف أبو زيد الوكيل عن أحمد ملص التاجر بالشام، ادعى على:

ملحم شيفوخت آحد ملتزمي الخط الحجازي ومن تبعية دولة إيطاليا الضخمة، ادعى بـ56 ليرة ذهب عثمانية مجيدية من الشركة المذكورة قيمة أخشاب وحديد[٨٤٢].

ادّعى عبد الرحمن ملاطيه لي، حجّار بالشام على سعدي الدمشقي تاجر عثماني ملتزم طريق سكة الحجاز بالشام بـ(152) ليرة ذهبية عثمانية أجرة نحت الأحجار بطريق السكة..

ادعى محمد ثابت مهندس التعميرات بالخط الحجازي المقيم بدرعا على سعدي الدمشقي، المتعهد بالسكة الحديدية الحجازية من تجار الشام أنه كان قد تعهّد له بالقيام بكافة أعمال القسمين 76 و79 من السكة، مقابل 30 ليرة ذهبية عن كل شهر، مع مصروف الأكل وأجرى خادم لمدة ستة شهور، ولكن المدعى عليه لم يدفع له شيئاً، ولذلك جرى

(841) السجل 1207 دمشق وثيقة 95.

(842) السجل 79 تجارة وثيقة 121.

الحجز الاحتياطي على هذا المبلغ الموجود عند هيئة السفن في إدارة مفوضية حيفا الحجازية بتاريخ 1906[٨٤٣].

وفي آخر وثيقة: ادعى طاهر بك، وكيل سكة حديد الحجاز، على حسن أفندي الحلبوني بأن مبلغ الـ17 ليرة ذهبية عن كل قصبة من الأرض العائدة للسكة الحديدية الحجازية هو مبلغ كبير جداً، ويجب عليه الحضور إلى المحكمة لتخفيض المبلغ بعد التخمين[٨٤٤].

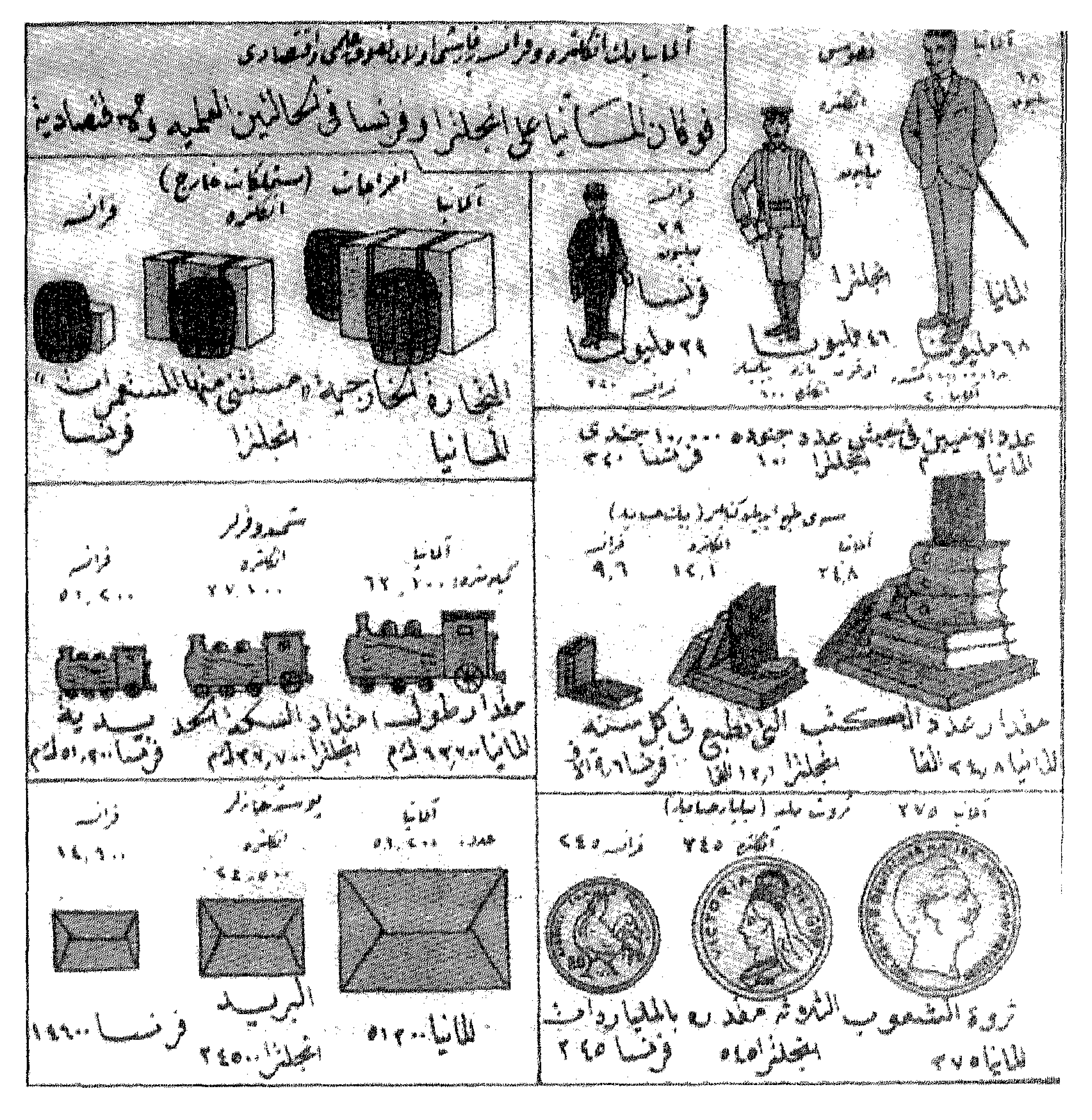
---

(843) السجل 77 تجارة وثيقة 42.

(844) السجل 85 تجارة وثيقة 31، وحسن الحلبوني هذا صاحب بستان الحلبوني عند محطة الحجاز، باع قسماً منه لصالح المحطة، وقد بنى الحلبوني في بستانه جامعاً وقصراً فعُرف الحي كله باسمه حتى اليوم، كما يفهم من الوثيقة.

ملحق رقم (3)

تفوّق ألمانيا على بريطانيا وفرنسا علمياً واقتصادياً
في الحرب العالمية الأولى وفق الدعاية الألمانية



المرجع: عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ملحق رقم (4)

نهب الإنكليز ثروات مصر وفق الدعاية الألمانية



المرجع: عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ملحق رقم (5)

فرنسا في شمال إفريقيا وفق الدعاية الألمانية:

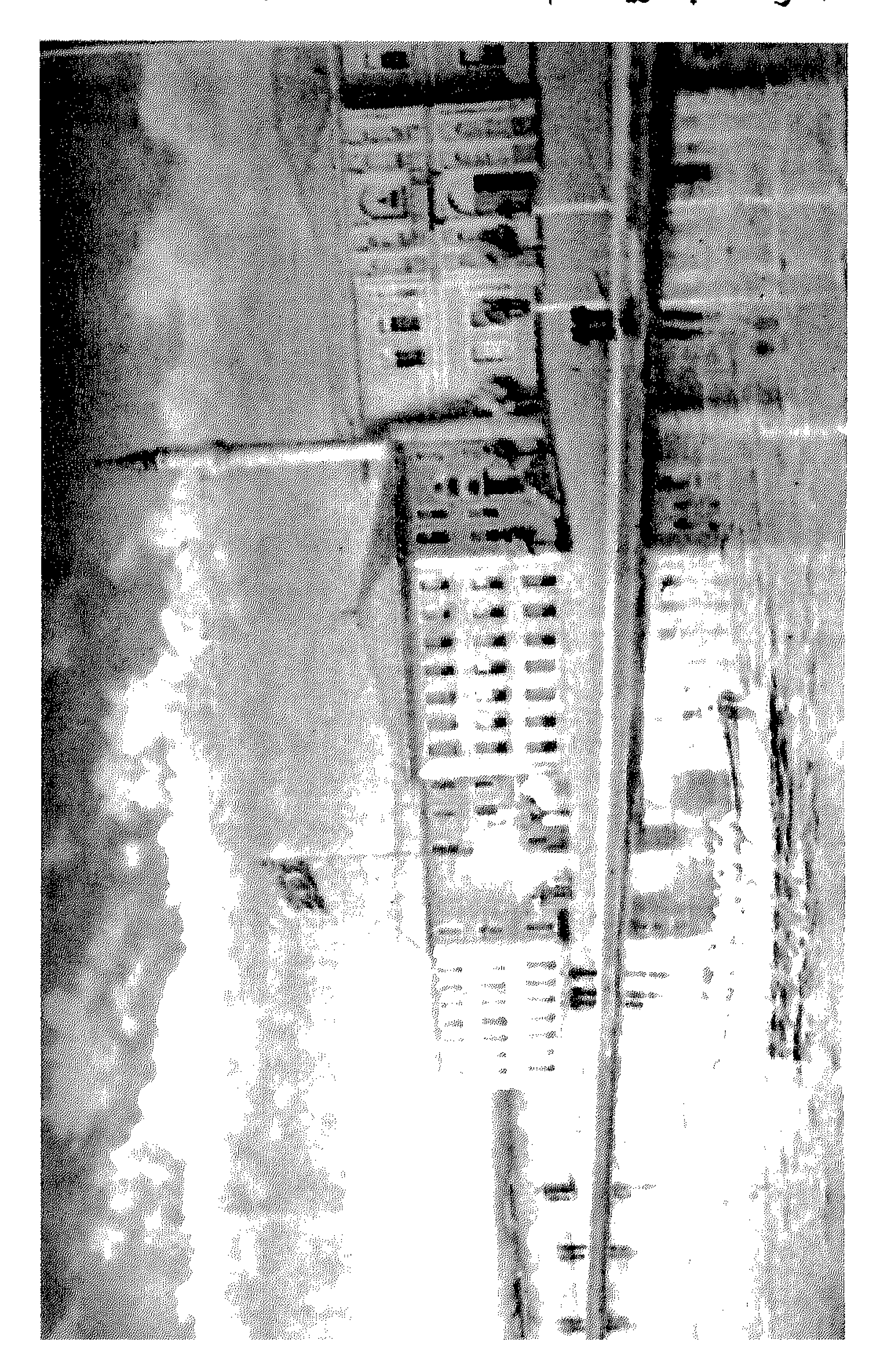
الفلاح يكدح والمستعمر يتمتَّع



المرجع: عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ملحق رقم (6)

المدرسة البحرية عام 1303هـ - 1885م في استنبول



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه ص33.

ملحق رقم (7)

صورة السلطان عَبد الحميد الثاني



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه ص34.

ملحق رقم (8)

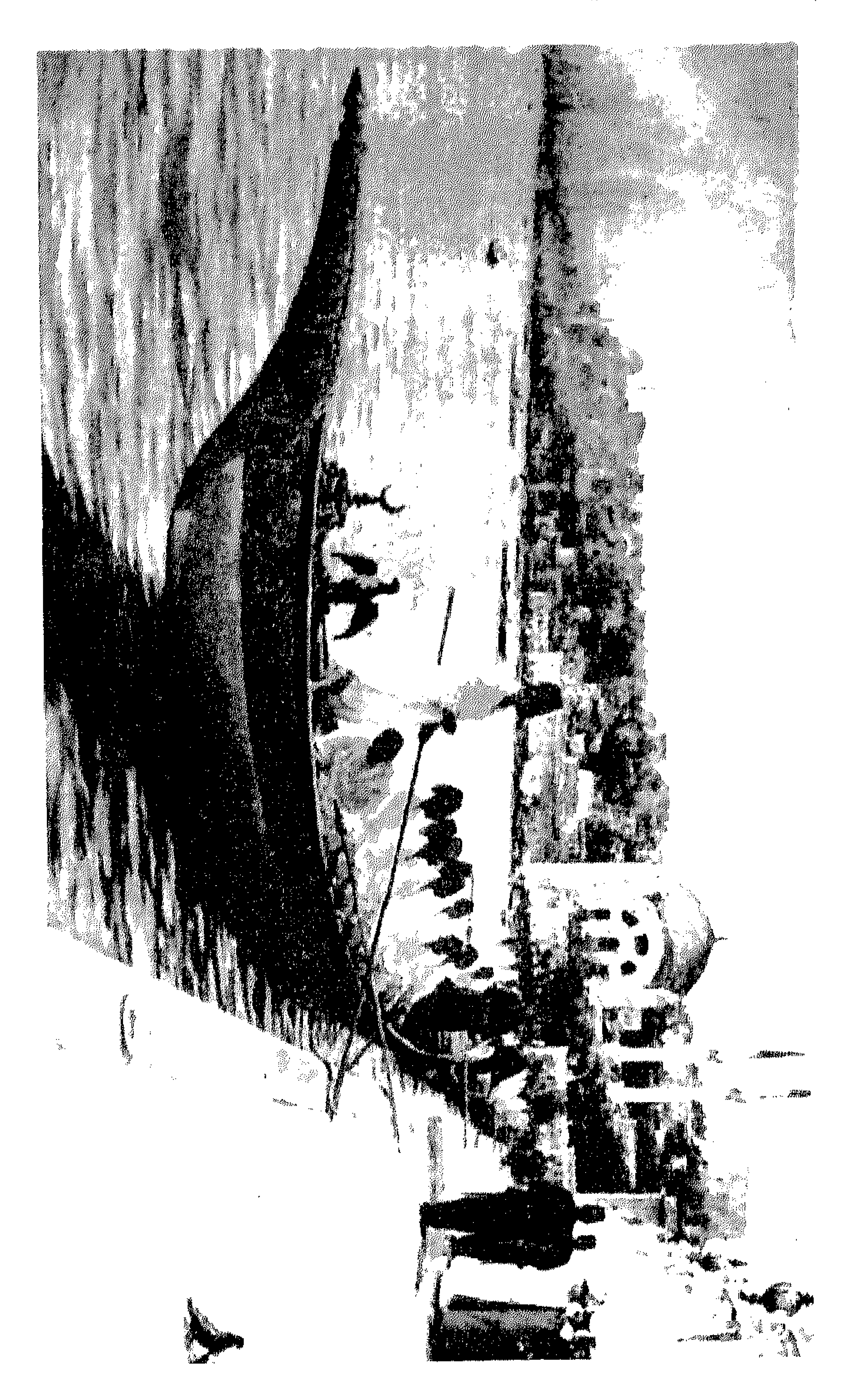
حدود الدولة العثمانية في أوربا بعد معاهدة برلين



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه ص35.

ملحق رقم (9)

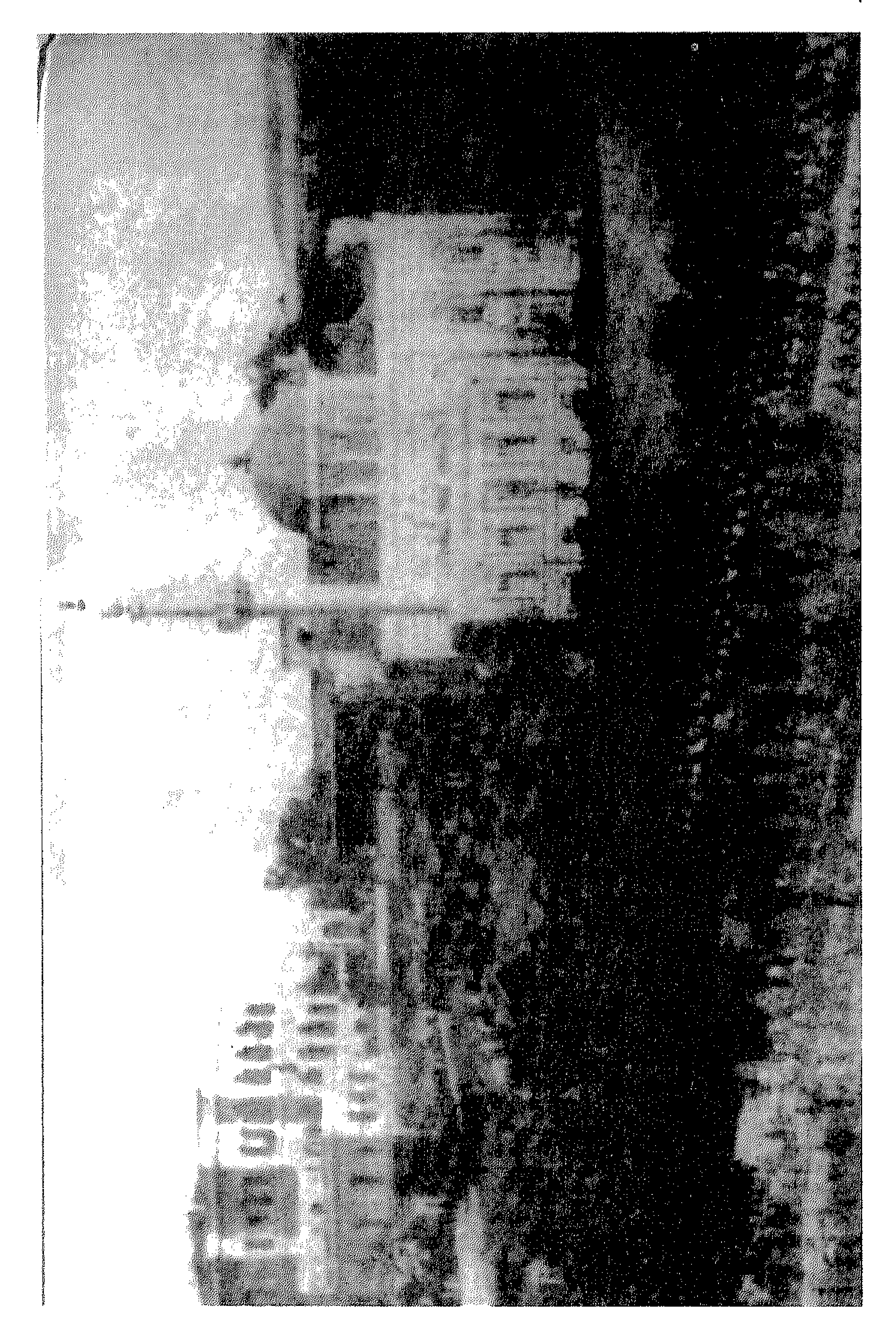
الإمبراطور الألماني غليوم الثاني عند خروجه من سراي يلدز



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه.

ملحق رقم (10)

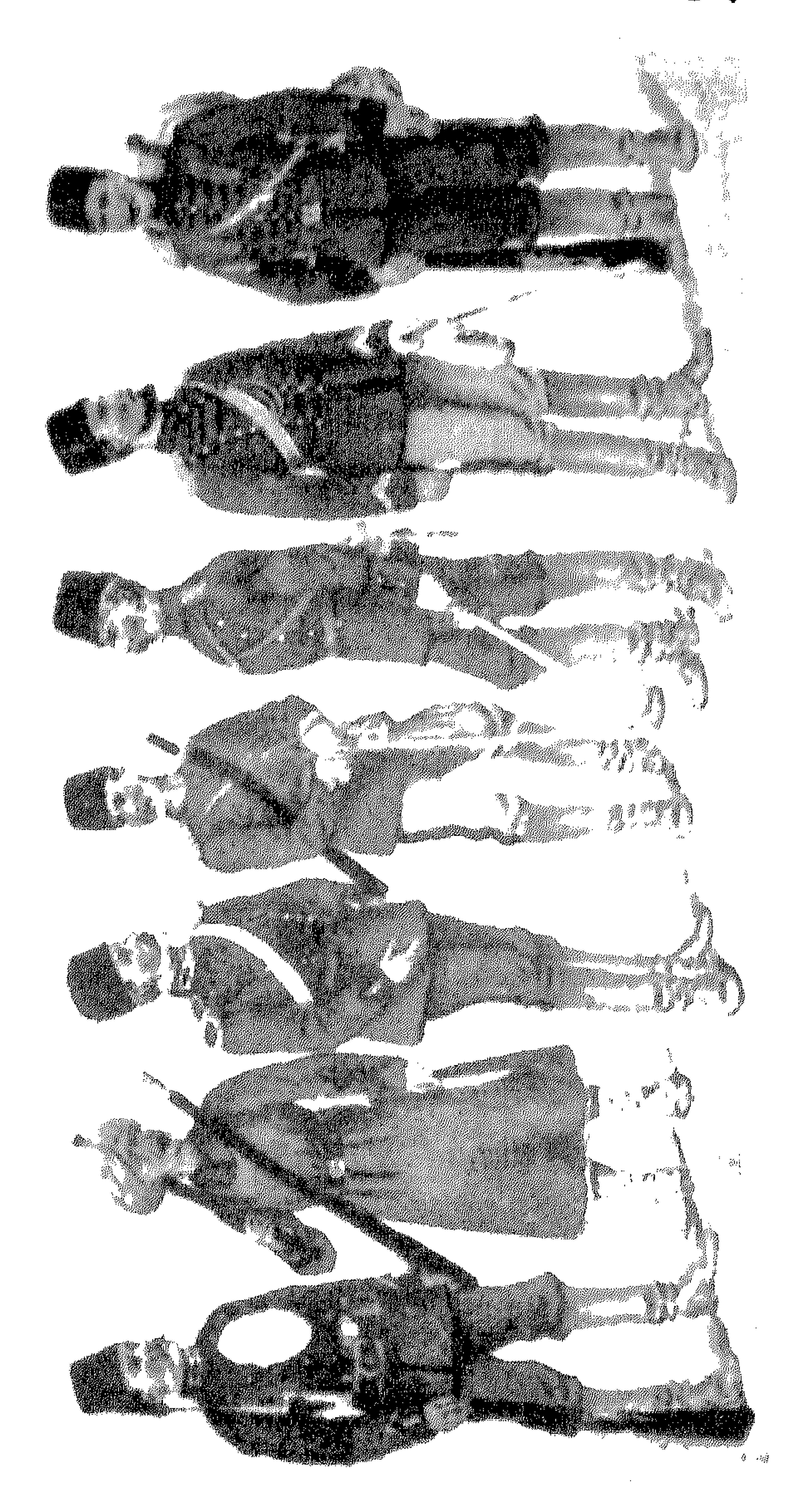
مراسم استقبال الإمبراطور الألماني غليوم الثاني في قصر يلدز 1889م



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه.

ملحق رقم (11)

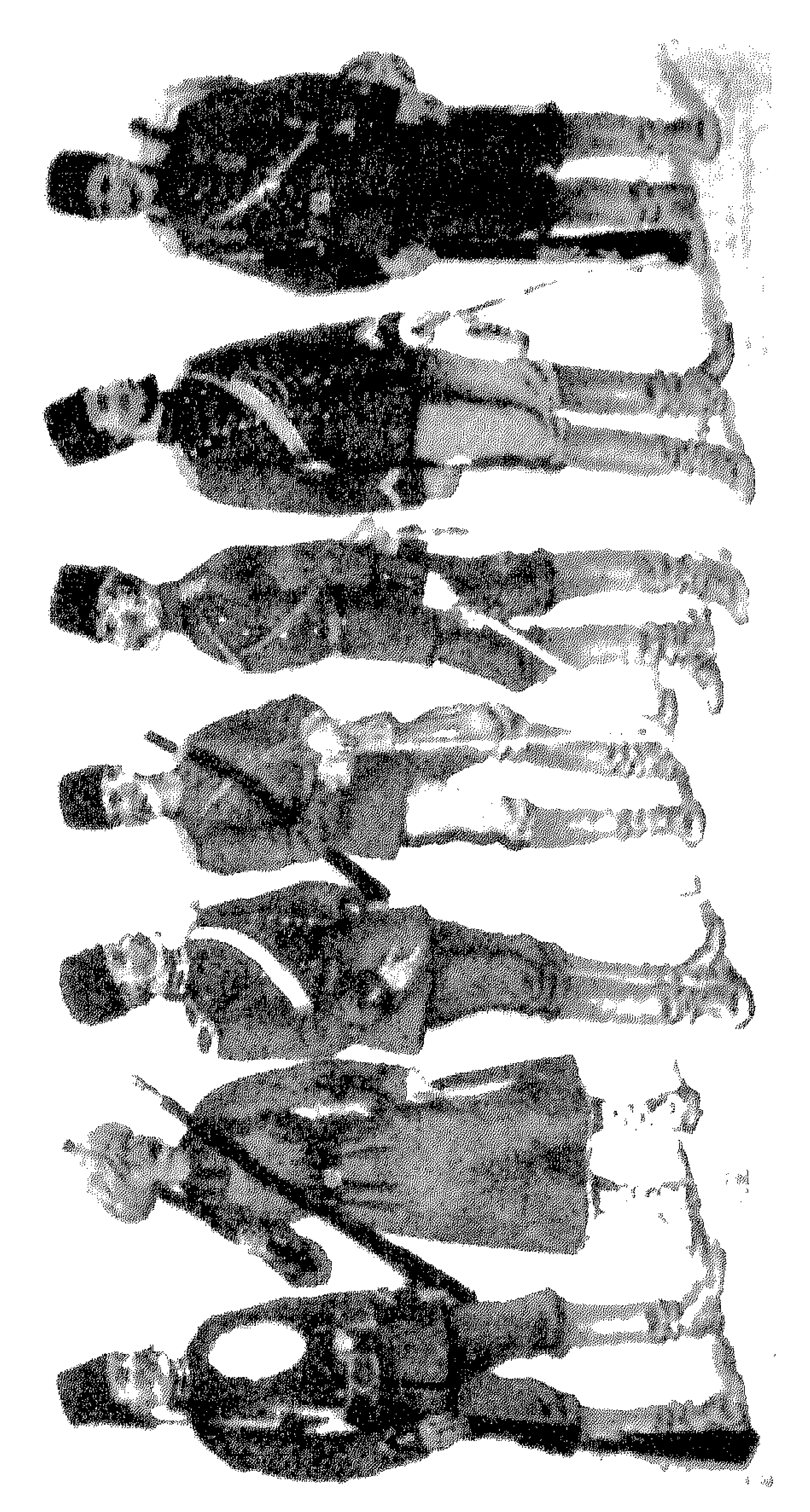
الملابس العسكرية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه.

ملحق رقم (11)

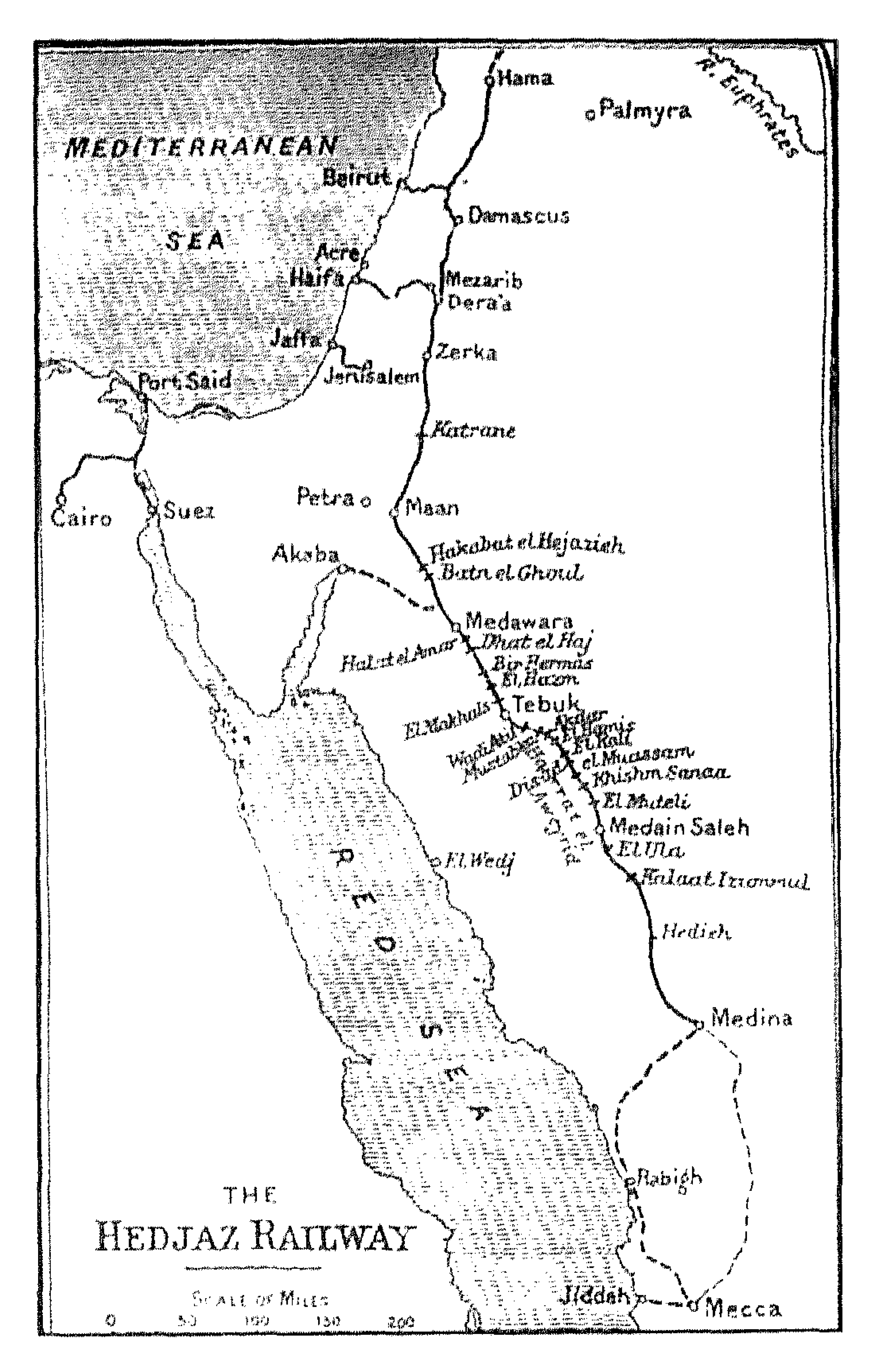
الملابس العسكرية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني



المرجع: عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني المفترى عليه.

ملحق رقم (13)

مسار خط حديد الحجاز



المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص241

ملحق رقم (14)

محطة معان وهي من أهم محطات خط حديد الحجاز



المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص244

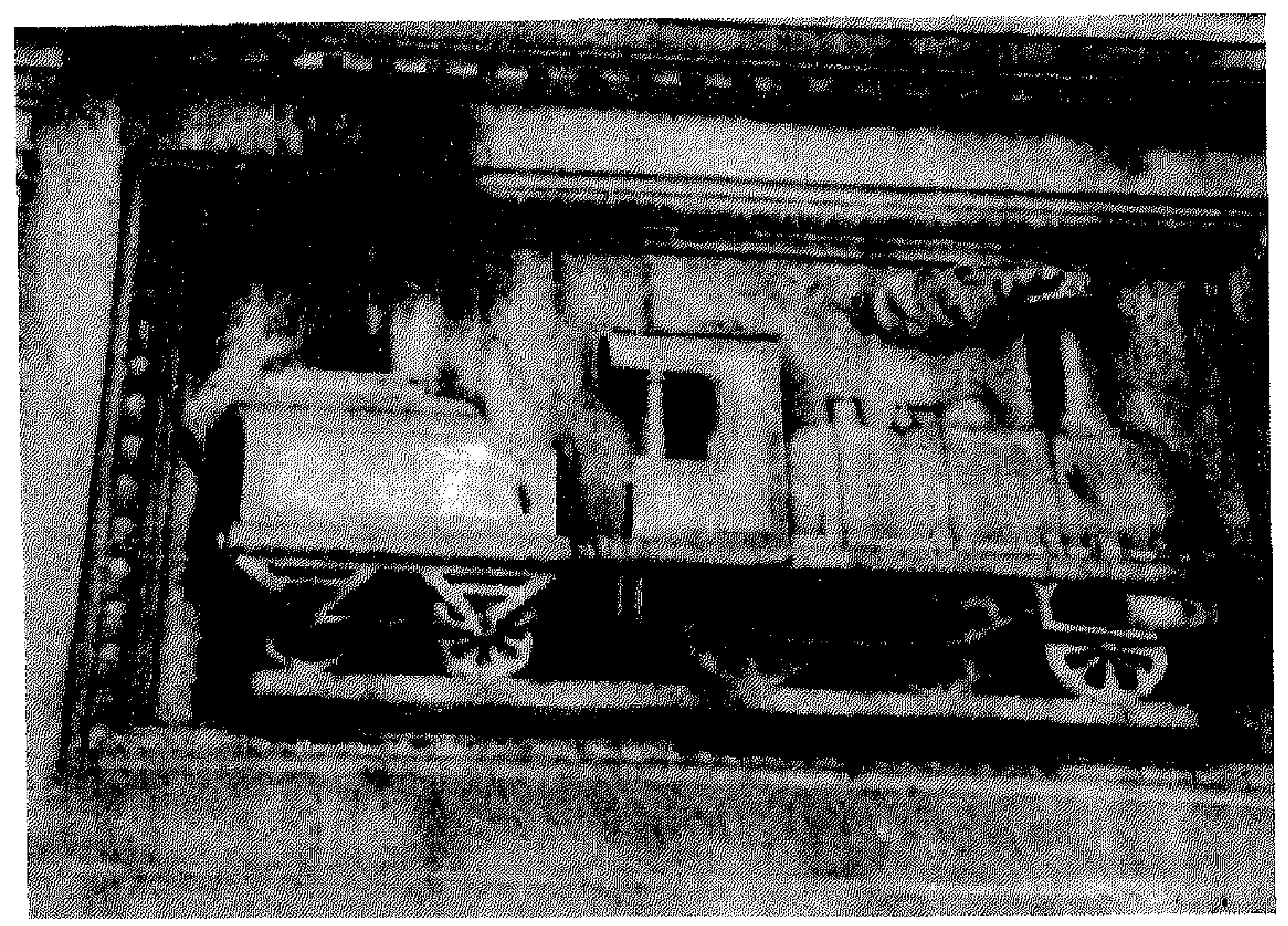
ملحق رقم (15)

تذكرة إعانة (مساعدة) بقيمة قرش واحد مخصصة لمصاريف سكة حديد الحجاز الحميدية

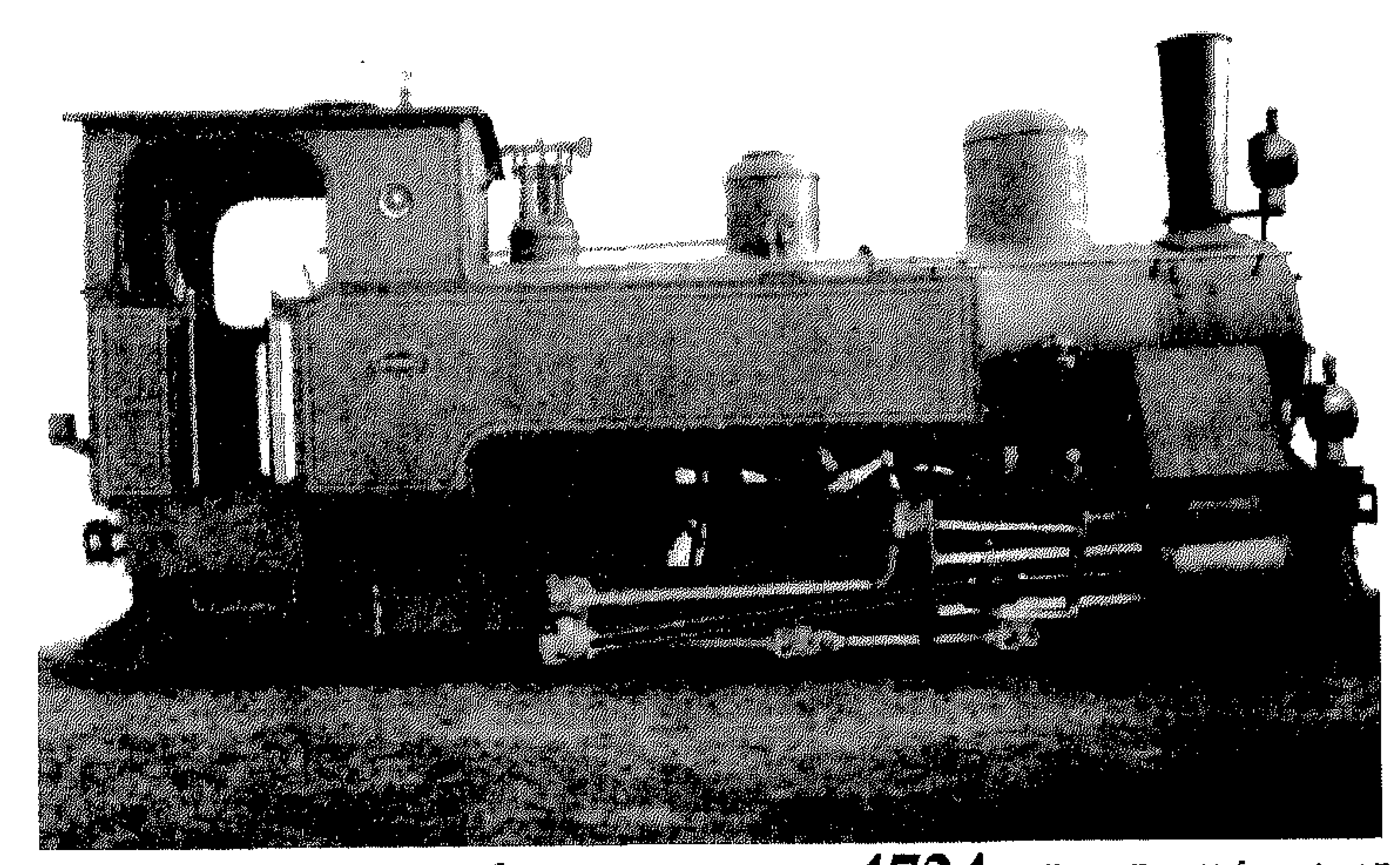


المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص246

ملحق رقم (16)



صورة قطار منقوش على الرخام على الركن العالي



قاطرة ألمانية برقم 4724 تم شراؤها من أجل سكة حديد الحجاز

المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص149

ملحق رقم (17)

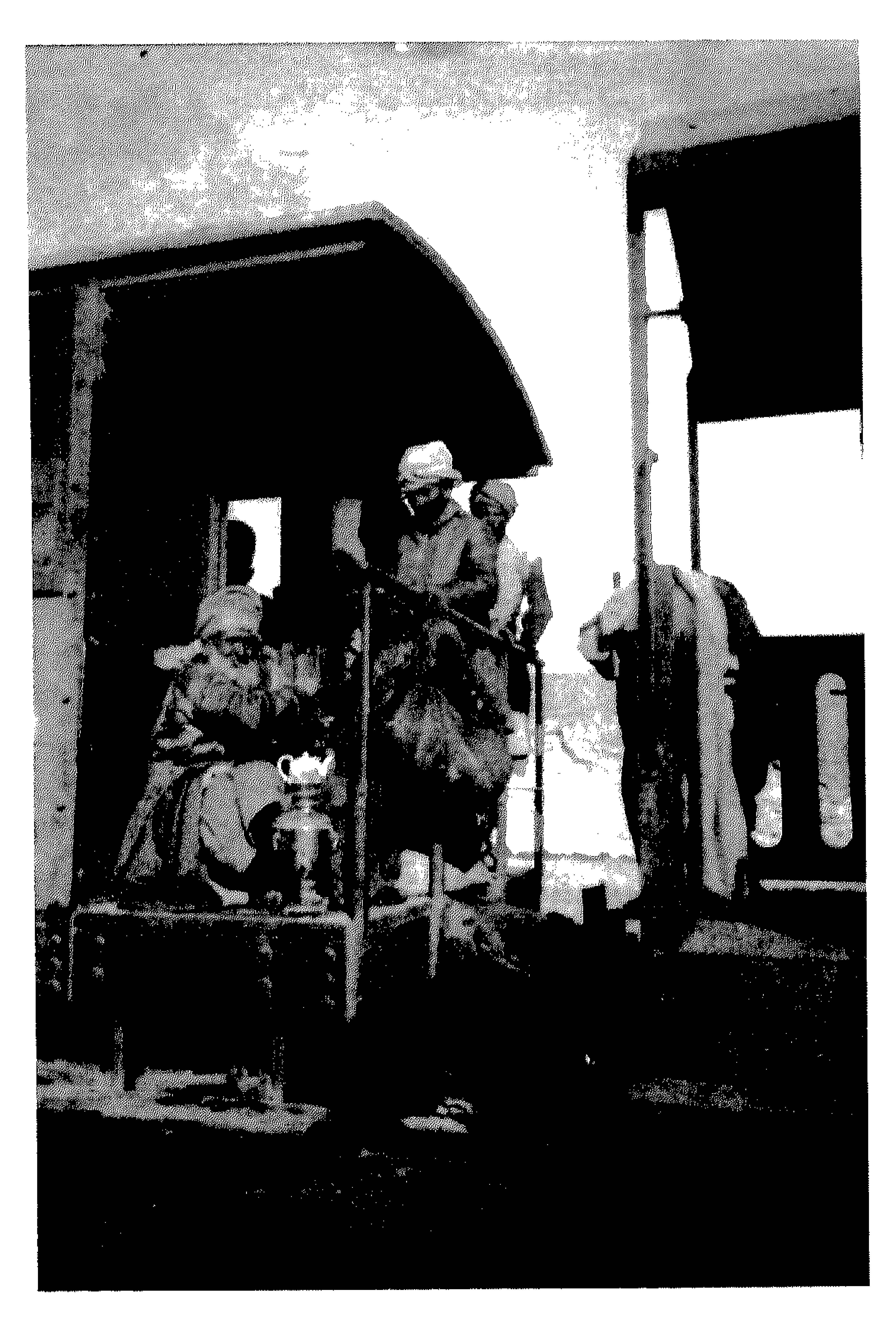
مايسنر باشا، وهو المشرف العام لسكة حديد الحجاز
وهو مهندس من أصول ألمانية، يرتدي بدلة الباشاوات العثمانية



المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص252

ملحق رقم (18)

حجاج مسافرون على سكة حديد الحجاز يصنعون الشاي في السماور



المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص259

ملحق رقم (19)

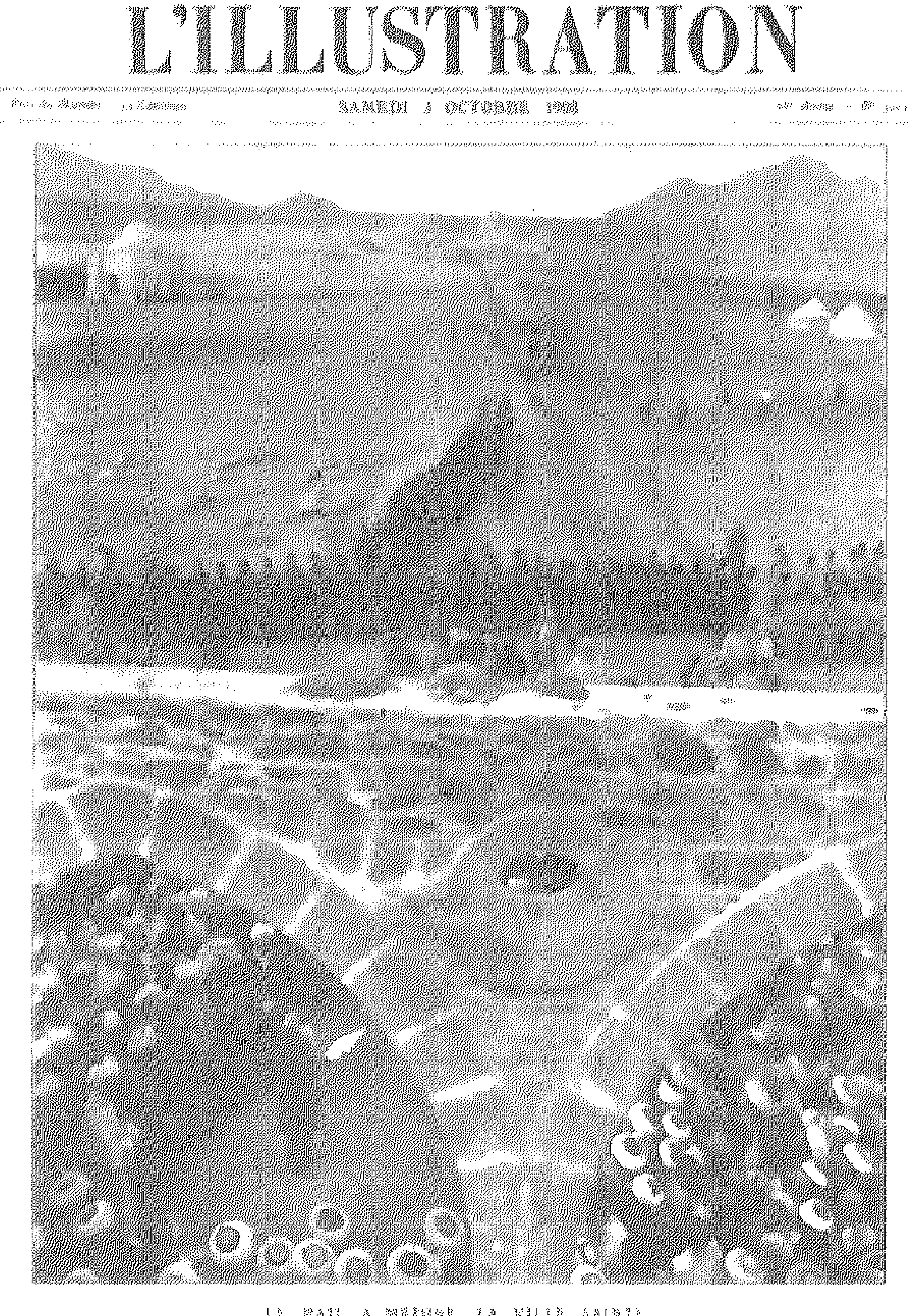
محطة القطار في حمص



المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص266

ملحق رقم (20)

نشر خبرِ وصول خط حديد الحجاز إلى المدينة المنورة على مجلة غلاف L'illustration الصادرة في 3 أكتوبر/تشرين الأول 1908. يظهر مختار باشا على الغلاف وهو يقرأ الرسالة السلطانية على الأهالي في المدينة المنورة



L'ILLUSTRATION

SAMEDI 3 OCTOBRE 1908

المرجع: د. متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني ص269

ملحق رقم (21)

معمل أسلحة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني



المرجع: من وثائق الأرشيف العثماني

الملحق رقم (22)

كلية الطب في استانبول

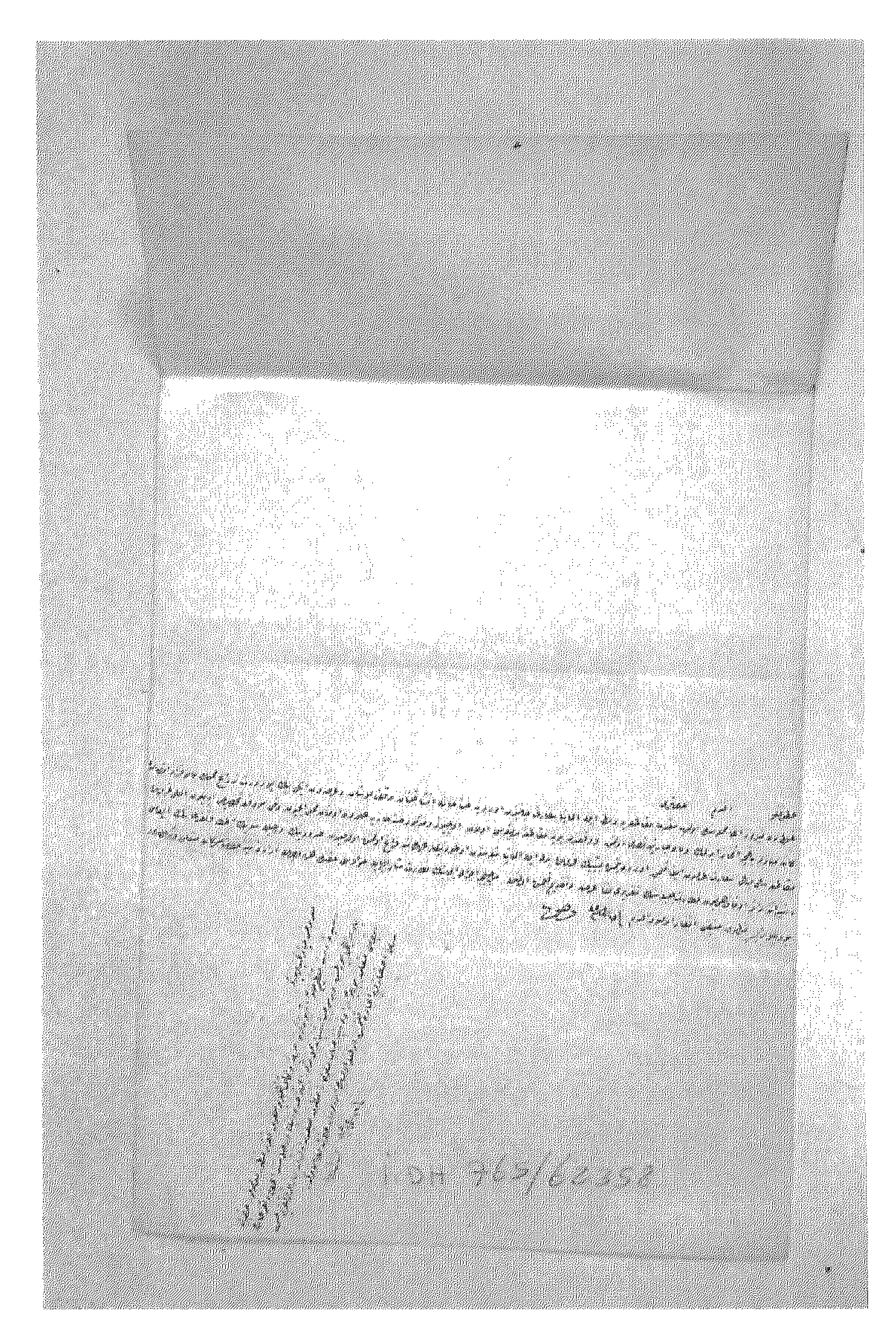




المرجع: من وثائق الأرشيف العثماني

الملحق رقم (23)

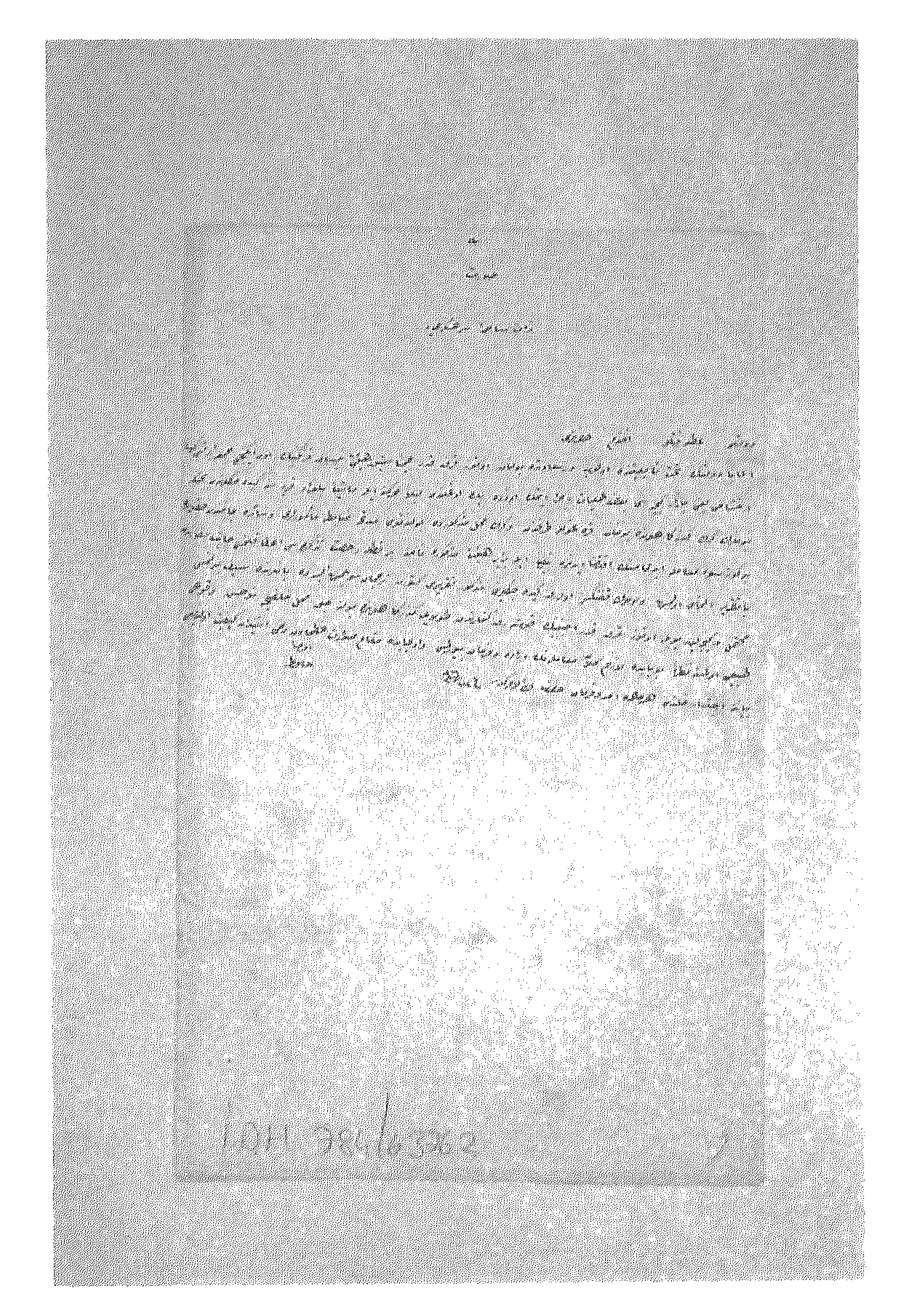
وثيقة


I.DH 965/62258

المرجع: من الأرشيف العثمانية

الملحق رقم (24)

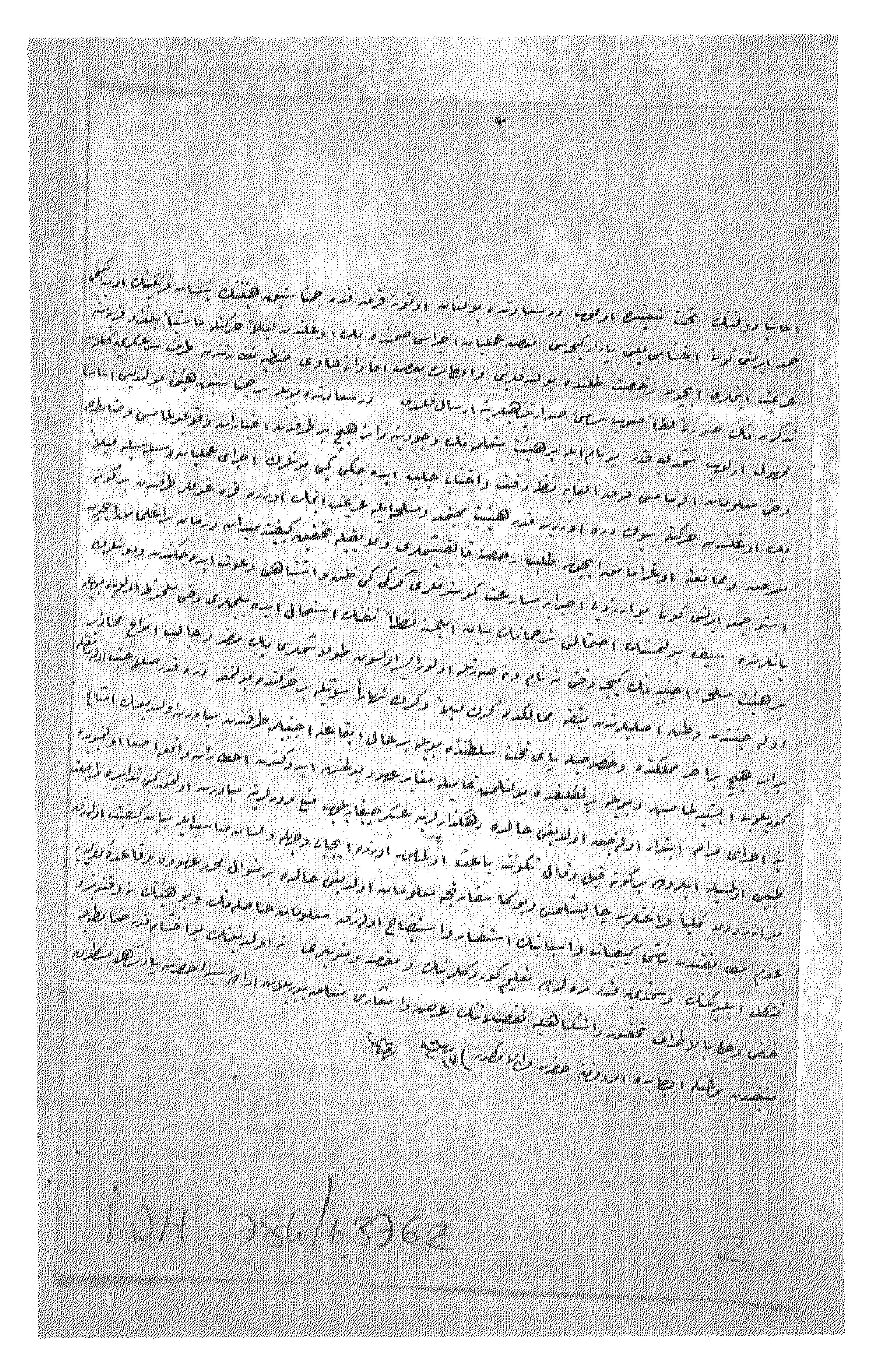
وثيقة



المرجع: من الأرشيف العثمانية

الملحق رقم (25)

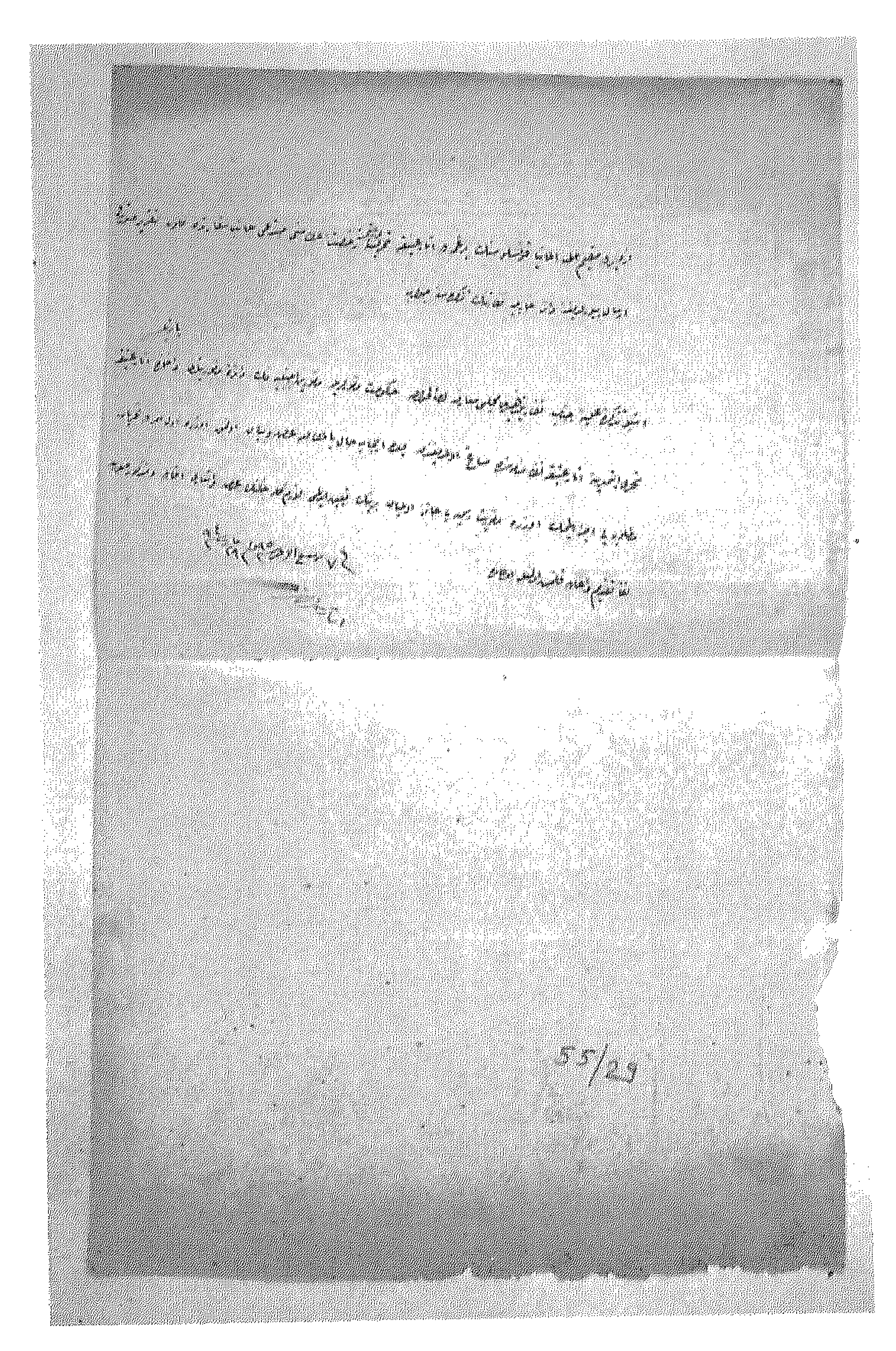
وثيقة



المرجع: من الأرشيف العثمانية

الملحق رقم (26)

وثيقة



55/29

المرجع: من الأرشيف العثمانية

الملحق رقم (27)

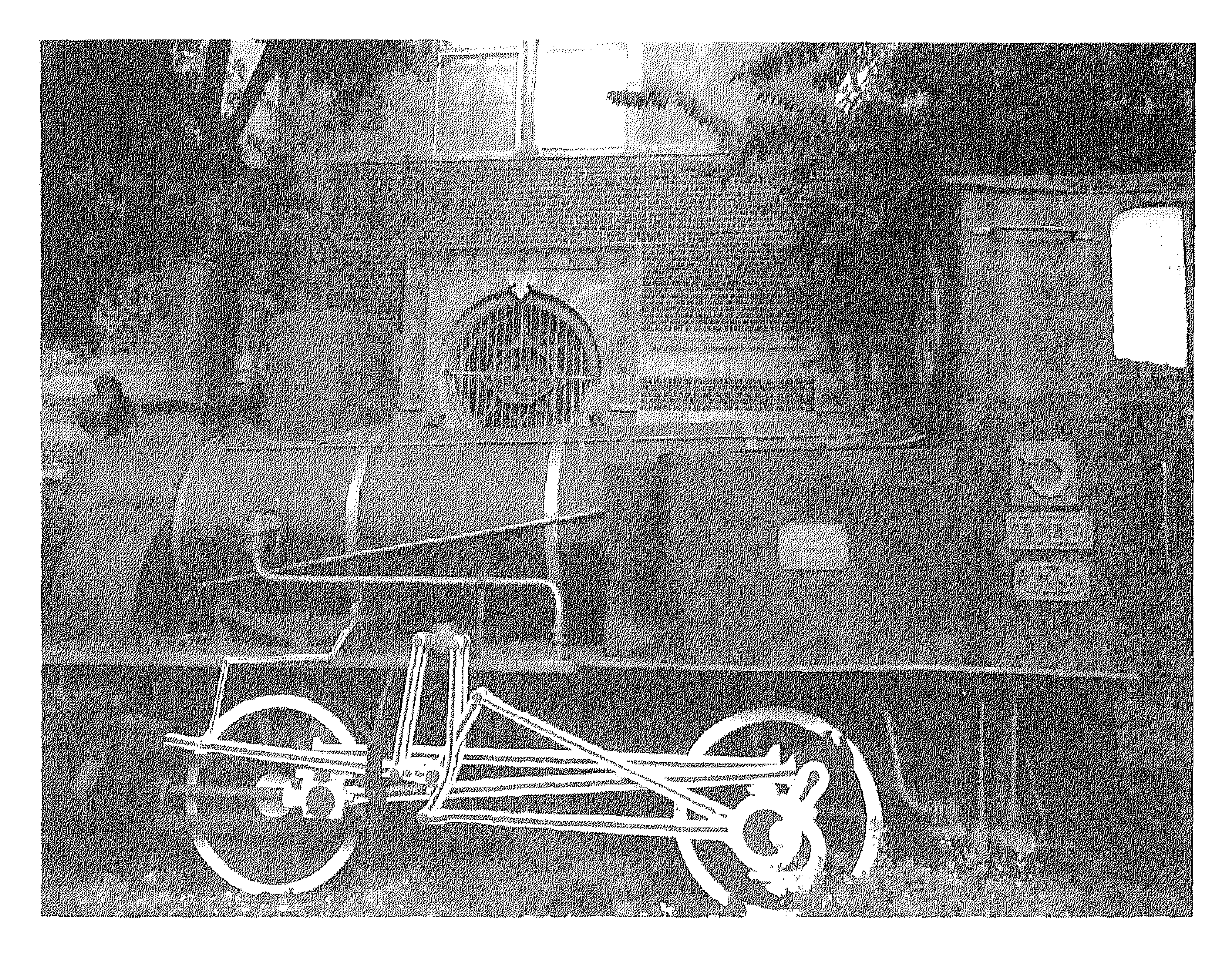
صورة ركاب لأول رحلة على خط الحجاز



المرجع: من الأرشيف العثماني

الملحق رقم (28)

عربة قطار في محطة سكرجي



المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (29)

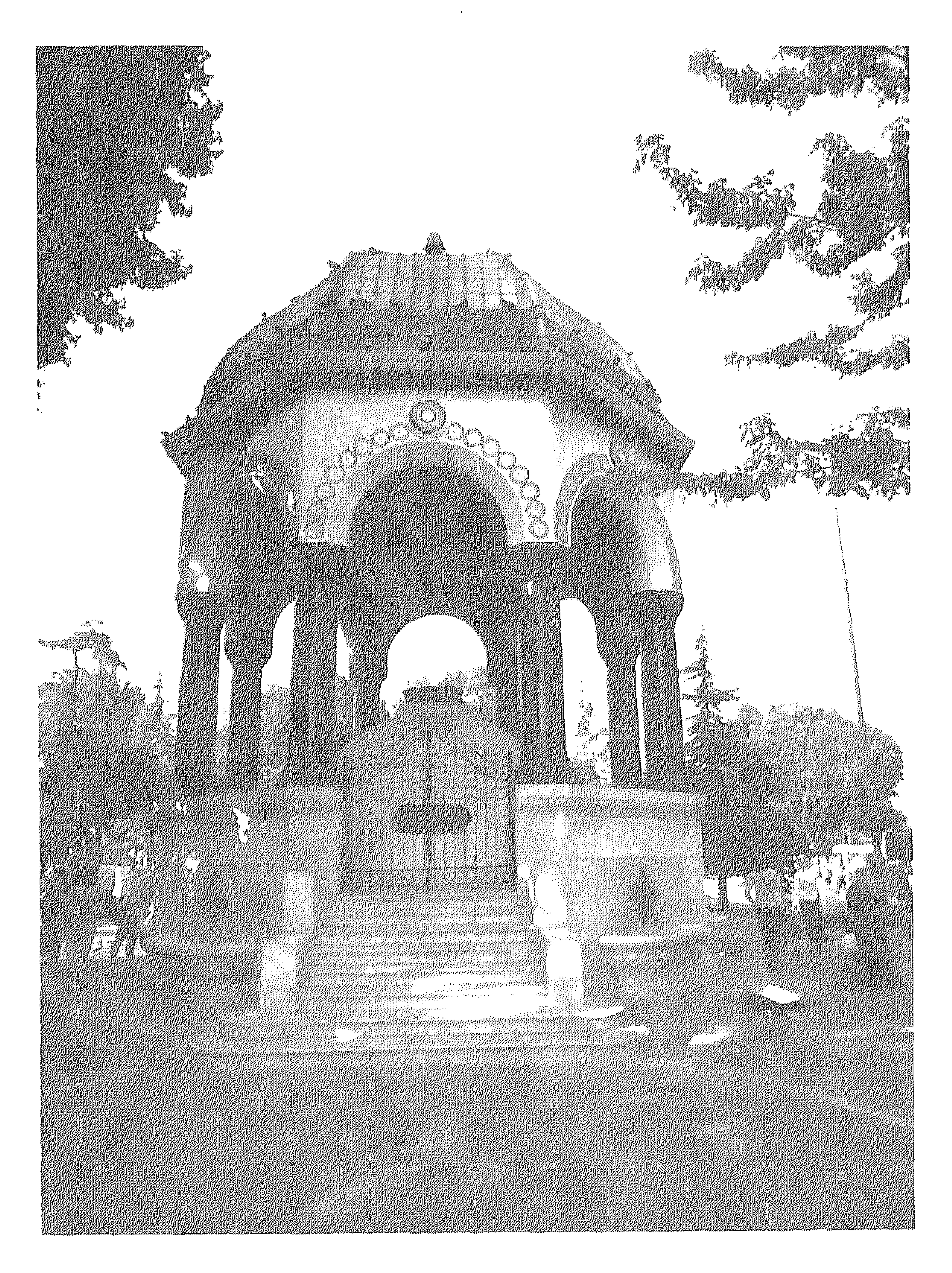
الإمبراطور الألماني غليوم الثاني في دمشق



إهداء من الأستاذ عمار البخاري

الملحق رقم (30)

نصب تذكاري بناه السلطان عبد الحميد الثاني في ساحة السلطان أحمد في استنبول تخليداً لزيارة الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية

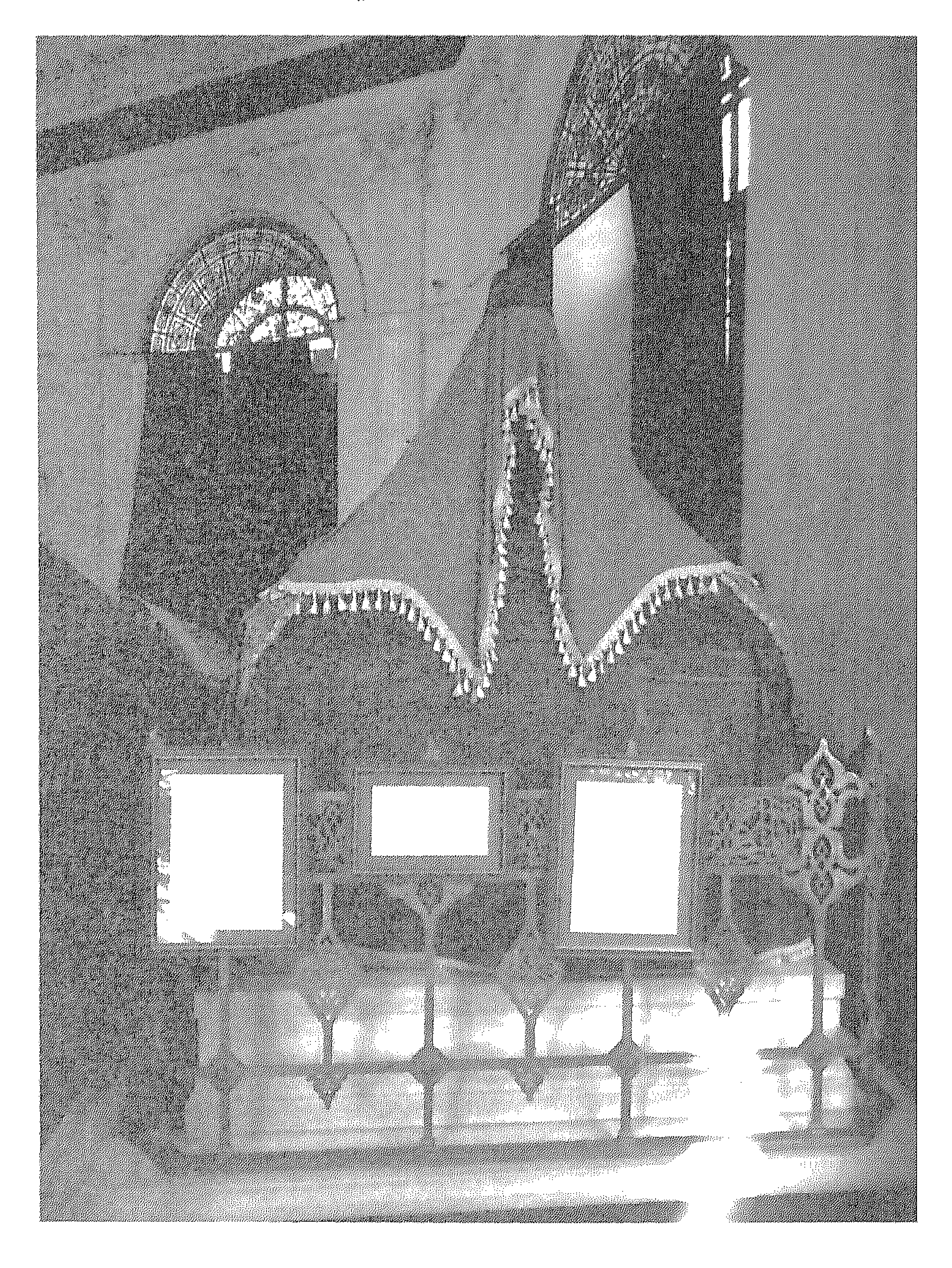


المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (31)

قبر السلطان العثماني

عبد الحميد الثاني



المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (32)

قصر ضيافة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني

بناه السلطان عبد الحميد الثاني من أجل زيارة الإمبراطور



المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (33)

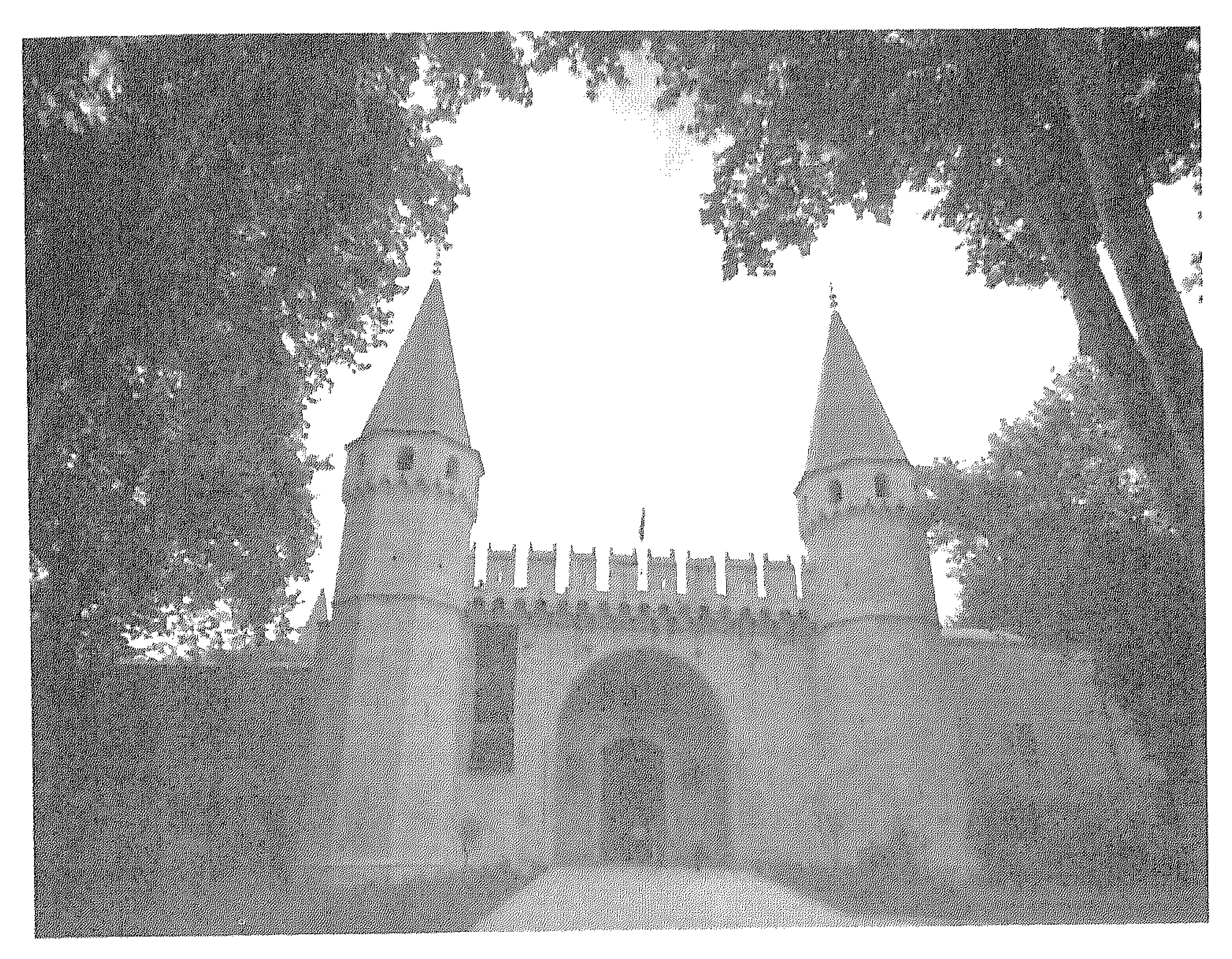
قصر الدونمه بهجة



المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (34)

قصر طوب كابه



المرجع: تصوير الباحث

الملحق رقم (35)

تذكار زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني



المرجع: تصوير الباحث

قائمة المصادر

1- الوثائق:

- وثائق الأرشيف العثماني في استانبول.
- الوثائق المحفوظة بدار الوثائق بدمشق.

2- المذكرات:

- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية، 1891-1908)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1986.
- مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ترجمة أسعد داغر ومحب الدين الخطيب، القاهرة، 1341#-1922م.
- مذكرات تيودور هرتزل، ترجمة أنيس صايغ، (يوميات هرتزل)، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1968.
- مذكرات خالد العظم، تحقيق أكرم العلبي، دمشق، 2005.
- مذكرات مدحت باشا، تعريب: يوسف كمال حتاته، مصر، ط1، 1906.

3- المصادر العربية:

1- آصف يوسف بك، سلاطين آل عثمان، ترجمة: بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق، دار البصائر، دمشق، ط3، 1985.

2- إبراهيم الأسود، الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، تقديم: خيري الذهبي، وزارة الثقافة، دمشق، 2008.

3- إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحلبية)، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1408#-1988م.

4- أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مصر، 1887.

5- تيودور هرتزل، الدولة اليهودية، ترجمة وإصدار مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1997.

6- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، 1960.

7- سليم فارس، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب، بالآستانة العلية، ط1، 1925م.

8- س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشماط، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.

9- شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، حققه حسن السماحي السويدان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2001م.

10- شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ثلاث مجلدات، القاهرة، 1933.

11- عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، دار البشير-عمان، 1991.

12- عبد العزيز، العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط2، 2002م.

13- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليّة، تحقيق: إحسان حلاق، ط9، دار النفائس، بيروت، 2003م.

14- محمد كردعلي، خطط الشام، بيروت، 6 أجزاء، 1970م

15- نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، الطبعة الأولى في باريس 1905، المؤسسة العربية للنشر، 1980.

16- نعمة الله نوفل، الدستور العثماني، المطبعة الأدبية، بيروت، 1883.

4. المراجع العربية:

1- أ.آدو بواهن، تاريخ أفريقيا العام (المجلد السابع) أفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية (1880-1935) صدر عن منظمة الأمم المتحدة، اليونسكو، 1990.

2- أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرون 1789م-1950م)، ترجمة بهاء فهمي، ود.أحمد عزت عبد الكريم، .مؤسسة سجل العرب، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، ط6، د.ت.

3- ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي - ترجمة محب الدين الخطيب، بيروت 1980.

4- أحمد حامد القضاة، نصارى القدس، مركز الوحدة للدراسات العربية، 2007.

5- أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، 5 أجزاء، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

6- أحمد سعيد البرجاوي، الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر، بيروت، 1993م، د.ط.

7- أحمد طربين. تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، ط5، 1997م.

8- أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، ط2، دمشق 1996.

9- أحمد كوندز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة والكتاب.

10- أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت 2006م.

11- إسماعيل، سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ت: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، د.ط، 1988م.

12- أكرم العلبي، خالد العظم، دمشق 2005.

13- أكمل الدين، أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)، ت: صالح سعداوي صالح، اسطنبول، 1991م، مجلدان، د.ط.

14- ألبرت حوراني وفيليب خوري وماري ويلسون، الشرق الأوسط الحديث (الجزء الثاني التحولات في المجتمع والاقتصاد 1789-1918)، ترجمة: الدكتور أسعد صقر، دار طلاس، دمشق، 1995.

15- ألكزاندر شولس، تحولت جذرية في فلسطين (1856-1882) دراسة حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، نقله عن الألمانية د.كامل جميل العسلي، عمان، 1988.

16- آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، ط1، 2003.

17- أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس، عمان، 1996م.

18- أونك غولصوي، الخط الحديدي الحجازي، استانبول، 1994.

19- برون، جفري، الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر (1815-1914م)، ت: عبلة حجاب، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك 1963م.

20- توفيق برو، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة حلب، (1411هـ - 1990م).

21- ثريا الفاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، مراجعة عامر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2008.

22- جلال يحيى، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، مصر، المكتب الجامعي الحديث، 1983م.

23- جورج أنطونيوس، اليقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1987.

24- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، 5 مجلدات، دار الثقافة بالقاهرة 1990م.

25- جون لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، قطر 1970م.

26- جيرارد دو جورج، دمشق عبر العصور، دار قتيبة، دمشق، 2007.

27- حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1999.

28- خليل أنيالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (1605، 1914) ت: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، مجلدان، بيروت، 2007.

29- خليل سركيس، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني، دار القادري، دمشق، 1997.

30- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط14، دار العلم للملايين.

31- رنوخان بيير، تاريخ العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر (1815-1914)، ترجمة: جلال يحيى، الإسكندرية، دار المعارف، د.ت.

32- روبير شنرب، تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، نقله إلى العربية يوسف داغر وفريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت.

33- روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، جزآن، ت: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993.

34- زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، جزآن، القاهرة، د.ت.

35- سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة، عبد الله إبراهيم، دار مروة، القاهرة 2008.

36- سمير عبده، اليهود السوريين، دار حسن ملص للنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2003.

37- سهام، هنداوي، تاريخ دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ط1، دار رسلان، دمشق، 2009.

38- سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1421هـ/2000م.

39- سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، دار الشروق، لبنان بيروت، ط2، (1429هـ - 2008م).

40- سيف الله آرياجي، السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، ط1، دار النيل، مصر، 1432هـ-2011م.

41- شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 2005.

42- شوقي عطا الله، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر (منذ الفتح العثماني للعالم العربي حتى الوقت الحاضر)، القاهرة، دار الثقافة، 1998.

43- شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، بيروت، 2005م.

44- عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة 3 مجلدات، 1993م.

45- عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان في فلسطين، عمان، 1986.

46- عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، عمان المصدر الملكي للدراسات الدينية 1998م.

47- عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام في القرن التاسع عشر والعشرين، دار الفرات، ط1، 2007.

48- عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية، بيروت، 1998.

49- عبد الرؤوف عيسى، التنصير الأمريكي، مكتبة مدبولي بالقاهرة، 2005م.

50- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1986، وطبعة 2005.

51- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية/1864-1914م/، دار المعارف بمصر، القاهرة، د.ط، /1969/.

52- عبد العزيز، رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثلاثة أجزاء، 1997.

53- عبد الفتاح أبو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط3، (1413هـ، 1993م).

54- عبد القادر حمود القوطاني، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ط1، 2008.

55- عبد الكافي الصطوف، وراغب العلي وطليعة الصياح، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، (1419هـ -1998م).

56- عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، دار الجيل، عمان 1987.

57- عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، ط6، /1420هـ - 1999م/.

58- عبير الشيخ، السياسة الألمانية تجاه القضية الفلسطينية وتطورها (1949-2008)، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012م.

59- عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية في بلاد الشام، دمشق 2010م.

60- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914م)، ط3، بيروت، الشركة الأهلية، 1980.

61- علي المحافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة (في فلسطين والأردن)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.

62- علي المحافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية (1841-1945)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1981.

63- علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.

64- علي شاكر باشا، القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان، القاهرة.

65- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث (1815-1919)، دار المعرفة، مصر، 2000.

66- عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني (من خلال الوثائق)، ترجمة طارق عبد الجليل، دار نشر عثمانلي، استانبول، ومكتبة النيل، مصر، 2000.

67- فاروق عثمان أباظة، آغا خان ومهمته في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى (دراسة وثائقية)، دار المعارف، د.ت.

68- فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني (رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية)، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان، بيروت، 2003.

69- فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، ترجمة: د.أحمد حيدر، الأبجدية للنشر والتوزيع، دمشق، والمركز الثقافي الألماني، معهد غوته، دمشق، ط1، 1994.

70- فيليب دوطرازي، تاريخ الصحافة العربية، 4 مجلدات، بيروت، 1913.

71- كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، د.ت، ص99.

72- كوليت خوري، أوراق فارس الخوري، مؤسسة طلاس، 1985م.

73- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو 1971.

74- لورنس أوليفانت، أرض جلعاد (رحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين 1880)، ترجمة: د.أحمد عويدي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2004.

75- ليندا شيلسر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح، ودينا الملاح، دمشق، 1998.

76- ماري سركو، تطور دمشق في عهد السلطان عبد الحميد (1293-1325#/1876-1909م)، رسالة دكتوراه - جامعة دمشق 2006.

77- متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، دار النيل، القاهرة، 2011.

78- مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، دار الصحوة للنشر، 1990.

79- مجموعة باحثين، روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، لبنان، 1998م.

80- مجموعة مؤلفين. ألمانيا والعالم العربي، تعريب: مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، 1974م، والبحث المنقول بقلم د.هانس رُويمر.

81- مجموعة مؤلفين، أوروبا من 1789م حتى أيامنا، 3 مجلدات، باريس، مكتبة العويدات، بيروت، 1995م.

82- مجموعة مؤلفين،أوروبا في القرن 15 حتى 20، القاهرة، 1950.

83-محمد الأحمد، الحضارة الأوروبية (الحديثة والمعاصرة)، جامعة دمشق، 2007-2008.

84- محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، دار صادر بيروت، د.ت.

85- محمد الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، القاهرة، 1985.

86- محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2003م.

87- محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية، المنصورة، دار اليقين، د.ت.

88- محمد الناصر النفراوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (1839-1918)، ط1، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، 2001.

89- محمد علي أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني (حياته وأحداث حياته)، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط1، (1429هـ-2008م).

90- محمد عيسى صالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) (1275-1368هـ=1858-1948م)، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت-لبنان، 2009.

91- محمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، جزآن، ط2 الهيئة العامة للكتب الإسكندرية، (1413هـ-1993م).

92- محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، 1976م.

93- محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة النهضة الجديدة، د.ت.

94- محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، دار النيربين، دمشق، الطبعة الأولى (1426هـ/2005م).

95- محمود علي عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق دار الرحاب، دمشق، ط1.

96- محمود علي عامر، قاموس اللغة العثمانية (عثمان-عربي)، دار الصفدي، دمشق، ط1، 2000.

97-مصطفى عبد الرحيم. في أصول التاريخ العثماني. ط3، دار الشروق، القاهرة، 2003.

98- ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 2004.

99- الموسوعة العربية، 25 جزء. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. 1416هـ/1996م.

100- الموسوعة الفلسطينية، بيروت 1990 بحث للدكتور عبد الكريم رافق.

101- موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ط1، الكويت 1984م.

102- ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، المكتبة البولسية، بيروت، 1999.

103- نجيب العقيقي، المستشرقون. 3 مجلدات، القاهرة، دار المعارف، 1964.

104- نزار قازان، سلاطين بني عثمان (بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م.

105- نينل ألكسندروفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1999.

106- هانس روبرت رويمير، ألمانيا والعالم العربي، ت: دكتور مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، د .ت.

107- هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية (وأثرها على البلاد العربية منذ قيام يهود الدونمه 1648م إلى نهاية القرن العشرين)، جزآن، ط1، دار القلم، دمشق، 1423هـ-2002م.

108- وليام لانجرت، موسوعة تاريخ العالم، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة العربية، 1980.

109- يسرى الحنفي، الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام، رسالة ماجستير جامعة أم القرى 1412هـ.

110- يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط2، بيروت، دار النهار، 1980م.

111- يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، عمان، 2001م.

المقالات والبحوث:

1- علي إحسان خبر: «ردود فعل حول رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إلى بلاد الشام»، بحث مقدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العهد العثماني، وزارة الثقافة سورية، دمشق، 26-30 أيلول 2002.

2- مصطفى قجار: «مطالعات حول رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إلى بلاد الشام (1898)»، بحث مقدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العصر العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، 2005.

3- كمال عبد الفتاح: «النمو الاقتصادي لفلسطين في الفترة العثمانية المتأخرة»، بحث قدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العهد العثماني، دمشق، 2005م.

4- عز الدين فوده: «الصراع الدولي حول فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور»، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد الأول، آذار، 1969م.

5- سعيد الأفغاني، «كانت الصهيونية هي خالعة السلطان مقوضة المملكة العثمانية»، مجلة العربي، 1972، العدد 169.

6- محمد موفاكو: «البكتاشية»، مجلة العربي، آذار، 1977، العدد 220.

7- هلموت مايشر Helmut Mejcher Tubingen: «Scme Aspects of the German Baghdad Railway Policy» نشرته مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في بغداد، العراق، العدد الأول، 1975.

8- أمين عبد الله محمود: «الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين المرحلة المبكرة (1881-1884)»، مجلة اليرموك، المجلد 5، العدد 3، 1983، الكويت.

9- Dr.Tufan Buzpınar: «II.Abdülamid Dönemininilk Yıllarinda Filistinda Yahudi Iskani Girişinleri (1879–1882)». Tükiye günlüğü/30/Eylül-Ekim-1999.

10- علي المحافظة: «النشاط التبشيري الألماني في فلسطين»، دراسات تاريخية، حزيران، 1980.

11- عبد العزيز محمد عوض: «فلسطين في أواخر العهد العثماني (ملامح اجتماعية واقتصادية)»، مقال مصور من مكتبة الأسام (Isam) في استانبول.

12- نوفان رجا الحلود: «كتب الرحالة الأوربيين عن فلسطين والأردن المحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات (قائمة بيبلوغرافية)».

- دراسات، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، 1986، (مصور عن مكتبة الأسام (Isam))

13- مقال بعنوان: «جلالة السلطان عبد الحميد خان» بقلم الأستاذ اللغوي فميري الرحالة المجري (1 آب 1890 الموافق 15 ذي الحجة سنة 1207)، مجلة المقتطف، الجزء (10)، 1890، القاهرة.

5ـ الدوريات:

القديمة:

1- مجلة المقتطف.

2- عصر السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة دورية، أصدرتها مكتبة الهاشمية بدمشق (العدد 15).

3- الجوائب.

4- الاعتدال.

5- المشرق.

6- الفرات.

الحديثة:

1- مجلة الأجيال.

2- مجلة دراسات تاريخية.

3- مجلة العربي.

4-. مجلة الفيصل.

5- مجلة المعرفة.

6- مجلة اليرموك.
7- مجلة المؤرخ العربي.
8- مجلات تركية أكاديمية.
9- مجلة مجمع اللغة العربية.
10- مجلة جامعة دمشق.

6ـ المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Barkar and Edward: Syria and Egypt under the last five sultans of Turkea.

2- Bein Herzela Bein: Theodor Herzel, Translated by Samuel Phialdalphia 1999.

3- Bernard Lewis: The Jews of Islam, New Jersey 1987.

4- Caesar E.farrh: abdullhamid II and the Muslim world, ISAR Foudation, Istanbul, 2008.

5- D.Mehmet Ali Beyhani: II Abdülhamid Dönemi (Turkler.12) Ankara 2002.

6- Dr.Hüseyin Özdemir: Abdülhamid, in listin cığlığ-Istanbul, 2001.

7- H.Bayram Soy, Wilheim II, Weltpolitik and Abdülhamid II, Hacettepe university, institute of social sciences, Turkey, 2009.

8- Ilber or tayli: iki dost hükümdar (Sultan II Abdülhamid-Kaiser II Wilhelm, Llisaraylar, Iastanbul: 2010, Avrupa kültür baskenti.

9- Ilber or tayli: Osmanli Imperator luğu'nda Alman Nüfuzu Bogozici Universites ikütüphanesi, Istanbul, 2003.

10- Kazim Karabekir, Tarih boyunca (Türk-Alman ilişkileri), Emre Yayinlari-cumhuriyet Tarihi serisi, (36), Cemberlitaş-Istanbul.

11- Jacob Barnai: The Jews in Palestine in the Eighteenth century the university of Alabama Prcss, 1992.

12- Kazim Karabekir, Tarih boyuncac Türk-Alman ilişkileri), Istanbul, 2001.

13- Kemal öke, II Abdülhamid-Siyonistler-ve-Filistin. Meselesi. Istanbul. 1981.

14- Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, London1968.

15- Orhan Koloğlu: Avrupa Kiskacida Abdülhamid, istanbul, 1998..

16- Roger Owen, The Middle East in the world Econmy-London, 1993.

17- Süleyman Kocabaş: Alman Kapanı (Almanyânin=nasıl sömürgesive-eyaleti yapılacaktık?) (1883–1918), Istanbul, 2005.

18- Theodore S.Hamerow: OT Tovan Bismarcka Historical Assessments. O.C.Heathand Company, Boston, 1962.

19- Theodore S.Hamerow: The Ageof Bismark, Newyork, 1973.

20- Yrd.Doc.Dr.Av. Faruk Yilmaz, imparatorluk döneminde Türk-Almaniliskileri, (Goltz Paşânin Hatıratı)-Ankara 2004.

7ـ المواقع الإلكترونية على الشابكة

- قاموس الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية، موقع إلكتروني
. st-takla.org/books/freecopticbooks.....holy didionarg

- www.al-a7rar.net.

-www.alnabanews.com.

- www.ar.wikipedia.org
- www.arab-ency.com, ncylopedia.

- www.ency.kacemb.com
- www.uaecion.net
- http//wikipedia.org.

- http;//www.discorer-syria.com/newa/735.

هذا الكتاب

تمثل الفترة موضوع البحث (1327/1293هـ1909/1870-م) فترة هامة جداً على الصعيد التاريخي لتطور علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوروبية على جميع الأصعدة، وخاصّة علاقة الدولة العثمانية بألمانية تلك القوة الاستعمارية الناشئة على الساحة الدولية.

فلقد كانت حينها الدولة العثمانية تعيش مرحلة خطيرة جداً من صراعها مع القوى الاستعمارية العظمى في تلك المرحلة، من حيث الحفاظ على كيانها ووجودها، فقد تسابقت هذه القوى فيما بينها من أجل السيطرة على أكبر قدرٍ ممكن من ممتلكات «الرجل المريض» الدولة العثمانية.

وأمام هذه التحديات وقف أحد أكثر سلاطين بني عثمان إثارة للجدل والخلاف وهو السلطان عبد الحميد الثاني (1327/1293هـ1909/1876-م) والذي اختلفت الآراء حول حقيقة مواقفه من المشكلات التي واجهت دولته في تلك المرحلة، وكيفية التصدي لها.

وبالمقابل ظهرت ألمانية كقوة سياسية جديدة منافسة على الساحة الدولية بزعامة شخصية عُرفت بالذكاء والحنكة والدهاء السياسي اتفق الجميع على تسميته «الرجل الحديدي» ألا وهو «بسمارك» والذي سعى ليجعل من دولته قوة عظمى في أوروبا والعالم، ثم جاءت شخصية ألمانيّة أكثر طموحاً وتطلعاً للتميز الألماني والتفوق في العالم وهو الإمبراطور «غليوم الثاني». ولقد كان لهذا الإمبراطور آراء سياسية مميزة دفعت بألمانيا إلى أن تتصدر الساحة الدولية في تلك الحقبة. وكانت بالفعل قوة سياسية يحسب لها حساب، والذي انتهى به الأمر إلى دفع ألمانيا إلى تكوين حلف سياسي عالمي أفضى بها إلى خوض حرب عالمية (1918-1914) خرجت منها مهزومة أمام قوى الاستعمار القديم.







